هو العليم

دورة من العلوم والمعارف الإسلامية

٦

الجزء الرابع من

نور ملكوت القرآن

من أقسام

أنوار الملكوت

تأليف سماحة العلامة الراحل

آية الله الحاج السيد محمد الحسين الحسيني الطهراني

أفاض الله علينا من بركات نفسه القدسية

تعريب:
حسن ابراهيم

دار المحجة البيضاء

بسم الله الرحمن الرحیم

هو العليم

أنوار الملكوت:

نور ملكوت القرآن

نور ملكوت المسجد

نور ملكوت الصلاة

نور ملكوت الصيام

نور ملكوت الدعاء

الفهرس

فهرس مطالب وموضوعات
نور ملكوت القرآن
الجزء الرابع

المطالب	الصفحات

البحث الثامن :

سير القرآن في آيات الآفاق ، وعظمة أخلاق القرآن

الصفحة ٣ إلى الصفحة ٦٣

يشمل المطالب التالية :

تفسير آية : سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْأَفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ	٥
جميع مراتب الحقّ للّه تعالى	٧
دعوة القرآن للتفكّر في الأشياء الخارجيّة وفي صُنع الله تعالى	٩
مضامين متباينة لآيات القرآن الكريم في أصل خلقة الإنسان	١١
كلام الطنطاويّ في تفسير الأمشاج	١٣
تصريح الآية القرآنيّة بالحركة الجوهريّة التي يقول بها صدر المتألّهين	١٧
خلق الله تعالى جميع الموجودات أزواجاً	٢١
تفسير آية : وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ	٢٣

المطالب	الصفحات
معنى «**زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ**» في: «**وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ**»	٢٥
إخبار القرآن باتّصال الكواكب السيّارة مع الكرة الأرضيّة قبل انفصالها عنها	٢٧
إخبار القرآن و«نهج البلاغة» عن فرضيّة لابلاس ونيوتن وكبلر	٢٩
كلام سماحة العلاّمة في كيفيّة انفصال الأجرام بعد أن كانت منفصلة	٣١
كلام الطنطاويّ في تفسير آية: **أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا** ...	٣٣
العلوم المادّيّة والطبيعيّة شريفة وذات فضل ما أوجبت كمال الإنسان	٣٥
تفسير العلاّمة الطباطبائيّ لآية: **وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ**	٣٩
الروايات الواردة في نصّ: أنا وأنت يا عليّ من شجرة واحدة	٤١
آيات قرآنيّة أُخرى تدعو إلى السير في الآيات الآفاقيّة	٤٣
الآيات الواردة في كيفيّة الإنفاق، وظرائف نكات الأخلاق	٤٥
كان سخاء رسول الله صلّى الله عليه وآله يفوق الحدّ	٤٧
آيات الإنفاق الأربع عشرة في سورة البقرة	٤٩
آيات سورة النحل في نِعَم الله تعالى	٥٣
مَا رَأَيْتُ شَيْئاً إلَّا وَرَأَيْتُ اللهَ مَعَهُ	٥٧
مضامين دعاء سيّد الشهداء عليه السلام الرفيعة في يوم عرفة	٥٩
عبارات دعاء عرفة تشير إلى الله تعالى في جميع الموجودات	٦١
الملكات العرفانيّة لسيّد الشهداء عليه السلام في الزيارة المطلقة	٦٣

البحث التاسع:

العربيّة وإعجاز القرآن

الصفحة ٦٧ إلى الصفحة ١٥٨

يشمل المطالب التالية:

تفسير آية الله العلاّمة لمعنى: **إِنَّا جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**	٦٩
معنى «**أُمّ الكتاب**» و«**عليّ**» و«**حكيم**» من صفات القرآن	٧١

فهرس المطالب والموضوعات

المطالب	الصفحات
كثرة الآيات القرآنيّة التي تتحدّث عن نزول القرآن بلسانٍ عربيّ	٧٣
تفسير آية الله العلاّمة لـ: نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ	٧٥
ترجمة أحوال مفسِّر الشيعة الكبير: السيِّد الرضيّ رحمه الله	٧٩
الآيات الدالّة على نزول القرآن بلسان عربيّ في سور الشورى والأحقاف وطه	٨١
مطالب عن غوستاف لوبون في عظمة الإسلام والعرب	٨٣
كلام غوستاف لوبون في عظمة القرآن ومعنى التوحيد في الإسلام	٨٥
غوستاف لوبون: التقاء المسلمين في أمرين: اللغة العربيّة والحجّ	٨٧
أمر المعصية والعقاب أحد أهم موارد الاختلاف بين المسلمين والمسيحيّين	٨٩
عقيدة النصارى في معصية البشر وفداء المسيح مخالفة صريحة للعقل	٩١
بحث غوستاف لوبون حول اللغة العربيّة	٩٣
لا توجد في جميع العالم لغة تماثل العربيّة جلالة ورفعة	٩٩
السيّد جمال الدين يُهاجم رينان لادّعائه عجز العرب في العلم والفلسفة	١٠١
غوستاف لوبون يستجوب إرنست رينان في مسألة حضارة العرب	١٠٣
الافتخار بالعِرْق والقوميّة أمر مذموم، لأنّ العرق ليس أمراً اختياريّاً	١٠٥
إحراق العرب لمكتبتَي الإسكندريّة وإيران إشاعةٌ كاذبة	١٠٧
إحياء اللغات الفارسيّة القديمة يمثِّل نكوصاً عن تعاليم القرآن	١١١
الترويج للفردوسيّ وديوانه «شاهنامه»، ترويج العداء للإسلام	١١٥
رسالة المطهّريّ إلى قائد الثورة الفقيد في تشخيص هويّة الدكتور شريعتي	١١٧
الاستعمار يصوّر الجهاد الإسلاميّ أشبه بهجوم الإسكندر والمغول	١٢١
هدف الاستعمار من الثقافة ضعضعة المستوى العلميّ للقرآن في الأذهان	١٢٣
القرآن كتاب محبّب ومقبول حتّى للكفّار	١٢٥
العصر السامانيّ هو عصر بداية دخول المفردات العربيّة في اللغة الفارسيّة	١٢٧
كلام آية الله الشعرانيّ في ضرورة حفظ الأدب القديم لقربه من اللغة العربيّة	١٢٩
ضرورة التكلّم باللغة العربيّة لجميع المسلمين	١٣٣

المطالب	الصفحات
يجب أن تكون اللغة العربيّة اللغة الأُمّ لجميع المسلمين	١٣٩
على العلماء أن يدوّنوا المطالب العلميّة باللغة العربيّة	١٤١
جنايات أتاتورك والبهلويّ على القرآن واللغة العربيّة	١٤٧
خيانة محمّد علي فروغي في عهدَي رضا خان ومحمّد رضا البهلويّ	١٥١
إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ	١٥٣
لا ينحصر إعجاز القرآن في بلاغته ، بل يعمّ جميع شؤونه	١٥٥
خطبة «نهج البلاغة» في عظمة القرآن	١٥٧

البحث العاشر :

عظمة القرآن الكريم وأصالته

الصفحة ١٦١ إلى الصفحة ٢٦١

يشمل المطالب التالية :

كلمة «**لا إله إلّا الله**» ليست مركّبة من النفي والإثبات	١٦٣
نزول القرآن من الله تعالى ؛ وإنّما يُنزله على نبيٍّ كمحمّد	١٦٥
ميزان الأعلميّة في الإسلام هو الأعلميّة في القرآن الكريم	١٦٧
تأثير القرآن في نشوء الحضارة الإسلاميّة العظيمة	١٦٩
تفوّق العلوم الإسلاميّة على علوم اليونان نابع من بركة القرآن	١٧١
الأعداد الأُوروبيّة مأخوذة من العربيّة	١٧٣
من ضرورات الإسلام أنّ ألفاظ القرآن هي ـ بعينها ـ الوحي الإلهيّ	١٧٥
لا منافاة لـ «**فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ**» مع نزول ألفاظ القرآن	١٧٧
كان جمع الآيات والسور وتسميتها في عهد رسول الله	١٧٩
دقّة المسلمين في ضبط آيات القرآن وكلماته	١٨١
وجوب طبع كتابة القرآن على ما كان عليه	١٨٣
وضع أمير المؤمنين لعلم النحو ، وتعليمه لأبي الأسود الدؤليّ	١٨٧

فهرس المطالب والموضوعات

المطالب	الصفحات
جمع القرآن الكريم في مصحف واحد قبل ارتحال الرسول الأكرم	١٩١
مطالب «الأضواء» في كيفيّة جمع القرآن زمن أبي بكر وعثمان	١٩٣
اهتمام المسلمين بأمر القرآن الكريم	١٩٧
يجب أن تكون كتابة القرآن مطابقة لموازين المتقدّمين	١٩٩
فتوى العلّامة الطباطبائيّ في تحريم طبع ملحق مع القرآن الكريم	٢٠٣
حرمة التصرّف في كلام الآخرين والتلاعب في مؤلّفاتهم وتواقيعهم	٢٠٥
كلام المرحوم المحدِّث القمّيّ في أضرار التصرّف في عبارات الآخرين	٢٠٩
كلام حكيم للعلّامة في إعجاز القرآن الكريم	٢١١
القرآن الكريم ـ دون غيره ـ قطعيّ الصدور	٢١٧
كتب اليهود والنصارى نظير كتب الأخبار والتواريخ لدينا	٢١٩
قصّة وتأريخ التوراة الفعليّة المتداولة	٢٢١
ضياع التوراة الأصليّة على يد بخت نصّر	٢٢٣
الفاصلة الزمنيّة بين أسر اليهود وإعادة كتابة التوراة قرن ونصف القرن	٢٢٥
رؤيا لبخت نصّر، وتعبير النبيّ دانيال	٢٢٧
كلام «قاموس الكتاب المقدّس» في كتابة عزرا للتوراة	٢٢٩
ليس هناك سبيل غير القرآن لإثبات وجود المسيح وإنجيله الحقيقيّ	٢٣١
الإنجيل الأصليّ غير موجود، والأناجيل الأربعة من تأليف أفراد	٢٣٣
ضعف الأناجيل الأربعة، مع انتشار المسيحيّة في العالم يثير العجب	٢٣٥
كيفيّة اتّضاح أمر إنجيل برنابا	٢٣٩
الدكتور سعادة: مؤلّف إنجيل برنابا عالِم يهوديّ أندلسيّ قد أسلم حديثاً	٢٤١
أدلّة الدكتور سعادة تخيّلات واهية، لا تستند إلى شواهد تأريخيّة قطعيّة	٢٤٣
إشكالات صاحب تفسير «المنار» على الدكتور سعادة بخصوص إنجيل برنابا	٢٤٥
كلام الكابليّ في صحّة إنجيل برنابا وكونه متداولاً قبل الإسلام	٢٤٩
كلام آية الله الشعرانيّ في عدم قطعيّة صدور الإنجيل	٢٥١

المطالب | الصفحات

كثرة المطالب الباطلة في الإنجيل ٢٥٣
ضياع التوراة والإنجيل إثر غضب الله على اليهود ٢٥٥
آية : لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ٢٥٩
كتاب «منقول رضائي» تأليفٌ نفيس لعالم يهوديّ قد أسلم حديثاً ٢٦١

البحث الحادي عشر :

في قاطعيّة القرآن الكريم وشموله

الصفحة ٢٦٥ إلى الصفحة ٣٣٠

يشمل المطالب التالية :

القرآن الكريم يذكر مطالبه بقاطعيّة وحزم ٢٦٧
من معجزات القرآن الكريم إخباره القاطع بالحوادث الآتية ٢٦٩
تفسير آية : الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِى أَدْنَى ٱلْأَرْضِ ٢٧١
تكذيب المشركين لخبر غلبة الروم على إيران ٢٧٧
حروب كسرى أبرويز مع هرقل إمبراطور الروم ٢٧٩
إنجاز الوعد الإلهيّ بغلبة الروم في بضع سنين ٢٨١
آيات القرآن الكريم القاطعة في الإخبار بالغيب ٢٨٣
كلام المؤرّخين الأجانب في إيمان نبيّ الإسلام بما كان يقوله ٢٨٧
صبر رسول الله على الأذى واحتماله لتكذيب الكفّار واستهزائهم ٢٨٩
أذى أهل الطائف لرسول الله ٢٩١
استماع الجنّ لآيات القرآن عند عودة رسول الله من الطائف ٢٩٣
النبيّ يبلّغ دعوته في الطائف بقاطعيّة وحزم مع كونه وحيداً فريداً ٢٩٥
الخُلُق العظيم للنبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم ٢٩٧
أبيات البوصيريّ في عظمة الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله ٣٠١
معنى الحقّ ومشتقّاته في القرآن الكريم ٣٠٣

المطالب	الصفحات
تفسير آية : أُولَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ	٣٠٥
معنى الضلال في القرآن الكريم	٣٠٩
الأدب الخاصّ في تعبيرات الآيات القرآنيّة	٣١١
القرآن يعدّ السبّ والشتم غير جائزَينِ إلاّ للظالمين	٣١٥
حُجِّيَّة السُّنَّة في قوّة حُجِّيَّة القرآن	٣١٧
القرآن والسُّنَّة يعتبران اللهَ العلّة الفاعلة	٣١٩
القرآن والسُّنَّة كجناحَي الطائر ، يدعم أحدهما الآخر	٣٢١
بيان أمير المؤمنين عليه السلام في لزوم التمسّك بالقرآن الكريم	٣٢٣
دعاء «الصحيفة السجّاديّة» في لزوم التمسّك بالقرآن	٣٢٥
لا تغتمّ أبداً مادام وِردك الدعاء ودرسك القرآن	٣٢٧

البحث الثاني عشر :

شمول القرآن الكريم وكونه غير قابل للتغيير

الصفحة ٣٣٣ إلى الصفحة ٤١٩

يشمل المطالب التالية :

طريق ثبوت القرآن منحصر بالتواتر	٣٣٥
جمع القرآن في زمن عثمان بإشراف زيد بن ثابت	٣٣٧
تدوين القرآن في عصر أبي بكر وفي عصر عثمان	٣٣٩
امتناع ابن مسعود من تسليم مصحفه إلى عثمان لإحراقه	٣٤١
أمير المؤمنين يحمل مصحفه على بعير ويأتي به إلى المسجد	٣٤٥
مصحف عثمان كان مورد إمضاء الأئمّة ، وهو كمصحف عليّ مقداراً	٣٤٧
عدم جواز قراءة القرآن بقراءةٍ غير متواترة	٣٤٩
القرآن الذي يُقرأ اليوم بقراءة عاصم هو قراءة أمير المؤمنين عليه السلام	٣٥١
القراءات السبع المتواترة	٣٥٣

المطالب	الصفحات
القراءات المتواترة ، والآحاد ، والشاذّة	٣٥٥
روايات : إنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ بِحَرْفٍ وَاحِدٍ عَلَى نَبِيٍّ وَاحِدٍ	٣٥٧
إنكار صاحب «الجواهر» وآية الله الخوئيّ تواتر القراءات السبع	٣٥٩
كلام العلّامة في استناد القراءات إلى السماع والرواية	٣٦٣
أدلّة تواتر القراءات ، ودليل قراءة القرّاء	٣٦٥
شواهد وأدلّة انحصار طريق القراءة في السماع والرواية	٣٦٧
مواصفات قراءة عاصم في النقل والسماع	٣٦٩
التواتر في القرّاء السبعة متحقّق في كِلا الجانبين	٣٧٥
اتّفاق علماء الشيعة والعامّة على تواتر القرآن	٣٧٩
ذكر بعض الإشكالات الواردة على أمر تواتر القرآن ، والإجابة عليها	٣٨١
المراد من الأحرف السبعة ليس القراءات السبع	٣٨٣
رفض مقولة : نزل القرآن على سبعة أحرف	٣٨٧
في حديث : اقْرَأْ الْقُرْآنَ كَمَا يَقْرَأُ النَّاسُ	٣٨٩
الروايات المتضافرة للشيعة والعامّة في أنّ البسملة جزء من السورة	٣٩٣
المعوّذتان سورتان من القرآن	٣٩٥
المختارة : «مَلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ» ، لا : «مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ»	٣٩٧
قراءة أكثر القرّاء بـ «مَلِكِ» ، وهي الأنسب والأعمّ	٣٩٩
خطبة «نهج البلاغة» في نزول القرآن ، وبيان الخير والشرّ	٤٠٣
فقرات من دعاء ختم القرآن في «الصحيفة السجّاديّة»	٤٠٥
أُم ورقة ابنة عبد الله بن الحارث كانت جامعة للقرآن وشهيدة	٤٠٧
حالات السيّدة نفيسة ، وتلاوتها للقرآن	٤٠٩
كيفيّة وفاة السيّدة نفيسة ، وعشقها عند الاحتضار	٤١١
القصائد التي أنشدت في السيّدة نفيسة	٤١٣
الحسن بن زيد بن الحسن ، وأبوه زيد بن الحسن ، من المرفوضين	٤١٥

فهرس المطالب والموضوعات

المطالب	الصفحات
القرآن هُدىً من الضَّلالَة	٤١٧

المبحث الثامن

سيرُ القرآنِ في آياتِ الآفاقِ، وعظمةُ أخلاقِ القرآنِ

وتفسير آية:

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا

أعُوذُ بِاللَهِ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجِيمِ

بِسْــمِ اللَهِ الـرَّحْمَنِ الـرَّحِيم

وصلَّى اللَهُ عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ وآلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ

ولَعْنَةُ اللَهِ عَلَى أعْدَائِهِمْ أجْمَعِينَ مِنَ الآنَ إلَى قِيامِ يَوْمِ الدِّينِ

ولَا حَولَ ولَا قُوَّةَ إلَّا بِاللَهِ العَلِيِّ العَظِيمِ

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا. [1]

قال سماحة الأُستاذ العلّامة قدّس الله سرّه في تفسيره لهذه الآية الكريمة المباركة :

«قال الراغب الإصفهانيّ في «المفردات» : الصَّرْف ردّ الشيء من حالةٍ إلى حالة ، أو إبداله بغيره . قال : والتصريف كالصرف إلّا في التكثير ، وأكثر ما يُقال في صرف الشيء من حالةٍ إلى حالة ، ومن أمرٍ إلى أمر . وتصريف الرياح هو صرفها من حالٍ إلى حال .

قال تعالى : «**وَصَرَّفْنَا ٱلْأَيَـٰتِ**» ، [2] «**وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ**» ، [3] ومنه تصريف الكلام وتصريف الدراهم ـ انتهى .

١ـ الآية ٤١ ، من السورة ١٧ : الإسراء .

٢ـ مقطع من الآية ٢٧ ، من السورة ٤٦ : الأحقاف .

٣ـ مقطع من الآية ١١٣ ، من السورة ٢٠ : طه .

فقوله **وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا** معناه بشهادة السياق : وأُقسم لقد رددنا الكلام معهم في أمر التوحيد ونفي الشريك من وجهٍ إلى وجه ، وحوّلناه من لحنٍ إلى لحن في هذا القرآن ، فأوردناه بمختلف العبارات وبيّناه بأقسام البيانات ليتذكّروا ويتبيّن لهم الحقّ .

وقوله **وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا** ، أي : ما يزيدهم التصريف إلّا انزعاجاً ، كلّما استؤنف جيء ببيان جديد أورثهم نفرة جديدة» .[1]

وقد استفاد الكتاب السماويّ الإلهيّ ـ القرآن الكريم ـ من نوعين من الآيات من أجل إجلاء الحقّ ؛ أوّلهما الآيات الآفاقيّة ، وثانيهما الآيات الأنفسيّة .

سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْأَفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ * أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌ .[2]

وتلوح في هذه الآيات عدّة نكات مهمّة :

الأُولى : إنّ الآيات الإلهيّة التي تمثّل سبيل الوصول إلى ذات الله القدسيّة لا تتعدّى هذين النوعين من الآيات ، أي الآيات الآفاقيّة والآيات الأنفسيّة .

الثانية : على الرغم من كون الضمير في **أَنَّهُ ٱلْحَقُّ** للمفرد المذكّر ، إلّا أنّه يفتقد المرجع الذي يعود إليه ؛ وذلك لعدم ورود ألفاظ **الله** ، **الربّ** وأمثالهما ممّا يمكن أن يعود إليه الضمير . ومن الضروريّ في هذا المجال أن يكون الضمير عائداً إلى معنىً تنطوي عليه كلمة آيات ، وله عنوان

١ـ «الميزان في تفسير القرآن» ج ١٣ ، ص ١١٠ و ١١١ .

٢ـ الآيتان ٥٣ و ٥٤ ، من السورة ٤١ : فصّلت .

الوحدة . وليس ذلك المعنى إلّا ذو الآية . (لأن شدّة ارتباط الآية بذي الآية من القوّة بحيث إنّ نفس الآيات تبدو في انطباقها على ذات الحقّ القدسيّة ، كأنّها الحقّ بذاته) . والآيات الآفاقيّة والأنفسيّة بكثرتها متّحدة في هذه الدلالة والإظهار ، وهي بأجمعها حقّ ؛ وليس الحقّ شيئاً سواها .

الثالثة : جاءت جملة : **أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ** لتأكيد المطلب الأوّل ، وهو تجلّي الحقّ في جميع الموجودات الآفاقيّة والأنفسيّة ، وأنّ كلّ ظهور هو عين المُظْهِر .

ومن هنا فإنّ الآية تبيّن أنّ أعين الناس الرمداء المريضة تشكّ في رؤية الحقّ ولقائه ، مع أنّها تراه في جميع الموجودات بلا استثناء . وأنّ تلك الأعين أينما توجّهت وإلى أيّ شيء تطلّعت ، لما رأت في البحر العظيم المترامي لعالَم الإمكان شيئاً متجلّياً غير الحقّ المحيط بكلّ شيء ، والحاضر الناظر الشهيد في كلّ مكان ، إلّا أنّ هؤلاء الناس ـ ويا للأسف ـ مبتلون بالكثرة ، ومجانين بالاعتباريّات والتقاليد ، ومُمتحنون بالأوهام ، فهم في شكٍّ وريب من لقاء جمال الحقّ في كلّ آية من آيات الآفاق والأنفس ، وهم يرونه في كلّ لحظة ويُنكرونه ، ويسمعون حديثه كلّ آن ويُنكرونه . فما شيءٌ أشدّ من أمرهم غرابةً وإثارةً للعجب !

يار نزديكتر از من به من است وين عجبتر كه من از وى دورم
چكنم با كه توان گفت كه دوست در ميانِ من و من مهجورم[1]

قال مولى الموحّدين أمير المؤمنين عليه أفضل صلوات الله المَلِك المتعال :

١ـ يقول : «الحبيب أقرب إليّ من نفسي ، وأعجب من ذلك أنّي عنه بعيد. فما العمل والحيلة ؟ مع أنّه يُمكن القول إنّ الحبيب في كياني وأنا مُبعد مهجور».

العَارِفُ مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَأعْتَقَهَا وَنَزَّهَهَا عَنْ كُلِّ مَا يُبَعِّدُهَا. [١]

سعدى حجاب نيست ، تو آئينه پاكدار
زنگار خورده ، چون بنمايد جمال دوست؟[٢]

وما أبدع وأروع هذه الحقيقة التي نقلها القاضي نور الله الشوشتريّ عن بعض العرفاء والموحّدين :

يَا جَلِيَّ الظُّهُورِ وَالإِشْرَاقْ كيست جز تو در أنفس وآفاق ؟[٣]
لَيْسَ فِي الكَائِنَاتِ غَيْرَكَ شَيْءْ **أَنْتَ شَمْسُ الضُّحَى وَغَيْرُكَ فَيْءْ**
دو جهان سايه است و نور توئى سايه را مايهٔ ظهور توئى
حرف ما و من از دلم بتراش محو كن غير را و جمله تو باش
خود چه غير و كدام غير اينجا ؟ هم ز تو سوى تست سير اينجا
در بدايت زتست سير رجال وز نهايت بو سوى تست آمال[٤]

اللَهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ وَإِلَيْكَ يَرْجِعُ السَّلَامُ. [٥]

وقد استنتج سماحة الأُستاذ قدّس الله نفسه بإشارةٍ عابرة استنتاجاً عميقاً ودقيقاً من إحدى الآيات القرآنيّة ، وينبغي حقّاً الانحناء تبجيلاً لسعة

١ـ «شرح الغرر والدرر» ج ٢ ، ص ٤٨ ، طبعة دانشگاه (= الجامعة).

٢ـ يقول : «ليس هناك مِن حجاب يا «سعدي» ، فاجْلِ المرآة ؛ إذ أنّى للمرآة الصَّدِئة أن تُظهر جمال الحبيب؟».

٣ـ يقول في العجز : «مَن سواك في الأنفس والآفاق؟» .

٤ـ يقول في البيت الثالث وما بعده : «أنت النور ، وكلا العالمين ظلّ ؛ والظلّ معدنٌ لظهورك.

فاقلعْ من قلبي لفظ «نحن» و«أنا» ، وأمحُ ما سواك وكُن وحدك في القلب.
ومَن هو الغير يا ترى ؟ ومَن سواك في القلب ؟ إذ السير هنا منك وإليك.
في البدء كان منك سيْر الرجال ، وفي النهاية إليك تنزع الآمال».

٥ـ «مجالس المؤمنين» ص ٢٨٤ ، المجلس السادس ، الطبعة الحجريّة .

نفسه وإدراكه البديع وذكائه العجيب في فهم دقائق الآيات القرآنية ؛ فقد قال في شأن الآية المباركة : **ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ**.[1]

«وهذا ، أعني قوله : **ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ** من أبدع البيانات القرآنيّة ، حيث قيّد الحقّ بـ «**مِن**» الدالّة على الابتداء دون غيره بأن يقال **الْحَقُّ مَعَ رَبِّكَ** ، لما فيه من شائبة الشرك ونسبة العجز إليه تعالى بحسب الحقيقة .

وذلك أنّ هذه الأقاويل الحقّة والقضايا النفس الأمريّة الثابتة كائنة ما كانت ، وإن كانت ضروريّة غير ممكنة التغيّر عمّا هي عليه ، كقولنا : الأربعة زوج ، والواحد نصف الاثنين ، ونحو ذلك ؛ إلّا أنّ الإنسان إنّما يقتنصها من الخارج الواقع في الوجود ، والوجود كلّه منه تعالى ، فالحقّ كلّه منه تعالى كما أنّ الخير كلّه منه . ولذلك كان تعالى **لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ**،[2] فإنّ فعل غيره إنّما يصاحب الحقّ إذا كان حقّاً ، وأمّا فعله تعالى فهو الوجود الذي ليس الحقّ إلّا صورته العلميّة» ـ انتهى .[3]

أمّا وقد علمنا أنّ منطق القرآن الكريم هو حقّيّة الوجود الخارجيّ وواقعيّته ، وأنّه بوحدته وبساطته وأبديّته وعدم تناهيه هو عين الحقّ ، وأنّ جميع الآيات ـ الآفاقيّة أو الأنفسيّة ـ هي مظاهر للحقّ ، وأنّ كلّاً من تلك الآيات تظهر تلك الحقيقة في حدود سعتها ؛ فقد حان الوقت كي نعلم أيّ الآيات القرآنيّة تتحدّث عن هذه الآيات الآفاقيّة والأنفسيّة .

وتعني الآيات الآفاقيّة الموجودات الخارجيّة والأشياء الموجودة خارج ذات الإنسان ؛ أمّا الآيات الأنفسيّة فتعني مظاهر النفس وظهوراتها ،

١ـ الآية ٦٠ ، من السورة ٣ : آل عمران .

٢ـ الآية ٢٣ ، من السورة ٢١ : الأنبياء .

٣ـ «الميزان في تفسير القرآن» ج ٣ ، ص ٢٣٢ و ٢٣٣ .

والصفات والملَكات والأخلاق والأعمال المتعلّقة بالنفس الإنسانيّة ، والواقعة في مقابل الآيات الآفاقيّة .

والتفكّر في الآيات الآفاقيّة يتمثّل في طريقة المشاهدة والتجربة والالتفات إلى الطبيعة وإقامة الاستدلالات النظريّة والفكريّة على المحسوسات والأشياء الخارجيّة ، الأمر الذي يُتعارف عليه في المناهج المعاصرة ، والذي يعدّ مؤسّسوه من أمثال **بيكون وكانت وديكارت** هم الذين دفعوا عجلة التحقيق والعلوم البشريّة قُدماً في طريق التجربة والمشاهدة .

بَيدَ أنّ الحقيقة هي أنّ القرآن الكريم هو حامل لواء هذا الفتح والمتقدّم في هذا المجال حين دعا الإنسان قبل أربعة عشر قرناً من خلال الكثير من الآيات القرآنيّة إلى التفكّر في الأُمور الخارجيّة ، كتعاقب الليل والنهار واختلاف مقدارهما ، وحركة الأرض والسماء ، ونموّ الأشجار والثمار والنباتات التي تُسقى بماءٍ واحد ، وكون جميع الأُمور الطبيعيّة والمادّيّة مخلوقة من ذكرٍ وأُنثى ، وحين دعاه إلى النظر في هبوب الرياح وحركة الغيوم ، وهطول الأمطار والثلوج ، ونشوء الصاعقة والرعد والبرق ، واختلاف شكل القمر في الليالي المختلفة ، وتكوّن الجنين وتكامله إلى هيئة إنسان كامل ذي روح ، واختلاف الجبال ، وسير السفن الشراعيّة في المياه ، وطيران الطيور التي تخفق بأجنحتها أو تنشرها خلال طيرانها ، واختلاف المياه في الطَّعم ، وخلقة النساء اللاتي يسكن إليهن الرجال ، وندب الإنسان إلى البحث في النوم واليقظة ، وفي الموت والحياة ، وإلى كثير من المسائل الأُخرى التي تشكّل القسم الأعظم من القرآن الكريم .

بيد أنّ العلماء المعاصرين يصرفون أنظارهم واهتمامهم إلى الجوانب المادّيّة والطبيعيّة والعلائق الحسّيّة لتلك الأُمور ؛ أمّا القرآن فهو أسمى من

ذلك وأعلى ، إذ يأمر بمشاهدة هـذه الأُمـور ومـلاحظتها بـلحاظ ارتـباطها المحض بالخالق العليم الحكيم القادر المتعال ، ويعرّف جميع المـوجودات الكثيرة بأنّها مرايا مختلفة لجمال الواحد الحيّ الأزليّ الأبديّ ، ويعتبر نـور أحديّته تعالى شاملاً لجميع شبكات عالم الإمكان .

ولذلك فإنّنا نشاهد أنّ هذا الأُسلوب من التـفكير القـرآنـيّ قـد ربّـى علماء ومفكّرين موحّدين مؤمنين نبغوا في الأُمـور التـجريبيّة والطـبيعيّة ، فحفظوا البشر طوال القرون المتمادية في ظلّ هدوء البال وسكون الخـاطر وتأمين العدل الاجتماعيّ والتمتّع بجميع المواهب الإلهيّة .

أمّا الأجانب الذين ادّعوا أنّهم أرأف بالابن مـن أُمّـه الحـنون ، فـقد افتقدوا مثل هذه النظرة الإلهيّة ، وقطعوا الارتباط بين الحقائق والعـلوم مـع خالقها ، فأحالوا الدنيا جهنّماً لا تُطاق ، وساقوا البشريّة في خُطىً حثيثة إلى هذه النار العاجلة .

نُقل عن **غاندي** أنّه قال ما مضمونه :

«لقد عرف الأُوروبّيّون الدنيا ، ولم يعرفوا أنفسهم ، لذا فقد أفسدوا أنفسهم وأفسدوا الدنيا معها».[١]

١ـ نـقل مـؤلّف كـتاب «ارتـباط إنسـان و جـهان» (= عـلاقة الإنسـان بـالعالم) ج ٣، ص ١٠٠ ، عن سقراط الحكيم ما يشبه هذه القول ، ثم قال : «وكان سقراط الذي ولد سنة ٤٧٠ قبل ميلاد المسيح من رؤساء الفلاسفة المتألّهين القدماء ، وكان أعظم فيلسوف جعل البحث في النفس الإنسانيّة في المرحلة الأُولى من مراحل الفكر والفلسفة . وكانت آخر كلماته في تعليم تلامذته بعد تناوله السمّ : **أعرفْ نفسك لتعرف كلّ الطبيعة وماوراء الطبيعة!**

ويقول مؤلّف كتاب «راه سعادت» (= طريق السعادة) ص ٦٣ : «يقول سقراط : لا تتعب نفسك عبثاً في معرفة الموجودات الجامدة التي لا روح لها ؛ بل اعرف نفسك ، لأنّ معرفة النفس الإنسانيّة هي أعلى من معرفة أسرار الطبيعة».

وقد وردت في القرآن الكريم آيات ذات مضامين مختلفة تحدّثت عن أصل خلقة الإنسان ، منها :

١ ـ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ.[١]

٢ ـ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا.[٢]

٣ ـ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ .[٣]

٤ ـ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ .[٤]

٥ ـ إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ.[٥]

٦ ـ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ.[٦]

٧ ـ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ.[٧]

٨ ـ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ .[٨]

٩ ـ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ .[٩]

١٠ ـ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ * ثُمَّ

١ـ صدر الآية ٢ ، من السورة ٦ : الأنعام .

٢ـ صدر الآية ٥٤ ، من السورة ٢٥ : الفرقان .

٣ـ الآية ٢٨ ، من السورة ١٥ : الحجر .

٤ـ الآية ١٤ ، من السورة ٥٥ : الرحمن .

٥ـ ذيل الآية ١١ ، من السورة ٣٧ : الصافّات .

٦ـ صدر الآية ٥٩ ، من السورة ٣ : آل عمران .

٧ـ صدر الآية ١١ ، من السورة ٣٥ : فاطر .

٨ـ الآيتان ٥ و٦ ، من السورة ٨٦ : الطارق .

٩ـ الآيتان ٣٦ و٣٧ ، من السورة ٧٥ : القيامة.

جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ.[1]

١١ـ **خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ.**[2]

١٢ـ **خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ.**[3]

١٣ـ **ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً.**[4]

١٤ـ **خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ.**[5]

١٥ـ **إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ.**[6]

١٦ـ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ.**[7]

وتشكّل هذه التعبيرات ستّة عشر تعبيراً استنتجناه من القرآن الكريم فيما يتعلّق بأصل خلقة الإنسان، سواء من الجانب المادّيّ أو الأخلاقيّ، وهي عبارة عن:

مَآء، مَآءٍ مَّهِين، مَآءٍ دَافِقٍ، تُرَاب، طِين، طِينٍ لَّازِب، سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ، صَلْصَـٰلٍ كَالْفَخَّارِ، صَلْصَـٰلٍ مِّن حَمَإٍ مَّسْنُونٍ، نُطْفَة، مَنِيٍّ يُمْنَىٰ، نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ، عَلَق، عَجَل، ضَعْف، نَفْسٍ وَٰحِدَةٍ.

وقد بحثنا في هذه الآيات في الجزء الثاني من هذا الكتاب «نور ملكوت القرآن» في القسم المتعلّق بعظمة القرآن، وسنبحث في الآيتين

١ـ الآيتان ٧ و٨، من السورة ٣٢: السجدة.

٢ـ الآية ٢، من السورة ٩٦: العلق.

٣ـ الآية ٣٧، من السورة ٢١: الأنبياء.

٤ـ صدر الآية ٥٤، من السورة ٣٠: الروم.

٥ـ صدر الآية ٦، من السورة ٣٩: الزمر.

٦ـ صدر الآية ٢، من السورة ٧٦: الإنسان.

٧ـ الآية ١٢، من السورة ٢٣: المؤمنون.

الأخيرتين **نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ** ، و**سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ** إلى قوله : **ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ** ، بحثاً إجماليّاً لإثبات إعجاز القرآن ونظرته في دعوة البشريّة إلى التفكّر في الخلقة وهيكل الوجود والآيات الآفاقيّة .

أمّا فيما يتعلّق بالآية الأُولى : **إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا**»؛[1] فقد قال سماحة أُستاذنا المكرّم في التفسير :

«النطفة في الأصل بمعنى الماء القليل ، غلب استعماله في ماء الذكور من الحيوان الذي يتكوّن منه مثله .

وأمشاج جمع **مشيج** أو **المَشَج** بفتحتين أو بفتحٍ فكسر ، بمعنى المختلط الممتزج . ووصفت بها النطفة باعتبار أجزائها المختلفة أو اختلاط ماء الذكور والإناث .

والابتلاء نقل الشيء من حالٍ إلى حال ، ومن طورٍ إلى طور ،كابتلاء الذهب في البوتقة ، وابتلاؤه تعالى الإنسانَ في خلقه من النطفة هو ما ذكره في مواضع من كلامه أنّه يخلق النطفة فيجعلها عَلَقة ، والعلقة مُضغة إلى آخر الأطوار التي تتعاقبها حتّى ينشئه خلقاً آخر .

وقيل : المراد بابتلائه امتحانه بالتكليف ، ويدفعه تفريع قوله : **فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا** على الابتلاء ؛ ولو كان المراد به التكليف ،كان من الواجب تفريعه على جعله سميعاً بصيراً لا بالعكس . والجواب عنه بأنّ في الكلام تقديماً وتأخيراً ، والتقدير : **إِنَّا خَلَقْنَا الإنسانَ مِن نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا لِنَبْتَلِيَهُ** ، لا يُصغى إليه» .[2]

١ـ الآية ٢ ، من السورة ٧٦ : الإنسان .

٢ـ «الميزان في تفسير القرآن» ج ٢٠ ، ص ٢٠٩ و ٢١٠ .

وعلينا أن نرى ممّ يحصل اختلاط النطفة ؟ ذلك أنّنا نعلم أنّ نطفة الرجل تتكوّن من خلايا مجهريّة تدعى كلّ منها «اسبرماتوزوئيد» ، وهي من الصغر المتناهي بحيث إنّ قطرة واحدة من النطفة تحوي عدّة ملايين من تلك الخلايا الخالية من التركيب . كما نعلم بأن نطفة المرأة تضم خليّة مجهريّة تدعى «أُوفل» ، وأنّ الإنسان يوجد نتيجة لقاح حاصل بين «أسبرم» واحد مع بويضة «أوفل» واحدة .

وقال **الطنطاويّ** في تفسيره بأنّ المراد بالأمشاج في هذه الآية الموادّ العشر المحسوبة من أُصول التغذية .

ويقول : «**فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا**» ليتمكّن من مشاهدة الدلائل واستماع الآيات والتعقّل والتفكّر ، ذلك أنّنا خلقناه من النطفة ، وهي تكون في الرجل وتكون في المرأة ، فهاتان النطفتان باتّحادهما يتكوّن الجنين . ومن أين هاتان النطفتان ؟ هاتان النطفتان مخلوقتان من عناصر مختلفة ، وتلك العناصر آتية من النبات والحيوان الداخلين في طعام الآباء والأُمّهات ، ومن الماء الذي يشربونه ، والأملاح التي يتعاطونها ، وجميع الموادّ التي دخلت في أُصول التغذية من الطعام والشراب عشرة ، وهي :

الأُوكسجين والهيدروجين والكربون والأوزوت والكبريت والفسفور والبوتاسيوم والمغنيسيوم والكالسيوم والحديد . فهذه هي العشرة التي تدخل في كلّ نبات ، ومن بابٍ أولى في كلّ حيوان ، لأنّها طعامه ، وفي كلّ إنسان . فالنطفة إذاً مكوّنة من هذه الأمشاج العشرة ، فهي أخلاط كوّنت ومُزجت وصارت دماً فنطفة فعلقة ... إلى آخره .[1]

ويقول : اللطيفة الأُولى في قوله تعالى «إنّا خلقنا الإنسَـٰن من نطفة

١ـ «الجواهر في تفسير القرآن الكريم» للشيخ الطنطاويّ الجوهريّ ، ج ٢٤ ، ص ٣٢٠.

أمشاج نبتليه فجعلنه سميعاً بصيراً» يقول الله : إنّ الإنسان مخلوق من نطفة ، والنطفة مكوّنة من أمشاج ، وما الأمشاج في الإنسان إلّا الأُوكسجين والهيدروجين والكربون والأوزوت والكبريت والفوسفور والبوتاسيوم والمغنيسيوم والكالسيوم والحديد .

فهذه هي الأمشاج والأخلاط التي كُوِّن منها الإنسان ، والإنسان يتولّد فيه النطفة ، والنطفة يتكوّن منها إنسان جديد ، فهذا الإنسان مبدؤه من الحديد والفسفور والكبريت ... إلى آخره» .[1]

بَيدَ أنّ كلام الطنطاويّ لا يستند إلى دليل ، مضافاً إلى أنّ لفظة أمشاج قد وردت في الآية المذكورة صفةً لـ«نطفة» ، لا أن تكون الأمشاج هي أصل النطفة ومنشأ تكوّنها .

واحتمل البعض أن يكون **الكروموسوم** هو عامل الوراثة والشخصيّة ،[2] أي أنّ مركز شخصيّة الإنسان ومحلّ تجمّع صفاته هي هذه الألياف الخاصّة المعدودة التي يبلغ عددها في الإنسان ستّة وأربعين كروموسوماً ، وهي موجودة بهذا العدد في كلّ خليّة من خلايا البدن ، عدا البويضة والسبيرم ، حيث يبلغ عددها فيهما ثلاثة وعشرين كروموسوماً ،

١ـ «الجواهر في تفسير القرآن الكريم» للشيخ الطنطاويّ الجوهريّ ، ج ٢٤ ، ص ٣٢٣ و ٣٢٤.

٢ـ يقول مؤلّف «لغت نامهٔ دهخدا» (= المعجم اللغويّ دهخدا) في كتابه: «الكروموسومات (chromosomes) قطعات منظّمة داخل نواة الخلايا . وتنقسم سلاسل الكروماتين داخل نواة الخليّة في المرحلة الأُولى انقساماً غير مباشر (Karyo Kinese أو Mitose) إلى قطعات قصيرة وسميكة منظّمة ، يُدعى كلٌّ منها كروموسوماً . وعدد الكروموسومات في الحيوانات والنباتات عدد غير كبير ، ويمكن معرفته بسهولة . وهذا العدد ثابت في كلّ جنس من أجناس النبات (والحيوان)».

منها اثنان وعشرون كروموسوماً اتوزوم (غير جنسيّ) وكروموسوماً واحداً جنسيّاً . ويمكن مشاهدة هذه الكروموسومات بعد التلقيح وبداية حركة النطفة .

وعلى كلّ حال ، فإنّ هذا الأمر يعدّ من الأسرار العجيبة ، بل من أعجب أسرار الخلقة ، حيث تُوضع جميع شخصيّة الإنسان وصفاته الذاتيّة وزيادة أعضائه وأجزائه ـ مع حفظ وحدته ـ على عاتق خليّة واحدة فقط .

وإذا كانت هذه الخليّة بسيطة بتمام معنى الكلمة ، فكيف رُكِّز هذا البحر الخضمّ من الصفات والأخلاق والملكات ، بل من الأعضاء والأجزاء المختلفة العمل والمتفاوتة الفعل في خليّة واحدة ؟!

وتعدّ قوانين الوراثة والمشاهدات التي أُنجزت على النطفة والخلايا الجنسيّة للرجل والمرأة **(السبيرم والبويضة)** شاهداً بيّناً ودليلاً بارزاً على تمركز الشخصيّة وتلخّصها في خليّة واحدة .

كما تُشير التجارب والمعلومات العامّة التي نمتكلها إلى حقيقة مُذهلة ، وهي أنّ عدداً لا يُحصى من صفات وخصال الأب والأُمّ تتكرر في أولادهما وأحفادهما ، حتّى الخطوط الدقيقة في الوجه ، وكيفيّة تحريك اليدين ، والأعين ، ودقائق عادات الأبوين ، دون أن يكون للتأثيرات الخارجيّة كالتعليم والتربية ـ في كثير من الحالات ـ دخلاً في هذا الأمر .

وليست الواسطة الفاعلة في هذا الفضاء الفسيح المترامي من الكثرات ، وفي هذا البحر الخضمّ الزاخر من الاختلافات المرئيّة ، إلّا خليّة واحدة متناهية في الصغر .

ويعتقد أغلب علماء **الوراثة** أنّ عامل هذه الصفات الوراثيّة إنّما هي الكروموسومات الموجودة في الخلايا الجنسيّة ، التي دخلت في النطفة بالمناصفة ؛ ويعتقدون أنّ جميع الآثار الوراثيّة ناجمة من كيفية التقاء هذه

الكروموسومات وازدواجها وانقسام أنصاف الكروموسومات مجدّداً ، حيث إنّ كلّ نصف منها قابل للقسمة من جديد .

أمّا بعض محقّقي علوم الحياة من أمثال **إيتين رابوك** ، فلا يعتبرون الكروموسوم عاملاً للوراثة ، ويقولون : إنّ الشخصيّة والوراثة ليسا معلولين لأثر خارجيّ خفيّ ، أو لفعل داخليّ قائم على عوامل عائدة إلى الكروموسوم ؛ بل إنّ العنصر المكوِّن للخليّة من ذكر وأُنثى ـ أي السايتوبلازم ـ والنواة التي يتكوّن كلّ منهما من أخلاط رقيقة ممتزجة من التراكيب الشبيهة بالعجين ، والتي تشكّل محيط الخليّة أو مادّتها الحيويّة ، وتلك الأخلاط الممتزجة المبهمة غير المشخّصة هي التي تتدخّل في بروز الصفات وفي تشكيل الشخصيّة الموجودة .

وينبغي العلم طبعاً بأنّ الآثار الحيويّة والفعّاليّة الخارجيّة لخليّة حيّة واحدة ليست آثاراً ناجمة من فعل بعض هذه العناصر بصورة مستقلّة ، بحيث إنّ الوظائف قد قُسِّمت فيما بينها كلٌّ حسب نسبته ، بل إنّ كلّ عنصر من هذه العناصر يؤثّر ـ في كلّ لحظة ـ على جميع العناصر الأُخرى ، ويتأثّر بدوره بسائر تلك العناصر ، فتكون خلاصة فعل وانفعال كلّ عنصر من العناصر على بعضها الآخر وعلى المحيط الخارجيّ هي عمل الخليّة في الخارج .

كما أنّ وضع موجود متعدّد الخلايا ، ووضع جميع النباتات والحيوانات وأفراد البشر أشبه بوضع الخليّة الواحدة ، حيث إنّ جميع العناصر الداخلة في تكوين الخليّة أو الموجود تشترك في الأفعال الحيويّة لتلك الخليّة أو الموجود ، كما يوجد في بدن الموجود الحيّ تعاون منظّم وكامل بين جميع الأنسجة في ذلك الموجود ، بحيث إنّ جميع الأجزاء تشترك وتتدخّل في كلّ عمل يبدر من ذلك الموجود . كما أنّ أيّ أثر وفعل

يُوجَّه إلى موجود حيّ سيؤثّر على جميع أعضاء وأجزاء ذلك الموجود .

وهذه الكيفيّة لاختلاط السايتوبلازم والنواة وامتزاجهما بحيث تكون منبعاً لمثل هذا التكاثر هي التي دُعيت في القرآن الكريم **بالأمشاج** ، التي تُبيِّن حال النطفة وهيئتها .

والخلاصة ، يبدو أنّ تحقيق هذه الطائفة القليلة من محقّقي علوم الحياة أقرب إلى النظر ؛ والعلم عند الله .

أمّا في شأن الآية الثانية الدالّة بصراحة ـ على أساس الحركة في الجوهر ـ على كون النفس جسمانيّة الحدوث ، وروحانيّة البقاء ، فسنقوم ببحثها بصورة إجماليّة :

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ. [1]

يقول الله تعالى في هذه الآيات : لقد خلقنا الإنسان من طين خالص . ومن هنا فإنّ الطين هو أصل خلقة الإنسان ، ومعلوم أنّ الطين جسم ، فحدوث الإنسان ـ إذاً ـ قد شرع من الطين وهو جسم.

ثمّ إنّنا بعد خلق الإنسان من طين ، جعلنا ذلك الإنسان الطينيّ نُطفة . ويلاحظ هنا أنّه قد تحوّل إلى جسم أيضاً ، إذ إنّ النطفة جسم . أي أنّ جسماً قد تبدّل في هذه المرحلة إلى جسم آخر .

ثمّ إنّنا جعلنا النطفة علقةً ، وفي هذه المرحلة أيضاً تبدّل جسمٌ إلى جسمٍ آخر .

ثمّ إنّنا جعلنا العلقة مُضغة من اللحم . وهنا أيضاً حصل تبدّل جسم إلى

١ـ الآيات ١٢ إلى ١٤ ، من السورة ٢٣ : المؤمنون .

جسم آخر .

ثمّ جعلنا تلك المُضغة عظاماً . وتتكرّر هنا مقولة تبدّل جسم إلى جسم آخر .

ثمّ إنّ الله كسى العظام لحماً ، فقال : ثمّ أنشأنا الإنسان خلقاً آخر . أي أنّنا جعلنا هذا الإنسان الجسميّ روحانيّاً ، فتبدّلت حقيقة هذه الأجسام المادّيّة إلى نفس إنسانيّة ناطقة .

فالمادّة إذاً تُزاح جانباً في **ثُمَّ أَنشأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ** ، وتتبدّل تلك المادّة إلى نفس مجرّدة . ويحصل هذا التغيّر بواسطة الحركة الجوهريّة فقط ، حيث تحرّك جوهر سلالة الطين فصار نطفةً ، ثمّ تحرّكت النطفة في جوهرها فأضحت علقةً ، ثمّ تحرّكت العلقة في جوهرها فغدت مُضغة ، ثمّ تحرّكت المغضة في جوهرها فاستحالت عظاماً ، ثمّ إنّ العظام المكسوّة باللحم تحرّكت في ذاتها وجوهرها فصارت نفساً ناطقة وروحاً آدميّة . وفي جميع هذه المراحل كانت هناك حركة الجوهر في المادّة ، وها هي المادّة قد تحرّكت فبلغت مرحلة التجرّد ومرحلة الروح .

ولقد عمد صدر المتألّهين الشيرازيّ ، الفيلسوف والنابغة الذي دافع عن حِمى القرآن والفلسفة القرآنيّة منذ أربعمائة سنة وإلى يومنا هذا ، والذي تصاغر أمامه أساطين الفكر ، إلى الاستعانة بهذا البحر القرآنيّ العميق نظير هذه الآية التي كانت مدار بحثنا الحالي ، فدحض فلسفة اليونان والمشّائين ، وأبدع من بنات أفكاره فلسفة قائمة على أساس التعقّل والإشراق والشرع الأنور المقدّس .

ولقد أثبت في كتابه الرفيع «الأسفار» : **النَّفْسُ جِسْمَانِيَّة الحُدُوثِ وَرُوحَانِيَّةِ البَقَاءِ** .

وسار الحكيم الجليل المفكّر ، التلميذ المبرّز لمدرسة صدر المتألّهين

على هذا النهج ، فقال :

النَّفْسُ فِي الحُدُوثِ جِسْمَانِيَّة وَفِي البَقَا تَكُونُ رُوحَانِيَّة

وتبعاً لهذا الأساس ، قال العطّار :

تن زجان نبود جدا ، عضوى ازوست

جان ز كُلّ نبود جدا ، جزوى ازوست[1]

ومن هنا فإنّ ما يُستنتج من هذه الآية الكريمة ، أنّ ما قاله الحكماء القدماء من : أنّ الإنسان اذا وُجد ، فإنّ وجوده الجنينيّ يتحقّق في الوهلة الأُولى ، الى أن يصل الى الحدّ الذي يصبح فيه مستعدّاً لولوج الروح ، فيوجد الله تعالى النفس حينذاك بلا تأخير ، فيجعلها تتعلّق بالمادّة من العالم العلويّ المجرّد ؛ هو مقولة تخالف مضمون الآية المباركة السالفة الذكر .

لقد كان القدماء يقولون : إنّ الإنسان مركّب من روح وبدن ؛ أمّا الآية المباركة فلا تدلّ على «التركيب» ، بل تُصرِّح بـ «التبديل» .

ويكفي في عظمة القرآن وجلاله أنّ فلاسفةً ـ من أمثال **ابن سينا** الذين حلّقوا في سماء الفكر ـ لم يُدركوا هذه النكتة ، فكانوا يقتفون في مؤلّفاتهم إلى ما قبل ألف سنة أثر القدماء القائلين بتركيب الإنسان من روح وبدن ، حتّى أزاح هذا الفيلسوف الشيرازيّ الستار عن سرّ القرآن ، وبرهن على الحركة الجوهريّة بأدلّة جليّة متينة اعتماداً على هذه الآية الهادية البليغة .

١ـ «شرح المنظومة السبزواريّة» ص ٢٩٨ ، طبعة ناصري ، في حاشية غرر النفس الناطقة.

يقول : «ليس البدن منفصلاً عن الروح ، بل هو عضوٌ منها ؛ وليست الروح منفصلة عن الكلّ ، بل هي جزء منه».

يقول **الشيخ الرئيس ابن سينا** في مطلع قصيدته المشهورة بالقصيدة العينيّة الورقائيّة :

هَبَطَتْ إلَيْكَ مِنَ المَحَلِّ الأَرْفَعِ وَرْقَاءُ ذَاتُ تَعَزُّزٍ وَتَمَنُّعِ
مَحْجُوبَةٌ عَنْ كُلِّ مُقْلَةِ عَارِفٍ وَهْيَ الَّتِي سَفَرَتْ وَلَمْ تَتَبَرْقَعِ[1]

ومن الآيات القرآنيّة الكريمة التي تدعو إلى الالتفات إلى الموجودات الآفاقيّة ، والتي ينبغي ـ حقّاً ـ أن تُعدّ من معجزات القرآن ، الآية التالية : **وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**.[2]

حيث إنّ هذه الآية صريحة في أنّ الله تعالى خلق من كلّ شيء زوجين اثنين ، وأنّه تعالى لم يخلق شيئاً فرداً لا زوج له .

ويستنتج من عموميّة هذه الآية أنّ أمر خلق الزوجَين لا تختصّ بالإنسان والحيوانات ، بل تتعدّى ذلك إلى النباتات والجمادات . وهو أمر يبدو مشكلاً في النظر العاديّ السطحيّ ، إذ ليس هناك من معنى لوجود زوجين في المطر والثلج والغيوم والصاعقة والريح والحجر والطين اليابس والجواهر المعدنيّة .

ولهذا فقد اكتفى بعض المفسّرين بالآية الواقعة في سورة يس التي تقول بأنّ الله تعالى خلق أزواجاً ممّا لا تعلمون :

سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ.[3]

١ـ وردت هذه القصيدة بتمامها في «لغت نامۀ دهخدا» مادّة «أبوعلى سينا» ص ٦٥٣ ؛ وذكرها أيضاً الدكتور ذبيح الله صفا في كتاب «جشن نامۀ ابن سينا» ج ١ ، ص ١١٦ و ١١٧ .

٢ـ الآية ٤٩ ، من السورة ٥١ : الذاريات .

٣ـ الآية ٣٦ ، من السورة ٣٦ : يس .

وباعتبار أنّ هؤلاء المفسّرين عدّوا معنى الزوجين الذَّكَر والأُنثى، لذا فقد قالوا بوجود زوجين في الإنسان من ذكر وأُنثى «**وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ**» وبوجود زوجين في الحيوانات، وفي النباتات على أكثر تقدير، سواء في ذلك الأشجار أو الأعشاب؛ واستشهدوا على وجود ذكر وأُنثى في جميع النباتات بالآية المباركة: **وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ**؛[1] حيث تعمل الرياح على نقل غبار الطلع من أزهار الأشجار الذكور ونشره في الفضاء، وإيصاله إلى الأشجار الإناث، فيحصل بذلك تلقيح تلك الأشجار وإثمارها.

وأفضل مثال لذلك هو شجرة النخيل، التي ما لم تلقّح بطلع النخل «**طَلْحٍ مَّنضُودٍ**» فإنّها لن تُثمر.

أمّا معنى الزوج، فليس الذكر والأُنثى؛ كما أنّ معنى الزوجين ليس مجموع الذكر والأُنثى، بل الزوج بمعنى القرين المقابل. فكلّ ما يقع زوجاً لشيء، كالحصان المربوط إلى عربة النقل، وكفّة الميزان، وزجاجة النظّارات وأمثال ذلك يُدعى زوجاً، كما يُدعى كلاهما زوجين. وهذا هو المعنى الحقيقيّ للزوج؛ وإذا ما استُعمل أحياناً بمعنى الذكر والأُنثى، فبملاحظة حقيقة كونهما زوجاً، لأنّ كلاًّ من الذكر والأُنثى، أو الرجل والمرأة هو عِدْل للآخر.

أمّا وقد ثبت أمر وجود زوجين في جميع ذرّات عالم المادّة، فإنّ معنى الآية الكريمة الشريفة: **وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**، سيتّضح جليّاً.

وبيان ذلك أنّ هناك في كلّ ذرّة من الذرّات نواة مجهريّة ذات شحنة كهربائيّة موجبة وتدعى «بروتون»، وفي أطرافها مجموعة من الإلكترونات

١ـ صدر الآية ٢٢، من السورة ١٥: الحجر.

الدوّارة ذات شحنة كهربائيّة سالبة . وباعتبار تساوي شحنة جميع الإلكترونات مع شحنة النواة ، فإنّ الذرّة ستبقى في موضعها ، لأنّ الشحنتين الموجبتين والشحنتين السالبتين التي تشترك في الجنس تتنافر مع بعضها وتبتعد عن بعضها بتعجيل معيّن . أمّا الشحنة الموجبة المختلفة في الجنس مع الشحنة السالبة فتقترب منها لحصول التجاذب بينهما . وهذا العمل مشهود في تجارب الكرات المعلّقة ذات الشحنات الموجبة والسالبة .

وبناءً على هذا فإنّ هناك قوى جذب وطرد في جميع الموجودات ، حتّى في الشمس والسيّارات ، وهذه الحركات المنظّمة قائمة على أساس هذا الجذب والطرد بين القوى اللذين أوجدا الزوجيّة فيها .

وأوّل مَن أزاح الستار عن هذا السّر القرآنيّ ، وأسفر للبشريّة عن جماله الذي يشغف القلوب هو **أمير المؤمنين** عليه السلام الذي أورد خطبة غرّاء بديعة في إثبات التوحيد ، تحدّث فيها عن التجاذب والتنافر ، وتآلف الأشياء وتفرّقها ؛ واستند فيها على هذه الآية المباركة .

روى الشيخ **الكلينيّ** في كتاب «الكافي» عن محمّد بن أبي عبد الله مرفوعاً ، عن أبي عبد الله عليه السلام خطبةً مفصّلة لأمير المؤمنين عليه السلام يقول فيها :

ضَادَّ النُّورَ بِالظُّلْمَةِ ، وَاليَبْسَ بِالبَلَلِ ، وَالخَشْنَ بِاللِّينِ ، وَالصَّرْدَ بِالحَرُورِ ؛ مُؤَلِّفٌ بَيْنَ مُتَعَادِيَاتِهَا ، وَمُفَرِّقٌ بَيْنَ مُتَدَانِيَاتِهَا ؛ دَالَّةً بِتَفْرِيقِهَا عَلَى مُفَرِّقِهَا ، وَبتَأْلِيفِهَا عَلَى مُؤَلِّفِهَا ؛ وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : «وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ».[1]

وفي هذه الخطبة الشريفة إشارة إلى أنّ جميع الموجودات لها حالتا

١ـ «أُصول الكافي» ج ١ ، ص ١٣٩ .

تضادّ :

فهي متآلفة حال افتراقها وتعاديها ، ومفترقة حال اتّحادها وائتلافها ؛ وهذا هو المراد من الزوجيّة الواردة في الآية الكريمة . أي أنّ المراد والمقصود من كلمة **زَوْجَيْن** هو التعادي والتآلف الموجود في كلّ ذرّة ، وصولاً إلى السماوات والمنظومة الشمسيّة والمجرّات .

تدور الإلكترونات حول النواة المركزيّة التي تضمّ البروتونات ؛ فتكون النواة بمنزلة زوج ، والإلكترونات الدائرة الزوج الآخر ؛ وتركيب الأجسام إنّما يحصل من هذه الأزواج . ونظم وترتيب وحركة جميع المنظومة الشمسيّة قائم على هذا الأساس .

فهي في حال تآلفها ، دالّة بالافتراق الحاصل بينها على الله المفرّق بينها ، لأنّ التآلف إن كان طبيعةً لها ، لما حصل بينها تنافر وافتراق ، فـ **الطَّبِيعَةُ لَا تَتَغَيَّرُ وَلَا تَتَثَنَّى** .

وهي حال افتراقها ، دالّة بالتآلف بينها على الله تعالى المؤلّف بنفس الدليل ، ولذلك فإنّ الله سبحانه **هُوَ المُؤَلِّفُ وَالمُفَرِّقُ** .

ولقد ترنّم ثامن الحجج عليّ بن موسى الرضا عليه السلام بهذه العبارات ، واستشهد بهذه الآية في خطبة أنشأها في حضور المأمون .

يروي **الشيخ الصدوق** في كتابه «التوحيد» بسنده المتّصل عن محمّد ابن يحيى بن عمر بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، قال : سمعتُ أبا الحسن الرضا عليه السلام يتكلّم بهذا الكلام عند المأمون في التوحيد .

قال ابن أبي زياد : ورواه لي أيضاً أحمد بن عبدالله العلويّ مولى لهم وخالاً لبعضهم عن القاسم بن أيّوب العلويّ أنّ المأمون لمّا أراد أن يستعمل الرضا عليه السلام على هذا الأمر ، جمع بني هاشم فقال : إنّي أُريد أن

استعمل الرضا على هذا الأمر من بعدي ، فحسده بنو هاشم [1] وقالوا : أتولّي رجلاً جاهلاً ليس له بصر بتدبير الخلافة ؟! فابعثْ إليه رجلاً يأتنا فنرى من جهله ما يُستدلّ به عليه ، فبعث إليه فأتاه ، فقال له بنو هاشم : يا أبا الحسن ! اصعد المنبر وانصِبْ لنا عَلَماً نعبد الله عليه ! فصعد عليه السلام المنبَر ، فقعد مليّاً لا يتكلّم مُطرقاً ، ثمّ انتفض انتفاضةً واستوى قائماً ، وحمد الله وأثنى عليه وصلّى على نبيّه وأهل بيته .

[ثمّ أورد خطبة مفصّلة جمعت أسرار التوحيد وعجائب أدلّة الحضرة الأحديّة ، غدت حقّاً جوهرة متلألئة في كتاب التوحيد ، وكان أوّل كلامه ، قوله :]

أَوَّلُ عِبَادَةِ اللَهِ مَعْرِفَتُهُ ؛ وَأَصْلُ مَعْرِفَةِ اللَهِ تَوْحِيدُهُ ؛ وَنِظَامُ تَوْحِيدِ اللَهِ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ .

حتّى يصل إلى هذه الجملات : **وَبِمُقَارَنَتِهِ بَيْنَ الأُمُورِ عُرِفَ أَنْ لَا قَرِينَ لَهُ . ضَادَّ النُّورَ بِالظُّلْمَةِ ، وَالجِلَايَةَ بِالبُهْمِ ، وَالجَسْوَ بِالبَلَلِ ، وَالصَّرْدَ بِالحَرُورِ .**

مُؤَلِّفٌ بَيْنَ مُتَعَادِيَاتِهَا ، مُفَرِّقٌ بَيْنَ مُتَدَانِيَاتِهَا ، دَالَّةً بِتَفْرِيقِهَا عَلَى مُفَرِّقِهَا ، وَبِتَأْلِيفِهَا عَلَى مُؤَلِّفِهَا ؛ ذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ :

«وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» ـ[2] الخطبة .

وينبغي العلم أنّ «زوجين» الواردة في الآية مورد البحث ، هي غير

١ـ المراد ببني هاشم هنا خصوص بني العبّاس ، إذ ينقسم بنو هاشم إلى فرقتين، هما: العبّاسيّون والعلويّون . ومخالفو حكومة الإمام الرضا عليه السلام هم أقارب المأمون من بني العبّاس وليس العلويّون.

٢ـ «التوحيد» للصدوق ، ص ٣٤ و٣٧ و٣٨ .

«زوجين» الواردة في سورة الرعد :

وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .[1]

قال سماحة الأُستاذ قدّس الله سرّه في تفسير **زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ** في هذه الآية :

أي : ومن جميع الثمرات الممكنة الكينونة ، جعل في الأرض أنواعاً متخالفة ، نوعاً يُخالف آخر ،كالصيفي والشتوي ، والحلو وغيره ، والرطب واليابس . هذا هو المعروف في تفسير «زوجين اثنين» ؛ فالمراد بالزوجين : الصنف يخالفه صنفٌ آخر ، سواء كانا صنفَين لا ثالث لهما أم لا ، نظير ما تأتي فيه التثنية للتكرير ،كقوله تعالى : **ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ**،[2] أُريد به الرجوع كرّةً بعد كرّة وإن بلغ من الكثرة ما بلغ .

ثمّ قال : وقال في «تفسير الجواهر» في قوله **زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ** : جعل فيها من كلّ أصناف الثمرات زوجين اثنين ذكر وأُنثى في أزهارها عند تكوّنها ، فقد أظهر الكشف الحديث أنّ كلّ شجر وزرع لا يتولّد ثمره وحبّه إلّا من بين اثنين ذكر وأُنثى . فعضو الذكر قد يكون مع عضو الأُنثى في شجرةٍ واحدة كأغلب الأشجار ، وقد يكون عضو الذكر في شجرة والآخر في شجرة أُخرى كالنخل ، وما كان العضوان فيه في شجرة واحدة إمّا أن يكونا معاً في زهرةٍ واحدة ، وإمّا أن يكون كلّ منهما في زهرة وحده ، والثاني كالقرع ، والأوّل كشجرة القطن ، فإنّ عضو التذكير مع عضو التأنيث في

١ـ الآية ٣ ، من السورة ١٣ : الرعد .

٢ـ الآية ٤ ، من السورة ٦٧ : الملك .

زهرة واحدة . ثمّ يرد الأُستاذ على هذا الكلام فيقول :

وما ذكره وإن كان من الحقائق العلميّة التي لاغبار عليها ، إلّا أنّ ظاهر الآية الكريمة لا يساعد عليه ، فإنّ ظاهرها أنّ نفس الثمرات زوجان اثنان ، لا أنّها مخلوقة من زوجين اثنين ، ولوكان المراد ذلك لكان الأنسب به أن يقال : **وَكُلُّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا مِنْ زَوْجَيْنِ اثْنَيِنِ**.

ثمّ قال : نعم ، لا بأس أن يستفاد ذلك من مثل قوله تعالى :

سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ ٱلْأَرْضُ.[١]

وقوله : **وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ**.[٢]

وقوله : **وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**.[٣]

يقول الحقير : استفادة معنى الذكر والأُنثى من الآيتين الأُولتين استفادة جيّدة ، أمّا في الآية الأخيرة التي كانت مورد بحثنا ، والتي شاهدنا عموميّتها من قوله تعالى **وَمِن كُلِّ شَىْءٍ** ، فإنّ حصر ذلك في النباتات والأشجار أمر غير مناسب ، وعلى الأخصّ مع الروايتين الرفيعتي المضمون اللتين عمّمتا ذلك لكلّ شيء من الموجودات المادّيّة والطبيعيّة ، حيث انتفى معهما كلّ شبهة وإشكال .

وإحدى الآيات القرآنيّة المعجزة هي الإخبار عن الاتّصال والاتّحاد بين الكرات السماويّة في المنظومة الشمسيّة ، وأنّها كانت قبل نشوء الشمس والسيّارات والأرض بهذه الكيفيّة متّحدة بأجمعها ، ثمّ إنّ الله تعالى

١ـ الآية ٣٦ ، من السورة ٣٦ : يس .

٢ـ مقطع من الآية ١٠ ، من السورة ٣١ : لقمان .

٣ـ «الميزان في تفسير القرآن» ج ١١ ، ص ٣٢٠ و ٣٢١ ، والآية هي ٤٩ ، من السورة ٥١ : الذاريات.

فتقها وفصل بينها على صورتها الفعليّة المشهودة . وهذه الآية الكريمة في سورة الأنبياء :

أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ. [1]

ولو ضممنا هذه الآية إلى آية سورة فصّلت : **ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ.** [2]

وعلى الأخصّ إذا أضفنا إليهما الآية الكريمة في سورة الرعد : **ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ.** [3]

فسيتّضح أمر اتّصال هذه الثوابت والسيّارات في منظومتنا الشمسيّة المشهودة مع الشمس والأرض قبل زمن انفصالها ، أي حين كانت في هيئة كرة ناريّة ، ثمّ إنّ الله تعالى فلقها وجزّأها وجعلها في هيئتها الحاليّة في مدارات دقيقة قويمة بواسطة قوّة الجاذبيّة (التجاذب والتنافر) في حركة وضعيّة وانتقاليّة .

وجميع هذه الأُمور هي ممّا أخبر عنه القرآن الكريم إخباراً معجزاً ، فقد أعلن بصراحة عن هذه الأُمور الحقيقيّة الغيبيّة في عصر لم يكن أحد فيه قد تحدّث عن كون الكرات السماويّة من دخان ونار ، وعن اتّصالها جميعاً طبق فرضيّة **لابلاس** ، وعن تجاذبها طبق كشف **إسحاق نيوتن** ،

١ـ الآية ٣٠ ، من السورة ٢١ : الأنبياء .

٢ـ الآية ١١ ، من السورة ٤١ : فصّلت .

٣ـ الآية ٢ ، من السورة ١٣ : الرعد .

وعن حركتها الصحيحة دونما تخلّف على أساس قانون **كِبْلِر**.

قال **الشيخ الطبرسيّ** في «مجمع البيان» في ذيل آية **ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ**. «أي: ثمّ قصد إلى خلق السماء وكانت السماء دخاناً.»[1]

وقال **الفخر الرازيّ** في «مفاتيح الغيب» في ذيل هذه الآية:

«ذكر صاحب «الأثر» أنّه كان عرش الله على الماء قبل خلق السماوات والأرض، فأحدث الله في ذلك الماء سخونةً فارتفع زبد ودخان، أمّا الزبد فبقي على وجه الماء فخلق الله منه اليبوسة وأحدث منه الأرض؛ وأمّا الدخان فارتفع وعلا، فخلق الله منه السماوات».[2]

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام في «نهج البلاغة»:

وَكَانَ مِن اقْتِدَارِ جَبَرُوتِهِ وَبَدِيعِ لَطَائِفِ صَنْعَتِهِ أَنْ جَعَلَ مِنْ مَاءِ البَحْرِ الزَّاخِرِ المُتَرَاكِمِ المُتَقَاصِفِ يَبَساً جَامِداً، ثُمَّ فَطَرَ مِنْهُ أَطْبَاقاً فَفتَقَهَا سَبْعَ سَمَاوَاتٍ بَعْدَ ارْتِتَاقِهَا، فَاسْتَمْسَكَتْ بِأَمْرِهِ وَقَامَتْ عَلَى حَدِّهِ.[3]

ونشاهد في هذه الجُمل المعدودة للإمام عليه السلام ثلاث فرضيّات إلى لابلاس ونيوتن وكبلر:

فرضيّة لابْلاس[4] في عبارة: **فَفَتَقَهَا سَبْعَ سَمَاوَاتٍ بَعْدَ ارْتِتَاقِهَا.**

١ـ تفسير «مجمع البيان» ج ٥، ص ٦، طبعة صيدا.

٢ـ تفسير «مفاتيح الغيب» للرازيّ، ج ٧، ص ٣٥٤ و ٣٥٥، طبعة دار الطباعة العامرة.

٣ـ «نهج البلاغة» الخطبة ٢٠٩؛ وفي طبعة مصر بتعليق الشيخ محمّد عبده: ج ١، ص ٤٢٦.

٤ـ **پي‌ير سيمون لابلاس**، عاش بين سنة ١٧٤٩ إلى ١٨٢٧م، وهو منجّم ومهندس فرنسيّ، وقد جمع هذا العالم النتائج الفكريّة لـ «هاله» و«كلرو» و«نيوتن» و«دوآلمبر» و«أُولِر»، واكتشف أمر حركة المشتري وبطء سير زُحل وسرعة حركة القمر والأرض التي كانت من الأُمور غير المكتشفة، كما أنّ فرضيّة انفصال الكواكب بعد اتّصالها من فرضيّاته، وتُعرف ⇦

فرضيّة نيوتن[1] في عبارة : **فَاسْتَمْسَكَتْ بِأَمْرِهِ.**

و**فرضيّة كبلر**[2] في عبارة : **وَقَامَتْ عَلَى حَدِّهِ.**

وتعرف فرضيّة لابلاس في علم التنجيم والهيئة بـ**فرض لابلاس** .

يقول : «إنّ تشابه الحركة الوضعيّة والانتقاليّة لأجزاء المنظومة الشمسيّة مع بعضها وخروجها من مركز السيّارات ليس قائماً على أساس الصدفة ، بل ينبغي البحث عن العلّة الأُولى لهذا التشابه والاختلاف» .

ثمّ إنّه يشرح فرضيّته على النحو التالي :

«لقد كانت المنظومة الشمسيّة في بداية أمرها كوكباً سحابيّاً كبيراً يمتدّ إلى مدار النبتون ، ثمّ إنّه فقد حرارته الخارقة تدريجيّاً ، فوُجِدَتْ كرات ذات أبعاد مختلفة إثر الضغط والتراكم ، وبقيت الشمس ـ وهي المركز الحقيقيّ الذي كان جزءاً من المنظومة ـ على هيئة كرة منفصلة على حدة» .[3]

⇦ بـ«فرضيّة لابلاس».

١ـ **إسحاق نيوتن** : منجّم وعالم فيزياء إنجليزيّ ، عاش بين سنتَي ١٦٤٣ و١٧٢٧ م، وقد أثبت عن طريق الجاذبيّة حركة الأرض الوضعيّة والانتقاليّة ، وقانون الجاذبيّة العامّ من اكتشافاته. وقد أثبت نيوتن أنّ كلّ ذرّتَين مادّيّتَين تجذبان بعضهما بقوّة تتناسب مع كُتلتيهما وعكس جذر الفاصلة بينهما . كما أنّ الكرتَين المتشابهتَي الأجزاء تتجاذبان بنسبة الخطّ الواصل بين مركزيهما.

٢ـ **جان كبلر** : عاش بين سنة ١٥٧١ وسنة ١٦٣٠م . وكان يعتقد بحركة الأرض ومركزيّة الشمس لعالم المنظومة الشمسيّة . كما أنّه عدّ مدار السيّارات بيضويّاً تبعاً لعقيدة «تيكو براها»، فقد لاحظ أنّ نتائج حسابات الرصد لا تنسجم مع بعضها ، فابتكر بحثاً منفصلاً ما بين نظريّة كوبرنيكوس وتيكوبراها . (مقتبس من «ترجمة رسالة هيئت جديد» (=ترجمة رسالة الهيئة الجديدة) تأليف كاميل فلاماريون ، ص ٩ و١٠ ، المطبوعة في مجلّة «گاهنامه» للسيّد جلال الدين الطهرانيّ سنة ١٣١٣ هـ.

٣ـ «گاهنامه ١٣٠٧ شمسى» للمنجّم والعالِم الرياضيّ المعروف السيّد جلال الدين ⇦

وذكر أيضاً في بيان فرضيّته : «أنّ كرات المنظومة الشمسيّة هي قطع قد انفصلت عن الشمس إثر قربها وارتطامها بنجم آخر» .[1]

وبطبيعة الحال ، فإنّ جميع هذه الفرضيّات ـ في حال تحقّقها ـ عائدة إلى أمر الله العليم وإرادته وعلمه وحُكمه ، وليس إلى الصدفة التي يظنّها الطبيعيّون ، إذ قيل :

«يقول **كورسي موريسون** في ص ١٠ من كتاب «راز آفرينش انسان» (= سرّ خلقة الإنسان) [ترجمة السيّد محمّد السعيديّ] : «يعتقد بعض المنجّمين أنّ احتمال تقارب نجمين إلى بعضهما إلى الحدود التي تجعل قوّة الجاذبيّة بينهما مؤثّرةً بحيث تجذبهما إلى بعضهما هو بنسبة واحد من عدّة ملايين .

أمّا احتمال اصطدام نجمَين مع بعضهما بحيث يتلاشيان فهو احتمال نادر إلى درجة يخرج معها من سعة قدرة المحاسبة» .

فيتّضح إذاً ـ فيما لو قبلنا بهذه الفرضيّة ـ : أنّ الأرض هي قطعة قد انفصلت عن الشمس اثر الاصطدام ، وعلينا أن نفترض أنّ هناك تعمّداً في حصول ذلك الاصطدام ، وأنّ هناك هدفاً خاصّاً من ذلك العمل ، وهو نشوء الحياة ، ثمّ الحيوان ثمّ الإنسان ، بعنوان الهدف الأصليّ لمخلوقات الأرض» .[2]

قال سماحة الأُستاذ قدّس الله نفسه في تفسير الآية السالفة الذكر **أَوَلَمْ**

⇦ الطهرانيّ ، ص ١٤٨.

١ـ «أُصول فلسفه وروش رئاليسم» (= أُسس الفلسفة والمذهب الواقعيّ) ج ٥ ، ص ٥٩ ، تعليق الشيخ مرتضى المطهّريّ .

٢ـ نفس المصدر السابق .

يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا : «المراد بالرؤيةِ العِلمُ الفكريّ ، وإنّما عبّر بالرؤية لظهوره من حيث إنّه نتيجة التفكير في أمرٍ محسوس .

والرتق والفتق معنيان متقابلان ، قال الراغب في «المفردات» : **الرَّتْق** الضمّ والالتحام خلقةً كان أم صنعة ، قال تعالى : **كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا** . وقال : **الفَتْق** الفصل بين المتّصلَين ، وهو ضدّ الرتق ـ انتهى .

وضمير التثنية في **كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا** للسماوات والأرض ، بعدّ السماوات طائفة والأرض طائفة ، فهما طائفتان اثنتان ، ومجيء الخبر ـ أعني رتقاً ـ مفرداً لكونه مصدراً وإن كان بمعنى المفعول ؛ والمعنى : كانت هاتان الطائفتان منضمّتَين متّصلتَين ففصلناهما .

[و]المراد بـ **ٱلَّذِينَ كَفَرُوا** ـ بمقتضى السياق ـ هم الوثنيّون ، حيث يفرّقون بين الخلق والتدبير بنسبة الخلق إلى الله سبحانه والتدبير إلى الآلهة من دونه ؛ وقد بيّن خطأهم في هذه التفرقة بعطف نظرهم إلى ما لا يُرتاب فيه من فتق السماوات والأرض بعد رتقهما ، فإنّ في ذلك خلقاً غير منفكّ عن التدبير ، فكيف يمكن قيام خلقهما بواحد وقيام تدبيرهما بآخِرين ؟!

لا نزال نشاهد انفصال المركّبات الأرضيّة والجويّة بعضهما من بعض ، وانفصال أنواع النباتات من الأرض ، والحيوان من الحيوان ، والإنسان من الإنسان ، وظهور المنفصل بالانفصال في صورة جديدة لها آثار وخواصّ جديدة ، بعد ما كان متّصلاً بأصله الذي انفصل منه غير متميّز الوجود ولا ظاهر الأثر ولا بارز الحكم ، فقد كانت هذه الفعليّات محفوظة الوجود في القوّة مودعة الذوات في المادّة رتقاً من غير فتق ، حتّى فتقت بعد الرتق وظهرت بفعليّة ذواتها وآثارها .

والسماوات والأرض بأجرامها حالها حال أفراد الأنواع التي ذكرناها، وهذه الأجرام العلويّة والأرض التي نحن عليها ، وإن لم تسمح لنا أعمارنا

على قصرها أن نشاهد منها ما نشاهده في الكينونات الجزئيّة التي ذكرناها ، فنرى بدء كينونتها أو انهدام وجودها ، لكنّ المادّة هي المادّة ، وأحكامها هي أحكامها ، والقوانين الجارية فيها لا تختلف ولا تتخلّف .

فتكرار انفصال جزئيّات المركّبات والمواليد من الأرض ونظير ذلك في الجوّ يدلّنا على يومٍ كانت الجميع فيه رتقاً منضمّة غير منفصلة من الأرض . وكذا يهدينا إلى مرحلة لم يكن فيها ميّز بين السماء والأرض ، وكانت الجميع رتقاً ففتقها الله تحت تدبيرٍ منظّم متقن ظهر به كلّ منها على ما له من فعليّة الذات وآثارها .

فهذا ما يُعطيه النظر الساذج في كينونة هذا العالم المشهود بأجزائها العلويّة والسفليّة كينونةً ممزوجة بالتدبير ، مقارنةً للنظام الجاري في الجميع ، وقد قرّبت الأبحاث العلميّة الحديثة هذه النظرة ، حيث أوضحت أنّ الأجرام التي تحت الحسّ مؤلّفة من عناصر معدودة مشتركة ، ولكلّ منها بقاء محدود وعمر مؤجّل وإن اختلفت بالطول والقصر» .[١]

وقال **الشيخ الطنطاويّ** في تفسيره ، في ذيل الآية المباركة : **أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا :**

«ها أنت ذا قد اطّلعت على ما أبرزه القرآن قبل مئات السنين من أنّ السماوات والأرض ، أي الشمس والكواكب وما هي فيه من العوالم ، كانت ملتحمةً ففصلها الله تعالى . وقلنا إنّ هذه معجزة ، لأنّ هذا العلم لم يعرفه الناس إلّا في هذه العصور . ألا ترى أنّ كثيراً من المفسّرين قالوا إنّ الكفّار في ذلك الوقت ليس لديهم هذا العلم . فكان جوابهم على ذلك أنّهم أخبروا به في نفس هذه الآية ، فكأنّ الآية تستدلّ عليهم بنفس ما نزلت به ، وذلك

١ـ «الميزان في تفسير القرآن» ج ١٤ ، ص ٣٠٢ إلى ٣٠٤ .

أنّ هذه الأُمور لم تخلق . وقد أخذ العلماء يؤّلون تأويلات شتى لفرط ذكائهم وحرصهم رحمهم الله . وها نحن أُولاء نجد هذه العلوم المكنونة المخزونة قد أبرزها الله على أيدي الفرنجة كما نطق القرآن هنا ،كأنّه يقول : **سَيَرى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاواتِ وَالْأَرْضَ كَانَتْ مَرْتُوقَةً فَفَصَلْنَا بَيْنَهُمَا** . فهو وإن ذكرها بلفظ الماضي ، فقد قصد منه المستقبل ،كقوله تعالى : **أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ** .

وهذه معجزة تامّة للقرآن ، وعجيبة من أعجب ما يسمعه الناس في هذه الحياة الدنيا ، ولذلك تجد نفس هذه المسألة أصبحت عقيدة في جميع المدارس شرقاً وغرباً ، فإنّهم يقولون للتلميذ إنّ الأرض جزء من الشمس انفصلت منها ، وهي تدور حولها .

هذه العلوم أصبحت عقائد للذين كفروا والذين آمنوا . ها هو ذا ربّنا يقول لنا : لقد فهم الذين كفروا علوماً ، فهلّا آمنوا بي ، لأنّ هذه العلوم تدلّ على عظمتي وحكمتي وإبداعي وجمالي وإحكامي في عمل ، لأنّي هكذا خلقتُ الكائنات وربّيتها طبقاً عن طبق باعترافهم ، وجعلتُ الماء لحياة الحيوان ، والجبال لحفظ الأرض من التموّج والضياع في الخلاء الذي لا يتناهى .

أَيُّهَا العُلَمَاءُ ! لَا عِطْرَ بَعْدَ عَرُوسٍ ، وَلَا مَخْبَأَ بَعْدَ بوسٍ . قَدْ أُعْذِرَ مَنْ أَنْذَرَ .[1]

١ـ يقول الميداني في «مجمع الأمثال» ج ٢ ، ص ٢١١ و ٢١٢ ، تحت رقم ٣٤٩١:
لَا مَخْبَأَ لِعِطْرٍ بَعْدَ عَروسٍ ؛ ويروى **لَا عِطْرَ بَعْدَ عَرُوسٍ** .
قال المفضّل : أوّل من قال ذلك امرأة من **عُذرة** يُقال لها أسماء بنت عبدالله ، وكان لها زوج من بني عمّها يُقال له **عروس** فمات عنها ، فتزوّجها رجل من غير قوهما يُقال له **نوفل** ، وكان أَعْسَرَ أَبْخَرَ بخيلاً دميماً ، فلمّا أراد أن يظعن بها قالت له : لو أذنتَ لي فرثيتُ ابنَ ⇦

هل بعدما تبيّن لكم الحقّ ورأيتم كيف رضي اللهُ العلوم متى كانت موافقةً للعقل وحثَّ الناس عليها ، هل بعد هذا تتجافون عن النظر لعجائب ربّكم ؟ كفى يا أُمّة الإسلام . أيّها الذكيّ القارئ لهذا التفسير ! اسمعْ منّي وتأمّل ما أقول :

قرأ رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم قوله تعالى : **وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّـنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ.**[1]

فقال صلّى الله عليه [وآله] وسلّم : **مَا عَلَّمَ اللهُ عَالِماً عِلْماً إلَّا أَخَذَ عَلَيْهِ مِنَ المِيثَاقِ مَا أَخَذَ عَلَى الأَنْبِيَاءِ : «لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ»** .

هذا قوله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم : «أخذ علينا العهد كما أخذ على الأنبياء» .

إنّ الأنبياء اليوم عند ربّهم ، ونحن سكّان الأرض الآن مأخوذةٌ علينا العهود ، والعهد تابع لنفس العلم . فأنت أيّها الذكيّ مسؤول عن هذه الأُمّة وعمّن حولك على مقدار طاقتك .

هل في شرعة الإنصاف أن تكون أُمّة هذا كتابها أجهل الأُمم به

⇦ عمّي وبكيتُ عند رَمْسه . فقال : افعلي . فقالت : **أبكيكَ يا عروس الأعراس ، يا ثعلباً في أهله وأسداً عند الباس ، مع أشياء ليس يعلمها الناس** ؛ إلى أن يصل إلى قوله : قال (زوجُها): وما تلك الأشياء؟ قالت : كان عَيُوفاً للخَنَا والمنكر ، طيّب النكهة غير أبخر ، أيسر غير أعسر؛ فعرف الزوج أنّها تُعرّض به.

فلمّا رحل بها قال : ضُمّي إليك عِطْرَك ، وقد نَظَرَ إلى قَشْوَةِ عطرها مطروحة ، فقالت: **لا عِطْرَ بَعْدَ عَرُوسٍ** ، فذهبت مثلاً.

ويقال : إنّ رجلاً تزوّج امرأة ، فأهديت إليه فوجدها تَفِلة ، فقال لها : أين الطيب؟ فقالت : خبأتُه ، فقال لها : **لا مخبأ لعطرٍ بعد عروس** ، فذهبتْ مثلاً.

١ـ صدر الآية ١٨٧ ، من السورة ٣ : آل عمران .

وبالعلوم التي أنزلها الله ؟!

هل من جادّة الحقّ وطريق الصواب أنّ الله يقول :

وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ،[1] ويصبح المخاطبون بهذا القول أجهل الأُمم بهذه الأرض وبما فيها .

يقول الله : إنّ الأرض التي جعلتُ لكم فيها معايش محلّ شكركم وأنتم لا تشكرون إلّا قليلاً ، ولا يكون الشكر إلّا بالتذكّر والتفكّر أوّلاً ، والعمل باليد واللسان ثانياً .

ها أنت ذا عرفتَ وأنت مسؤول بين يدي الله ، فلتكن أنت العامل لأُمّتك الإسلاميّة . إنّها في حاجةٍ إلى النصير والمعين ، فأذع هذا القول وأمثاله ممّا يفتح به عليك ما دُمتَ من الصادقين الموقنين» .[2]

وينبغي هنا أن يُقال للطنطاويّ : إنّ أعلى العلوم وفقاً لمنطق العقل ولمضامين الآيات ولسُنّة رسول الله وسيرته ونهجه هو العلم بالنفس ، لا العلوم المادّيّة الطبيعيّة . ذلك أنّ العلوم الطبيعيّة ذات قيمة واعتبار ما دامت مقدّمة للكمال المعنويّ والخصال الروحيّة الحسنة للإنسان ، فإن تجاوزت هذا الحدّ كانت خطرة ومهلكة .

وعبارة **قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ** في هذه الآية بمعنى عدم الوصول إلى مقام الإنسانيّة كما هو حقّه ، ولا تعني قلّة الإفادة من المعادن والزخارف ، أو قلّة الغور في علائق المادّة وآثارها ونتائجها .

١ـ الآية ١٠ ، من السورة ٧ : الأعراف .

٢ـ «تفسير الطنطاويّ» ج ١٠ ، ص ٢٠٧ و٢٠٨ ، الطبعة الثانية ، مطبعة مصطفى البابيّ الحلبيّ .

أجل ، لقد اكتسب الكفّار هذه العلوم الطبيعيّة ، واستخدموها في غير رفاه البشريّة ، وجعلوها وسيلة لإفساد النفوس والأموال والأعراض ، ومدعاةً للتسلّط والهجوم الوحشيّ على المسلمين ، فقد صار لزاماً على المسلمين ، بل صار من أهمّ واجباتهم ، أن يكتسبوا تلك العلوم ويتفوّقوا فيها عليهم ، لا لنفاسة تلك العلوم ، بل لضرورة قطع أيدي الكفر الخائنة وقطع أيدي المعتدين المتجاوزين وإعلاء كلمة الإسلام وحطّ كلمة الكفر والزندقة والإلحاد ، إذ **الإسْلَامُ يَعْلُو وَلَا يُعْلَى عَلَيْهِ**.[1]

لقد أصبح من الضروريّ على المسلمين في عصرنا الحاضر أن يستفيدوا من هذه العلوم بقدر حاجتهم ومقدّمةً لكمالهم وعلوّهم ورفعتهم ، ليس بحسب الواجب الأوّلي ، بل بحسب اقتضاء الضرورة .

تماماً كصاحب دارٍ ومزرعة عزف عن الاستراحة في الغرفة ، وعن النوم في ركنٍ آمن منه ، والتنفّس من هوائه المنعش اللطيف ، وآلى على نفسه أن يقف على سطح الدار ليلاً ليحرسها ممسكاً بالبندقيّة والرصاص ، أو بالخنجر والسكّين ، ويبقى خافراً على السطح إلى الصباح ليردّ عنها كيد اللصوص المعتدين ، ويمنع عن حرمه أنظارهم الخائنة ، ويحرس زوجته وأولاده وأمواله وناموسه . فهذا العمل ضروريّ من هذا الرجل ، إلّا أنّه ليس واجبه الأوّلي أو مطلوبه البدويّ ، بل هو أمر أُجبر عليه ، إذ ليس من عاقل يعدّ الحرب والدفاع أمراً فطريّاً بدويّاً ومصلحةً أوّليّة في حدّ نفسه .

وكلامنا هنا في منتهى الدقّة ، وهو أنّ على المسلمين أن يسعوا على الدوام لتحصيل كمالهم المعنويّ ، وليس لتحصيل العلم الدنيويّ الذي هو

١ـ من أقوال النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم ؛ «من لا يحضره الفقيه» ج ٤ ، ص ٣٣٤، طبعة مكتبة الصدوق.

في الحقيقة علم الزريبة والحظيرة وعلم كيفيّة ملء بيت الخلاء وتفريغه ؛ وعليهم في الوقت نفسه أن يستفيدوا من الدنيا بقدر ما يكون مقدّمة لهذا الأمر الخطير ، ولردع يد التجاوز عن هذا الصراط المستقيم والنهج القويم .

مثلما قال المؤمنون والعلماء والعقلاء في عصر النبيّ موسى على نبيّنا وآله وعليه الصلاة والسلام لقارون المغرور المعتدي :

وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ .[1]

ولا تغترّ بعلمك ولا بمالك الذي اكتسبته بعلمك وفكرك ولا تقلْ : **إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ** ؛[2] فلا معنى إذاً لإحساني إلى الفقراء ولتعييني لهم في هذه الأموال حقّاً معلوماً مفروضاً .

إنّ القرآن الكريم يدعونا للنظر إلى جميع الموجودات بنظر الوحدة ، وأن نعتبرها بأجمعها من أصل واحد ، وأن نحصر هذا البحر العظيم الموّاج للكثرات في نفس الماء الصافي الذي لا لون له ولا طعم ، وأن نعدّها ناشئةً بأجمعها من منشأ واحد ، وأن نعتبر هذه الاختلافات والعجائب والغرائب والأشكال والصور التي نشاهدها في هذا العالم كلّ يوم أمراً منحصراً في إرادة الحيّ القيّوم الذي خلع عليها هذه الأردية المختلفة وألبسها هذه الخلع المتباينة .

لاحظوا كيف أنّ الله الحكيم يريد أن يهدينا إلى قدرة الواحد ، وعلم وحكمة الواحد ، وإرادة ومشيئة الواحد عن طريق الآيات الآفاقيّة والعلوم

١ـ الآية ٧٧ ، من السورة ٢٨: القصص .

٢ـ مقطع من الآية ٧٨ ، من السورة ٢٨ : القصص .

التجريبيّة والطبيعيّة ، وعن طريق مشاهدة كلّ هذه العجائب في عالم الخلقة الشامخ !

وكيف يُرجع جميع هذه الاختلافات والكثرات إلى مبدأ واحد ! وكيف ينبّهنا إلى هذا الأمر الخطير من خلال هذه الآية الكريمة الشريفة :

وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ.[1]

وحقّاً أنّه من أعظم عجائب الخلقة ، إذ تُسقى الأرض الواحدة بماءٍ واحد ، وعلى الرغم من عدم اختلاف ترابها وموادها المركّبة ، لكنّها مع ذلك تنبت شجرة تفّاح ، وشجرة كمثرى ، وشجرة جوز ، وشجرة يقطين ، وشجرة عنب ، ونخلة ، وتنبت نبتة حنطة فتخضّر بسنابل الحنطة ، وتنبت كذلك نبتة شعير ، ونبتة رزّ ، ونبتة عدس ، وهذه النباتات المتعددة التي لا تعدّ ولا تُحصى ، وأشجار الغابات هذه ، وهذه الأزهار المختلفة الألوان ذوات الروائح العطرة المتفاوتة تجعل المزرعة بُستاناً للورد أشبه بجعبة العطّار .

يقول سماحة الأُستاذ العلّامة في تفسير هذه الآية :

«قال الراغب : **الصنو** الغصن الخارج عن أصل الشجرة . يقال : **هُما صِنْوا نَخْلَةٍ وفُلانٌ صِنْوُ أَبِيهِ** ، والتثنية **صِنْوَان** ، وجمعه **صِنْوَان** ، قال تعالى : **صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ**» ـ انتهى .

وقال : **والأُكل** لما يؤكل ، بضمّ الكاف وسكونه ؛ قال تعالى : **أُكُلُهَا دَائِمٌ** ؛ والأَكلة للمرّة ، والأُكلة كاللقمة ـ انتهى .

١ـ الآية ٤ ، من السورة ١٣ : الرعد .

والمعنى أن من الدليل على أنّ هذا النظام الجاري قائم بتدبير مدبّر وراءه يخضع له الأشياء بطبائعها ، ويجريها على ما يشاء وكيف يشاء ، أنّ في الأرض قطعاً متجاورات متقاربة بعضها من بعض متشابهة في طبع ترابها ، وفيها جنّات من أعناب ، والعنب من الثمرات التي تختلف اختلافاً عظيماً في الشكل واللون والطعم والمقدار واللطافة والجودة وغير ذلك . وفيها زرع مختلف في جنسه وصنفه من القمح والشعير وغير ذلك ، وفيها نخيل صنوان ـ أي : أمثال نابتة على أصل مشترك فيه ـ وغير صنوان ـ أي : متفرّقة ـ نسقي الجميع من ماء واحد ونفضّل بعضها على بعض بما فيه من المزيّة المطلوبة في شيء من صفاته .

فإن قيل : هذه الاختلافات راجعة إلى طبائعها الخاصّة بكلّ منها ، أو العوامل الخارجيّة التي تعمل فيها فتتصرّف في أشكالها وألوانها وسائر صفاتها على ما تفصّل الأبحاث العلميّة المتعرّضة لشؤونها الشارحة لتفاصيل طبائعها وخواصّها ، والعوامل التي تؤثّر في كيفيّة تكوّنها وتتصرّف في صفاتها .

قيل : نعم ، لكن ينتقل السؤال حينئذٍ إلى سبب اختلاف هذه الطبائع الداخليّة والعوامل ، فما هي العلّة في اختلافها المؤدّية إلى اختلاف الآثار ؟ وتنتهي بالآخرة إلى المادّة المشتركة بين الكلّ المتشابهة الأجزاء ، ومثلها لا يصلح لتعليل هذا الاختلاف المشهود ، فليس إلّا أنّ هناك سبباً فوق هذه الأسباب أوجد هو المادّة المشتركة ، ثمّ أوجد فيها من الصور والآثار ما شاء . وبعبارةٍ أُخرى : هناك سبب واحد ذو شعور وإرادة تستند هذه الاختلافات إلى إراداته المختلفة ، ولولاه لم يتميّز شيء من شيء ، ولا اختلف في شيء هذا .

ومن الواجب على الباحث المتدبّر في هذه الآيات أن يتنبّه أنّ استناد

اختلاف الخلقة إلى اختلاف إرادة الله سبحانه ليس إبطالاً لقانون العلّة والمعلول كما ربّما يتوهّم ، فإنّ إرادة الله سبحانه ليست صفة طارئة لذاته كإرادتنا ، حتّى تتغيّر ذاته بتغيّر الإرادات ، بل هذه الإرادات المختلفة صفة فعله ومنتزعة من العلل التامّة للأشياء ، فليكن عندك إجمال هذا المطلب حتّى يوافيك توضيحه في محلّ يناسبه إن شاء الله» .

إلى أن يصل إلى قوله : «وقد ظهر ممّا تقدّم أنّ الآية إنّما سبقت حجّة لتوحيد الربوبيّة لا لإثبات الصانع أو توحيد الذات ، وملخّصها أنّ اختلاف الآثار في الأشياء مع وحدة الأصل يكشف عن استنادها إلى سبب وراء الطبيعة المشتركة المتّحدة وانتظامها عن مشيّته وتدبيره ، فالمدبّر لها هو الله سبحانه ، وهو ربّها لا ربّ غيره ، فما يتراءى من المفسّرين أنّ الآية مسوقة لإثبات الصانع في غير محلّه .

على أنّ الآيات على ما يظهر من سياقها مسوقة للاحتجاج على الوثنيّين ، وهم إنّما يُنكرون وحدة الربوبيّة ، ويثبتون أرباباً شتّى ، ويعترفون بوحدة ذات الواجب الحقّ عزّ اسمه ، فلا معنى للاحتجاج عليهم بما ينتج أن للعالم صانعاً . وقد تنبّه به بعضُهم فذكر أنّ الآية احتجاج على دهريّة العرب المنكرين لوجود الصانع ، وهو مردود بأنّه لا دليل من ناحية سياق الآيات يدلّ على ما ادّعاه» .

إلى أن يقول : «في «تفسير العيّاشيّ» عن الخطّاب الأعور ، رفعه إلى أهل العلم والفقه من آل محمّد عليهم السلام ، قال : **وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ** ، يعني هذه الأرض الطيّبة تجاور مجاورةً هذه الأرض المالحة وليست منها ، كما يجاور القومُ القومَ وليسوا منهم .

وفي «تفسير البرهان» عن ابن شهرآشوب ، عن الخركوشيّ في «شرف المصطفى» ، والثعلبيّ في «الكشف والبيان» ، والفضل بن شاذان في

«الأمالي» ـ واللفظ له ـ بإسناده عن جابر بن عبد الله قال : سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول لعليّ عليه السلام :

النَّاسُ مِنْ شَجَرٍ شَتَّى ، وَأَنَا وَأَنْتَ مِنْ شَجَرَةٍ وَاحِدَةٍ . ثُمَّ قَرَأَ : «جَنَّـٰتٌ مِنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ» : بِالنَّبِيِّ وَبِكَ .

قال : ورواه النطنزيّ في «الخصائص» عن سلمان . وفي رواية : **أَنَا وَعَلِيٌّ مِنْ شَجَرَةٍ ؛ وَالنَّاسُ مِنْ أَشْجَارٍ شَتَّى .**

قال صاحب «البرهان» : وروى حديث جابر بن عبد الله **الطبرسيُّ** [في «مجمع البيان»] ، و**عليّ بن عيسى** في «كشف الغمّة» .

ثمّ قال سماحة الأُستاذ قدّس الله رَمْسَهُ بعد نقل هذه العبارات عن تفسير «البرهان» :

«أقول : ورواه في «الدرّ المنثور» عن الحاكم وابن مردويه عن جابر ، قال : سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم يقول :

يَا عَلِيُّ ! النَّاسُ مِنْ شَجَرٍ شَتَّى ؛ وَأَنَا وَأَنْتَ يَا عَلِيُّ مِنْ شَجَرَةٍ وَاحِدَةٍ .

ثُمَّ قَرَأَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَهُ عَلَيْهِ [وَآلِهِ] وَسَلَّمَ : «وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ».[1]

والخلاصة ، فإنّ التأمّل في قوله تعالى في هذه الآية **يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ** يفتح لنا عالماً من أبواب المعرفة ، ويوضّح لنا كيفيّة ربط القديم بالحادث ، ويبيّن مسألة الكثرة في الوحدة والوحدة في الكثرة ، ويجعل ربوبيّة ذات الخالق الواحد الأقدس لجميع الممكنات بلا استثناء أمراً مشهوداً جليّاً ،

١ـ «الميزان في تفسير القرآن» ج ١١ ، ص ٣٢٢ إلى ٣٢٥ .

ولو أراد امرؤ حقّاً أن يوفي تفسير هذه الآية الكريمة المباركة حقّه ، فعليه أن يؤلّف كتاباً في ذلك .

كما أنّ عالماً من معرفة حقيقة الولاية وشهودها سيتّضح من خلال هذه الرواية التي نُقلت مؤخّراً ، والتي فسّر فيها رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم عبارة : **يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ** بنفسه وبأمير المؤمنين عليهما الصلاة والسلام ، حيث سيتجلّى عياناً كيف أنّ جميع كثرات هذا العالم وجميع نفوس عباد الله ، أخيارهم وأشرارهم ، وسعداؤهم وأشقياؤهم ؛ من جنّ وإنس وملائكة ، ومن أصناف الحيوانات وأنواع الجمادات ، ومن نور وبرق وموج ، والروابط الدقيقة بين الذرّات والأحكام العجيبة الجارية في ناموس المادّة والحياة ، متفرّعة بأسرها وبأجمعها من ولاية رسول الله وولاية عليّ بن أبي طالب عليهما الصلاة والسلام ، وولايتهما ولاية واحدة .

وأحد الموارد التي يدعونا فيها القرآن إلى السير والتجوال في الآيات الآفاقيّة وفي عالم الطبيعة ، ثمّ يتحوّل للدعوة إلى توحيد ذات الحقّ وإلى الخضوع والعبوديّة المطلقة أمام عظمة عرشه ، هو الآيات التالية :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ * إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ[1]. (أي يؤدّي حقّ

١ـ الآيات ٢٧ إلى ٣٠ ، من السورة ٣٥ : فاطر .

شكر العباد) .

وتدعونا هذه الآيات **أوّلاً** إلى سرّ التوحيد في ربوبيّة الحقّ ، من اختلاف أنواع الثمار وأصنافها ، واختلاف الخطوط والعروق البارزة في الجبال التي تميّز طبقاتها عن بعضها بألوان مختلفة ، واختلاف الناس والحيوانات وأقسام الضأن والبقر والإبل .

وتذكّرنا **ثانياً** أنّ العلماء من بين جميع الناس هم الذين يدركون هذا الارتباط المدهش ، ويشاهدون نور وحدة الحقّ في مظاهر الكثرات .

وتبيّن **ثالثاً** أنّ المراد بالعلماء مَن يتلو القرآن ويقيم الصلاة وينفق من أمواله سرّاً وعلانية في سبيل المحبوب والمعشوق الأزليّ الأبديّ .

ومن هنا يتّضح معنى العالِم ، ويتّضح كذلك المراد بالعلم ، ويتبيّن أنّه الارتباط الوثيق بكتاب الله تعالى والخضوع لعبوديّته ، من خلال الدعاء والتضرّع إلى ساحته عزّ وجلّ ، والإنفاق والإيثار في سبيله ، لا مجرّد الذهاب إلى الدرس وتعلّم الكتاب والقراءة ومعرفة العلوم الفكريّة . فتلك الأُمور ليست علماً ، وليس أصحابها من العلماء . ولو شوهد أفراد من هذه الزمرة في عصر من العصور يُطلقون على أنفسهم هذه التسمية ، فذلك من باب إلباس الباطل لباسَ الحقّ ، وهو تصوّر إبليس في هيئة الآدميّين .

وينبغي ـ بناء على منطق القرآن القويم ـ أن يقسّم الذين يحملون اسم العلماء إلى طائفتَينِ :

الأُولى : طائفة العلماء الحقيقيّين الذين يتعاملون مع القرآن حسب مصداق هذه الآية ، فيتلون آياته ، فتستقرّ في نفوسهم وقلوبهم ، وتزكّي تلك النفوس وتذكّيها [1] وتوصلها إلى الخضوع والخشوع الحقيقيّين ، وتجعلهم

١ـ **التذكية** (بالذال) من مادّة ذكاة ، وتعني التطهير . أمّا **التزكية** (بالزاي) فمن مادّة ⇦

يحسّون بالانكسار والصَّغار في مقابل عظمة الحقّ وأُبّهته وجلاله .

الثانية : العلماء الشكليّون الذين تنحصر معرفتهم بالقواعد وأحكام التفسير والفقه والأُصول والحِكَم ، والذين يُحكِمون الظواهر والشكليّات ، لكنّ هذه العلوم لم تستقرّ في أرواحهم ، ولم تبلغ صُقع نفوسهم ، فقد عدّوا العلم وسيلة للجاه والرئاسة ، فباعوا الحقيقة والوجدان والعاطفة والآخرة ورسول الله والقرآن وكلّ المقدّسات بثمن بخس من أجل التفوّق على الآخرين .

وأمثال هؤلاء هم الذين عبّر عنهم القرآن بأنّهم تنزّلوا وانحطّوا إلى ما دون البهائم ، وقال عنهم **أُولَـٰئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ** ؛[1] **نَعُوذُ بِاللَهِ مِنْ سَطْوَةِ جَلَالِهِ وَعَظَمَةِ قَهْرِهِ**.

إنّ تلاوة القرآن والتدبّر والتفكّر في آياته يجعلنا **محمّديِّينَ** ، ويوصلنا إلى القرآن ويجعلنا فانين فيه ومندكّين ، لأنّ القرآن هو أُنموذج وبيان وممثّل للنفس المحمّديّة والأخلاق المحمّديّة .

القرآن هو ممثّل ومُظهر ذلك الخُلق العظيم ؛ وذلك الخُلق العظيم منطبق على لطائف وظرائف آيات القرآن . ولقد وصف الله نبيّه في قرآنه الكريم بالأخلاق العظيمة ، فقال : **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**.[2]

ومدح نبيّه بشرح الصدر ، وهو كناية عن قابليّة تحمّل أصعب المشكلات ، وقابلية أعلى درجة من الفيوضات ، فقال تعالى :

⇦ زكاة، وتعني النموّ والرشد والازدياد.

١ـ مقطع من الآية ١٧٩ ، من السورة ٧ : الأعراف وتمام الآية كالتالي : **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَـٰئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَـٰئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ** .

٢ـ الآية ٤ ، من السورة ٦٨ : القلم .

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (لتحمّل ثقل الوحي وعناء الرسالة العظيمة) **وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ** * (وهو الالتفات إلى الكثرات بواسطة سطوع نور التوحيد) **ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ**.[1]

ولو تأمّلنا في تعاليم القرآن الأخلاقيّة ، لوجدنا أنّه يهدي عالَم البشريّة إلى أعلى مرتبة من التوحيد بدقّة متناهية ومُراقبة عميقة ، ولاكتشفنا أَيَّةَ عقبات صعبة ومزالق خطرة يزيحها من طريق البشر !

وتكفينا نظرة واحدة إلى أحد التعاليم القرآنيّة ـ وهو في أمر الإنفاق وكيفيّته ـ لتقودنا إلى هذه النكتة .

فالقرآن الكريم **أوّلاً** لا يُمضي ولا يقرّ الإنفاق في جميع صوره وأشكاله ، ويُعلن بصراحة أنّ الإنفاق ينبغي أن يكون في سبيل الله تعالى وبقصد إعلاء كلمة الدين وحفظ المؤمنين من تلاعب أيدي الشياطين . وبعبارة موجزة فإنّ الإنفاق ينبغي أن يكون **في سبيل الله** تعالى ، **لا في سبيل الطاغوت**.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ (فيخسرون دُنياهم) **وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ**.[2]

مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ (فلم ينتفعوا به) **وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**.[3]

١ـ الآيات ١ إلى ٣ ، من السورة ٩٤ : الانشراح .

٢ـ الآية ٣٦ ، من السورة ٨ : الأنفال .

٣ـ الآية ١١٧ ، من السورة ٣ : آل عمران .

وبغضّ النظر عن ذلك ، فإنّ القرآن يبيّن أنّ الإنفاق ينبغي أن يتوسّط حدّي الإسراف والتقتير ، فيعدّ من صفات عباد الرحمن :

وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا.[1]

وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا.[2]

روى سماحة الأُستاذ قدّس الله رَمْسَه في تفسيره عن «تفسير القمّيّ» عن الإمام الصادق عليه السلام ، قال : **المحسور** العريان .

وفي «الكافي» بإسناده عن عجلان ، قال : كنتُ عند أبي عبد الله عليه السلام فجاء سائل ، فقام إلى مكتل فيه تمر فملأ يده فناوله ، ثمّ جاء آخر فسأله فقام فأخذ بيده فناوله ، ثمّ آخر ، فقال : **اللَهُ رَازِقُنَا وَإيَّاكَ !**

ثمّ قال (الإمام) : إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم كان لا يسأله أحد من الدنيا شيئاً إلّا أعطاه ، فأرسَلَتْ إليه امرأة ابناً لها ، فقالت : فاسأله فإن قال : ليس عندنا شيء ، فقل : أعطني قميصك .

قال : فأخذ قميصه فرماه إليه ـ وفي نسخة أُخرى : وأعطاه ـ فأدّبه الله تبارك وتعالى على القصد فقال : «وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ ... الآية» . قال (الصادق عليه السلام) : **الإحسار** الفاقة . يقول **محمّد أحمد جاد المولى بيك** في كتابه الممتع والنفيس «**محمّد المثل الكامل**» :

«جاء في «البخاري» أنّه صلّى الله عليه [وآله] وسلّم أُتِي بمالٍ من البحرين ، فقال : انثروه ! ـ وكان أكثر مالٍ أُتي به ـ فخرج صلّى الله عليه [وآله] وسلّم إلى المسجد ولم يلتفت إليه ؛ فلمّا قضى الصلاة جاء فجلس

١ـ الآية ٦٧ ، من السورة ٢٥ : الفرقان .

٢ـ الآية ٢٩ ، من السورة ١٧ : الإسراء .

إليه ، فما كان يرى أحداً إلّا أعطاه ، وما قام عليه الصلاة والسلام وثَمَّ منها درهم .

وأتته امرأةٌ ببُردة ، فقالت : يا رسول الله ! أكسوك هذه . فأخذها صلّى الله عليه [وآله] وسلّم محتاجاً إليها فلبسها ، فرآها عليه رجلٌ من أصحابه ، فقال : يا رسول الله ! ما أحسن هذه ! فاكسنيها . فقال : نعم . فلمّا قام عليه الصلاة والسلام لام الصحابة هذا السائل قائلين له : إنّك تعرف أنّ النبيّ محتاج إليها ، وأنّه لا يُسأل عن شيءٍ فيمنعه .

وقد شكت إليه ابنته **فاطمة** ما تلقى من خدمة البيت ، وطلبتْ منه خادماً يكفيها مؤنة بيتها ، فأمرها أن تستعين بالتسبيح والتكبير والتحميد ، وقال : «**لَا أُعْطِيكِ وَأَدَعَ أَهْلَ الصُّفَّةِ تُطْوَى بُطُونُهُمْ مِنْ الجُوعِ !**».[1]

وقد جاء في القرآن الكريم أنّ المرء إن لم يكن لديه ما يعطيه ذوي قرباه والمساكين وابن السبيل ، فعليه ـ على أقلّ تقدير ـ أن يكلّمهم بلطف وأن يعدهم خيراً على أمل رحمة الله تعالى وفضله ومنّه ، فيسرّ بذلك قلوبهم :

وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا * وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا.[2]

وقد وردت أربع عشرة آية متعاقبة في سورة البقرة المباركة في الآداب والإخلاص في النيّة ، وفي الثواب والأجر ، وفي ميزان الإنفاق في

١ـ «محمّد صلّى الله عليه [وآله] وسلّم المثل الكامل» ص ١٩ ، الطبعة الثانية ، سنة ١٣٥١هـ .

٢ـ الآيات ٢٦ إلى ٢٨ ، من السورة ١٧ : الإسراء .

سبيل الله تعالى ؛ وهي آيات تشكّل عالَماً في الأخلاق ، وتظهر سطوع القرآن الكريم إلى الأبد :

١ ـ **مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ.**

٢ ـ **ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ.**

٣ ـ **قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ.**

٤ ـ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ.**

٥ ـ **وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.**

٦ ـ **أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ** (وهو مثال كمن ينفق ماله رياءً ومنّاً وأذىً) **كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ.**

٧ ـ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ.**

٨ ـ **ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ**

وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ.

٩ـ **يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُولُوا ٱلْأَلْبَٰبِ.**

١٠ـ **وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ** (وإن لم تنفقوا على الفقراء والبائسين وتركتموهم مُعدمين، فاعلموا أنّ ذلك ظلم) **وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ.**

١١ـ **إِن تُبْدُوا ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ.**

١٢ـ **لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ** (بل عليك الدعوة والبلاغ) **وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ.**

١٣ـ **لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ.**

١٤ـ **ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ.**[١]

والإنفاق من الأعمال المعدودة من الأخلاق، إن كان للّه تعالى، ولم يكن رياءً وسُمعةً، ولم يستتبع منّاً من المنفِق وأذى للمنفق عليه، وكان الإنفاق من المال الحلال وممّا يحبّه الفرد المنفِق، فقد ورد في القرآن الكريم:

لَن تَنَالُوا ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ

١ـ الآيات ٢٦١ إلى ٢٧٤، من السورة ٢: البقرة.

عَلِيمٌ .[١]

و إذا كان الإنفاق سرّاً في الموضع المناسب ، وكان جهراً في الموضع المناسب ، وكان من أفضل كسب المنفِق الذي اكتسبه بالعمل والجدّ ، وبلغ مَن يستحقّه ، وهو مَن يمنعه حياؤه وعفّته أن يُطلع أحداً على حاله ؛ فإنّ الإنفاق سيُعدّ حينذاك من مكارم الأخلاق التي انتهجها الأنبياء ، والتي بُعث الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم لتكميلها .

يقول **جاد المولى بيك** : «وقد كان الأنبياء في مقدّمة المتّصفين بها (أي بمكارم الأخلاق) ، وقد حثّ القرآن على ذلك في آيات كثيرة تتجاوز المئات . وقد صرّح النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم بذلك في قوله **بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ**.

وقوله : **إِنَّ ٱلْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ القَائِمِ**.

وقوله : **إِنَ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقاً**.

وقوله : **أَكْمَلُ المُؤْمِنِينَ إِيمَاناً أَحْسَنُهُمْ أَخْلَاقاً**.

وقوله : **مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الجَنَّةِ**.

وكان من دعائه صلّى الله عليه وآله وسلّم إذا نظر في المرآة أن يقول :

اللَهُمَّ كَمَا حَسَّنْتَ خَلْقِي فَحَسِّنْ خُلُقِي !

وكان يستعيذ من سوء الأخلاق ، فيقول : **اللَهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشِّقَاقِ وَالنِّفَاقِ وَسُوءِ الأَخْلَاقِ**».[٢]

ويستنتج ممّا مرّ أنّ الأخلاق القرآنيّة قائمة على أساس التوحيد

١ـ الآية ٩٢ ، من السورة ٣ : آل عمران .

٢ـ «محمّد المثل الكامل» ص ٢٣٢ و ٢٣٣ ، الطبعة الثانية .

وعلى بناء النفس البشريّة على أساس النظر إلى وحدة تجلّيات الحقّ في جميع مظاهر عالم الإمكان .

إنّ القرآن الكريم يعتبر الإنسان مخلوقاً مرتبطاً بجميع الموجودات الأُخرى ،كما يعتبر روح الإنسان مرتبطة بجميع الأشياء ، بحيث يرى نور الحقّ المتعال سارياً في الإنسان وفي جميع الأشياء بأسرها ، ويسوق الإنسان إلى التوحيد في العقيدة والأخلاق عن طريق النظر والتأمّل والتفكّر في مخلوقات عالم الخلقة التي لا تُحصى .

والأخلاق القرآنيّة من أسمى وأرفع الأخلاق الكريمة ، حيث تبني الوجود الإنسانيّ على نور توحيد الحقّ ، وبالنظر إلى وحدة ذاته القدسيّة ، ووحدة صفاته وأسمائه ، ووحدة أفعاله في كلّ شيء ، وتُقيم لبنات هذا البناء الروحي الشامخ على هذا الأساس والأصل .

ولذلك ، فإنّ الأخلاق المكتسبة من القرآن ليست منفصلة عن عالم الخلقة والأُمور الطبيعيّة والتجريبيّة ومشاهدات عالم الخلقة ،كما أنّ عالم الخلقة وهذه السلسلة المتطاولة من الموجودات العجيبة المعقّدة ليست بدورها منعزلةً منفكّة عن روح الإنسان ؛[1] فهي ممتَزجة مع بعضها امتزاج

١ـ يقول المستشار عبد الحليم الجندي في كتاب «الإمام جعفر الصادق» ص ٢٩٤ :

وفي منهج الاعتبار بالواقع أو بالآثار الدالّة على المطلوب «واقعيّة» أدنى إلى التصديق من مجازفات الفكر . وفي الواقع المادّي ضمان أن لايبعد الاستخلاص من الملموس والمحسوس بالحواس الخمس . وهذه الواقعيّة أو النزاهة الفكريّة ، تسبق واقعيّة أُوجست كومت* بقرون عشرة ، وعقلانيّة ديكارت** بقرون تسعة ، كما تسبق جون سيتورات مل*** في نظريّة اطِّراد العلل بقرون عشرة . وبهذه القرون يُقاس سبق الحضارة الإسلاميّة.

* أُوجست كومت Auguste Comte ١٧٩٨ ـ ١٨٥٧ صاحب الفلسفة الواقعيّة في ⇦

السكّر واللبن ، وهي مرتضعةً من ثدي واحد .

ومن خصائص القرآن العظيم أنّه يعتبر الدعوة إلى العلوم التجريبيّة والتفكّر في الأُمور المادّيّة والطبيعيّة والظواهر الآفاقيّة سبيلاً للتكامل المعنويّ والارتقاء الشهوديّ وبلوغ مقام العرفان الإنسانيّ لظهور النور المطلق والوحدة الحقّة الحقيقيّة لذات الحقّ المتعال القدسيّة .[1]

تأمّلوا في الآيات التالية في سورة **النحل** المباركة :

⇦ القرن الماضي. انتفع بمؤلّفات لبنتز وديكارت وفرنسيس بيكون والقدّيس توماس الأكوينيّ وروجير بيكون ، والأخيران من أكبر مَن نشروا العلم الإسلاميّ وتأثّروا به . وكثير من كتاباتهما تَستعمِل تعبيرات إسلاميّة.

** جون ستيوارت مل ١٨٠٦ ـ ١٨٧٣ .

*** ديكارت Rene Descartes (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠).

١ـ يقول عبد الحليم الجندي في كتاب «الإمام جعفر الصادق» ص ٢٩٥ :

وربّما كان الكلام المنقول عن جابر بن حيان أوضح كلام في الدلالة على المنهج التجريبيّ الذي تعلّمه في مجلس الإمام أو من كتب الإمام.

يخاطب جابر الإمام في مقدّمة كتابه «الأحجار» بقوله **وحقّ سيّدي ! لولا أنّ هذه الكتب باسم سيّدي صلوات الله عليه لما وصلتُ إلى حرفٍ من ذلك إلى الأبد.**

ويقول جابر في كتابه «الخواصّ» عن طريقته : **اتعبْ أوّلاً تعباً واحداً . واعلمْ . ثمّ اعملْ . فإنّك لا تصل أوّلاً . ثمّ تصل إلى ما تريد.**

وفي كتابه «السبعين» يقول : **مَن كان دَرِباً (مجرّباً) كان عالماً حقّاً . ومن لم يكن درباً لم يكن عالماً . وحسبك بالدُّرْبَة في جميع الصنائع أنّ الصانع الدرب يَحذِق وغير الدرب يُعطِّل.**

ويحصل جابر طريقته في عبارته المأثورة : **عملته بيدي . وبعقلي . وبحثته حتّى صحّ وامتحنته فما كذب.**

وفي هذا المقام يقول أُستاذ الفلسفة الإسلاميّة المعاصر في جامعة القاهرة. د.زكي نجيب محمود: **فلو شئتَ تلخيصاً للمنهج الديكارتيّ كلّه لم تجد خيراً من هذا النصّ الذي أسلفناه عن جابر.**

وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ * وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا (خبيثاً) وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ.[1]

إلى أن يصل إلى قوله تعالى :

وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ * وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ.[2]

فهو في جميع هذه الآيات يذكر آثاره ونعمه ثمّ يبيّن بأنّ كلّ ذلك من أجل التفكّر والتعقّل والشكر والتسليم له سبحانه . أي أنّ جميع ذلك ينبغي أن يُعَدّ آيةً ، فتشاهد في هذه الآية ذاته القدسيّة وربوبيّته

١ـ الآيات ٦٥ إلى ٦٩ ، من السورة ١٦ : النحل .

٢ـ الآيات ٧٨ إلى ٨١ ، من السورة ١٦ : النحل .

الواحدة .

بــرگ درخــتان ســبز در نــظر هــوشيار
هر ورقش دفترى است معرفت كردگار[١]

ولقد أبدع شيخ العرفاء : محيي الدين بن عربي حين قال :

فَانْظُرْهُ فِي شَجَرٍ وَانْظُرْهُ فِي حَـجَرٍ
وَانْظُرْهُ فِي كُـلِّ شَـيْءٍ ذَلِكَ اللَـهُ[٢]

أمّا الفيلسوف والحكيم : الحاج الملّا هادي السبزواريّ ، فما أجـمل وما أرقى ما أنشد حين قال :

اى بــه ره جســتجوى ، نـعره زنـان دوست دوست
گر به حرم ور به دير ، كيست جز او ؟ اوست اوست
پــــرده نـــدارد جــــمال ، غــير صــفات جــلال
نيست بر اين رخ نقاب ، نيست بر اين مـغز پـوست
جــــامه دران گُـــــل از آن ، نـــعره زنــان بـلبلان
غنچه ببيچد به خود ، خون به دلش تُو بـه تُـوست[٣]

١ـ يقول : «إنّ كلّ ورقة من أوراق الأشجار الخضراء هي في نظر العاقل النابه دفتر في معرفة الصانع».

٢ـ «ديوان ابن عربي» ص ٢١٦ ، طبعة بولاق ـ مصر ، سنة ١٢٧١ .

٣ـ ديوان «أسرار» ص ٣٨ و ٣٩ ، طبعة إصفهان .

يقول : «أيّها السالك طريق البحث ، صارخاً : أين الحبيب ؟ مَن سواه ـ يا ترى ـ في الحرم أو في الدير؟!

لا ساتر للجمال إلّا الجلال ، فهذه الطلعة سافرة بلا نقاب ، وهذا اللبّ بارز دونما قشر.

الوردة منه تشقّ أكمامها ، والبلابل تصدح بألحانها ، والبرعمة تـتلوّى والدمـاء فـي أعماق قلبها».

دم چو فرو رفت هاست ، هـوست چـو بـيرون رود
يـعنى از او در هــمه ، هـر نـفسى هـاى و هـوست
يــار بــه كـوى دلست ، كـوى چـو سـرگشته گـوى
بحر به جوى است و جوى ، اين همه در جستجوست
بـــا هـــمه پـــنهانيش ، هست در أعــيان عــيان
بــا هــمه بـىرنگيش ، در هـمه زو رنگ و بـوست
يـــار در ايـــن انــجمن ، يــوسف ســيمين بــدن
آيـــنه خـــانه جـــهان ، او بــهمه رو بــه روست
پـــرده حــجازى بســاز ، يــا بــه عــراقــى نــواز
غــير يكــى نــيست راز ؛ مــختلف از گــفتگوست
مـــخزن اســـرار اوست ، ســـرّ ســـويداى دل
در پِـيَش **أســرار** بـاز ، در بـدر و كـو بـه كـوست[1]

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ[2]

١ـ يقول : «صوتا الشهيق والزفير يعنيان أنّ منه في الجميع في كلّ نَفَس صوتاً.
الحبيب في جادّة القلب ، والجادّة كالدائرة التائهة ؛ والبحر متّصل بالجدول ، والجدول يفتّش عنه بلا انقطاع.
وهو مع كلّ استتاره ظاهر عياناً في الأعيان ؛ وهو بلا لون ، لكنّ في الكلّ منه لونٌ وعطر.
الحبيب في هذا المحفل كيوسف ذي البدن الفضّيّ ، أشبه بمرآة العالم إذ الكلّ ناظر إليه.
فاصنع ستارةً حجازيّة ، أو غنِّ لحناً عراقيّاً ، فلا سرّ إلّا سرّ واحد وإن اختلفت الألسن في التعبير.
هو مخزن الأسرار وسرّ سويداء القلب ، والأسرار لديه مُعلنة تائهة متحيّرة».
٢ـ ورد في تعليقة السبزواريّ على «الأسفار» ج ٦ ، ص ١٠٨ ، الطبعة الحروفيّة ، ⇦

هذه هي حقيقة توحيد الحقّ تعالى ، المتحقّق في أسمائه وصفاته وأفعاله .

دار البحث يوماً في أحد المجالس في طهران مع أحد العلماء ، وكان شيخاً كبيراً يمتّ لي بصلة قرابة ؛ فتباحثنا في أمر التوحيد الأفعاليّ للحقّ تعالى . وكان الرجل لم يسبق له دراسة الفلسفة والحكمة ، وكان يطعن في العرفاء أحياناً ، وقد انتقل إلى رحمة الله تعالى .

وقد انجرّ بنا الكلام إلى أن خاطبني بعصبيّة شديدة : أتقول إنّ وضع الطفل من قِبَل أُمّه هو أيضاً من فِعل الله ؟!

ثمّ مدّ يديه أمامه ، كأنّه يمسك امرأةً ، ثمّ قال : انظر ! ها هي المرأة قد أفرجت بين رجليها فانساب الطفل ساقطاً ، أفهذا أيضاً من فِعل الله ؟!

قلتُ بلا مكث : أنا لا أقول ذلك ، بل الله يقوله :

وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا.[1]

فحين يصرّح بأنّ المُخرِج هو الله ، وأنّ جميع سلسلة العلل الطبيعيّة وحالة انعطاف الرحم وعمل القابلة وسلسلة الأعمال الطويلة اللازمة لولادة الطفل هي معلولة ومحكومة للّه تعالى ومسخّرة لأمره وإرادته ، وأنّه هو الذي يقوم بهذا العمل في الحقيقة ، فهل يمكنني أن أُنكر ؟!

فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ، ولم يفه البائس بجواب أمام الدليل الفلسفيّ القرآنيّ .

كنتُ يوماً لدى أحد العلماء الآيات في قم ، وكان ذلك العالم أُستاذاً للحقير في بعض الدروس ، وكان قد درس ـ فيما درس ـ الفلسفة ، إلّا أنّه

⇦ وقد استشهد به.

١ـ صدر الآية ٧٨ ، من السورة ١٦ : النحل .

كان لديه إشكال في مسألة توحيد الأفعال وفناء السالك في مشيئة الله المتعال وإرادته ، وفي تجلّي الحقّ تعالى . فدار بنا الحديث في ذلك الموضوع ، فالتفت إليّ قائلاً : أنا لا أفهم كيف يكون الجِماع فعلاً للّه تعالى ؟! لا أفهم كيف يُتصوَّر أنّ الشخص في تلك الحال يمكن أن يستغرق في الله تعالى بحيث لا يرى سواه ، ولا يسمع سواه ، ولا يفعل إلّا فعله ؟

فأجبته : ماذا تقول في الأئمّة الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين ؟ ألم يكونوا يُجامعون ؟ أكانوا في تلك الحال غافلين عن الله تعالى ؟ أفكان همّهم في ذلك العمل هو الشهوة الحيوانيّة ؟

قال : دَعْ عنك الأئمّة ، ولا تقس عملهم بغيرهم !

فقلت : إنّ المسألة تكمن في هذا الأمر ، إذ لا يمكننا أن نغضّ النظر عن ذلك . فلو كان ذلك ممكناً لهم ومتحقّقاً ، لوجب أن يُمكن في غيرهم . ولو بلغتْ بهم حالهم النورانيّة وسيرهم التكامليّ بحيث انطبقت عليهم مقولة : **مَا رَأَيْتُ شَيْئاً إلَّا وَرَأَيْتُ اللهَ مَعَهُ** ؛[1] فإنّ الفرق سيزول حينذاك بين الجِماع وبين العبادة والبكاء ، وبين الكسب والتجارة والزراعة ، فتصبح تلك الأُمور من مقولة واحدة .

ولقد أجاد العارف : شمس الدين المغربيّ وأبدع حين صاغ هذا المطلب في غزليّاته ، فقال :

اى جمله جهان در رخ جان بخش تو پيدا
وى روى تو در آينهٔ كون هويدا[2]

١ـ وردت هذه الرواية مع مصادرها في كتاب «توحيد علمى وعينى» (=التوحيد العلميّ والعينيّ) ص ١٩١ و١٩٢ ، الطبعة الأُولى ، انتشارات حكمت.

٢ـ «ديوان مغربي» ص ٨ ، طبعة المكتبة الإسلاميّة.

يقول : «العالَم كلّه مجموع في طلعتك المُحيية ، يا مَن ظهرتْ طلعتك في مرآة ⇦

تــا شــاهد حســن تـو در آئينه نـظر كـرد
عكس رخ خـود ديـد و بشـد واله و شـيدا
هــر لحـظه رُخت داد جـمالى رخ خـود را
بر ديدۀ خـود جـلوه بـه صد كسـوت زيـبا
از ديـــدۀ عُشّـــاق بـــرون كـــرد نگــاهى
تــا حســن خـود از روى بُـتان كـرد تـماشا
رويت ز پــى جـلوه‌گـرى آيـنه‌اى سـاخت
وان آيـــنه را نـــام نـــهاد آدم و حـــوّا
حســن رخ خـود را بـهمه روى در او ديـد
زان روى شـــد او آيـــنۀ جـــملۀ أســما
اى حسن تـو بـر ديـدۀ خـود كـرده تـجلّى
در ديـدۀ خـود ديـده عـيان چـهرۀ خـود را
چون ناظر و منظور توئى ، غير توكس نيست
پس از چه سبب گشت پديد اينهمه غوغا[1]

⇦ الكون جليّة».

١ـ يقول : «ما إن نظر شاهِدُ حُسنك في المرآة ، حتّى لمح محيّاه ، فاستهام والهاً.
لقد أضفى محيّاك على نفسه جمالاً جديدة كلّ لحظة ، فتجلّى لناظرَيْك بألف رداءٍ بديع.
ولقد تطلّع من أعين العشّاق ناظراً ، ليتأمّل حسنه في وجوه الحسان المعبودين.
ومن أجل أن يتجلّى وجهك ، فقد صنع مرآة يتجلّى فيها ، ودعاها بآدم وحوّاء.
فشاهد حسنه فيها من كلّ الوجوه ، فمن ثَمّ صار آدم مرآةً لجميع الأسماء.
فيا مَن تجلّى حسنُك لناظرَيْك ، فرأى بناظرَيه وجهه عياناً.
أنت الناظر والمنظور ، فليس ثمّة سواك ، فمن أين نشأت كلّ هذه الضجّة والزحام ؟!».

ای **مــــغربی** آفــــاق پــر از ولوله گــردد

سلطان جمالش چو زند خیمه بـه صـحرا[1]

لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ (العظيم الشأن، الرفيع المنزلة) **عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** (ويُدركون عظمته وجلاله).[2]

ولمّا كان كلّ شيءٍ صلب مستعصٍ على الكسر يُمثَّل بالحجر؛ فإنّ الله تعالى يقول: لقد أنزلنا هذا الكلام الإلهيّ بعظمته وأُبّهته وجلاله على الإنسان، فعلى نفسه وروحه أن تتقبّله بأعلى درجة وأكملها، وأن تتلقّاه بذلّة وخشوع، لأنّنا لو أنزلناه على جبلٍ لتصدّع وتحطّم. ومن هنا يُلاحظ بأنّ الذين لا يقبلون القرآن ولا يتلقّونه بأرواحهم وقلوبهم، لهم نفوس وقلوب أقسى من الحجر وأشدّ صلابة.

يقول المعلّم الذي جسّد حقيقة القرآن: أبو عبد الله الحسين سيّد الشهداء عليه السلام في دعاء عرفة في أرض عرفات:

إلَـٰهِي! عَلِمْتُ بِاخْتِلَافِ الآثَارِ وَتَنَقُّلَاتِ الأَطْوَارِ، أَنّ مُرَادَكَ مِنِّي أَنْ تَتَعَرَّفَ إلَيَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى لَا أَجْهَلَكَ فِي شَيءٍ!

إلى أن يقول: **إلَهِي! تَرَدُّدِي فِي الآثَارِ يُوجِبُ بُعْدَ المَزَارِ، فَاجْمَعْنِي عَلَيْكَ بِخِدْمَةٍ تُوصِلُنِي إلَيْكَ! كَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَيْكَ بِمَا هُوَ فِي وُجُودِهِ مُفْتَقِرٌ إلَيْكَ؟ أَيَكُونُ لِغَيْرِكَ مِنَ الظُّهُورِ مَا لَيْسَ لَكَ حَتَّى يَكُونَ هُوَ المُظْهِرَ لَكَ؟ مَتَى غِبْتَ حَتَّى تَحْتَاجَ إلَى دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ؟ وَمَتَى بَعُدْتَ حَتَّى تَكُونَ**

١ـ يقول: «لقد امتلأت الآفاق ضجيجاً أيّها **المغربيّ**، حين نصب سلطان جماله خيمته في الصحراء».

٢ـ الآية ٢١، من السورة ٥٩: الحشر.

الآثَارُ هِيَ الَّتِي تُوصِلُ إلَيْكَ ؟

عَمِيَتْ عَيْنٌ لَا تَرَاكَ عَلَيْهَا رَقِيبًا ! وَخَسِرَتْ صَفْقَةُ عَبْدٍ لَمْ تَجْعَلْ لَهُ مِنْ حُبِّكَ نَصِيباً !

إلَهِي ! أمَرْتَ بِالرُّجُوعِ إلَى الآثَارِ ؛ فَارْجِعْنِي إلَيْكَ بِكِسْوَةِ الْأَنْوَارِ وَهِدَايَةِ الاسْتِبْصَارِ ، حَتَّى أرْجِعَ إلَيْكَ مِنْهَا كَمَا دَخَلْتُ إلَيْكَ مِنْهَا مَصُونَ السِّرِّ عَنِ النَّظَرِ إلَيْهَا ، وَمَرْفُوعَ الهِمَّةِ عَنِ الاعْتِمَادِ عَلَيْهَا ؛ إنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

إلى أن يقول : **أنْتَ الَّذِي أشْرَقْتَ الأنْوَارَ فِي قُلُوبِ أوْلِيَائِكَ حَتَّى عَرَفُوكَ وَوَحَّدُوكَ . وَأنْتَ الَّذِي أزَلْتَ الأغْيَارَ عَنْ قُلُوبِ أحِبَّائِكَ حَتَّى لَمْ يُحِبُّوا سِوَاكَ وَلَمْ يَلْجَأوا إلَى غَيْرِكَ . أنْتَ المُؤْنِسُ لَهُمْ حَيْثُ أوْحَشَتْهُمُ العَوَالِمُ ، وَأنْتَ الَّذِي هَدَيْتَهُمْ حَيْثُ اسْتَبَانَتْ لَهُمُ المَعَالِمُ.**

مَاذَا وَجَدَ مَنْ فَقَدَكَ ؟ وَمَا الَّذِي فَقَدَ مَنْ وَجَدَكَ ؟

إلى أن يصل إلى قوله : **أنْتَ الذَّاكِرُ قَبْلَ الذَّاكِرِينَ ! وَأنْتَ البَادِي بِالإحْسَانِ قَبْلَ تَوَجُّهِ العَابِدِينَ ! وَأنْتَ الْجَوَادُ بِالْعَطَاءِ قَبْلَ طَلَبِ الطَّالِبِينَ ! وَأنْتَ الْوَهَّابُ ثُمَّ لِمَا وَهَبْتَ لَنَا مِنَ الْمُسْتَقْرِضِينَ !**

إلى أن يقول : **أنْتَ الَّذِي لَا إلَهَ غَيْرُكَ . تَعَرَّفْتَ لِكُلِّ شَيْءٍ فَمَا جَهِلَكَ شَيْءٌ . وَأنْتَ الَّذِي تَعَرَّفْتَ إلَيَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ فَرَأيْتُكَ ظَاهِراً فِي كُلِّ شَيْءٍ. وَأنْتَ الظَّاهِرُ لِكُلِّ شَيْءٍ.**[١]

وهذه هي حالات اندكاك الإمام وفنائه في ذات الحضرة الأحديّة ، وهو أمر مشهود في هذه المناجاة . وبناءً على هذه الحالات والمَلَكات ، فإنّنا نقرأ في زيارته المطلقة :

١ـ ذيل دعاء عرفة تبعاً لرواية ابن طاووس في «الإقبال» ص ٣٤٨ إلى ٣٥٠.

إِرَادَةُ الرَّبِّ فِي مَقَادِيرِ أُمُورِهِ تَهْبِطُ إِلَيْكُمْ وَتَصْدُرُ مِنْ بُيُوتِكُمْ. [1]

ونقرأ في الدعاء بعد زيارة عاشوراء: **لَيْسَ لِي وَرَاءَ اللَّهِ وَوَرَاءَكُمْ يَا سَادَتِي مُنْتَهَى.** [2]

ونقرأ في زيارته عليه السلام: **بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي وَنَفْسِي يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ! أَشْهَدُ لَقَدِ اقْشَعَرَّتْ لِدِمَائِكُمْ أَظِلَّةُ العَرْشِ مَعَ أَظِلَّةِ الخَلَائِقِ وَبَكَتْكُمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَسُكَّانُ الجِنَانِ وَالبَرِّ وَالبَحْرِ.** [3]

وقد أنشد شاعر أهل البيت: فؤاد الكرمانيّ في هذا المضمون، فقال:

نور وجود از طلوع روی حسین است

ظلمت إمكان، سواد موی حسين است [4]

١ـ «تحفة الزائر» للمجلسيّ ص ٢٦٤، بسند معتبر عن الحسين بن ثُوير ويونس بن ظبيان عن الصادق عليه السلام؛ و«هديّة الزائرين» للمحدِّث القمّيّ، ص ٩٢، ويقول في ص ٩١: نُقلتْ هذه الرواية في «الكافي» و«الفقيه» و«التهذيب» و«كامل الزيارات» لابن قولويه، عن الإمام الصادق عليه السلام، وقد نقلناه كما في «تحيّة الزائر» للمحدِّث القمّيّ، المطابق لنقل «الكافي».

٢ـ «مصباح المتهجّد» للشيخ الطوسيّ، ص ٥٤٥؛ و«بحار الأنوار» ج ٢٢ (المزار)، ص ١٩٢، الطبعة القديمة (الكمبانيّ)؛ و«تحفة الزائر» ص ٣٣٥؛ و«هديّة الزائرين» ص ١٤٥.

٣ـ «مفاتيح الجنان» ص ٤٣٩، عن الصادق عليه السلام في الزيارة الخاصّة بأوّل رجب والنصف من شعبان؛ و«هدية الزائرين» للمحدِّث القمّيّ ص ٩١؛ و«تحيّة الزائر» للمحدِّث النوريّ؛ ورواها المجلسيّ في «تحفة الزائر» ص ٢٦٣ برواية معتبرة عن الحسين بن ثوير، عن الصادق عليه السلام، في زيارة الحسين المطلقة بهذا اللفظ: **أَشْهَدُ أَنَّ دَمَكَ سَكَنَ فِي الخُلْدِ، وَاقْشَعَرَّتْ لَهُ أَظِلَّةُ العَرْشِ، وَبَكَى لَهُ جَمِيعُ الخَلَائِقِ، وَبَكَتْ لَهُ السَمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ وَمَا فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُنَّ، وَمَنْ يَتَقَلَّبُ فِي الجَنَّةِ وَالنَّارِ مِنْ خَلْقِ رَبِّنَا، وَمَا يُرَى وَمَا لَا يُرَى**. وذكرها المجلسيّ في مزار «البحار» ج ٢٢، ص ١٨١، الطبعة القديمة (الكمبانيّ).

٤ـ «شمع جمع» ص ١٩١.

شـــاهد گـــيتى بـه خـويش جـلوه نـدارد
جـــلوهٔ عـــالم فـروغ روى حسـين است
مَشْـيِ قَـدَم را وصـول ذات قِـدَم نـيست
جنبش سالك به جستجوى حسين است
ذات خـــــدا لا يُــرَى است روز قـــيامت
ذكـــر لِـــقا بـــر رُخ نكـوى حسـين است
جـــان نـــدهم جـــز بـه آرزوى جـمالش
جـــان مـــرا دل بـه آرزوى حسـين است
عـــاشِق او را چـــه اعـتناست بـه جنّت
جنّت عشّاق ، خـاك كـوى حسـين است
عـــــالم و آدم كــه مست جــام وجــودند
مســـتى ايـــن دو از ســـبوى حسـين است
ذات خـــــدا را مـــجو ولى بـــه صـــفاتش
نيک نظر كن كه خُلق و خوى حسين است [1]

⇦ يقول : «إنّ نور الوجود هو من إشراق وجه الحسين ، وظلمة الإمكان من سواد شَعر الحسين».

١ـ يقول : «ليس لشاهد الوجود جلوة بنفسه ، وجلوة عالم النور هي وجه الحسين.
وليس سير القَدَم سبيلَ بلوغ ذات القِدَم ، بل إنّ سعي السالك هو البحث عن الحسين.
إنّ ذات الله لن تُرى يوم القيامة ، فذِكر اللقاء إنّما هو لطلعة الحسين الجميلة.
لست أفدي روحي إلّا أملاً في جماله ، ففي روحي أُمنية لقاء الحسين.
وما التفات عاشقه إلى الجنّة ؟! فجنّة العشّاق هي تراب طريق الحسين.
العالَم وآدم ثملان بقدح الوجود ، وهما إنّما ثملا بقدح الحسين الفخاريّ.
فلا تفتّش عن ذات الله وانظر مليّاً إلى صفاته ، فصفاتُه طبع وخُلق الحسين».

حضرت حقّ را به عشق خلق چـه نسـبت
مسألهٔ عشـــق گــــفتگوی حســـین است
عــاشق او را چــه غــم ز مــرگ طـبیعت
زنــدگی عــارفان بــه بـوی حسـین است
در غـــم او آب روی مـــا بـــه حـقیقت
مــوجب غـفران بـه آبـروی حسـین است
عــقل **فــؤاد** از خــود ایـن فـروغ نـدارد
جلوهٔ این قطره هم ز جوی حسین است[1]

١ـ يقول : «وما شأن الحقّ بعشق الخلق ؟! فقضيّة العشق إنّما هي حديث الحسين.
وما حُزن العاشق لموت الطبيعة ، إذ حياة العارفين بعطر الحسين.
وأدمع أعيننا إذ تنصبّ حُزناً له ، هي حقّاً مدعاة الغفران بجاه الحسين.
وليس لعقل **فؤاد** في هذا النور من نصيب ، فجلوة هذه القطرة هي أيضاً من جـدول الحسين !».

البحث التاسع

العربية وإعجاز القرآن

وتفسير آية

إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ

وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ

أعُوذُ بِاللَهِ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجِيمِ

بِسْـمِ اللَهِ الـرَّحْمَنِ الـرَّحِيم

وصلَّى اللَهُ عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ وآلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ

ولَعْنَةُ اللَهِ عَلَى أعْدَائِهِمْ أجْمَعِينَ مِنَ الآنَ إلَى قِيامِ يَوْمِ الدِّينِ

ولَا حَولَ ولَا قُوَّةَ إلَّا بِاللَهِ العَلِيِّ العَظِيمِ

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :

حمٓ * وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَـٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ.[1]

١ـ الآيات ١ إلى ٤ ، من السورة ٤٣ : الزخرف .

يقول المستشار عبد الحليم الجنديّ من أركان المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة في مصر، في كتابه القيّم «الإمام جعفر الصادق» ص ٢٦٧ إلى ٢٧٠ :

والمتتبّع لتفسيرات الإمام الصادق وأجوبته على المسائل يجدها تنبع من بحر عميق في فهم القرآن واللسان العربيّ ، أمكنه أن يكشف للناس بين الفينة والفينة ما فيه من شمول وما بينه وبين السنّة من صلة الأصل بفرعه . وبذلك قدر الإمام أن يفسّر القرآن بالقرآن ـ ففي بيته نزل ـ وأن يجد للحديث الواحد أُصولاً عدّة ، في آيات متفرّقة ، بمجرّد أن يدلي إليه سائل بسؤال ! وهو منهج سيتتابع عليه عظماء الأئمّة من أهل السنّة . وفي طليعتهم أحمدبن حنبل.

ولا يسوغ لنا أن نعتبر تفسيرات الصادق من أضرب التفسير بالرأي أو بالمأثور أو بهما ـ وهي مصنّفة بين عقليّ ونقليّ وصوفيّ ورمزيّ وقصصيّ ... إلى آخره ـ وفي البعض منها تأويل باطنيّ. ⇦

....

⇦ وابن عطيّة من كبار مفسّري أهل السنّة ينفي صحّة نسبة تفسير باطنيّ أو رمزيّ إلى الإمام الصادق، ويقول (... وهذا قول جارٍ على طريقة الرموز. ولا يصحّ عن جعفربن محمّد رضي الله عنه، ولا ينبغي أن يلتفت إليه).

إليك مثلاً -بين نظائر تجلّ عن الحصر- لاستعمال اللسان العربيّ في التفسير: يقول زرارة للإمام الصادق: **مِنْ أَيْنَ عَلِمْتَ أَنَّ المَسْحَ بِبَعْضِ الرَّأْسِ** ؟ ويجيب الإمام: **لِمَكَانِ البَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَٱمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ»**. يقصد أن الباء للبعضيّة.

ولقد تتابع على هذا التفسير الأئمّة في اللغة والفقه. جاء في «المصباح المنير» في مادّة (بعض) أن الباء «في قوله تعالى: **وَٱمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ** للتبعيض ... ونصّ على مجيئها للبعض ابن قتيبة... وأبو عليّ الفارسيّ وابن جنّي ... وذهب إلى مجيء الباء بمعنى البعض الشافعيّ وهو من أئمّة اللسان. وقال بمقتضاه أحمد وأبو حنيفة».

ومن استعمال ظاهر اللسان العربيّ تفسير «الكوثر» بأنّه الذرّيّة الكثيرة. في قوله تعالى: **إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ**. فهي صيغة مبالغة من الكثرة (فَوْعَل)، يؤيد ذلك الآية التي تجيء فيما بعد: **إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ**، والأبتر مَن لا عقب له. وبهذا ساغ تفسير الشيعة بأنّ الكوثر هو الذرّيّة. وقد رزق الله النبيّ الذرّيّة الكثيرة من فاطمة. فهي الكوثر المقصود. والآخرون يقولون إنّ الكوثر نهر في الجنّة. وغيرهم يؤوّلونه بأنّه النبوّة.

ولقد أسلفنا طائفة من تفسيرات الإمام، كالخوف من عدم العدل بين النساء، والإنفاق من رزق الله، ورؤية الله جلّ شأنه، وقتل النفس بإخراجها من الهدى إلى الضلال، والتفسيرات التي جعلت أبا حنيفة يقول عن آية: «**وَمَا نَقَمُوا إِلَّآ أَنْ أَغْنَـٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِ** »: **لكَأَنِّي مَا قَرَأْتُهَا قَطُّ فِي كِتَابِ اللهِ وَلَا سَمِعْتُهَا إلَّا فِي هَذَا المَوْقِفِ**. وهي جميعاً صادرة عن فهم دقيق للّسان العربيّ الذي نزل به القرآن.

والتفسير بالظاهر ممن يفهم البلاغة العربيّة، ومجازاتها المتعدّدة، والاستعارة، والإيجاز اللفظيّ، وهو بعض خصائص الإعجاز البيانيّ في القرآن، لا ينفي استعمال العقل، بل فيه مجال واسع له. ولا ينفي القيمة العظيمة لتفسير الزمخشريّ المعتزليّ، وهو حجّة في اللغة، وحجّة في الجمع بين الظاهر وبين وجوه الرأي بالمعاني الدقيقة وأسرار البلاغة.

وممّن أثارهم الإعجاب به الإمام يحيى بن حمزة العلويّ (٧٤٩) صاحب كتاب «الطراز». ⇦

قال سماحة أُستاذنا الأكرم آية الله العلّامة الطباطبائيّ قدّس الله نفسه الزكيّة في تفسير هذه الآية المباركة :

وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ظاهره أنّه قسم ، وجوابه قوله **إِنَّا جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا** إلى آخر الآيتين .

وكون القرآن مُبيناً هو إبانته وإظهاره طريق الهدى ، كما قال تعالى : **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ** ؛[1] أو كونه ظاهراً في نفسه لا يرتاب فيه ، كما قال : **ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ**.[2]

⇦ وما من تفسير ثبت عن إمام عن أهل البيت إلّا تلقّته العقول بالقبول ، لأنّه لا يغاير النصّ من القرآن والسنّة . وإنّما يشرحهما في نورانيّة باهرة ، في حين أنّ المعتزلة يؤوّلون ليُخضِعوا المعنى لأُصولهم الخمسة*. وهذا خلاف عظيم بين المؤوّلين وبين الإمام جعفر والشيعة الإ ماميّة.

* يقول عبد الحليم في التعليقة في شأن هذه العبارة : أُصول المعتزلة الخمسة:

١ ـ التوحيد الذي ينفي عن الذات صفات الأجسام والمكان ؛ وأهل السنّة يرون صفات الله خاصّة به وأنّه تعالى كما وصف نفسه . فليس في ذلك تشبيه الله بخلقه.

٢ ـ العدل ؛ وفحواه أنّ الله لا يأمر إلّا بالحسن ولا ينهى إلّا عن القبيح وما يفعله الناس عمل من أعمالهم ولذلك يثابون ويعاقبون . وأهل السنّة يقولون إنّ الله خالق العمل والعبد كاسب له.

٣ ـ الوعد والوعيد أو الثواب والعقاب ملازمان للفعل ؛ وأهل السنّة يرون التوبة قد يقبلها الله من مرتكب الكبيرة.

٤ ـ المنزلة بين المنزلَتين ؛ فمرتكب الكبيرة لا مؤمن ولا كافر ، بل فاسق وإن كان عقابه أقلّ من الكافر.

٥ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، مع اشتدادهم في ذلك عندما كانت السلطة في أيديهم.

١ـ مقطع من الآية ٨٩ ، من السورة ١٦ : النحل .

٢ـ صدر الآية ٢ ، من السورة ٢ : البقرة .

قوله تعالى: **إِنَّا جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا عَـرَبِيًّا لَّعَلَّكُـمْ تَـعْقِلُـونَ**، الضمير للكتاب، و**قُرْءَانًا عَرَبِيًّا**، أي: مقروءاً باللغة العربيّة، و**لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** غاية الجَعْل وغرضه.

وجعل رجاء تعقّله غاية للجعل المذكور يشهد بأنّ له مرحلة من الكينونة والوجود لا ينالها عقول الناس، ومن شأن العقل أن ينال كلّ أمر فكريّ وإن بلغ من اللطافة والدقّة ما بلغ؛ فمفاد الآية أنّ الكتاب بحسب موطنه الذي له في نفسه أمر وراء الفكر أجنبيّ عن العقول البشريّة، وإنّما جعله الله قرآناً عربيّاً وألبسه هذا اللباس رجاء أن يستأنس به عقول الناس فيعقلوه، والرجاء في كلامه تعالى قائم بالمقام أو المخاطب دون المتكلّم كما تقدّم غير مرّة.

قوله تعالى: **وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَـٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ** تأكيد وتبيين لما تدلّ عليه الآية السابقة أنّ الكتاب في موطنه الأصليّ وراء تعقّل العقول.

والضمير (في هذه الجملة) للكتاب؛ والمراد بـ «أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ» اللوح المحفوظ، كما قال تعالى: **بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ**.[1]

وتسميته بأُمّ الكتاب لكونه أصل الكتب السماويّة، يستنسخ منه غيره؛ والتقييد **بأُمّ الكتاب ولَدَيْنَا** للتوضيح لا للاحتراز. والمعنى: أنّه حال كونه في أُمّ الكتاب لدينا ـ حالاً لازمةً ـ لعليّ حكيم.

والمراد بكونه عليّاً على ما يعطيه مفاد الآية السابقة، أنّه رفيع القدر والمنزلة من أن تناله العقول؛ وبكونه حكيماً أنّه هناك مُحكم غير مفصّل ولا مجزّأ إلى سور وآيات وجُمل وكلمات كما هو كذلك بعد جعله قرآناً عربيّاً كما استفدناه من قوله تعالى: **كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن**

١ـ الآيتان ٢١ و٢٢، من السورة ٨٥: البروج.

لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ.[1]

وهذان النعتان، أعني كونه عليّاً حكيماً، هما الموجبان لكونه وراء العقول البشريّة، فإنّ العقل في فكرته لا ينال إلّا ما كان من قبيل المفاهيم والألفاظ أوّلاً، وكان مؤلّفاً من مقدّمات تصديقيّة يترتّب بعضها على بعض كما في الآيات والجمل القرآنيّة. وأمّا إذا كان الأمر وراء المفاهيم والألفاظ وكان غير مُتجزٍّ إلى أجزاء وفصول، فلا طريق للعقل إلى نيله.

فمحصّل معنى الآيتَين: أنّ الكتاب عندنا في اللوح المحفوظ ذو مقام رفيع وإحكام لا تناله العقول لذينك الوصفَين، وإنّما أنزلناه بجعله مقروّاً عربيّاً رجاء أن يعقله الناس.

فإن قُلتَ: ظاهر قوله **لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** إمكان تعقّل الناس هذا القرآن العربيّ النازل تعقّلاً تامّاً، فهذا الذي نقرأه ونعقله إمّا أن يكون مطابقاً لما في أُمّ الكتاب كلّ المطابقة أو لا يكون، والثاني باطل قطعاً، كيف وهو تعالى يقول: **وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَـٰبِ**،[2] و: **بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ**،[3] و: **إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ**.[4]

فتعيّن الأوّل، ومع مطابقته لأُمّ الكتاب كلّ المطابقة، ما معنى كون القرآن العربيّ الذي عندنا معقولاً لنا، وما في أُمّ الكتاب عند الله غير معقول لنا؟

قلتُ: يمكن أن تكون النسبة بين ما عندنا وما في أُمّ الكتاب نسبة

١ـ مقطع من الآية ١، من السورة ١١: هود.

٢ـ صدر الآية ٤، من السورة ٤٣: الزخرف.

٣ـ الآيتان ٢١ و ٢٢، من السورة ٨٥: البروج.

٤ـ الآيتان ٧٧ و٧٨، من السورة ٥٦: الواقعة.

المَثَل والمُمَثَّل ؛ فالمَثَل هو المُمَثَّل بعينه ، لكنّ المُمَثَّل لَهُ لا يفقه إلّا المَثَل ، فافهم ذلك» .[١]

أجل ، فقد ورد في القرآن الكريم آيات عديدة تتحدّث عن نزوله باللغة العربيّة ، منها الآيات الواردة في سورة الشعراء :

١ـ «الميزان في تفسير القرآن» ج ١٨ ، ص ٨٦إلى ٨٨.

وما ذكره العلّامة في خاتمة كلامه من أنّ النسبة بين مرتبة القرآن العالية ومرتبته الدانية كالنسبة بين المَثَل وَالمُمَثَّل هو من النكات الدقيقة المهمّة التي تُبحث في باب العرفان والحكمة الإلهيّة ، لأنّ تنزّل تلك المعاني الراقية في قالب الألفاظ والتجسّم في عالم الطبيعة ليس شيئاً غير تنزّل المُمثَّل في لباس المَثَل وصورته . فلو أُريد إفهام طفل صغير حلاوة النكاح، باعتبار أنّ غريزته لم تتوصّل بعدُ إلى هذه الحقيقة ، فليس هناك من سبيل متصوّر لذلك، إلّا أن يُقال له بأنّ لذّة الجماع كلذّة تناول الحلوى . ذلك أنّ الطفل لم يدرك إلّا الحلوى ولذّة تناول الحلوى والعسل ، فهو لا يفهم من حلاوة الجماع غير حلاوة العسل ، وهو يظنّ أنّ الجماع مثل تناول الحلوى.

وما أشار إليه سماحة العلّامة في نهاية كلامه من ضرورة فهم هذه الحقيقة ، هو إشارة إلى أنّ جميع الحقائق والمعارف الإلهيّة هي من هذا القبيل . فهي حقائق سامية تفوق المفاهيم الحسّيّة والأشياء الطبيعيّة ، بَيدَ أنّه ليس من سبيل للإنسان المادّيّ المغمور في القالب الحسّيّ المبتلى بالتعامل مع الأُمور الفكريّة العقليّة ، إلّا التعبير عن تلك الأُمور بأشباهها ونظائرها من الأشياء الحسّيّة والأُمور المادّيّة ؛ فاللوح والقلم والعرش والكرسي والميزان والصراط والحور والغلمان والجنّة والنار وأمثالها ممّا يتردّد كثيراً في الأخبار ويجري على لسان عرفاء الإسلام ، لها حقائق سامية وعظيمة تفوق التصوّرات الجزئيّة والأُمور المشاهَدة والمحسوسة للبشر . وليس هناك من سبيل للبشر الذي يعيش في هذه الدنيا الحسّيّة في قالب المادّة والطبيعة ، إلّا تشبيه المعقول بالمحسوس والمجيء بتلك الحقائق في لباس المثال . وحقّاً أنّ سبيل إنزال تلك الحقائق العالية الرفيعة التي تفوق تعقّل البشر إلى مستوى الأُمور المحسوسة والمشاهدات العينيّة وصبّها في قالب الألفاظ والمفاهيم المستعملة في المحاورات من أجل تحذير البشر يمثّل السبيل الصائب ذا الفائدة العظيمة.

وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ * وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ * أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ * وَلَوْ نَزَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ.[1]

قال سماحة أُستاذنا الأعظم آية الله العلّامة قدّس الله روحه الزكيّة في تفسير هذه الآيات:

«التنزيل والإنزال بمعنى واحد، غير أنّ الغالب على باب الإفعال الدفعة، وعلى باب التفعيل التدريج؛ وأصل النزول في الأجسام انتقال الجسم من مكانٍ عالٍ إلى ما هو دونه، وفي غير الأجسام بما يُناسبه.

وتنزيله تعالى إخراجه الشيء من عنده إلى موطن الخلق والتقدير، وقد سمّى نفسه **بالعَلِيِّ العَظِيمِ وَالكَبِيرِ المُتَعَالِ وَرَفِيعِ الدَّرَجَاتِ وَالقَاهِرِ فَوْقَ عِبَادِهِ**؛ فيكون خروج الشيء بإيجاده من عنده إلى عالم الخلق والتقدير ـ وإن شئتَ فقل: إخراجه من عالم الغيب إلى عالم الشهادة ـ تنزيلاً منه تعالى له.

وقد استعمل الإنزال والتنزيل في كلامه تعالى في أشياء بهذه العناية، كقوله تعالى: **يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ**؛[2] وقوله:

١ـ الآيات ١٩٢ إلى ١٩٩، من السورة ٢٦: الشعراء.

يقول الدكتور علي أكبر الشهابيّ في كتاب «رَه آورد يا سه گفتار» ص ١٠٨: «وكيف نوى ابن المُقفَّع الكاتب الإيرانيّ المبرّز الذي عزّ له مثيل يُدانيه في عصره في فصاحته وبلاغته العربيّة، أن يقوم بمعارضة القرآن الكريم مع عدّة نفر من أصحابه، فتصفّحوا آيات القرآن، فلمّا بلغوا قوله تعالى: **وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ**، قالوا: ما هذا بكلام بشر! وعادوا عمّا نووه؟!».

٢ـ صدر الآية ٢٦، من السورة ٧: الأعراف.

وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ؛[١] وقوله: **وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ**؛[٢] وقوله: **مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ**.[٣]

وقد أطلق القول في قوله: **وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ**.[٤]

وقد أضيف التنزيل إلى «**رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ**» للدلالة على توحيد الربّ تعالى، لما تكرّر مراراً أنّ المشركين إنّما كانوا يعترفون به تعالى بما أنّه **رَبُّ الأَرْبَابِ** ولا يرون أنّه **رَبُّ العَالَمِينَ**.[٥]

قوله تعالى: **نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ**؛ المراد بالروح الأمين هو جبريل مَلَك الوحي، بدليل قوله: **مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ**.[٦]

وقد سمّاه في موضعٍ آخر بروح القدس: **قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ**.[٧]

١ـ مقطع من الآية ٦، من السورة ٣٩: الزمر.

٢ـ مقطع من الآية ٢٥، من السورة ٥٧: الحديد.

٣ـ صدر الآية ١٠٥، من السورة ٢: البقرة.

٤ـ الآية ٢١، من السورة ١٥: الحجر.

٥ـ كان مشركو العرب يعتقدون انّ لكلّ طائفة من الموجودات والمخلوقات ربّاً خاصّاً يعدّونه مستقل التأثير في الإيجاد، وكان يعتقدون بأنّ الله تعالى هو ربّ الأرباب، فجاء القرآن فحذف عنوان الإستقلال، واعتبر انّ الله تعالى هو وحده ربّ العالمين المؤثّر المستقلّ.

٦ـ مقطع من الآية ٩٧، من السورة ٢: البقرة.

٧ـ صدر الآية ١٠٢، من السورة ١٦: النحل.

وقد وصف الروح بالأمين للدلالة على أنّه مأمون في رسالته منه تعالى إلى نبيّه صلّى الله عليه وآله وسلّم لايغيّر شيئاً من كلامه تعالى بتبديل أو تحريف بعمدٍ أو سهو أو نسيان ،كما أنّ توصيفه في آيةٍ أُخرى بالقدس يُشير إلى ذلك .

وقوله : **نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ** ، الباء للتعدية ، أي نزّله الروح الأمين ؛ وأمّا قول مَن قال : إنّ الباء للمصاحبة ، والمعنى : نزل معه الروح ؛ فلا يُلتفت إليه ، لأنّ العناية في المقام بنزول القرآن لا بنزول الروح مع القرآن .

والضمير في **نَزَلَ بِهِ** للقرآن بما أنّه كلام مؤلّف من ألفاظٍ لها معانيها الحقّة ، فإنّ ألفاظ القرآن نازلة من عنده تعالى ،كما أنّ معانيها نازلة من عنده على ما هو ظاهر قوله : **فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ** ،[1] وقوله : **تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ** ،[2] إلى غير ذلك .

فلا يُعبأ بقول من قال : إنّ الذي نزل به الروح الأمين إنّما هو معاني القرآن الكريم ، ثمّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم كان يعبّر عنها بما يطابقها ويحكيها من الألفاظ بلسانٍ عربيّ .

وأسخف منه قولُ مَن قال : إنّ القرآن بلفظه ومعناه من منشآت النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ألقته مرتبة من نفسه الشريفة تُسمّى الروح الأمين إلى مرتبة منها تُسمّى القلب .

والمراد بالقلب المنسوب إلى الإدراك والشعور في كلامه تعالى هو النفس الإنسانيّة التي لها الإدراك ، وإليها تنتهي أنواع الشعور والإرادة ، دون

١ـ الآية ١٨ ، من السورة ٧٥ : القيامة .

٢ـ صدر الآية ١٠٨ ، من السورة ٣ : آل عمران ؛ وصدر الآية ٦ ، من السورة ٤٥ : الجاثية .

اللحم الصنوبريّ المعلّق عن يسار الصدر، الذي هو أحد الأعضاء الرئيسيّة، كما يستفاد من مواضع في كلامه تعالى، كقوله: **وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ**،[1] أي: الأرواح. وقوله: **فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُ**،[2] أي: نفسه، إذ لا معنى لنسبة الإثم إلى العضو الخاصّ.

ولعلّ الوجه في قوله: **نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ** دون أن يقول **عَلَيْكَ**، هو الإشارة إلى كيفيّة تلقّيه صلّى الله عليه وآله وسلّم القرآن النازل عليه، وأنّ الذي كان يتلقّاه من الروح هو نفسه الشريفة من غير مشاركة الحواسّ الظاهرة، التي هي الأدوات المستعملة في إدراك الأُمور الجزئيّة.

فكان صلّى الله عليه وآله وسلّم يَرى ويسمع حينما كان يُوحى إليه من غير أن يستعمل حاسّتي البصر والسمع، كما روي أنّه كان يأخذه شبه إغماء يسمّى **بُرَحَاء الوحي**.[3] فكان صلّى الله عليه وآله وسلّم يرى الشخص ويسمع الصوت مثل ما نرى الشخص ونسمع الصوت، غير أنّه ما كان يستخدم حاسّتَي بصره وسمعه المادّيّتَين في ذلك كما نستخدمهما.

ولو كان رؤيته وسمعه بالبصر والسمع المادّيّين، لكان ما يجده مشتركاً بينه وبين غيره، فكان سائر الناس يرون ما يراه ويسمعون ما سمعه. والنقل القطعيّ يكذّب ذلك، فكثيراً ما كان يأخذه **بُرحاء الوحي** وهو بين الناس، فيُوحى إليه ومَن حوله لا يشعرون بشيء ولا يشاهدون شخصاً يكلّمه ولا كلاماً يُلقى إليه.

والقول بأنّ من الجائز أن يصرف الله تعالى حواسّ غيره صلّى الله

١ـ مقطع من الآية ١٠، من السورة ٣٣: الأحزاب.

٢ـ مقطع من الآية ٢٨٣، من السورة ٢: البقرة.

٣ـ وهو شدّة الكرب من ثقل الوحي.

عليه وآله وسلّم من الناس عن بعض ماكانت تناله حواسّه ـ وهي الأُمور الغيبيّة المستورة عنّا ـ هدمٌ لبنيان التصديق العلميّ ، إذ لو جاز مثل هذا الخطأ العظيم على الحواسّ ـ وهي مفتاح العلوم الضروريّة والتصديقات البديهيّة وغيرها ـ لم يبقَ وثوقٌ على شيء من العلوم والتصديقات .

على أنّ هذا الكلام مبنيّ على أصالة الحسّ ، وأن لا وجود إلّا لمحسوس ، وهو من أفحش الخطأ ، وقد تقدّم في سورة مريم كلامٌ في معنى تمثّل المَلَك نافعٌ في المقام»[1] .

ومن جملة الآيات الدالّة على نزول القرآن باللغة العربيّة ، الآية الواردة في سورة النحل :

قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ * وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ.[2]

وجاء في التفاسير أنّ مشركي مكّة كانوا يقولون بأنّ محمّداً تعلّم القرآن من حدّاد روميّ نصرانيّ كان يسكن في مكّة ، أو أنّه تعلّمه من غلام **ابن الحضرميّ** ، وهو أيضاً من النصارى .

فكان القرآن يفنّد هذا الكلام الواهي متسائلاً : كيف يُتصوّر أن يقوم هذان الأعجميّان اللذان قَدِمَا من خارج الجزيرة العربيّة ، واللذان يجهلان العربيّة ، بتلقين هذه المطالب للنبيّ بلغة عربيّة فصيحة في القمّة من الإعجاز ؟![3] .

١ـ «الميزان في تفسير القرآن» ج ١٥ ، ص ٣٤٤ إلى ٣٤٧ .

٢ـ الآيتان ١٠٢ و١٠٣ ، من السورة ١٦ : النحل .

٣ـ أورد آية الله السيّد حسن الصدر في كتابه «تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام» ⇦

....

⇦ ص ٣٣٨ و ٣٣٩، الفصل ١٢، في تقدّم الشيعة في العلوم القرآنيّة، مطلباً في ترجمة المفسّر الشيعيّ الكبير؛ السيّد الرضيّ، دالّ على إعجاز القرآن، ونحن نذكره هنا للمناسبة؛ قال:

«ومنهم (أي: من جملة مفسّري الشيعة) الشريف الرضيّ ذو الحسبَين أبوالحسن محمّد بن أبي أحمد الحسينيّ بن موسى الأبرش بن محمّد بن موسى أبي سجة بن إبراهيم الأصغر بن الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام، كان فصيح قريش وناطقة الأُدباء ومقدام العلماء والمبرّز على سائر الفضلاء والبلغاء، المتقدّم ذكره في مشاهير الشعراء؛ صنّف في جميع علوم القرآن، منها كتابه المترجم بـ «حقائق التنزيل ودقائق التأويل» كشف فيه عن غرائب القرآن وعجائبه وخفاياه وغوامضه، وأبان غوامض أسراره ودقائق أخباره، وتكلّم في تحقيق حقائقه وتدقيق تأويله بما لم يسبقه أحدٌ إليه، ولا حام طائر فكر أحدٍ عليه، وهو مع ذلك في كبر تفسير «التبيان»، والذي رأيتُ منه هو الجزء الخامس من أوّل سورة آل عمران إلى أواسط سورة النساء، جاءنا به ثقة الإسلام العلّامة النوريّ قدّس سرّه من خراسان، كتبه من النسخة التي في خزانة الكتب في المشهد المقدّس الرضويّ على مشرّفه السلام. وبالجملة ليس الرائيّ كمن سمع، إن كان هذا هو التفسير فغيره بالنسبة إليه قشر اللباب بلا ارتياب، ولعمري أنّه الذي يبيّن بالعيان لا بالبرهان:

أَنَّ القُرْءَانَ هُوَ الكَلَامُ المُتَعَذِّرُ المُعوزُ، وَالمُمْتَنِعُ المُعْجِزُ، بِعِبَارَاتٍ تَضَمَّنَتْ عَجَائِبَ الفَصَاحَةِ وَبَدَايِعِهَا، وَشَرَائِفَ الكَلَامِ وَنَفَايِسِهَا، وَجَوَاهِرَ الْأَلْفَاظِ وَفَرَائِدِهَا. يَعْجَزُ ـ وَاللهِ ـ فَمُ البَيَانِ عَنْ بَيَانِهَا، وَيَضِيقُ صَدْرُ القَوْلِ عَنْ قِيلِهَا، وَيَكِلُّ لِسَانُ اليَرَاعِ عَنْ تَحْرِيرِهَا.

فليتني بباقي أجزائه أحظى، وللتمتّع بأنوارها أبقى، وعلى الدنيا العفا بعد فقدها.

ويا للّه العجب من غزارة علم هذا السيّد الشريف مع قلّة عمره في الدنيا ويأتي بمثل هذا التصنيف، ثمّ بـ«المجازات القرآنيّة» ثمّ بكتاب «المتشابه في القرآن» وكتاب «المجازات النبويّة» وكتاب «تعليق خلاف الفقهاء» وكتاب «تعليقة الإيضاح» لأبي عليّ، وكتاب «خصائص الأئمّة» وكتاب «نهج البلاغة» وكتاب «تلخيص البيان في مجازات القرآن» وكتاب «الزيادات في شعر أبي تمام» وكتاب سيرة والده الطاهر، وكتاب «انتخاب شعر ابن الحجّاج»، وكتاب «مختار شعر أبي إسحاق الصابيّ» وكتاب ما دار بينه وبين أبي إسحاق من الرسائل ثلاث أجزاء، وكتاب ديوان شعره، ولم يزد عمره على سبع وأربعين سنة. ولا عجب فإنّه هو القائل: ⇦

أجل ، فهو دليل واضح وقاطع على أنّ كفّار مكّة ومعاندي الإسلام لم يشاهدوا النبيّ ـ ولو لحظة واحدة ـ يتردّد مدّة عمره على أحد علماء اليهود أو النصارى ، وإلّا لقالوا بسهولة إنّه تلقّى العلم عن ذلك العالم اليهوديّ أو النصرانيّ الذي كان يعاشره ويتردّد عليه ؛ ولانتفت الحاجة لديهم إلى التشبّث بغلام ابن الحضرميّ والحدّاد الروميّ وهما من الأعاجم الذين يجهلون العربيّة ، ومن الذين وردوا على بلاد الحجاز من خارجها .

ومن جملة الآيات ، الآية الواقعة في سورة فصّلت :

وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا (سواء بلغة أعجميّة أم بلغة عربيّة غير فصيحة) **لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥٓ ءَاعْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ.**[1] (فلا يسمعون منه إلّا رنين صوتٍ وهمهمة ،

⇦ إنّي لَمِن مَعْشَرٍ إن جُمِّعُوا لِعُلى تَفرَّقُوا عَنْ نَـبِيٍّ أَوْ وَصِـيٍّ نَـبِي

وقال ثقة الإسلام النوريّ : إنّ علوّ مقام السيّد الرضيّ في الدرجات العلميّة مع قلّة عمره ، فإنّه تُوفّي في سنّ سبعٍ وأربعين ، قد خفى على العلماء لعدم انتشار كتبه وقلّة نسخها ، وإنّما الشايع منها «نهج البلاغة» و«الخصائص» وهما مقصوران على النقل ، و«المجازات النبويّة» حاكية عن علوّ مقامه في فنون الأدب . وأمّا التفسير المسمّى بـ«حقائق التنزيل ودقائق التأويل» فهو أكبر من «التبيان» وأحسن وأنفع وأفيد من ؛ إلى آخر كلامه في فوائد «المستدرك» وهو علاّمة زمانه ووحيد دهره وأوانه.

قال أبوالحسن العُمريّ : رأيتُ تفسيره في القرآن ، فرأيتُه من أحسن التفاسير ، يكون في كبر تفسير أبي‌جعفر الطوسيّ أو أكبر . وكانت له هيبة وجلالة ، وفيه ورع وعفّة وتقشّف ومراعاة للأهل والعشيرة . وقال السيّد علي خان بن صدر الدين المدنيّ في «الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة» : وكان الرضيّ قد حفظ القرآن بعد أن جاوز الثلاثين سنة في مدّة يسيرة. وكان عارفاً بالفقه والفرائض معرفةً قويّة ، وأمّا اللغة والعربيّة فكان فيهما إماماً ... إلى آخره».

١ـ الآية ٤٤ ، من السورة ٤١ : فصّلت .

ولا يدركون معارفه وحقائقه وأصالته، ولا يفهمون منه إلّا جماله الظاهريّ وتنسيق آياته).

كما أنّه ذكر في صدر نفس السورة ـ بعد بيان تفصيل القرآن وكونه عربيّاً ـ حقيقة عدم إدراكهم للقرآن على لسانهم وبإقرارهم واعترافهم، فقال:

حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ * كِتَـٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ (لا يدعنا نفهم أو ندرك أو نسمع) **وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ** (لا يدعنا نراك ونستمع كلامك لنؤمن بك) **فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَـٰمِلُونَ.**[1]

ومن جملة الآيات، الآية الواردة في سورة الشورى:

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ (من العواقب الوخيمة لشرور النفس الأمّارة) **أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ.**[2]

ومنها، الآية الواردة في سورة الأحقاف:

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَـٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ * وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ.[3]

١ـ الآيات ١ إلى ٥، من السورة ٤١: فصّلت.

٢ـ الآية ٧، من السورة ٤٢: الشورى.

٣ـ الآيتان ١١ و١٢، من السورة ٤٦: الأحقاف.

ومنها الآية المباركة في سورة طه :

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا .[1]

وثمّة آيات أُخرى تدلّ على كون هذا الكتاب السماويّ عربيّاً ، إلّا أنّنا اكتفينا من هذه الآيات بالقدر الذي رأيناه ضروريّاً .

وعلينا أن نرى الآن ما هي مزيّة اللغة العربيّة ؟ ولأيّ سبب اختار الله تعالى نبيّه **خاتم النبيّين** والقرآن كتابه الخالد إلى يوم القيامة وحكمه وقانونه الثابت من العرب ؟ ولأيّ علّة أنزل قرآنه باللغة العربيّة ؟ وما هي الفوائد المترتّبة على ذلك ؟ وما هو السبب في سرعة انتشار الدين الإسلاميّ في العالم وإيمان الأُمم والأقوام المختلفة به من أعماق قلوبها وأرواحها ، وفي بقاء إيمان المسلمين بالدين الإسلاميّ وبالقرآن إلى يومنا هذا ، وفي انكشاف عظمة جديدة له كلّ يوم ، وفي إبلاغ القرآن أصالته بهذا اللسان العربيّ المبيّن إلى جميع العلماء ودعاة الحقّ ؟

نجد من المناسب في هذا المجال ـ تمهيداً للأذهان ودعماً لكلامنا ـ أن نورد مطالب عن المحقّق الكبير والعالِم المنصف ، والمفكّر الاجتماعيّ ! المنفتح : الدكتور **غوستاف لوبون** الفرنسيّ في كتابه القيّم النفيس : «تمدّن اسلام وعرب» (= حضارة الإسلام والعرب) تنويراً لأذهان من أحسّوا بالضياع والضَّعة بسبب انغمارهم في صخب عالَم الغرب .

يقول غوستاف لوبون في مقدّمة كتابه :

«وكلّما أمعنّا في درس حضارة الإسلام والعرب وكتبهم العلميّة واختراعاتهم وفنونهم ، ظهرت لنا حقائق جديدة وآفاق واسعة ، ولسرعان

[1] ـ الآية ١١٣ ، من السورة ٢٠ : طه .

ما رأينا أنّ المسلمين أصحاب الفضل في معرفة القرون الوسطى [١] لعلوم الأقدمين ، وأنّ جامعات الغرب لم تعرف لها مدّة خمسة قرون مورداً علميّاً سوى مؤلّفاتهم ، وأنّهم هم الذين مدّوا أُوروبّا مادّةً وعقلاً وأخلاقاً ، وأنّ التأريخ لم يعرف أُمّة أنتجت ما أنتجوه في وقتٍ قصير ، وأنّه لم يَفُقْهم قومٌ في الإبداع الفنّيّ . وتأثير هذه الحضارة عظيم في الغرب ، وهي في الشرق أشدّ وأقوى ، ولم يتّفق لأُمّة أُخرى أن تخلّف مثل هذه الآثار العظيمة الشأن ؛ والأُمم التي كانت لها سيادة العالم ، **كالآشوريّين** [٢] **والفرس والمصريّين واليونان والرومان** توارت تحت أعفار الدهر ولم تترك لنا غير أطلال دارسة ، وعادت أديانها ولغاتها وفنونها لا تكون سوى ذكريات ؛ والعرب وإن تواروا أيضاً ، لم تزل عناصر حضارتهم ، وإن شئت فقُلْ **ديانتهم ولغتهم وفنونهم** حيّةً ، وينقاد أكثر من مائة مليون شخص مقيمين فيما بين مَرَّاكُش والهند لشريعة الرسول . [٣]

١ـ يقول المعلّق في الهامش : القرون الوسطى أو الأزمنة المظلمة في تأريخ أُوروبّا، هي الأزمنة التي غرقت أُوروبّا خلالها في الجهل والوحشيّة ، والتي ساءت فيها أوضاعها وحال أهليها بسبب العصبيّة المذهبيّة واعتداءات الحكّام . وقد استمرّت منذ سنة ٤٨٦ إلى سنة ١٤٩٥ ميلاديّة ، فبدأ بعد ذلك تقدّم أُوروبّا الذي دُعي بعصر تحديث الحياة العلميّة والأدبيّة.

٢ـ آشور وبابل من الممالك القديمة ذات التمدّن والسلطان العظيمَين ، عدا عدّة قرون كانت آشور فيها من الولايات التابعة لبابل . وتقع مدينة بابل قرب نهرَي دجلة والفرات في العراق الحاليّ . وكانت تمتدّ إلى مائة ميل ، وقد بني سور يحيط بها ، يبلغ ارتفاعه ثلاثة امتار، وعرضه بنفس المقدار ، بحيث كانت عربة تجرّها أربعة خيول تسير فوق ذلك السور. ويدعى الملك الذي بنى هذه المدينة بـ «نمرود» ، وكان عصره قبل ميلاد المسيح بـ ٢٢٣٥ سنة. وتقع عاصمة بابل في نفسه الموضع الذي تحتله مدينة الحِلّة الحاليّة ؛ (الهامش).

٣ـ وهي إحصائيّة ما قبل مائة سنة ، فقد ولد غوستاف لوبون سنة ١٨٤١ وتوفّي ⇦

وثبتت أُصول شريعة الرسول وفنون العرب ولغتهم أينما حلّت، ولم يدر في خَلَد أحد من الفاتحين الكثيرين الذين قهروا العرب إقامة حضارة مقام حضارة العرب، وانتحلوا كلّهم دين العرب وفنونهم، واتّخذ أكثرهم العربيّة لغةً له، وتقهقرت أمام الإسلام في الهند دياناتٌ قديمة، وجعل الإسلام مصرَ الفراعنة القديمة، التي لم يكن للفرس واليونان والرومان فيها سوى نفوذ قليل، عربيّة تامّة العروبة، وعرفت أقوام الهند والفرس ومصر وإفرِيقيَّة لهم سادةً غير أتباع محمّد فيما مضى، ولم يعرفوا لهم سادةً غيرَ مسلمين بعد أن رضوا بالإسلام ديناً.

حقّاً أنّ من أعاجيب التأريخ أن يُلبّي نداءَ ذلك الشهير المُلْهَم (يقصد النبيّ الأكرم) شعبٌ جامحٌ شديد الشكيمة لم يقدر على قهره فاتحٌ، وأن تنهار أمام اسمه أقوى الدول، وألّا يزال يُمسك، وهو في جدثه، ملايينَ من الناس تحت شرعه».

ويستمرّ غوستاف لوبون في كلامه إلى أن يقول:

«وحقيقة الأمر هي أنّ الغرب وليد الشرق، ولا يزال مِفتاح ماضي الحوادث في الشرق، وتبدو الفنون واللغات وأكثر الديانات العظمى بارزةً في الشرق، ويختلف سكّان الشرق الآن عن سكّان البلدان الأُخرى في المبادئ والآراء والمشاعر.[1]

⇐ سنة ١٩٣١ ميلاديّة، وينقضي على متوسط عمره حتّى الآن مائة سنة تقريباً. ويقال إنّ المسلمين في العالم يبلغون حاليّاً ثمانمائة مليون نسمة، ويشكّل مسلمو إيران لوحدهم ـ وهم غالبيّة السكّان ـ ما يقرب من خمسين مليون نسمة.

١ـ «تمدّن إسلام وعرب» (= حضارة الإسلام والعرب) ص ١٢ إلى ١٤، الطبعة الثانية، مطبعة المجلس.

أقول: أصل كتاب غوستاف لوبون بالفرنسيّة، وقد تُرجم إلى العربيّة والفارسيّة ⇐

ويقول **غوستاف لوبون** في الفصل الأوّل من الباب الثاني الخاصّ بالقرآن : «القرآن هو كتاب المسلمين المقدّس ، وهو أيضاً دستورهم الدينيّ والمدنيّ والسياسيّ الناظم لسيرهم» ... إلى أن يصل إلى قوله :

«ولا يمكن تسمية محمّد فيلسوفاً كبيراً ، أي من المفكّرين المتبحّرين الذين يُقاسون بمؤسّسي **البرهميّة والبُدّهيّة** (أتباع بودا) ، فهو لم ينكر سببَ الأسباب كما أنكره البُدّهيّون ، ولم يقل مثلهم بأنّ الكون موجود بالضرورة ذو انحلالٍ وتركيبٍ دائميين ، ولم يتّصف بنصف ما عند مؤلّفي كتب البراهمة المقدّسة من الشكّ ،[1] ولم يُدْخِل إلى القرآن مثلَ التأمّلات الآتية التي تجدها في كتب **الويدا** :[2] «من أين أتى هذا الكون ؟ أهو من صنع خالق أم لا ؟ يعلم ذلك من ينظر من فوق الفلك ، وقد لا يعلم» . ولكنّ أقوالاً مجرّدة مثل هذه لا تنفع غير الفلاسفة» .

إلى أن يصل إلى قوله :

«والدين الذي دعا النبيُّ إليه الناس سهلٌ جدّاً ... ويلخّص المسلمُ

⇦ والأُرديّة، وقد لفّقتُ بين ماجاء في الترجمة العربيّة والترجمة الفارسيّة بعد تعريب الأخيرة. (م)

١ـ يقول غوستاف لوبون في الهامش : «أُحيل القارئ الذي يرغب في الوقوف على فلسفة بدّهة وتأريخ تطوّر الأديان إلى الجزء الثاني من كتابي «الإنسان والمجتمعات» ففيه يجد أنّ البدّهيّة التي لها من الأتباع ما للأديان الأُخرى مجتمعة ، قائمة على إنكار كلّ أُلوهيّة إنكاراً تامّاً ، وأنّها تدعو الناس مع ذلك إلى التحلّي بأطيب الأخلاق ، كما اعترف به أحد علماء النصرانيّة المتشدّدين المشهورين «مكس موللر» الذي قال : دعا إلى الأخلاق الفاضلة قبل ظهور المسيح أناسٌ اعتقدوا أنّ الآلهة أشباح باطلة ، فلم يقيموا هيكلاً حتّى للربّ غير المعروف».

٢ـ «Veda» اسم كتاب دينيّ للهنود ، ويقسّم إلى أربعة أقسام ، ولكلّ منها اسم خاصّ ، (الهامش) .

الإسلامَ في هاتين الكلمتين اللتين لا يُنكر إيجازهما ، وهما : **لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ**[1] » .

ثمّ يقول غوستاف لوبون في الفصل الثاني من هذا الباب «فلسفة القرآن ـ انتشاره في العالم» :

«إذا راجعنا الإسلام إلى عقائده الرئيسيّة ، أمكننا عدّ الإسلام صورةً مبسّطة عن النصرانيّة ، ومع ذلك فإنّ الإسلام يختلف عن النصرانيّة في كثيرٍ من الأُصول ، ولا سيّما في **التوحيد المطلق** الذي هو أصلٌ أساسيّ ، وذلك أنّ الإله الواحد الذي دعا إليه الإسلام مهيمنٌ على كلّ شيء ولا تحفّ به الملائكة والقدّيسون وغيرهم ممّن يُفرَض تقديسهم . وللإسلام وحدَه أن يُباهي بأنّه أوّل دينٍ أدخل التوحيدَ إلى العالمَ .

و تشتقّ سهولة الإسلام العظيمة من التوحيد المحض ، وفي هذه السهولة قوّة الإسلام . والإسلام وإدراكه سهلٌ خالٍ ممّا نراه في الأديان الأُخرى ويأباه الذوق السليم غالباً من المتناقضات والغوامض ، ولا شيء أكثر وضوحاً وأقلّ غموضاً من أُصول الإسلام القائلة بوجود إله واحد وبمساواة جميع الناس أمام الله وببضعة فروض يَدخل الجنّة مَن يقوم بها ، ويدخل النار مَن يعرض عنها . وأنّك إذا ما اجتمعتَ بأيّ مسلم من أيّة طبقة ، رأيته يعرف ما يجب عليه أن يعتقد ، ويسرد لك أُصول الإسلام في بضع كلمات بسهولة .

وهو بذلك على عكس النصرانيّ الذي لا يستطيع حديثاً عن التثليث والاستحالة وما ماثلهما من الغوامض من غير أن يكون من علماء اللاهوت الواقفين على دقائق الجَدَل» .

١ـ «تمدّن اسلام وعرب» ص ١٣٨ إلى ١٤٠ .

ويستمرّ لوبون في كلامه إلى أن يقول :

«ولا ريب في أنّ نفوذ الإسلام السياسيّ والمدنيّ كان عظيماً إلى الغاية ، فقد كانت بلاد العرب قبل محمّد مؤلّفة من إمارات مستقلّة وقبائل متقاتلة دائماً ، فلمّا ظهر **محمّد** ومضى على ظهوره قرن واحد ،كانت دولة العرب ممتدّة من **بحر السند** إلى **إسبانيا** ، وكانت الحضارة تسطع بنورها الوهّاج في جميع المدن التي خفقت راية النبيّ فوقها .

والإسلام من أكثر الديانات ملائمة لاكتشافات العلم ، ومن أعظمها تهذيباً للنفوس ، وحملاً على العدل والإحسان والتسامح .

و**البُدّهيّه** وإن فاقت جميع الأديان **الساميّة** فلسفةً ، تراها مضطرّة أن تتحوّل تحوّلاً تامّاً لتستمرئها الجموع ، وهي لاشكّ دون الإسلام في شكلها المعدّل هذا .

وجرت الحضارة التي أوجدها أتباع محمّد على سُنّة جميع الحضارات التي ظهرت في الدنيا ، نشوءٌ فاعتلاءٌ فهبوطٌ فموت . ومع ما أصاب حضارة العرب من الدثور كالحضارات التي ظهرت قبلها ، لم يمسّ الزمنُ دينَ النبيّ الذي له من النفوذ ما له في الماضي ، والذي لا يزال ذا سلطان كبير على النفوذ ، مع أنّ الأديان التي هي أقدم منه تخسر كلّ يوم شيئاً من قوّتها .

ويدين بالإسلام في الوقت الحاضر أكثر من مائة مليون شخص ، واعتنقته **جزيرة العرب ومصر وسورية وفلسطين وآسيا الصغرى** وجزء كبير من الهند وروسية والصين ، ثمّ إفريقيّة إلى ما تحت خطّ الاستواء تقريباً .

وتجمع بين مختلف الشعوب التي اتّخذت القرآن دستوراً لها وحدة اللغة العربيّة والصّلات التي يُسفر عنها مجيء الحجّاج إلى مكّة من جميع

بلاد العالم الإسلاميّ **لحجّ بيت الله الحرام** .

وتجب على جميع أتباع محمّد تلاوة القرآن باللغة العربيّة بقدر الإمكان ؛ **واللغة العربيّة هي لذلك أكثر لغات العالم انتشاراً** على ما يُحتمل ؛ وعلى ما بين الشعوب الإسلاميّة من الفروق العنصريّة ، ترى بينها من التضامن الكبير ما يُمكن جمعها به تحت عَلَمٍ واحد في أحد الأيّام» .

ثمّ يستمرّ لوبون في بيان هذا المطلب حتّى يصل إلى حيث يقول :

«وحين نبحث في فتوحات المسلمين وأسباب انتصاراتهم ، فإنّنا سنرى أنّ القوّة لم تكن عاملاً في انتشار القرآن ، فقد ترك المسلمون المغلوبين أحراراً في أديانهم ،[1] فإذا حدث أن اعتنق بعضُ الأقوام

١ـ يقول لوبون في الهامش : رأينا من آي القرآن التي ذكرناها آنفاً أنّ مسامحة محمّد لليهود والنصارى كانت عظيمة إلى الغاية ، وأنّه لم يقل بمثلها مؤسّسو الأديان التي ظهرت قبله كاليهوديّة والنصرانيّة على الخصوص . وسنرى كيف سار خلفاؤه على سُنّته . وقد اعترف بذلك التسامح بعض علماء أُوروبّا المرتابون أو المؤمنون القليلون الذين أمعنوا النظر في التأريخ الإسلاميّ . والعبارات الآتية التي أقتطفها من كتب الكثيرين منهم تثبت أنّ رأينا في هذه المسألة ليس خاصّاً بنا.

قال **روبرتسون** (Robertson) في كتابه « Charles - Quint»(= تأريخ شارل الخامس): «إنّ المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الغيرة لدينهم وروح التسامح نحو أتباع الأديان الأُخرى، وإنّهم ، مع امتشاقهم الحسام نشراً لدينهم ، تركوا مَن لم يرغبوا فيه أحراراً في التمسّك بتعاليمهم الدينيّة».

وقال ميشود (Michaud) في كتابه «تأريخ الحروب الصليبيّة» : «إنّ القرآن الذي أمر بالجهاد متسامح نحو أتباع الأديان الأُخرى . وقد أعفى البطاركة والرهبان وخدمهم من الضرائب (الجزية) ، وحرّم محمّد قتل الرهبان لعكوفهم على العبادات ، ولم يمسّ عُمر النصارى بسوء حين فتح بيت المقدس ، فذبح الصليبيّون المسلمين وحرقوا اليهود بلارحمة وقتما دخلوها».

وقال الراهب ميشود في كتابه «رحلة دينيّة في الشرق» : «ومن المؤسف أن تقتبس ⇦

النصرانيّة الإسلامَ واتّخذوا العربيّةَ لُغةً لهم ، فذلك لِما رأوا من عدل المسلمين الغالبين ما لم يروا مثله من سادتهم السابقين ، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم يعرفوها من قبل .

وقد أثبت التأريخ أنّ الأديان لا تُفرض بالقوّة ، فلمّا قهر النصارى عربَ الأندلس فضّل هؤلاء القتلَ والطرد عن آخرهم على ترك الإسلام .

ولم ينتشر القرآن بالسيف إذاً ، بل انتشر بالدعوة وحدَها ، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوبُ التي قهرت العرب مؤخّراً ، **كالترك والمغول** ؛ وبلغ القرآن من الانتشار في الهند التي لم يكن العربُ فيها غيرَ عابري سبيل ، مازاد معه عدد المسلمين على خمسين مليون نفس فيها . ويزيد عدد مسلمي الهند يوماً فيوماً مع أنّ الإنجليز الذين هم سادة الهند في الوقت الحاضر ، يجهّزون البعثات التبشيريّة ويرسلونها تِباعاً إلى الهند لتنصير مسلميها على غير جدوى .

ولم يكن القرآن أقلّ انتشاراً في **الصين** التي لم يفتح العرب أيَّ جزء منها قطّ ، وسنرى في فصلٍ آخر سرعةَ الدعوة الإسلاميّة فيها ، ويزيد عدد مسلميها على عشرين مليوناً في الوقت الحاضر»[1] .

والخلاصة ، فقد شاهدنا أنّ غوستاف لوبون يعتبر انتشار الإسلام عائداً إلى التوحيد المحض ، خلافاً للنصارى القائلين بالتثليث ، فقد تعذّر على الناس الإيمان بالمسيحيّة ، لأنّ أيّ عقل لا يمكنه التصديق بأنّ ثلاثة

⇐ الشعوب النصرانيّة من المسلمين التسامح الذي هو آية الإحسان بين الأُمم ، واحترام عقائد الآخرين وعدم فرض أيّ مُعتقَد عليهم بالقوّة».

١ـ «تمدّن اسلام وعرب» (= حضارة الإسلام والعرب) ص ١٥٢ إلى ١٥٩ ، الطبعة الثانية.

أشياء هي شيء واحد .

على أنّ من موارد اختلاف المسلمين مع المسيحيين في أُصول العقائد ـ وهو اختلاف مهم لا يمكن تجاهله ، إلّا أنّ غوستاف لوبون لم يُشِرْ إليه ـ أمر الذنب والعقاب والأجر ويوم القيامة ، حيث تتقابل وجهة نظر الفلسفة الإسلاميّة مع الفلسفة المسيحيّة في قُطبين متقابلين ، إذ إنّ منطق المسيحيّين في هذا الأمر لاينسجم أبداً مع العقل السليم ، ولا يمكن للمنصف أن يقبل به . وللمسلمين معهم جدل مستمرّ حول هذه القضيّة ، ولهم كلام فيه لم يُقنع أحداً من المسلمين . وقد فرضوا هذه العقيدة على أنفسهم اتّباعاً لتعاليم الكنيسة .

إنّ أيّ مسلم يقول : إنّ إله العالم اصطفى أنبياءً ليُبَلِّغوا البشر أحكامه وأوامره ، فأرسل أولئك الأنبياء وأجرى المعجزات على أيديهم من أجل أن يشخّص الناس سبيل الخير عن سبيل الشرّ والغيّ . فمَن أطاع وأحسن وعمل صالحاً فاز ونجى ، ومن أساء وخالف الرُّسل تعس وعوقب .

أمّا المسيحيّون فلا يقولون بهذا القول ، بل يعتقدون بأنّ آدم أبا البشر قد أذنب ، وأنّ ذنبه وخطيئته قد انتقلا بالإرث إلى أولاده وذرّيّته . وأنّ الله تعالى بعث الأنبياء بالشرائع ليأمروا الناس ؛ وأنّ الناس يعصون ليعلموا أنّهم مذنبون . وأنّ أحداً لا يعمل بأحكام الشريعة ، بل إنّ الأنبياء أنفسهم لم يعملوا بها فكانوا من المذنبين ، وإنّهم زادوا على ذنبهم بمخالفتهم ؛ ذلك أنّ المعصية والخطيئة إرث وجبلّة ، والأمر الوراثيّ الجبلّي لا يمكن رفعه .

ويعتقدون بأن عمل جميع الناس بشريعة الأنبياء ـ على فرض إمكانه ـ لا يمحو الخطيئة الجبلّيّة عن الإنسان ، لأنّ الخطيئة ممّا ورثه عن أبيه فصارت في ذاته وسرّه .

ثمّ إنّ الله تعالى يتجلّى في صورة المسيح لتطهير الناس من الخطيئة ، فيقدّر إذلاله وقتله على أيدي اليهود ، ثمّ يحيى من جديد ليرفع بقتله الخطيئة عن البشر .

هذه هي عقيدة النصارى التي يتمسّكون بها والمسطورة في كتبهم ؛ ولو سألتم أيّ داعية مسيحيّ متنوّر عن أُصول دينه ، لذكر ما ذكرناه من الخرافات المخالفة لصريح العقل .

إنّ الله تعالى عادل رحيم ، بل هو أرحم الراحمين ، ولا يؤاخذ الأبناء أبداً بخطيئة أبيهم ، ولا يعذّب مَن لم يعصه . ولو تاب مُذنبٌ إليه لعفا عنه ، لأنّه أرحم من الأب والأُمّ اللذين لو أبق ولدهما ثمّ ندم وعاد إليهما لاستقبلاه وضمّاه في حنوٍّ وشفقة . فلا يستلزم الأمر من أجل غفران الخطيئة أن يذلّ نفسه ويقتلها بأيدي اليهود .

وما الارتباط والعلاقة بين قتله وبين غفران خطيئة البشر ؟! إنّ الله تبارك وتعالى منزّه مبرّأ من التجسّم والحلول ولوازمهما ؛ ولو اقتضت رحمته أن يعفو عن جميع الخاطئين ، عفى عنهم ؛ ولو اقتضى عدله أن يعذّب مستحقّي العذاب ، عذّبهم .

هذه الأُسس الواهية المتداعية لعقيدة النصارى ، والله سبحانه وعيسى ابن مريم منها براء . وهذا الأمر يكفي لوحده في بطلان مذهبهم . ومَن تأمّل في ذلك تحيّر فيه ، لأنّه مخالف للعقل . ومع أنّهم يعترفون بمخالفة ذلك للعقل ، إلّا أنّهم يقولون : لا مفرّ من الاعتقاد بذلك ، فقد ورد في الكتب المقدّسة بهذه الكيفيّة . ولو اعترضتم عليهم بالأُمور التالية وسألتموهم عنها ، فماذا سيجيبون يا ترى ؟

١ ـ بأيّ دليل صار الكتاب المقدّس حجّة ، ولِمَ تَقولون إنّ مطالبه من قبل الله ، مع أنّكم تقولون بأنّ الأنبياء السابقين كانوا خاطئين ؟ إنّ المذنب

الخاطئ قد يكذب فيمزج كذبه بالوحي ويتلوه على الناس .

٢ ـ كيف تبيّن بأنّ حواريي المسيح لم يكذبوا فيُدخلوا في الإنجيل ما ليس فيه ثمّ ينسبونه إلى المسيح ؟ ذلك أنّ الله الذي يعذّب الابن ـ خلافاً للعدل ـ بذنب أبيه ، دون أن يخشى قُبح عمله ، قد يجري المعجزة على يد كذّاب يدّعي الربوبيّة . فكان عيسى ـ والعياذ بالله ـ كاذباً ادّعى الربوبيّة ، فأحيا الله على يده الموتى وأجرى المعجزة على يده دون أن يخشى قبح هذا العمل . ذلك أنّ الله سبحانه ليس عادلاً حسب عقيدتكم .

٣ ـ إن قلتم بأنّ الله عادل لا يفعل القبيح ؛ قُلنا : فهو ـ إذاً ـ لا يعذّب بني آدم بذنب أبيهم ؛ وهو لذلك غير محتاج للهبوط إلى الأرض وللتعرّض للقتل والصلب .

وقد ذكر العلماء المسلمون هذا الإشكال على النصارى ، وذكره **آية الله الشعرانيّ** في كتاب «راه سعادت» .[١]

أجل ، فإنّ غوستاف لوبون يقول في الفصل الخامس من كتاب «تمدّن» ، (= الحضارة) ، الباب الأوّل الذي يدور عن المناهج العلميّة وأُسلوب التعليم والتحقيق :

«ولم تقتصر خدمات المسلمين على ترقية العلوم بما اكتشفوه ، بل

١ـ «راه سعادت» (= نهج السعادة) في إثبات النبوّة وأدلّة حقّانيّة خاتم الأنبياء صلّى الله عليه وآله وسلّم والدين الإسلاميّ ، وردّ شبهات النصارى والمعاندين ، تأليف آية الله الحاجّ الميرزا أبي الحسن الشعرانيّ رضوان الله عليه ، ص ٤ و٥ ، الطبعة الأُولى ، رمضان المبارك ١٣٦٩ هـ . وهذا الكتاب من الكتب المفيدة ، وقد ألّفه آية الله الشعرانيّ بالفارسيّة . ويتضمّن مطالب نفيسة مسندة . ومطالعته للناطقين بالفارسيّة ضروريّة . وعلى العموم فإنّ جميع مؤلّفات آية الله الشعرانيّ ، سواء الكتب المستقلّة أم التعليقات والحواشي تعدّ مطالب تحقيقيّة قيّمة نافعة للمحقّقين.

إنّهم نشروها كذلك بما أقاموا من الجامعات وما ألّفوا من الكتب ، فكان لهم الأثر البالغ في أُوروبّا من هذه الناحية ، وسترى في الفصل الذي ندرس فيه هذا التأثير أنّ المسلمين وحدهم كانوا أساتذة الأُمم النصرانيّة عدّة قرون ، وأنّنا لم نطّلع على علوم قدماء اليونان والرومان إلّا بفضل المسلمين ، وأنّ التعليم في جامعاتنا لم يستغنِ عمّا نُقل إلى لغاتنا من مؤلّفات المسلمين إلّا في الأزمنة الحاضرة» .[١]

ويقول في الباب الثاني (اللغة ، الفلسفة ، الأدب ، التأريخ) ، في الفصل الأوّل منه الخاصّ باللغة العربيّة :

«تعدّ **اللغة العربيّة** من اللغات الساميّة ، وتشبه اللغة العبريّة كثيراً ، وتختلف في مخارجها عن أكثر اللغات الأُوروبّيّة ، فيجد الأجانب صعوبةً كبيرة في النطق بها .

ونجهل تأريخ نشوء اللغة العربيّة كما نعرفها الآن ، ولكنّنا نعلم من الشعر العربيّ ـ الذي قيل قبل ظهور **محمّد** بقرنٍ واحد ـ أنّ اللغة العربيّة كانت قد وصلت إلى درجة كمالها الحاضر .

حقّاً ، تشتمل اللغة العربيّة على لهجات كثيرة ، ولكنّ كتّاب المسلمين أجمعوا على أنّ لهجة قبيلة محمّد تمتاز بأنّها أفصح لهجات العرب ، وكان من تأثير القرآن أن جعل من اللهجة التي كُتِب بها لغةً عامّة .

واللغة العربيّة من أكثر اللغات انسجاماً ، وهي ـ لا ريبَ ـ مختلفة اللهجات في **سوريّة وجزيرة العرب ومصر والجزائر** وغيرها . ولم يكن هذا الاختلاف في غير الأشكال ، فترى المراكشيَّ يفهم بسهولة لَهجة المصريّين أو لهجةَ سكّان جزيرة العرب مثلاً ، مع أنّ سكّان القرى

١ـ «تمدّن اسلام وعرب» (= حضارة الإسلام والعرب) ص ٥٧٨ .

الشماليّة الفرنسيّة لا يفهمون كلمةً من لهجات سكّان القرى الجنوبيّة في فرنسا . واسمع ما قاله الرحّالة **بوركْهارْد**[1] الذي يُعدّ حجّة في هذا الموضوع :

«تجد اختلافاً كبيراً ، لا ريبَ ، في لهجات اللغة العربيّة العامّيّة أكثر ممّا في أيّة لغة أُخرى على ما يُحتمل ، ولكنّه لا يَصْعُب عليك أن تفهمها جميعها إذا ما تعلّمتَ إحداها . وذلك على الرغم من اتّساع البلدان التي يتكلّم أهلوها بها ، وهي الواقعة بين مدينة **مُغَادر**[2] ومدينة **مَسْقط** ، وقد يكون لاختلاف طبيعة البلدان تأثيرٌ في اختلاف تلك اللهجات التي هي عَذْبةٌ في أودية مصر والعراق الدنيا ، وجافّةٌ في سوريّة وجبال بلاد البربر ؛ وأعظمُ فَرْق ـ كما أعلم ـ هو ما بين لهجة المغاربة في مراكش ولهجة الأعراب بالقرب من مكّة في الحجاز ، ولكنّ هذا الفرق بين تينك اللهجتَين لا يزيد على اختلاف لهجة فلّاحي **سواب** (جنوب ألمانيا) عن لهجة فلّاحي **سكسونية** (شمال ألمانيا) ...» .

وما قلناه عن نجاح المسلمين في نشر دينهم ، نقول مثله عن اللغة العربيّة ؛ فمع أنّ الفاتحين الذين ظهروا قبل العرب لم يستطيعوا أن يفرضوا على الأُمم المغلوبة لغاتهم ، قَدَرَ المسلمون ـ بالعكس ـ على فرض لغتهم عليهم . ولمّا صارت اللغة العربيّة عامّة في جميع البلاد التي استولوا عليها ، حلّت محلّ ما كان فيها من اللغات ، **كالسريانيّة ، واليونانيّة والقبطيّة والبربريّة** إلى آخره .

وكان للّغة العربيّة مثل ذلك الحظّ زمناً طويلاً ، حتّى في بلاد فارس

١ـ (التعليقة) Burckhardt .

٢ـ Mogador أحد موانئ بحر الأطلنطيك ، وتقع في الساحل الغربيّ لمراكش ، وهي أوّل نقطة من مغرب العالم الإسلاميّ . (التعليقة).

على الرغم من يقظة الفرس ، أي ظلّت اللغة العربيّة في بلاد فارس لغة أهل الأدب والعلم .

وانتحل **الترك** أنفسهم ، وهم الذين احتلّوا البلاد الإسلاميّة ، الخطّ العربيّ ، ولا تجد في تركيا إنساناً على شيءٍ من التعليم لا يستطيع أن يفهم لغةَ القرآن بسهولة .

ولم يشذّ عن ذلك سوى الأُمم **اللاتينيّة** الأُوروبّيّة التي لم تقم اللغةُ العربيّة مقامَ لغاتها القديمة ، ومع ذلك فإنّ اللغة العربيّة ذاتُ أثر عميق في اللغات اللاتينيّة . وقد ألّف **دوزي**[١] و**أنجلمن**[٢] معجماً في الكلمات الإسبانيّة والبرتغاليّة المشتقّة من اللغة العربيّة .

وتركت لغة العرب أثراً مهمّاً في فرنسا نفسها ، وذكر **سِيديّو** والحقُّ ما ذكر «أنّ اللهجات السائدة لولاية **أوفِرْن** وولاية **ليموزان** الفرنسيّتَين محشوّة بالكلمات العربيّة ، وأنّ أسماء الأعلام فيهما ذات مسحة عربيّة» .

قال هذا المؤلف : «ومن الطبيعيّ أن تقتبس فرنسا وإيطاليا من العرب ، الذين كانوا سادة البحر المتوسّط منذ القرن الثامن من الميلاد ، أكثر الاصطلاحات البحريّة مثل : **أميرال** ، **اسكادر** ، **فلوت** ، **فرگات** ، **كارافِل** ، **شالوپ** ، **سلوپ** ، **بارك** ، **شيورم** ، **دارس** ، **كالفات** ، **استاكاد**[٣] وغيرها ، ولا سيّما **بوسول**[٤] (البوصلة) التي عُزي أمرها إلى أهل الصين على غير حقّ .

١ـ Dozy .

٢ـ Angelman .

٣ـ Amiral , Esccadre , Flotte , Fregate , Corvette , Caravelle , Flauque , Chaloupe, sloupe , Barque , Chiourme , Darse , Calfat , Estacade .

٤ـ Boussole .

وأن تقتبس جيوشهما ألقاب ضبّاط جيوش المسلمين وتعابير وَغَى الحرب ، واستعمالَ **بارود** المدافع ، و**القنابل** ، و**الحرّاقات** ، و**القذائف** ؛ وأن تأخذ عن حكومة بغداد وحكومة قرطبة التعابير الإداريّة مثل : **معاون**، **گابل**، **تاي**، **تاريف** ، **دوآن**،[1] **بازار** وغيرها ، وأن يقلّد ملوك الأسرة الثالثة الفرنسيّة المسلمين ، فيأخذوا عنهم معظم اصطلاحات الصيد ، حتّى لفظ **تورنامنت** التي عدّها علماء اللغة المعاصرون خطأً مشتقّة من اللاتينيّة ، والتي تعود إلى الكلمة العربيّة **دَوَران** التي تعني الحركة الدائريّة . وأهمّ من ذلك كلّه اصطلاحات العلوم التي اقتبسناها من العرب ، ففي علوم **الرياضيّات**، **الكيمياء** ، **علم الحيوان** ، **الطبّ** ، أسماء الأدوية ، هناك ألفاظ كثيرة ترجع إلى أصل عربيّ . وعلم الفلك على الخصوص مملوء بالتعابير العربيّة ، حتّى أنّ أسماء أكثر النجوم مقتبسة من العربيّة ،كما أنّ كلمة «أساسن»[2] التي تطلق في عصرنا على القاتل الذي يقتل الناس خُفية ، مشتقّة من كلمة «الحشّاش» العربيّة» .

وزعم مؤلّف أحد المعجمات الاشتقاقيّة الفرنسيّة الذي أُلِّف حديثاً أنّ إقامة العرب بجنوب فرنسا لم تُسفر عن شيء ، لا في اللهجات ، ولا في اللغة ؛ فقلّة قيمة هذا الرأي تبدو ممّا قُلناه آنفاً . ومن العجيب أن يكرّر

١ـ Aides , Gabell , Taille , Tarif , Douane .

٢ـ كلمة «Assassin» مشتقّة من كلمة «الحشّاشين» ، وهم جماعة من القرامطة جمعهم حسن الصبّاح سنة ١٠٩٠ ميلاديّة تحت لوائه في قلعته التي دعاها بقلعة «الموت» ؛ ودُعي لذلك السبب بـ«شيخ الجبل» . وقد سبّبت هذه الجماعة ثورات دمويّة في أماكن كثيرة إلى ما يقرب من مائتي سنة ، وقد لقّبوا بالحشّاشين لأنّهم كانوا يستعملون الحشيشة قبل هجومهم، ثمّ تغيّرت تلك اللفظة بالاستعمال إلى لفظة «أساسن» الموجودة في جميع اللغات الأُوروبّيّة. وكانت تلك الفرقة تنتمي إلى الإ سماعيليّة . (التعليقة).

بعض المثقّفين مثلَ هذا الزعم .

واللغة العربيّة غنيّة جدّاً ، وزاد غِناها بما أُضيف إليها دائماً من التعابير الجديدة التي تسرّبت فيها من اللهجات التي اتّصلت بها ، وانظر إلى المعجم الذي ألّفه **ابن سيده** المتوفّى سنة ١٠٦٥ م تجده مشتملاً على عشرين جزءاً» .[١]

وتعود لغات العالَم الحيّة إلى أصلَين : **الأصل الساميّ** ، **والأصل الهنديّ والأُوروبّيّ** ؛ وأفضل اللغات الأُوروبّيّة وأتقنها هي اللغة الفرنسيّة التي تمتلك قواعد وأدبيات متينة ، أمّا اللغة الألمانيّة فهي على الرغم من صعوبة تعلّمها وامتلاكها قواعد لغويّة ، لا تقف في مصاف اللغة الفرنسيّة . والحال كذلك بالنسبة إلى اللغات الإيطاليّة والإسبانيّة والروسيّة . وقد تفوّقت اللغة الإنجليزيّة في عصرنا الحالي ـ مع الأسف ـ نتيجة غلبة الاستعمار في العالم ، بَيدَ أنّها لغة ضحلة تفتقر إلى القواعد والنكات الأدبيّة ؛ وتمتاز الإنجليزيّة بالبساطة ، وقواعدها وقراءتها في منتهى السهولة ، وهي دون الفرنسيّة في القياس ، بل لا يمكن مقايستهما ببعضهما ، ولذلك فإنّ تلاميذ المدارس كانوا يُخيّرون في بداية التجديد بين اللغة الفرنسيّة واللغة الإنجليزيّة ، فكان التلاميذ الأذكياء الذوّاقون يختارون الفرنسيّة لرغبتهم في دراسة العلوم الفرنسيّة والأدب الفرنسيّ . ثمّ إنّ الإنجليزيّة تفوّقت تدريجيّاً نتيجة تسلّط إنجلترا وأمريكا ، فتوقّف تدريس اللغة الفرنسيّة ، وصارت الإنجليزيّة تُدرّس في جميع المدارس عدا الفروع الفنّيّة والصناعيّة التي كانت مدارسها تدرّس الألمانيّة لتقدّم الألمان في هذا

١ـ «تمدّن اسلام وعرب» (= حضارة الإسلام والعرب) ص ٥٧٩ إلى ٥٨٣ ، الطبعة الثانية.

الفنّ .

أمّا اللغات الساميّة ، فإنّ اللغة العربيّة أفضلها دون مُنازع في الأدب والقواعد النحويّة والصرف والمحسّنات البديعيّة والبيانيّة ، وفي كثرة المفردات والاشتقاقات والفصاحة والبلاغة ، وفي القدرة على الفهم والتفهيم وإيراد المطالب المهمّة والعلوم المعقّدة والمسائل المفصّلة بأوجز عبارة ، مع بيان أصل المراد على أكمل نحوٍ وأتمّه ، حتّى أنّ اللغة العبريّة ـ التي هي من اللغات الساميّة أيضاً ـ لا تدانيها رفعةً وسموّاً . وتشهد على صدق دعوانا الأشعار والقصائد العربيّة من زمن الجاهليّة إلى عصرنا الحاضر ، والخُطب والكتب المدوّنة في الأدب العربيّ الموجودة في أيدينا .

ولو شئنا مقارنة اللغة العربيّة في شرق الأرض مع اللغة الفرنسيّة في غربها ، لشاهدنا أنّ العربيّة أوسع بكرّات وأفصح من الفرنسيّة وأكثر أصالةً ، وأنّ القواعد والصرف والنحو والاشتقاق والمفردات والمعاني والبيان أدقّ في العربيّة وأعمق وأظرف .

ومن هنا ، فإنّ أيّة لغة في جميع العالم لا توازي اللغة العربيّة في علوّ مقامها وجلالها . وهناك جهة مهمّة تضاف إلى ذلك ، وهي أنّ الله تعالى أنزل قرآنه الكريم **باللغة العربيّة** ، واختار نبيّه خاتم الأنبياء ، الذي جعل دينه وحكمه في العالم قائماً إلى يوم القيامة ، من العرب ومن نسل **إسماعيل** ابن النبيّ **إبراهيم** عليهما سلام الله .

ولو لم تُعزل الحكومة والولاية عن أهل بيت النبيّ . وكان زمام أمر الدعوة إلى الدين وترويجه ونشره في اليد المباركة لأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه أفضل صلوات المصلّين ، لاعتنق العالَمُ الدينَ الإسلاميّ في سنوات صدر الإسلام ، ولاختار بترحاب صدر اللغة العربيّة ، لغة القرآن

المبين والنبيّ الخاتم . لكنّ انحراف التأريخ سبّب انحراف منهج التعليم والتربية ، وأزال الرحى الدائرة عن قُطبها ومحورها ، فأوكل تلك الدعوة العامّة والإسلام العالميّ والقرآن العالميّ والتحدّث بلغة رسول الله البليغة الفُصحى إلى زمان ظهور **قائم آل محمّد** روحي وأرواح العالمين له الفِداء .

إنّ الأدب العربيّ وبلاغة اللغة العربيّة وأصالتها لها ـ دون ريب ـ تأثير عميق في أخلاقهم وصفاتهم الذاتيّة ومَلَكاتهم ، أي أنّها تمتلك ـ بتعبيرٍ آخر ـ تأثيراً بالغاً في ثقافتهم وآرائهم وأُسلوب تفكيرهم وأفكارهم الخاصّة .

ونحن نشاهد في العرب صفاتاً ليس لها شبيه ولا نظير في جميع أُمم العالم ، منها الشجاعة ، والسخاء والإيثار ، والوفاء بالعهد والميثاق ، والغيرة والدفاع عن الشرف والعشيرة ، وإيواء اللاجئ إليهم والدفاع عنه إلى حدّ الاستماتة ، والضيافة وحبّ الضيف ، والصدق وعدم النفاق ، وعلوّ الهمّة وثبات العزيمة ، وغير ذلك من الصفات التي تشرّبت بها هذه الأُمّة ، وتفرّعت من هذه الدوحة .[1]

١ـ نقل في كتاب «خدمات متقابل اسلام وايران» ص ١١٠ ، عن «ادوارد براون» عن «المستشرق دوزي» قوله : «وقد ظهر قوم جدد على ساحة العالم ؛ وهم قبائل لا تحصى كانت متفرّقة ومتناحرة في أغلب الأحيان قبل ذلك التأريخ ؛ وكانت تلك هي المرّة الأُولى التي اتّحدت فيها تلك الأقوام فظهر من اجتماعهم قوم جدد يحبّون حرّيّتهم حبّاً مُفرطاً ؛ بُسطاء في أكلهم وملبسهم . قومٌ نجباء ، مِضيافون نشطون ، يمتازون بالفراسة والمرح والمزاح في الحديث، وكانوا في الوقت نفسه سرعان ما يستشيطون غضباً . وما إن تتأجّج نيران غضبهم، حتّى يتميّزون حقداً وظُلماً وعداءً . وهؤلاء القوم هم الذين أطاحوا في لحظة واحدة بدولة إيران القديمة العزيزة ، الفاسدة المتهرّئة ، وانتزعوا أحبّ الولايات من خلفاء قسطنطين وسحقوا مملكة ألمانيا الفتيّة ، وهدّدوا ممالك أُوروبّا الباقية ، بينما كانت جيوشهم الظافرة قد بلغت جبال هيمالايا واكتسحتها».

وهذه الصفات بأجمعها تدلّ على عظمة أُصولهم ، وأصالة بُنيتهم وكيانهم الروحيّ والبدنيّ . والقصص التأريخيّة التي تفوق الحصر في كلّ واحد من الموارد المذكورة خير دليلٍ على كلامنا .

وستمكّن نظرة أجماليّة على دورات كتب «صبح الأعشى» تأليف الشيخ أبي العبّاس أحمد القلقشنديّ ، و«نهاية الأرب في فنون الأدب» تأليف شهاب الدين أحمد بن عبد الوهّاب النويريّ ، و«الأغاني» تأليف أبي الفرج الإصفهانيّ ، من كتب المتقدّمين ؛ ودورة كتاب «قصص العرب» تأليف محمّد أحمد جاد المولى ، وعلي محمد بَجاوي ، ومحمّد أبي الفضل إبراهيم الذي ألّف مؤخّراً ؛ ستمكّن الشخص الخبير الباحث على التعرّف على كثير من حالات العرب الأصيلة والعريقة .

وهناك جدل دائر بين علماء الاجتماع حول الأمر التالي : هل نشأت هذه الصفات من اللغة وسعة الكلام والأدب ، أم أنّ هذه الصفات والملكات هي التي سبّبت اتّساع الثقافة واللغة والأدب ؟ وعلى أيّة حال ، فإنّ التلازم والتقارن الوجوديّ بينهما ممّا لا يمكن إنكاره ، وهو أمر كافٍ ليضع العنصر العربيّ ، وهو عنصر رسول الله وهُداة الدين : الأئمّة الطاهرين ، في الذروة من الرقيّ والكمال .

يقول **السيّد حميد عنايت** في كتابه «سيرى در انديشهٔ سياسى عرب» (= جولة في الفكر السياسيّ العربيّ) : «قال **أَرنست رينان** في خطبة له تحت عنوان «الإسلام والعلم» ألقاها في جامعة **السوربون** ، ونشرتها فيما بعد **مجلّة دِدِبا** (Journal des Debats) :

«إنّ الإسلام يخالف الروح العلميّة والفلسفيّة ؛ وعلى الأخص أنّ العرب كانوا عاجزين تلقائيّاً عن تعلّم العلم والفلسفة . وإنّما ظهر من العلم والفلسفة ما ظهر في العالم الإسلاميّ بهمّة مَن انتمى إلى الإسلام مِن غير

العرب . ولذلك فإنّ ما اشتُهر بأنّه علم العرب وفلسفتهم هو في حقيقة الأمر العلم والفلسفة اليونانيّين» .

وفي نظر **رينان** فإنّ فيلسوفاً واحداً من بين الفلاسفة المسلمين الكبار ، قدكان من العرب ، وهو **يعقوب الكِنديّ** . وقد لُقّب الآخرون بالعرب ، نظراً لكونهم كانوا يؤلّفون بالعربيّة ؛ لذلك فإنّ تسميتهم بالعرب أمرٌ غير منطقيّ ، وأشبهُ شيء بتسمية الفلاسفة الأُوروبيّين في القرون الوسطى بالفلاسفة اللاتينيّين .

وقد ردّ على هذه المقالة بعد نشرها عدّة من المثقّفين والمفكّرين المسلمين ، **منهم نامق كماك بك** المفكّر التركيّ ، **والسيّد جمال** .

وكان لردّ السيّد جمال الذي كتبه بالعربيّة على ما يبدو ، ثمّ تُرجم إلى الفرنسيّة ، انعكاساً أوسع ممّا سواه . وقد لخّص في إجابته مطالب خُطبة رينان في هاتين النكتتَين اللتين أوردناهما ، أي القول بأنّ الإسلام مُعادٍ في جوهره للعلم والفلسفة ، وأنّ هذا العداء بلغ أوجه زمنَ حُكم العرب ، ثمّ استمرّ على قوّته زمن الأتراك ، ثمّ خفّت حدّة العداء قليلاً وبصورة مؤقّتة برواج الأفكار اليونانيّة والإيرانيّة بين المسلمين ، وذلك لشدة مخالفة الإسلام للعلم والفلسفة . **والنكتة الثانية** هي أنّ العرب كانوا في ذواتهم مخالفين للعلم والفلسفة .

وكان **البناء الاستدلالي للسيّد** الذي كان قبل كلام رينان مخالفاً لأُسلوب الأُوروبيّين الفكريّ في عصره يتلخّص فيما يلي : أنّ تأريخ أيّ قوم ينبغي أن ينظر إليه على أساس النهضات الخالدة والتطوّر المستمرّ الذي يمتلك درجات ومراحل مختلفة . وينبغي عند الحكم على خصوصيّةٍ من خصائص أُولئك القوم ، أن يؤخذ بنظر الاعتبار المرحلة التأريخيّة الخاصّة ببروز تلك الخصوصيّة ،كما ينبغي عدم اعتبار أيّة سيرة وخصلة في

أيّ قوم أمراً ذاتيّاً ملازماً لهم .

وقد ردّ السيّد على عقيدَتي رينان استناداً إلى هذا الأصل» .

ثمّ إنّ السيّد عنايت يذكر بالتفصيل استدلال السيّد في ردّه على إشكال رينان الأوّل . ونظراً لأنّ جواب السيّد لا يخلو في نظرنا من الإشكال ، وأنّ مواضع ضعف كثيرة مشهودة فيه ، وأنّ نقله في هذا المجال سيستدعي بحثاً طويلاً وردّاً على تلك الإشكالات ، فقد صرفنا النظر عنه .

ثمّ يصل إلى قوله : «وأمّا عن **النكتة الثانية** التي ذكرها **رينان** ، وهي العداء الذاتيّ للعرب مع العلم والفلسفة ، يقول السيّد : «يعلم الجميع أنّ العرب قد اكتسبوا عند ظهور الإسلام ، وبسرعةٍ تثير الإعجاب علوم الإيرانيّين واليونانيّين التي استغرق تكاملها قروناً عديدة ، واستفادوا منها في حضارتهم .

ولقد استمرّ تقدّم **العلم والفلسفة** في ظلّ حكومة العرب ؛ وبيُمن العرب انتقلت العلوم من الشرق إلى الغرب . ولقد كان **أرسطو** في اليونان ، فلم يُلقِ الأُوروبّيّون إليه بالاً ، ثمّ هاجر وأضحى عربيّاً فأضحى الجميع يفخرون به . ومن هنا ، فإنّ العالم الإسلاميّ العربيّ قد سبق الغرب في الثقافة والفكر خمسة قرون» .

كما ردّ السيّد على مقولة رينان بأنّ أحداً من العرب سوى **الكنديّ** لم يبرز في الفلسفة ، وأنّ أغلب الفلاسفة المسلمين كانوا من أهالي **حرّان والأندلس وفارس** ؛ بقوله :

«**أوّلاً** : إنّ الحرّانيّين أنفسهم هم من العرب ، وكانوا يتكلّمون بالعربيّة قبل الإسلام بخمسة قرون .

وثانياً : ليس من اللائق ألّا نعتبر فلاسفة الأندلس من أمثال **ابن باجة ، وابن رشد ، وابن الطُّفَيل** عرباً لمجرّد أنّهم لم يعيشوا في البلاد

العربيّة ، لأنّ لغتهم كانت العربيّة ، واللغة من أهمّ أوجه امتياز الأقوام والأُمم وخصائصها ؛ وحيثما أضاع قوم هذا الامتياز ، فإنّهم سيكونون قد أضاعوا في الحقيقة امتيازهم الأصليّ» .[1]

ويقول مؤلّف كتاب «شرح حال و آثار سيّد جمال الدين الأسدآباديّ» :

«وبعد نشر مقالة السيّد جمال الدين ، ردّ عليه رينان الحكيم في اليوم اللاحق ، أي في ١٩ من شهر آيار ١٨٨٣ م . بجواب في منتهى الأدب ، نشره في نفس الجريدة .

ويقول رينان في مقالته الجوابيّة متحدّثاً عن السيّد جمال الدين ـ ولم يُسمع من أحدٍ وصفٌ ولا حُكمٌ ألطف منه ولا تعبيرٌ أصلح وأصوبُ منه في حقّ السيّد ـ :

«لقد قلّ أن يؤثّر فيَّ أحد مثل هذا التأثير ؛ ولقد دفعني حديثي معه (أي مع السيّد جمال الدين) إلى اختيار عنوانٍ لموضوعي في مؤتمر السوربون هو : **العلاقة بين الروح العلميّة والإسلام**»[2] .

ونشاهد هنا أنّ إرنست رينان يحسّ بالعجز عن إجابة السيّد ، ويعترف بعظمة الإسلام والعرب .

ولقد انتقد **غوستاف لوبون** في كتابه السابق الذكر إرنست رينان في هذا الموضوع في عدّة إشكالات متعاقبة ذكرها ، حيث يقول في تعليقة بقلمه على بعض مباحث الكتاب الخامس في الحضارة :

١ـ «سيرى در انديشهٔ سياسى عرب» انديشه واجتماع ١ ، ص ١٠٤ إلى ١٠٧ .

٢ـ «شرح حال و آثار سيّد جمال الدين الأسدآباديّ» تأليف الميرزا لطف‌الله أسدآبادي وتقديم حسين كاظم‌زاده إيرانشهر ، ص ٩٠ و ٩١ .

«حيثما تلتقي الأوهام الموروثة والثقافة في العالم الفاضل، ولا يدري على أيّهما يعتمد في وزن الأُمور، يتجلّى فيه ما يجتمع في شخصٍ واحد من الذاتيّة القديمة التي هي وليدة الماضي، والذاتيّة العصريّة التي هي وليدة المشاهدة الشخصيّة، فيصدر عنه من الآراء المتناقضة ما يستوقف النظر. ومن ذلك التناقض المثال البارز الذي يجده القارئ في الخطبة التي ألقاها الكاتب والعالم الفاضل **المسيو رينان** في **السوربون** عن الإسلام والتي أراد مسيو رينان أن يُثبت فيها عجز العرب، ولكن ترّهاته كانت تنقض بما كان يجيء في الصفحة التي تليها. فبعد أن قال مسيو رينان مثلاً: إنّ تقدّم العلوم مديون للعرب وحدهم مدّة ستمائة عام، وذكر أنّ عدم التسامح ممّا لم يعرفه الإسلام إلّا بعد أن حلّت محلّ العرب شعوب متأخّرة **كالبربر والترك**. وعاد فادّعى أنّ الإسلام اضطَهد العلم والفلسفة وقضى على العقل في البلاد التي دانت له.

بَيدَ أنّ ناقداً بصيراً كمسيو رينان لا يستطيع أن ينام مدّة طويلة على مثل ذلك الزعم المناقض لأوضح ما رواه التأريخ، فذهبت عنه أوهامه ومبتسراته الموروثة ثانيةً، ورجع يعترف بتأثير العرب في القرون الوسطى، ويشهد بتقدّم العلوم في بلاد الأندلس أيّام سلطانهم.

ومن دواعي الأسف أن تغلّبت على رينان مبتسراته غير الشاعرة بعد ذلك سريعاً، فصار يزعم أنّ علماء العرب ليسوا عرباً، بل من أبناء **سمرقند وقرطبه وإشبيليّة** وغيرها؛ مع أنّ الواقع أنّ تلك البلاد ممّا ملكه العرب، وأنّ الدم العربيّ ممّا جرى في عروق أبنائها، وأنّ علوم العرب ممّا كان لها نصيب منه زماناً طويلاً، وأنّه إذا أُبيح لأحدٍ أن يُجادل في الآثار التي صدرت عن مدارس العرب، كان ذلك من قبيل إباحته لنفسه أن يجادل في مؤلّفات علماء فرنسا بحجّة أنّهم من الشعوب الكثيرة التي تألّف من

مجموعها الشعبُ الفرنسيّ ، **كالنورمان والسلت والأكيتان** وغيرهم .

ثمّ يظهر الكاتب الفاضل مسيو رينان أسيفاً أحياناً على سوء رأيه في العرب ، ويصل إلى النتيجة غير المنتظرة التي سبّبها ما أشرنا إليه سابقاً من التنازع ما بين ذاتيّة الإنسان القديمة وذاتيّته العصريّة ، **فيأسف على أنّه ليس من أتباع النبيّ** ، ويقول : إنّني لم أدخل مسجداً من غير أن أهتزّ خاشعاً ، أي مِن غير أن أشعر بشيء من الحسرة على أنّني لستُ مسلماً» .[١]

ويتّضح ممّا قيل أنّ العرب كانوا ذوي وزن وأصالة أكثر ، وأنّ ذلك الوزن وتلك القابليّة الواسعة في نفوسهم قد تركّزت في قبيلة بني هاشم ، فأنجبت ثمرةً يانعة ناضجة لعالم الخلق وقدّمتها لعالم البشريّة وهي رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم .

ولو لم تمتلك أُسرة في ماهيّتها وقابليّتها الذاتيّة أصالة الذات ونزاهة الفطرة وسعة تحمّل هذه العلوم والمعارف ، لما تحقّق فيها وجود مثل هذا النبيّ .

منتهى الأمر ، أنّ هذه القابليّة قد انتقلت بالتوارث نسلاً بعد نسل ، حتّى أذِن الله لها فظهرت بأمره ، وبلغت فعليّتها التامّة ، وكشفت الأستار عن طلعتها .

لقد اتّبع العرب شريعة النبيّ إبراهيم عليه السلام ، لكنّهم حرّفوا تلك الشريعة عن مسارها الأصيل لبُعد العهد ، فأُدخل فيها من منكرات العقائد من قبيل عبادة الأصنام واتّخاذ آلهة ، كما أقحموا فيها من منكرات الأفعال كتقديم القرابين للأصنام ، ووأد بناتهم بسبب الحميّة والعصبيّة ، وكالطواف

١ـ «تمدّن اسلام وعرب» (= حضارة الإسلام والعرب) ص ٧٦٣ و ٧٦٤ ، الطبعة الثانية.

عرايا بحجّة عدم استعدادهم للبس ملابس ملوّثة بالذنوب عند الطواف ، ونظائر ذلك .

بَيدَ أنّ أصالة تلك القبيلة وعلوّ صفاتها النفسانيّة وملكاتها الفطريّة والمكتسبة كانت مختفية تحت ستار الجهل وضعف البصيرة . وكانت الحاجة ماسّة في هذه العصر الذي كان يدعى بـ**الفَتْرَة** إلى معلّم ومربٍّ وطبيب حاذق وحكيم مدبّر ، يضع العلاج الناجع لهذا المرض بنبوّته ورسالته من قبل الله المتعال ، ليشفي هذا المريض ويعيده سليماً مُعافى . ومن هنا ، فقدكان للحن كلامه وَقْع في الأرواح الضمأى المهيّئة . وطرد من أعينها سكرات الكرى ، وبلغ بقابليّاتها إلى فعليّتها ، وسار بها في نهج التكامل ومسيرة العزّ والطهارة .

إنّ العنصر العربيّ في حدّ ذاته عنصر رفيع غنيّ ، ومن هذا العنصر ارتفع صوت الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم مذكّراً بأنّ علوّ العنصر لا يستدعي ارتفاع الدرجة والثواب النفسانيّ ، لأنّ الثواب والعقاب تابعان للنيّة والأخلاق والتقوى والسعي .كما نزلت الآية القرآنيّة على هذا النبيّ في هذا الشأن ؛ وبغير ذلك فإنّ كلّ نفس وكلّ قابليّة لن يمكنها تحمّل هذا القانون العظيم ، وستضيق عن استيعابه .

إنّ المباهاة والافتخار بالعرق والعنصر أمرٌ ذميم ، لأنّ العرق والعنصر ليس أمراً اختياريّاً ، وينبغي على الإنسان ذي البصيرة أن يفتخر بالتقوى والعلم والجهاد في طريق التكامل ونيل مصالحه الحقيقيّة والنفسانيّة .

لقد كان النبيّ الكريم يحذّر العرب بأن لا يفتخروا بقدرتهم التكوينيّة وقابليّة عنصرهم وعرقهم ، وكان يُحذّر باللغة العربيّة ذاتها جميع أهل العالم بنفس التحذير حيثما اقتضى الأمر تحذيرهم .

ولقد وُجِدَتْ في أواخر القرن الأوّل والقرن الثاني الهجريّين

القمريّين جماعة في إيران حاربت العنصر العربيّ والدم العربيّ منطلقة من انتمائها الإيرانيّ وأصالتها الإيرانيّة . وعلى الرغم من أنّ تلك الحركة والانتفاضة حملت في بداية أمرها عنوان المطالبة بالعدالة وإزالة المظالم العنصريّة ، وكانت حركة ممتدحة لهذا السبب ، لكنّها تحوّلت تدريجيّاً إلى حركة **شعوبيّة** ترفع شعار أصالة العنصر الفارسيّ في مواجهة العنصر العربيّ ، وهو أمر شديد القُبح ، يشبه إلى حدٍّ بعيد الاتّجاهات **والنزعات القوميّة** في عصرنا الحاضر التي تتشدّق بالمحافظة على الهويّة القوميّة الفارسيّة والعرق الفارسيّ واللغة الفارسيّة وإحياء لغات زَند وأوِستا ،[1] وبإحياء الأعياد القوميّة الإيرانيّة في مقابل اتّحاد الإسلام وحفظ حريم وحدته المقدّسة .

وهذه النظرة هي بالنتيجة خيانة للنفس وللمجتمع الإسلاميّ ، وتمثّل استجابه لدسائس الاستعمار وتحريكاته . وهذه الخطط قد وُضعت من أجل سلب ثقة الناس بأصالة أخلاق الإسلام وطهارة روح النبوّة والولاية ، وتستهدف تفريقهم من تحت اللواء الواحد .

ويقول هؤلاء بأنّ العرب طوائف وحشيّة قامت بإحراق مكتبة الإسكندريّة ومكتبة إيران ، ودمّرت الحضارات . وهو قول ليس له ما يدعمه من التأريخ ، وليس إلّا مجرّد إشاعة نشرها المسيحيّون الصليبيّون بعد الحروب الصليبيّة تفريغاً لأحقادهم على المسلمين المنتصرين ، شأنها شأن سائر الافتراءات والأكاذيب التي افتروها على النبيّ الأكرم وعلى المسلمين .

وهذه الافتراءات من الوقاحة والشناعة إلى الحدّ الذي جعل أحد

١ـ أي : كتاب زرادشت . (م)

محقّقيهم مُجبراً على تأليف كتابٍ سمّاه «عذر تقصير به پيشگاه محمّد وقرآن» (= اعتذار من التقصير إلى ساحة النبيّ والقرآن) ،[1] فيرّد فيه على تهمة إحراق الكتب .

ولقد صرّح كثير من محقّقي أُوروبّاً المشهورين من أمثال **هِكتور**، **جود فري** ، **إرنست رينان** ، **سيدلو** ، **كارليل** ، **غيبون** وغيرهم بخطأ كثير من الروايات والأخبار غير المُجدية التي انتشرت في أُوروبّا عن الإسلام والمسلمين ، وردّوا على ذلك في كتبهم ، ومن جملة تلك الأخبار ، شائعة إحراق مكتبة الإسكندريّة .

يقول **شِبلي نعمان** في رسالة مكتبة الاسكندريّة حسب نقل المرحوم المطهّريّ : «وينبغي العلم أنّ من بين الشائعات التي ذكرناها ، شائعة إحراق مكتبة الإسكندريّة ، فقد نشرت أُوروبّا هذه القضيّة بصوت غريب ولهجة مُهيبة مُحيّرة ، بحيث إنّ **كتب التأريخ** ، **القصص** ، **المذهب**، **المنطق**، **الفلسفة** وأمثالها لا تخلو من أثر منها . (فقد سعوا ترسيخاً لهذه القصّة في الأذهان ، إلى ذِكرها في كلّ كتاب مهما كان نوعه ، حتّى أنّهم ذكروها في كتب الفلسفة والمنطق) حتّى أنّهم جعلوها ضمن أسئلة الامتحان السنويّ لـ **اونيورسيتي كلكتّا الهنديّة** (وكانت تحت إشراف الإنجليز) الخاصّة بدرس المنطق ، حيث طبعوا من تلك الأسئلة عدّة آلاف من النسخ . فطلبوا حلّ المغلطة التالية :

إن وافقت الكتبُ القرآنَ فلا ضرورةَ لها ، وإن لم توافقه فَأَحْرِقْهَا جميعاً !

١ـ تأليف جان ديون بورت ، وقد ترجم الكتاب إلى الفارسيّة السيّد غلامرضا سعيدي .

ثمّ يتساءل شبلي نعمان : ما هي السياسة التي تقف خلف ذلك ؟ أهي نوع من التعاطف والمشاركة القلبيّة في شأن الكتب المحترقة ، أم إنّ وراء الأمر ما وراءه ؟!

إن كان في الأمر تعاطفاً وإخلاصاً ، فَلِمَ لا يكون هناك تعاطف في شأن إحراق الكتب المسلّم المهيب الذي حصل على أيدي المسيحيّين أنفسهم في فتح الأندلس وخلال الحروب الصليبيّة ؟!

يجيب شبلي بنفسه بهذه العبارة : أنّ السبب الأصليّ هو أنّ تلك المكتبة (مكتبة الإسكندريّة) قد دمّرها المسيحيّون أنفسهم قبل الإسلام ، ثمّ عادوا يُوحون إلى الأذهان من خلال إعلامهم المكثّف أنّ المسلمين هم الذين دمّروها . فهدفهم الأساس هو ـ إذاً ـ التغطية على جريمتهم) .

ويستمرّ المرحوم الشهيد المطهّريّ في كلامه فيقول :

«إنّ السبب الذي ذكره شبلي هو أحد أسباب القضيّة ، ويصدق على مورد مكتبة الإسكندريّة دون سواه من الموارد . وهناك سببٌ أو أسباب أُخرى في الأمر . إنّ المسألة الأساسيّة هي الاستعمار .

إنّ الاستعمار السياسيّ والاقتصاديّ يُحرز نجاحاً حين يكون الاستعمار الثقافيّ قد أحرز نجاحاً في مضماره . والشرط الأساس لهذا النجاح هو سلب اعتقاد الناس بثقافتهم وتأريخهم . وقد شخّص الاستعمار وجرّب أنّ الثقافة التي يستند إليها المسلمون ، والنظريّة (الآيديولوجيّة) التي يفتخرون بها ، هما الثقافة والنظريّة الإسلاميّتَيْن ، وفيما عدا ذلك هراء لا يتخطّى أبداً الجدران الأربعة للمؤتمرات والاحتفالات والمجالس والندوات ، ولا ينفذ إلى صميم الشعب . وينبغي لذلك أن يتمّ إفراغ الناس من ذلك الاعتقاد والإيمان ، ومن ذلك الاعتماد وحسن الظنّ ، ليكونوا مهيّئين لصبّهم في قوالب النماذج الغربيّة .

وليس أفضلَ ، لخلق سوء ظنّ الناس بتلك الثقافة وتلك النظريّة وبمن جاء بهما ، من أن يُوحى إلى الجيل الجديد بأنّ مَن تتصوّرونهم حملة رسالة نجاة البشريّة وحرّيّتها وهدايتها إلى سعادتها ، والذين كانوا ـ تحت هذا العنوان ـ يهاجمون الدول الأُخرى ويُسقطون أنظمتها ، قد ارتكبوا بأنفسهم أشدّ الأعمال وحشيّةً ، وهذا هو مثالٌ لما عملوه .

ولذلك ، فإنّ القارئ المحترم لن يعجب إذا لم تجد لجنة الامتحان السنويّ في اونيورسيتي كلكتّا الهنديّة التي كانت تدار من قبل الإنجليز ، سؤالاً لحلّ مغالطة المنطق إلّا الأمر المختلق بإحراق الكتب . وحين يكتب مؤلّف إيرانيّ ألّف كتاب «مباني الفلسفة» لطلبة الصف السادس الثانويّ ، الذي يُطبع منه كلّ سنة عشرات الآلاف من النسخ ، فيصل إلى مبحث القياس الاستثنائيّ في المنطق ، لكنّه يعتصر ذهنه فلا يجد سؤالاً يورده في الشأن إلّا السؤال الذي طرحه المخطّطون الإنجليز في اونيورسيتي كلكتّا ، فيُجبر على طرح المسألة على النحو التالي :

«يمكن للقياس الاستثنائيّ أن يكون منفصلاً ومتّصلاً في نفس الوقت ، أي أن يكون مركّباً . والمثال على هذا القياس هو القول المعروف المنسوب للقائد العربيّ الذي أراد تقديم تبرير استدلاليّ لإحراق مكتبة الساسانيّين فقال :

هذه الكتب ، إمّا أن تكون موافقة للقرآن أو مُخالفة له . فإن وافقت القرآن كان وجودها زائداً ، وإن خالفته كان وجودها زائداً ومضرّاً . وكلّ زائد ومضرّ يجب أن يُتلَف . فهذه الكتب ـ في جميع الأحوال ـ ينبغي أن تُحرق . (الدكتور علي أكبر سياسي «مباني فلسفه» ص ٢٥٤) .

ثمّ يختم المرحوم المطهّريّ كلامه في هذا الموضوع بقوله :

«إنّ كلّ هذه الأبواق التي ملأت ما بين أُوروبّا إلى الهند ، والكتب

التي تؤلّف في موضوعها، والقصص التي تُصاغ عنها، وإقحامها في كتب المنطق والفلسفة والأسئلة الامتحانيّة من أجل جعلها أمراً قطعيّاً مسلّماً، ليست من أجل أحساسات وعواطف ضدّ عُمَر أو ضدّ عمرو بن العاصّ، وليست قُربةً إلى الله تعالى وخدمةً لعالم التشيّع ومن أجل إسقاط اعتبار خصوم أمير المؤمنين عليّ عليه السلام.

إنّ الإسلام ـ لا سواه ـ هو المسألة المطروحة في مثل هذا الجوّ الذي يجري فيه طرح هذه المسائل، وإنّ السلاح المؤثّر ضدّ دين أو مذهب معيّن في عالمنا المعاصر ليس البحوث الكلاميّة والاستدلالات المنطقيّة الذهنيّة، بل إنّ طرح أُسلوب تعامل أتباع مذهبٍ معيَّن في مسيرة التأريخ مع مظاهر الثقافة والمدنيّة هو السلاح الأكثر تأثيراً في صالح ذلكما المذهب والدين أو في غير صالحهما» .[1]

أجل، فإنّ هذا الصخب والضجيج حول العرب وهجوم العرب على إيران، وهذه التهم التي اختُلقت وتُختلق، ليست موجّهة ضدّ العرب، بل ضدّ الإسلام. فهم أعجز عن أن يجسروا على ساحة الإسلام والقرآن والرسول، ولذا فإنّهم يهاجمونها تحت ستار الهجوم على العرب.

وقد اجتهد المجمع اللغويّ الإيرانيّ في زمن الاستعمار البهلويّ، تحت شعار المحافظة على الآثار القوميّة، إلى استبعاد الكلمات العربيّة باعتبارها لغة أجنبيّة دخيلة، سعياً مباشراً منه إلى القضاء على روح الإسلام. وها هو اليوم أيضاً يتابع نفس النهج والمسار.

وكانوا يقتفون خُطى أحمد كسروي ـ وكان نفسه من أفراد هذه الزمرة ـ فيستخرجون المفردات البهلويّة الغريبة من طيّات الكتب

١ـ «كتاب سوزى ايران ومصر» (= إحراق كتب إيران ومصر) ص ٩٨ إلى ١٠٤.

المتروكة والمعاجم اللغويّة ، فيجعلونها مكان الألفاظ العربيّة المليحة السهلة المأنوسة التي دخلت في الفارسيّة فأضفت عليها ملاحةً عجيبة .

وكان هناك في زمن رضاخان وابنه محمّد رضا البهلويّ مؤسّسة في البلاط ترتبط بوزارة المعارف والثقافة بخصوص هذه الأُمور ، وكانت تبذل قصارى وُسعها في محو الثقافة الإسلاميّة والمفردات العربيّة . وكانوا يهدرون أموال الشعب في إدارة المجمع اللغويّ الواقعة خلف مدرسة «سبهسالار» في هذا الأمر .

فقاموا بتغيير اسم «مسجد» إلى «دمرگاه» ؛ و«قبرستان = المقبرة» إلى «گورستان» ؛ و«اجتماع» إلى «گردهمائى» ؛ و«خصوصاً» و«مخصوصاً» إلى «ويژه» ؛ و«جمع وتفريق وضرب وتقسيم» (العمليّات الرياضيّة الأربع) إلى «أفزايش وكاهش وزدن وبخش» . وهكذا الأمر في سائر المصطلحات الرياضيّة ، بحيث كان المعلّمون أنفسهم يصابون بالدوار أحياناً ويعجزون عن بيان ما يرمون إليه .

وهذه الأُمور تحصل من أجل إبعاد الناس عن لغة القرآن ، ولقطع ارتباطهم بـ «نهج البلاغة» ، ولتغريبهم عن الجمعة والجماعة ، ولسلب معرفتهم بهذه المعارف الأصيلة .[1]

١ـ من العجيب جدّاً أنّ هذه الأمواج الغربيّة العفنة الواسعة التي أوجدها الاستعمار والطُّفيليّات الفكريّة ذات النزعات الغربيّة لا تزال إلى يومنا هذا تنتقل إلى جامعات إيران عَلناً باسم حفظ الحضارة والميراث الثقافيّ الإيرانيّ ، وباسم القوميّة والتراث الأدبيّ الوطنيّ . وليس من المعلوم أنّ وسائل الإعلام تنشر هذه الأفكار ـ حين تنشرها ـ عن جهل أو عن علم وسابق إصرار . فقد نُقل عن راديو طهران أنّه قام قبل عدّة أيّام (منذ يوم ٢٥ ذي الحجّة لسنة ١٤١١ هجريّة قمريّة) بتعليم أُسلوب إحياء المفردات الفارسيّة على أساس إحياء التراث الثقافيّ الفارسيّ . وأعجب من ذلك أنّ الألفاظ التي اختيرت للتغيير كانت بأجمعها من ⇦

ومن هذه المقولة حذف حرف **الطاء** من الكلمات وإبداله بحرف **التاء**، كتبديل كتابة لفظ **طهران** إلى **تهران**؛ والأمر كذلك بالنسبة إلى باقي الحروف العربيّة مثل **ظ، ص، ض، ع، غ، ث، ذ**.

ولو كان تدريس العربيّة يجري في يُسر وسهولة منذ زمن الطفولة، وكان ضمن برنامج الأطفال، ثمّ يتدرّج الأمر، لصار فتياننا وشبابنا قادرين

⇐ النصوص الشريفة للقرآن الكريم مثل لفظ «هدايت»، «مسجد»، «أمر به معروف» وغيرها؛ وكان يُذكر لكلٍّ من هذه الألفاظ بديلاً من اللغة الفارسيّة، مع تكرار الراديو القول بأنّ هذه الألفاظ العربيّة قد امتزجت بالفارسيّة، وبأنّ ثقافة الحضارة الفارسيّة غنيّة في ذاتها عن استعمال تلك الألفاظ العربيّة.

وقد يتصوّر بعض السذّج والبُسطاء بأنّ هذا الأمر، أمرٌ عاديّ بسيط لا ينبغي الالتفات إلى مثله. لكنّ المقولة المطروحة في العالم هذه الأيـّام، بأنّ العقل الإسلاميّ الأرثوذكسيّ ـ حسب تعبيرهم ـ ينبغي أن يُزال، وأن يُصار إلى الاعتماد على اللغة (على أساس القالب الذي تقولب على أساسه فِكر كلّ شعب، وينبغي قولبة كلّ دولة وأُمّة حسب الحضارة والثقافة الخاصّة بهما، وليس اعتماداً على اللغة بحيث تكون وسيلةً للفكر البشريّ الذي يقوم بتجهيزها للنظر إلى عالم الوجود، وذلك وفقاً لنظريّة المفكّر الألمانيّ هيردر (Herder) ويتّضح من ذلك ماهيّة مشروع **سعيد عقل** في لبنان لإحياء اللغة اللبنانيّة على أساس الميراث الثقافيّ الفينيقيّ الغنيّ، بحجّة اتّساعها وسهولتها وكثرة مفرداتها في مقابل لغة القرآن (اللغة العربيّة الفُصحى). وسعيد عقل المارونيّ من أتباع القدّيس المسيحيّ المعروف (مارون).

كما يمكننا أن ندرك هدف أدونيس وماهيّة مشروعه بخصوص لغة سوريّة على أساس القوميّة السوريّة (الحزب القوميّ السوريّ)، بحجّة أنّ عصر التدوين عاجز عن رسم اللغة العربيّة الفصيحة، يعني لغة القرآن ـ والعياذ بالله تعالى.

كما يمكننا أنّ ندرك جيّداً أنّ قصد **محمّد أركون** من مشاريعه في تجديد اللغة وتأريخها ومن كلّ ما ينتهي بنفع الاستعمار ويخدم أهدافه هو نسخ الإسلام وهو الهدف الواضح من خلال حذف هذه الأسماء والعبارات والألفاظ، بسبب دخول ألفاظ غربيّة غريبة في المجتمعات الإسلاميّة، دخولاً يسبّب زوال الآداب والسنن الإسلاميّة التي تعبّر عنها تلك الألفاظ، ويستبدل بها آداب الكفر وسُننه.

عند بلوغ المرحلة الجامعيّة على القراءة والكتابة والتكلّم بالعربيّة ، ولأضحوا قادرين على مراجعة الثقافة العظيمة للتأريخ والحديث والفقه والتفسير ، وعلى الأرتواء من مناهل العرفان .

لكنّهم ـ على العكس ـ وضعوا دراسة العربيّة في المراحل العالية ، بأُسلوب غير صحيح يعسر فهمه على المعلِّم والتلميذ على حدٍّ سواء . فهم يتعمّدون إتعاب التلاميذ وسلب اشتياقهم للتعلُّم . ثمّ إنّهم يضعون درجة امتحانيّة للرياضيّات (من الجبر والحساب الاستدلاليّ) وللفيزياء والكيمياء ، ولا يضعون درجةً للعربيّة ، بل إنّهم يضعونها في درجة تافهة يتساوي فيها وجودها وعدمه .

وفي النتيجة فإنّ الشابّ الجامعيّ سيعجز عن الكتابة الصحيحة ، فضلاً عن قراءة القرآن ، فيكتب من أمريكا لوالده رسالةً يقول فيها : مَن طَبْ كردهام (تب) .[1]

لقد فصلوا العلاقة بين الشباب وبين القرآن ، وصار بعضهم يرسل ولده في سنّ الطفولة للدراسة في الخارج ، أي إلى دول الكفر ، يرسل الطفل الذي ينبغي أن يتربّى في أحضان أُمّه ، والذي لم يعرف بعدُ التكلّم بالفارسيّة وأداء مخارج حروفها ولهجتها ، فيُدَرَّس الإنجليزيّة هناك ، ويتباهى الأب بهذا العمل الخاطئ .

جاءني يوماً شابّ وسيم في مسجد القائم ، ليسألني عن مسائل الصلاة والوضوء والغُسل والتيمّم ، لكنّه لم يكن يُحسن الكلام بالفارسيّة ولا أداء مخارج حروفها ولهجتها ، ويتحدّث بكلمات ممطوطة تثير الاشمئزاز ،

١ـ تعني العبارة : لقد أصابتني الحمّى . وواضح أنّ هناك خطأً في استبدال حرف التاء بالطاء . (م)

شأن الأجانب الذين يريدون التحدّث بالفارسيّة .

قال : لقد أصبحت دكتوراً ، فقد أُرسلتُ إلى الخارج منذ طفولتي ، وعدتُ حديثاً . وقد أجريت تحقيقات حول الإسلام ، فعرفتُ أنّه الدين الصحيح ، وأريد أن أعرف الآن مسائلي !

فتأمّلوا في المدى الذي وصل إليه الأمر !

ماذا وراء كلّ هذه الضجّة حول عظمة الفردوسيّ ، والاحتفال بتكريمه ، وبمرور ألف سنة على وفاته ، وبناء مقبرة له ، ودعوة الأجانب من جميع الدول لإحياء أمر الـ«شاهنامه» ،[١] وتجليل هذا الخاسر الفقير ؟!

لأنّه صرف ثلاثين سنة من عمره فجمع ديواناً يشتمل على الأساطير ، تحدّى به لغة القرآن (العربيّة) ولغة الإسلام ولغة رسول الله ؛كلّ ذلك عشقاً منه لدنانير السلطان محمود الغزنويّ .

لقد قضى القرآن على المباهاة بعظام السلف الصدئة وأيّ عاقلٍ يتمسّك بالأوهام ويُبهج نفسه بألقاب الأجداد الموتى واعتباراتهم ، وقد أضحت عظامهم في قبورهم رميماً ، بعد نزول سورة **أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ** ![٢]

١ـ «شاهنامه» اسم الديوان الذي ألّفه الفردوسيّ ، ويُعرف بـ «شاهنامه فردوسي» (م) .

٢ـ الآيتان ١ و٢ ، من السورة ١٠٢ : التكاثر .

و **التكاثر** بمعنى طلب الكثرة والزيادة . أي أنّ السعي وراء الكثرة والزيادة صدّكم عن النهج المستقيم وعن الالتفات إلى الحقّ تعالى . وقد استمرّ هذا المعنى مع امتداد حياتكم، حتّى حان موتكم فشاهدتم قبوركم.

وقد أورد بعض المفسِّرين في شأن نزول هذه السورة أنّ قبائل العرب كانت تتفاخر بينها بعدد أفراد القبيلة ، فمن كانت قبيلته أكثر عدداً افتخر بذلك وتباهى . حتّى إذا عدّوا الأحياء الذين يفتخرون بهم ،زاروا المقابر فاستعانوا بعدد من مات منهم فألحقوه بالأحياء ⇦

لقد أراد الفردوسيّ بديوانه الأُسطوريّ «شاهنامه» وهو ديوان تخيّليّ أن يُقيم باطلاً في مقابل القرآن الكريم ، ويقيم أوهاماً في مواجهة اليقين ، فجازاه الله على فعله في الدنيا ، ولا علم لنا بعاقبته في الآخرة .

بسى رنج بردم در اين سال سى عجم زنده كردم بدين پارسى
چو از دست دادند گنج مرا نبد حاصلى دسترنج مرا[1]

ولقد شاهدنا في عصرنا أنّ كلّ مَن أراد أن يرفع العجم في مقابل الإسلام ، وأن يجعل الفارسيّة في مواجهة القرآن ، قد توفّي في ذلّة ومسكنة عجيبَين ، **فَٱعْتَبِرُوا يَٰأُولِى ٱلْأَبْصَٰرِ !**

أذكر جيّداً أنّي طالعت قبل ما يقرب من ثلاثين سنة مجلّة من مجلّات «راهنماى كتاب» (= دليل الكتاب) ، فكان فيها مقالة **لعلي دشتي** حول الفردوسيّ ومقامه ومنزلته ، وقد أظهر هذا الرجل في تلك المقالة عداءه للإسلام في شيطنة خفيّة . وتحدّثت هذه المقالة عن الفردوسيّ وديوانه «شاهنامه» ، ونورد ملخّصاً لاستنتاجاته :

لقد تحدّث الكثير عن الفردوسيّ وتدوين الـ«شاهنامه» ، لكنّي أُريد هنا أن أكشف الستار عن هذا الأمر للطلبة الجامعيّين ولأصحاب الاطّلاع . لقد اختلج في ذهني هذا الأمر سنواتٍ طوالاً دون أن أتمكّن من إظهاره

⇦ وعدّوه ضمن قبيلتهم ليباهوا بأنّهم الأكثر عدداً . فلهذا نزلت هذه الآيات التي تنبّههم بأن تكاثركم قد جعلكم غافلين أذلّاء بحيث صرتم تستعينون بالأجساد المتهرّئة والعِظام البالية في القبور للتفاخر والمباهاة!

ولمولى الموحّدين أمير المؤمنين عليه السلام مطالب عجيبة في هذا التكاثر في الخطبة ٢١٩ من «نهج البلاغة» ، لو قَرَع بها جَبَلاً ، لكان من اللائق أن ينهدّ ويتلاشى.

١ـ يقول : «تجرّعت المرّ في هذه السنوات الثلاثين ، فأحييتُ العجمَ بهذه الفارسيّة. ولأنّهم أضاعوا كنزي ، فإنّي لم أجْنِ من عَنائي شيئاً».

لموانع معيّنة ، وها قد حان الوقت لأُقدّمه للشباب والطلّاب وأرباب الفضل .

وتلك النكتة هي أنّ دولة إيران قد تعرّضت خلال الأزمنة المتمادية إلى هجمات أقوام أجنبيّة ، مما ادّى إلى ضياع ثروتها وعمرانها ومكتبتها وجميع آثارها القوميّة ، كفتنة المغول وغيرهم . إلّا أنّ أيّةً من هذه الهجمات لم تماثل ـ في الإضرار بإيران ـ هجومَ العرب . لأنّ تلك الحملات والهجمات كانت تتركّز في الأُمور العسكريّة والتخريب والغارة والفساد الذي كان يعقبها ، والتي كانت ترمّم بعد مدّة وتُبدّل إلى صلاح وعُمران .

أمّا هجوم العرب فقد اقترن بخُلُق التفاخر ، وبدينهم وتعليمهم وتربيتهم ، ولذلك فقد ترسّخ في نفوس الناس وتأصّل فيها . ومن الواضح أنّ النفوس والقلوب لا يمكن إصلاحها بالاصلاح والعمران الخارجيَين .

وقد دام هذا الأمر حتّى قام الفردوسيّ بتدوين ديوانه «شاهنامه» في مقابل العرب ، فأظهر أنّ الأصالة الإيرانيّة والقوميّة هي التي يمكنها مواجهتهم . ولقد أزاح الفردوسيّ ، بإحيائه اللغة الفارسيّة وبكتابه النفيس هذا ، الستارَ عن آثار الأجداد وقوميّتهم ، وأحيى إيران والإيرانيّين .

لذا ، فإنّ الخدمة التي قدّمها الفردوسيّ لهذه الأرض تفوق خدمات غيره ، وتستحقّ التقدير والمدح ، إذ لم يبلغ أحد من شعرائنا مقامه ودرجته . (هذا هو ملخّص كلامه في تلك المجلّة) .[1]

١ـ ونرى عياناً أنّ الدكتور علي شريعتي قد تبنّى هذا المنطق بصورة كاملة بعد علي دشتي ، وقد نشر أخيراً كتاب من «انتشارات صدرا» (بتأريخ ١٢ أُرديبهشت ١٣٧٠هـ .ش) تحت اسم «سيرى در زندگاني استاد مطهّرى» (= جولة في حياة الأُستاذ المطهّري) مع مقالة لحجّة الإسلام الهاشميّ الرفسنجانيّ . ويضمّ هذا الكتاب مطالب دقيقة وعميقة جمّة؛ وفي الحقيقة كشفاً لبعض الأسرار من قبل المرحوم الشهيد آية الله الشيخ مرتضى المطهّريّ ⇦

....

⇦ أعلى الله مقامه. وقد طالعت محتوياته بدقّة ، وأُوصي جميع طلّاب الحقيقة بمطالعته.

وقد وردت في الصفحات ٨٠ إلى ٨٧ من الكتاب ، رسالة أرسلها المرحوم المطهّريّ إلى سماحة آية الله العظمى القائد الفقيد ومؤسّس الجمهوريّة الإسلاميّة حين كان في النجف الأشرف ، تحوي مضامين شيّقة . ونكتفي في هذا المجال بإيراد مختصر لتلك الرسالة يشهد على كلامنا في هويّة الدكتور شريعتي . ونصّ عبارة الكتاب كالتالي :

«فيما يلي رسالة للأُستاذ المطهّريّ إلى الإمام الخمينيّ ، مؤرّخة في سنة ١٣٥٦هـ .ش بعد وفاة المرحوم الدكتور شريعتي ، وهي تؤيّد المطالب أعلاه ، وجدنا من المناسب نشرها:

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام على مولانا أمير المؤمنين وإمام المتّقين وقائد الغرّ المحجّلين

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أُستاذي ومقتداي الجليل ! إنّ الحوادث المؤسفة المتعاقبة للإسلام من جهة، والنظرات المتبصّرة والتدبيرات الصائبة في الوقت المناسب -إيجاباً وسلباً- من الأُستاذ الجليل من جهةٍ أُخرى ، قد أوجبت أن آمل وأسأل الله المتعال بجديّة وإخلاص متزايدة يوماً بعد يوم، كي يديم الوجود المبارك للقائد العظيم الشأن لجميع المسلمين ، اللهّم آمين».

إلى أن يصل إلى قوله:

«**الأمر الرابع** : مسألة أتباع شريعتي . ذكرتُ في الرسالة السابقة أنّه تقرّر بعد التذاكر مع بعض الأصدقاء المشتركين أن لا أتكلّم بعد الآن في المسائل التي تتعلّق بشخصه ، من قبيل الإخلاص أو عدم الإخلاص ، ومن قبيل الالتزامات العلميّة ؛ إلّا أنّي أُذكِّر وبطريقة ودّيّة لاعدائيّة بالانحرافات الموجودة في كتاباته . بَيدَ أنّي أرى في هذه الأواخر أنّ هناك جماعة لاتمتلك اعتقاداً ولا علاقة صحيحة بالإسلام ، وذات نزعات منحرفة ، في صدد السعي من خلال إيجاد تجمّعات واسعة أن تصنع منه صنماً لا يجرؤ أيّ أحدٍ من علماء الدين مهما كان مقامه على إظهار النظر في كلامه . وقد أُجريَ هذا البرنامج في مراسم التأبين له في مشهد بمناسبة مرور أربعين يوماً على وفاته -بحضور بعض أصدقائنا الجيّدين مع الأسف- وأُجريَ في أغلب الأحيان في شهر رمضان المبارك في مسجد قبا ، تحت عنوان أنّ هذا الشخص -بعد السيّد جمال وإقبال- قد أوجد التجديد الإسلاميّ أكثر ممّا فعلا ، وأنّه قد أعاد الإسلام جديداً وأبعد عنه الخرافات ، وأنّ علينا جميعاً أن نتمسّك بأفكاره . إلّا أنّ ذلك البرنامج قد واجه ⇦

....

⇦ ردّ فعل عنيف من قِبل جماعةٍ أُخرى ، يضاف إلى ذلك حُسن إدراك ونيّة إمام المسجد الذي التفت إلى أنّ ذلك مؤامرة على رجال الدين ، فجرى إصلاح الأمر وتداركه في الليالي الأخيرة.

عجباً ! يريدون أن يصوغوا إسلاماً جديداً بأفكارٍ تمثّل عُصارة فكر ماسينيون مستشار وزارة المستعمرات الفرنسيّة في شمال إفريقيا والمشرف على المبلّغين المسيحيّين في مصر، وفكر كورويج اليهوديّ المؤمن بالمادّيّة ، وأفكار جان بول سارتر الوجوديّ المخالف للّه تعالى ، وعقائد دوركهايم عالم الاجتماع اللادينيّ ؛ فعلى الإسلام السلام إذاً.

أُقسم بالله ، إن اقتضت المصلحة يوماً تمحيص عقائد هذا الشخص ، فاستُخرجت جذورها وقِيست بالأفكار الإسلاميّة الأصيلة ، لظهرت مئات المطالب المضادّة لأُسس الإسلام ومبادئه ، مضافاً إلى كونها تفتقر إلى الأساس الذي تستند إليه . ولستُ أعلم أمِن واجبي أن أفعل ذلك أم لا ، إلّا أنّي أرى أنّ التزامي بخصوص هذا الشخص يعدّ مُلغىً في المستقبل، مع أنّي أُشاهد أنّهم يصوغون منه صنماً . وأنا أنتظر أمركم وإذنكم في ذلك.

إنّ أقلّ ذنبٍ لهذا الرجل هو إساءته لسُمعة رجال الدين . فقد عدّ تعاون رجال الدين مع أجهزة الظلم والقهر ضدّ عامّة الشعب هو من الأُسس الاجتماعيّة العامّة . وادّعى أنّ المَلِك والمالك والملّا ، وبتعبيرٍ آخر السيف والذهب والمسبحة تعيش مع بعضها دائماً ، وتمتلك هدفاً واحداً . وهذا الأصل هو أصل ماركس المعروف ، وبعبارة أفضل هو مثلّث ماركس المشهور القائل بأنّ الدين والدولة والرأسمال هي عوامل ثلاثة متعاونة ضدّ الشعب، وعوامل ثلاثة ناشئة من التغرّب الذاتيّ للبشر ؛ وقد طبّقه وأجراه بألف لغة وتعبير. منتهى الأمر أنّه وضع رجال الدين بدل الدين ، فصار نتيجة ذلك أن صار الشابّ ينظر إلى أهل العلم بنظرة أسوأ من التي ينظر بها إلى ضبّاط الأمن . والله وحده يعلم ، لو لم يكن الله له بالمرصاد. من باب **وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَهُ وَٱللَهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ** ، ما الذي كان سيفعله في مهمّته الخارجيّة بالإسلام وبرجال الدين.

وقد روّجوا له في أُوروبّا وأمريكا بالحديث عن زهده وورعه وتقواه وخدمته للشعب، وعن فدائه وجهاده في سبيل الله وتولّهه في طريق الحقّ . ومن الواضح أنّ هناك أيادٍ خفيّة وراء ذلك ، وأنّ أصدقاءكم الجيّدين في أُوروبّا وأمريكا قد خُدعوا . وأجد لِزاماً أن تبعثوا في وقتٍ ما بعض الأفراد المتبصّرين ـ ولو خفيةً ـ إلى أُوروبّا وأمريكا ، ليروا عن كثب جريان ⇦

....

⇦ الأُمور ويُعدّوا تقريراً عنه ، حيث يعتقد بعض أصدقائكم هناك أنّ بعض الحقائق تُخفى عن سماحتكم.

والمجموعات الأربعة المذكورة تحاربني أشدّ المحاربة نظراً لكوني -إلى حدٍّ ما- من أصحاب الفكر والنظر والبيان والقلم ، فهم يثيرون الشائعات ضدّي ، ويفترون عَلَيَّ ، بحيث صرتُ أرى نفسي مصداقاً للشعر الفارسيّ الذي ذكره المحقّق الأعظم الخواجة نصيرالدين الطوسيّ في آخر «شرح الإشارات» تعبيراً عن لسان حاله:

به گرداگرد خود چندان كه بينم　　بَـلا انگشـتریّ ومـن نگـينم**

ثمّ يستمرّ المرحوم المطهّريّ في مطلبه حتّى يصل إلى حيث يقول:

«حسناً ، من الضروريّ أن يطالع سماحتكم شخصاً مجموعة مقالات هذا الشخص في مجلّة «كيهان» التي نشرت قبل سنة ونصف السنة للتعرّف على ماهيّته . وهذه المقالات على قسمين، أحدهما ضدّ الماركسيّة ، وهي مقالات جيّدة تنطوي على إشكالات قليلة بلحاظ المعارف الإسلاميّة ، إلّا أنّ القسم الثاني منها هي مقالات عن القوميّة الإيرانيّة (وقد طُبعت على الآلة الطابعة منفصلةً) ، وهي في حقيقة الأمر فلسفة للقوميّة الإيرانيّة . وقطعاً فإنّ أحداً لم يُدافع حتّى الآن عن القوميّة الإيرانيّة بمثل هذا الدفاع الجيّد المستند إلى فلسفةٍ مقبولة في هذا العصر . ومن اللائق أن ندعوها بـ«الفلسفة الثوريّة»* .

وخلاصة هذه المقالات -التي تبلغ في مجموعها كتاباً كاملاً- هي أنّ ملاك القوميّة ليس الدم والعرق المرفوضَيْن في هذا العصر ، بل إنّ ملاك القوميّة هو الثقافة. والثقافة مختلفة في الأُمم المختلفة بحكم أنّها وليدة التأريخ لا وليدة سواه . وثقافة كلّ قوم هي التي تصوغ روح أُولئك القوم وشخصيّتهم الاجتماعيّة . فالذات و«الأنا» الواقعيّة لكلّ قوم، هي ثقافتهم. وقد انمحى كلّ قوم لم يمتلكوا ثقافة مستمرّة.

ولدينا نحن الإيرانيّون ثقافة تمتد إلى ألفين وخمسمائة سنة هي ملاك شخصيّتنا الوجوديّة وهويّتنا الواقعيّة وذاتنا الأصيلة . وقد حصلت على مدى التأريخ حوادث أرادت تغريبنا عن هويّتنا الحقيقيّة ، إلّا أنّنا عُدنا إلى أنفسنا كلّ مرّة ، واسترجعنا هويّتنا الحقيقيّة.

وتلك الحوادث الثلاث هي : هجمة الإسكندر ، هجمة العرب ، وهجمة المغول.

ثمّ إنّه بحث عن هجوم العرب أكثر من غيره ، مقدّساً النهضة الشعوبيّة ، ثمّ قال: إنّ الإسلام بالنسبة لنا يمثّل النظريّة (الآيديولوجيّة) لا الثقافة . إنّ الإسلام لم يأتِ ليبدّل ⇦

وقد قرأ الحقير في بعض رسائل الدكتور علي أكبر الشهابيّ قوله: إنّ كتاب «بيست وسه سال» (=السنوات الثلاث والعشرون) الذي أُلِّف ونُشر في زمان الطاغوت دون ذكر لاسم المؤلّف أو توقيعه، وضمّ تُهماً وأكاذيباً ومكراً وحيلاً وكتماناً للحقائق وافتراءات موجّهة ضدّ رسول الله وضدّ الإسلام والقرآن، قدكان مؤلّفه **علي دشتي** بمعونة بعض الماركسيّين العالميّين.[١]

⇦ ثقافتنا فيوجد ثقافة موحّدة. بل إنّه يعترف بتعدّد الثقافات. كما أنّه يعدّ تعدّد العروق والعناصر أمراً واقعيّاً. والآية الكريمة **إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ**... في أنّ الاختلافات العرقيّة وليدة الطبيعة، والاختلافات الثقافية وليدة التأريخ، ينبغي أن تُحفظ في موضعها.

وقد ادّعى أنّ آيديولوجيّتنا (نظريّتنا) قد أثّرت على ثقافتنا، وأنّ ثقافتنا قد أثّرت على آيديولوجيّتنا، لذا أضحت إيرانيّتنا إيرانيّة إسلاميّة، وأضحى إسلامنا إيرانيّاً. وقد أنكر بهذا البيان عملاً وضمناً ـ دون تصريح ـ وجود ثقافة واحدة باسم الثقافة الإسلاميّة.

وقد صرّح بأن شخصيّات من أمثال ابن سينا وأبي ريحان والخواجة نصير الدين والملّا صدرا كانت تتعلّق بالثقافة الإيرانيّة. أي أنّ ثقافة تلك الشخصيّات كانت ثقافة إيرانيّة.

وهذه المقالات شيّقة جدّاً، وليس من شكّ في انتسابها إليه. وقد قال للبعض، مثل السيّد الخامنئيّ والسيّد البهشتيّ: هي لي! إلّا أنّه ادّعى أنّه كتبها قبل عدّة سنين، وَأنّ البعض قد عثر عليها وقام بطبعها. في حين أنّ هناك أدلّة كافية في أنّ المقالات جديدة. وعلى أيّة حال فإنّ مطالعة سماحتكم لها مفيدة جدّاً».

ثمّ يذكر المرحوم المطهّريّ مطلبيَن آخرَين مختصرَين، ويختم رسالته بهذه العبارة: «أبلغوا سلامي للسادة العظام أبنائكم دامت بركاتهم. والسلام عليكم ورحمة الله، ونسألكم الدعاء».

* ـ نصّ عبارة المجلّة ورسالة الشهيد المطهّريّ بالفارسيّة. لذا اقتضى التنويه.(م)

** ـ يقول: «أرى البلاء يُحيط بي من كلّ صوب، كما يُحيط الخاتم بفصّ الخاتم».

١ـ كتاب «ره‌آورد يا سه گفتار»؛ ويقول في ص ٩٤: «مؤلّف كتاب «بيست وسه سال» حسب إظهار المطّلعين هو علي دشتي، وهو المحرِّر والسياسيّ والسناتور المعروف في ⇦

وهؤلاء هم الأعداء الذين باعوا أنفسهم للاستعمار ووصمت جباههم منذ قديم الأيّام بوصم الرّق والعبوديّة للكفر ، والذين قضوا أعمارهم في محاربة الإسلام والقرآن والشرف والقوميّة مقابل ثمن بخس من ورق دنيويّ . وهويّة هؤلاء وملفّاتهم ممّا لا يعتري الناس اليقظين فيها شكّ .

إذ ، أيَّ عدوٍّ ، بعيدٍ عن المروءة يضع النهضة الإسلاميّة في مصافّ هجمة الإسكندر وهجمة المغول ؟!

لقد استقبل الإيرانيّون ذوو الفكر والأصالة الإسلام بترحاب ، حيث إنّهم أسلموا تدريجيّاً على مدى قرنين من الزمان بعد تفكّر وتدبّر ، دون أن يُجبرهم على ذلك شيء . ولقد عاشوا في حمى الإسلام حين كانوا على دين زرادتشت ، فكان الإسلام يُعاملهم معاملة أهل الكتاب ، فيأخذ منهم الجزية بدلاً من الخُمس والزكاة ، ويدعهم أحراراً في أُمور عبادتهم . وكانت معابد النار لديهم موقدة إلى القرنين الثالث والرابع . وكانوا يعيشون في حمى الإسلام وأمانه دون أيّة مضايقة ـ باعتبارهم من أهل الكتاب ـ وكانت أرواحهم وأموالهم وأعراضهم ونواميسهم محفوظة .

وقد أقرّ **إدوارد براون** في مواضع من كتابه بأنّ الإيرانيّين اعتنقوا الإسلام عن رغبة ، فقال : «إنّ التحقيق في الغلبة التدريجيّة للدين الإسلاميّ على مذهب زرادشت أشدّ صعوبة من التحقيق في أمر استيلاء العرب على ممتلكات الساسانيّين من الأراضي . إذ يحصل كثيراً أن يتصوّر المرء أنّ

⇦ زمن البهلويّ (البهلويّ الأب والابن) ، وقد جمعه بمعونة عدد من الملحدين اللبنانيّين والماركسيّين العالميّين . وللتعرّف على هذا المشعوذ في زمان البهلويّ ، انظروا رسالة «دسيسه‌هاى على دشتى» (= دسائس علي دشتي) تأليف غلام حسين مصاحب، لتتعرّفوا على ميزان معلومات المؤلّف وطبعه ونهجه السياسيّ وصفاته وأخلاقه».

المقاتلين المسلمين كانوا يخيّرون الأقوام والممالك المفتوحة بين أمرين : القرآن والسيف . إلّا أنّ هذا التصوّر بعيد عن الحقيقة ، لأنّ اليهود والنصارى والزرادشتية كانوا مُجازين في البقاء على أديانهم ، وكانوا مُجبرين فقط على أداء الجزية .

وهذا الوضع عادلٌ تماماً ، لأنّ أتباع الخلفاء من غير المسلمين ،كانوا يُعْفَون من المشاركة في الغزوات ومن دفع الخمس والزكاة التي كانت مفترضةً على أُمّة النبيّ» .[1]

وكان الإيرانيون يشاهدون صدق الجنود المسلمين وأمانتهم ، وقِتالهم في سبيل أهداف واضحة ، وعن إيمان واعتقاد كاملين برسالتهم التأريخيّة ، واطمئنان كامل بصحّة هدفهم ودَورهم ، سواء في ذلك عليهم قَتلوا أم قُتلوا ، وعن اعتقادٍ عميق بالله الواحد ويوم الجزاء .

وأنّ التضحيات والاستماتة والمحاورات والكلمات التي خلّفوها والتي سجّلها التأريخ ، تُظهر أنّ إيمان الجنود المسلمين بالله وبالقيامة وبصدق رسالة الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم وإيمانهم برسالتهم ودَورهم قد بلغت الذروة . فقد كانوا يعتقدون بعبادة الله الواحد دون سواه ، وبوجوب نجاة كلّ أُمّة تعبد إلهاً غير الله الأحد بأيّ شكل وصورة كانت ؛ فكان جهادهم هذا جهاداً من أجل تحرير الإيرانيّين الموثقين بأغلال الخرافات والأباطيل . يُضاف إلى ذلك أنّهم كانوا يعتقدون بأنّ من رسالتهم إقرار العدل وتخليص الطبقات المظلومة من مخالب الظالمين .

وكانت خُطبهم التي يلقونها في المناسبات المختلفة لبيان أهدافهم تشير إلى أنّهم كانوا واعين مُدركين لما يفعلون ، وأنّهم كانوا يسيرون

١ـ «ترجمة تاريخ أدبيات ايران» ج ١ ، ص ٢٩٧ .

باتّجاه هدف مشخّص معيّن ، وأنّهم كانوا يقودون نهضةً عظيمة وثورة جليلة بتمام معنى الكلمة .

ولقد شاهد الإيرانيّون هذه الأُمور وسمعوها ، فكانوا يُضَلّلون فيتولّهون ويؤمنون طوعاً ورغبة .

فانظروا كم ابتعد عن الإنصاف والشرف هؤلاء الأفراد ذوي الهويّة المعلومة من أمثال دشتي والدكاترة الذين يدرّسون في معاهد تربية المعلّمين ، في نشرهم لهذه الإشاعة في الكتب الدراسيّة ، فقد انبعثت أصواتهم من حنجرة الاستعمار ، وقد سعوا بأجمعهم لجعل جهاد مقاتلي الإسلام المقدّس أشبه بحملة جنكيز وهولاكو والأفاغنة والإسكندر ؟!

وعلى العموم ، فمنذ مدّة والروح المخالفة للعرب تُفرض على التلاميذ في مدارسنا (من حذف الكلمات العربيّة الجميلة المليحة واستبدالها بألفاظ غير مأنوسة ، مثل كتابات كسرى) ، وهذا المسار يصبّ في صالح هدف الاستعمار وينسجم معه . ولقد أثّر **إبراهيم پور داود** ـ وهو عدوّ للعرب ولكلّ ما ينتمي إلى العرب حسب قول المرحوم القزوينيّ [1] ـ على الدكتور محمّد معين ليكتب كتاباً لإحياء المذهب الزرادشتيّ وآدابه وسننه الجاهليّة ، ويقوم بشرح مفردات **مَزْديسْنا** في الأدب الفارسيّ ، والمقصود بذلك الفكر الزرادشتيّ في الأدب الفارسيّ .[2]

وقد ذكر إبراهيم پور داود ـ وهو المشرف على تأليف الكتاب ، وكان الدكتور معين حينذاك خاضعاً لتأثيره الشديد ـ في مقدّمة الكتاب

١ـ نقلاً عن المرحوم المطهّريّ في كتاب «كتابسوزى ايران و مصر» (= إحراق الكتب في إيران ومصر) ص ١٨.

٢ـ هذا الكتاب باسم «مزديسنا وأدب پارسي» . وكلام پور داود في مقدّمة الكتاب.

الهدف الرئيسيّ من تأليفه وهو : أنّ الروح الإيرانيّة على امتداد تأريخ إيران لعدّة آلاف من السنين ، حتّى في العصر الإسلاميّ ، هي الروح الزرادشتيّة . وأنّ أيّ عامل لم يستطع إخضاع هذه الروح لتأثيره ونفوذه ، بل على العكس ، فإنّ هذه الروح قد أثّرت في ذلك العامل .

وعلى سبيل المثال فـ «إنّ الدين الذي جاء به الفاتحون العرب إلى الإيرانيّين قد اكتسب هنا صبغة وواجهة إيرانيّة فصار يُدعى تشيّعاً ، وامتاز بذلك عن مذاهب أهل السنّة» (التي تمثّل الإسلام الصحيح حسب عقيدة پور داود) .[1]

ونشاهد هنا أنّ الحديث ليس عن الإسلام وعن محمّد وعن القرآن ؛ بل هو حديث عن الفاتحين العرب . والهدف من ذلك هو إلقاء الشبهة في أذهان الشباب البسطاء ، وإفساد إيمانهم وثباتهم .

ومن الواضح أنّ أحداً منهم لن يصبح زرادشتيّاً ، بَيدَ أنّ فتوراً وضعفاً سيطرأ على إيمانهم وثباتهم على الإسلام ، وفي جهادهم . وهذا هو هدف الكفر من تربية أمثال پور داود والدكتور مُعين ، حيث إنّهم يحطّون من المستوى العلميّ للقرآن في الأذهان عن طريق الثقافة والأدبيّات . ويصرفون أذهان الشباب إليهم من خلال لفت أنظارهم إلى مفردات الزرادشتيّة القديمة الميّتة وأدبها ، ويصدّونهم عن ماء القرآن المعين وكلماته وتفسيره ، وعن السير العمليّ والفعليّ في نهجه وطريقه في نهاية المطاف .[2]

١ـ «خدمات متقابل ايران واسلام» ص ٣٥٠ و ٣٥١ ، الطبعة الأُولى .

٢ـ إبراهيم پور داود من الملحدين المعاصرين . ونهجه وكلامه وكتاباته الكثيرة تجلّي هذا الأمر . ومع أنّه لم يدّعِ رسميّاً بأنّه من الزرادشتيّة ، لكنّ له عملاً ونيّةً وفعلاً نزعة قويّة ⇦

يقول **إدوارد براون** : «يتضمّن كتاب **أوستا** مبادئ عقائد شخص شهير هو زرادشت ، ويحتوي على أحكام دين العالم القديم . وقد لعب هذا الدين دوراً هامّاً في تأريخ العالم ؛ ومع أنّ عدد أتباعه الفعليّين في إيران لا يتجاوز عشرة آلاف نفر ، ولا يتجاوز في الهند تسعين ألفاً ، فقدكانت له آثار عميقة في الأديان الأُخرى التي فاقته في أهمّيّتها . ومع ذلك ، فلا يمكن وصف أوستا بأنّه كتاب مقبول أو محبوب .

صحيحٌ أنّ الشكّ يعترينا عند تفسير أكثر عباراته ، وأنّ قيمة ذلك الكتاب ستتّضح بصورة أفضل إذا جرى الوصول إلى مفاهيمه . لكن ، بإمكاني أن أقول عن نفسي هذه النكتة ، وهي أنّني كلّما طالعتُ القرآن أكثر فأكثر ، وكلّما سعيتُ لإدراك روح القرآن أكثر ، زاد إدراكي لقدره

⇦ إلى هذا الدين . وكان الدكتور محمّد معين على هذه الشاكلة خلال مدّة خضوعه لإشرافه وتأثيره؛ فقد كان يدافع عن الزرادشتيّة بصراحة . إلّا أنّه شارك بعد ذلك في جلسات الأُستاذ المعظّم آيةالله العلّامة الطباطبائيّ قدّس الله سرّه الزكيّ في ترجمة وتبادل مباحثاته مع **هنري كوربن** الفرنسيّ حول القرآن والإسلام والتشيّع ، فمال إلى الإسلام . والله تبارك وتعالى هو أرحم الراحمين. والأمل أنّه سبحانه اكتفى بعقوبته في الدنيا ، وطهّره بذلك عن تحمّل العقاب الأُخرويّ. فقد أُصيب آخر حياته بالجُلطة الدماغيّة فأجريت له عمليّة جراحيّة، لكنّه لم يَعُدْ إلى الوعي بعد انتهاء العمليّة الجراحيّة . واستمرّ فاقد الوعي مدّة أربع أو خمس سنوات. وكان بدنه مطروحاً على الأرض كالميّت ، وأعينه مغمضة ، إلّا أنّ حواسّه كانت صحيحة.

وكان عاجزاً عن تناول الطعام ، فكانوا يصبّون في فمه السوائل خلال هذه المدّة المديدة، ثمّ أُعيد من المستشفىٰ إلى بيته ، فعيل صبر أهل بيته من استقبال الزائرين ، وكان تنظيفه يتمّ بصعوبة ، حتّى وُضع جسده أخيراً في غرفة مجاورة لباب المنزل ، وكانوا ـ من شدّة الكراهيّة ـ يتمنّون موته باستمرار ، حتّى أسلم الروح بعد سنواتٍ من فقدان الوعي بهذه الكيفيّة، **فَٱعْتَبِرُوا يَـٰٓأُولِى ٱلْأَبْصَـٰرِ !**

ومنزلته. أمّا التحقيق في كتاب أوستا فمملٌّ ومُضجر ومتعب، إلّا أن يكون ذلك بهدف إجراء دراسة في علم اللغة أو علم الأساطير وغيرها من الأهداف التطبيقيّة». [1]

يقول المرحوم الشهيد المطهّريّ رحمة الله عليه: «وإذا ما لاحظتم، فقد حصلت بعد ذلك ثورات من قبل الإيرانيّين في مناطق الحكم الإسلاميّ، وكان السبب فيها عادةً أنّهم كانوا يريدون إنقاذ أنفسهم من براثن الذين كانوا لا يطبّقون العدالة الإسلاميّة. وبعبارة أُخرى فإنّهم كانوا يقاتلون الحكومات التي كانت تنحرف عن القوانين الإسلاميّة. وبصورة عامّة، فكلّما كانت الأيّام تمضي، كانت محبّة الإيرانيّين للإسلام تزداد، وكانوا يتدفّقون على اعتناق الإسلام ويتركون أديانهم ومذاهبهم السابقة وسننهم وتقاليدهم القديمة بسرعة تتزايد بمرور الأيّام.

وخير مثال لهذا الأمر، هو الأدب الفارسيّ. فقد كان تأثير الإسلام والقرآن والحديث في الأدب الفارسيّ يتزايد بمرور الوقت، بحيث إنّ نفوذ الإسلام في آثار الأُدباء والشعراء، وحتّى في آثار الحكماء، في القرنين السادس والسابع فصاعداً أكبر وأجلى منه على آثار شعراء وأُدباء وحكماء القرنين الثالث والرابع. وهذه الحقيقة مشهودة بصورة كاملة من مقارنة آثار **رودكي** و**الفردوسيّ** مع آثار **المولويّ** و**سعديّ** و**النظاميّ** و**حافظ** و**جامي**!

ويقول مؤلّف كتاب «أحاديث مثنوي» [2] في مقدّمة كتابه: «إنّ تأثير مضامين الأحاديث في الشعر الفارسيّ أمرٌ ملموس منذ أقدم الأزمنة»، ثمّ

١ـ «تاريخ أدبيات ايران» ج ١، ص ١٥٥.

٢ـ تأليف بديع الزمان فروزانفر.

يستشهد بأشعَار رودكي ، ويقول بعد ذلك :

«منذ أواخر القرن الرابع ، حيث انتشرت الثقافة الإسلاميّة ، وتأسّست المدارس في النقاط المختلفة ، وغلب الدين الإسلاميّ على باقي الأديان ، وواجهت مقاومة الزرادشتيّين هزيمة نهائيّة في جميع أرجاء إيران ، وبدأت الثقافة الإيرانيّة تتجلّى بصبغة إسلاميّة ، ووضعت أُسس التعليم على أساس الأدب العربيّ ومباني الدين الإسلاميّ ، فقد تزايد بطبيعة الحال نقل الشعراء والكتّاب للألفاظ والمضامين العربيّة ، بينما تناقص ـ في المقابل ـ في النظم والنثر كلمات القدماء (قبل الإسلام) وكلماتهم وأمثالهم ، حيث يظهر من خلال المقارنة أنّ أسماء زرادشت وأوستا وبوذرجمهر وحِكمه قد تردّدت في شعر دقيقي والفردوسيّ وشعراء العهد السامانيّ وأوائل العصر الغزنويّ أكثر منها في أشعار العنصريّ والفرّخيّ والمنوجهريّ الذين عاشوا في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس» .[1]

«... يقول **المستر فراي** بعد إشارته إلى نهضة فارسيّة ممزوجة بالعربيّة في زمن السامانيّين : إنّ الأدب الفارسيّ الحديث (الفارسيّة الممزوجة بكلمات عربيّة) ليس ناشئاً من تمرّد على الإسلام أو العربيّة . فالمضامين الزرادشتيّة التي وردت في الشعر ترتبط بالأُسلوب السائد آنذاك ، وينبغي ألّا يعدّ علامةً على الإيمان بالمذهب الزرادشتيّ ... .

ولقد كانت اللغة الفارسيّة الحديثة قد أضحت في مصافّ العربيّة كإحدى اللغات الإسلاميّة . وليس من ريب في أنّ الإسلام قد استغنى الآن عن الاعتماد على العربيّة ، فقد دخلت في الإسلام أُمم كثيرة ، وصار يمثّل

١ـ «خدمات متقابل اسلام وايران» ص ٧١ إلى ٧٣ .

ثقافة عالميّة . وكان لإيران دور كبير في إدارة الثقافة الإسلاميّة» .

ويقول المستر فراي في الصفحة (٤٠٠) من كتابه حول ورود مفردات عربيّة إلى الفارسيّة وتأثير ذلك ، تحت عنوان «**آغاز زندگی نوین ایران**» (= بدء الحياة الحديثة في إيران) :

«تمتلك اللغة أهمّيّة في استمرار وثبات بعض الثقافات ، تفوق أهمّيّة الدين أو المجتمع . وهذا الأصل صحيح بالنسبة إلى الثقافة الإيرانيّة ، إذ لا يمكن التشكيك في ارتباط اللغة الفارسيّة الوسطى (في العهد الساسانيّ) مع الفارسيّة الحديثة (في العصر الإسلاميّ) ، مع أنّ هاتين اللغتين ليستا شيئاً واحداً .

والفارق الكبير بين هاتين اللغتين ، هو ورود كثير من المفردات العربيّة في الفارسيّة الحديثة ، الأمر الذي أضفى على هذه اللغة اقتداراً أدبيّاً ، وجعلها لغةً عالميّة ، بينما يُفتقد مثل ذلك في اللغة البهلويّة .

وحقّاً ، لقد جعلت العربيّة من الفارسيّة الحديثة لغة مقتدرة ، ومنحتها القدرة على إنشاء أدب متفتّح وخاصّة في صناعة الشعر ، حيث إنّ الشعر الفارسيّ قد بلغ في أواخر القرون الوسطى أوج جماله ولطفه .

وقد سلكت الفارسيّة الحديثة طريقاً كان قُوَّاده جماعة من المسلمين الإيرانيّين الذين امتلكوا مهارةً في الأدب العربيّ ، وكانوا في نفس الوقت متعلّقين بلغتهم الأُمّ . وقد اكتسبت الفارسيّة الحديثة التي كانت تكتب بالحروف العربيّة في شرقي إيران رونقاً وجمالاً خلال القرن التاسع الميلاديّ ، وتفتّحت في بُخارا عاصمة السلسلة السامانيّة» .[1]

١ـ «خدمات متقابل اسلام وايران» ص ٩٤ إلى ٩٦ .

كتب المحقّق دقيق النظر ، والمدقّق حقيق الإصابة والرأي : آية الله الفقيد المعاصر ⇦

....

⇦ الحاجّ الشيخ أبوالحسن الشعرانيّ تغمّده الله برضوانه مقدّمة جميلة ذات محتوىً ضخم، على كتاب «نفائس الفنون في عرائس العيون» لعلّامة الدهر : شمس الدين محمّدبن محمود الآمليّ ، من علماء القرن الثامن الهجريّ ومن معاصري العلّامة الحلّيّ (ج ١ ، ص ٢ إلى ٦ ، الطبعة الحروفيّة ، المكتبة الإسلاميّة) أشار فيها إلى الأدب الفارسيّ في كلام رأينا الإعراض عن نقله هنا مدعاةً للأسف ، يقول فيه:

«... إنّ اللغة اليونانيّة كانت أعظم لغة في العصور القديمة ، أمّا في القرون الوسطى فقد احتلّت العربيّة هذا المقام ؛ فكانت كلّ واحدة من هاتين اللغتين اللغة العالميّة لأكثر من ألف سنة.

وقد دوّن مفكّرو البشريّة العظماء كلّ ما اكتسبوه بالعلم والعقل ، وكلّ ما أنجبته أفكارهم، بهاتين اللغتين ، كما أنّ من أراد الاطّلاع على دقائق الأفكار كان مجبراً على تعلّم هاتين اللغتين ، إذ إنّ اللآلئ النادرة كانت كامنة في هاتين الصدفتين دون غيرهما. واللغة العربيّة بلحاظ سعة المؤلّفات والشيوع في نواحي العالم المختلفة تفوق اليونانيّة بعشرة أضعاف. ولقد كانت اللغة الفارسيّة في القرون الوسطى هي اللغة الكاملة الأُولى بعد العربيّة، وكانت متفوّقة وراجحة على باقي اللغات ، فقد كان الأديب الخبير إذا تأمّل التعبيرات الفصيحة والكلمات الممتازة والألفاظ الجزلة والعبارات المليحة والتعابير المحبّبة المستعملة في سطور الكتب ، وغاص في أعماقها ، فإنّه سيكتشف غنائم لا تحصى فيها، لأنّ كلّ كلمة منها يمكنها أن تكون كالجوهرة التي يزدان بها الكتاب.

لقد كانت العبارات التي استخدمها السلف لبيان مقاصدهم من البلاغة إلى الحدّ الذي كانت معه تقرع الآذان ، فتغوص على الفور إلى أعماق القلوب ، في طعم محبّب لا تُنسى لذّته إلى سنوات طويلة.

ولم تكن هذه الحلاوة والملاحة خاصّة بأشعار المدح والغزل دون غيرها ، فقد كانت الأشعار العلميّة والعبارات المنثورة سهيمة في هذا الوصف . وقد اتّصفت رباعيّات يوسف الهرويّ في الطبّ ؛ وأشعار الخواجة نصير الدين الطوسيّ في النجوم ، و«نصاب الصبيان» لأبي نصر الفراهيّ في اللغة ؛ و«گلشن راز» للشبستريّ بالملاحة ، بحيث كان المرء يترنّم بها لرفع الملل والضجر ، من أجل أن ينبسط الخاطر المكدّر ، ومن أجل أن يجلو تكرارها عن القلب صدأه ؛ مع أنّ هذه الوصف لا ينطبق على كتبنا العلميّة الحاليّة ، إذ إنّنا نجبر أنفسنا ⇦

....

⇦ العازفة عن أمثال هذه الكتب ، على قراءة عدّة سطور من كتاب علميّ منها ، ونكرّر النظر فنقرأ عبارة منها عدّة مرّات ، فإن فهمنا المراد بها ونجونا منها بخاطر منزعج ، فإنّنا نضع الكتاب جانباً شاكرين ، لنعود إليه مرّة أُخرى إن الجأتنا الضرورة ، سائلين الباري أن لا تسنح لنا ضرورة لمثل ذلك!

أذكر أنّ عبارة وردت في كتاب الحساب لنجم الدولة كان منطوقها «هرگاه قيد نداشته باشيم به مشخّص كردن مقدار حقيقى رقم أخير حاصل ضرب وبدانستن حدّ واقعى تقريب، در چنين صورت قاعدۀ ما كافى باشد ، ولى اگر مقصود بيش از اين باشد عمل ناتمامى دارد كه بايد به اين طور به پيش برد» (=كلّما افتقدنا القيد لتشخيص المقدار الحقيقيّ للرقم الأخير لحاصل الضرب وللعلم بالحدّ الواقعيّ للتقريب ، فإنّ قاعدتنا ستكون كافية في هذه الحالة. أمّا لو كان هدفنا أبعد من ذلك ، فإنّ عملنا سيكون ناقصاً ، ويجب الاستمرار على نفس الكيفيّة). وقال أحدهم بظرافة : إنّ العبارة تركيّة أو هنديّة ! إلّا أنّنا شاهدنا نفس المعنى في كتب الرياضيّات القديمة ، فرأيناها أوضح واكثر اختصاراً «اگر عمل بتقريب خواهيم، چنان كنيم، واگر دقّت بيشتر ، چنين» (= لو شئنا العمل بالتقريب لفعلنا كذا ، ولو شئنا دقّة أكثر، فعلنا كذا) . فانظر إلى عدوّ القدماء اللدود كيف يعجز عن بيان معنى بسيط . واعلم أنّ أمثال جميع ذلك على هذه الشاكلة . ولو قال أحد : إنّ ما سبق قد أضحى منسوخاً!

لقلتُ : إنّ ما هو موجود فعلاً ممسوخ ؛ والنسخ أشرف من المسخ.

على أبناء عصرنا أن يتركوا العناد مع القدماء ، وعلى من يريد تأليف كتاب جديد، أن يقرأ كتب القدماء أوّلاً ويتعلّم أُسلوب كلامهم ، فإن كان له كلام جديد يقوله، فليكتبه بالأُسلوب القديم الواضح المختصر الجميل ، ولا يلوّثنّ العين المعين للّغة الفارسيّة القديمة بالألفاظ الركيكة ، فذلك ذنبٌ قد أكون أنا أيضاً قد ارتكبته ؛ **وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِاللهِ العَظِيمِ** .

حفظ الاصطلاحات

من مستلزمات التأليف ودواعي ترويج العلم ، الاتّفاق على المصطلحات ؛ لأنّ نصف عمر التلميذ إنّما ينقضي في تعلّم المصطلحات وحفظها . ولو استخدمت جميع الكتب في جميع الأزمنة نفس المصطلحات ، لأضحت سهلةً لايحتاج فهمها إلى تحمّل المشاقّ، ولأمكن للجميع أن يستفيدوا منها . وبغير ذلك ، فسينبغي صرف مدّة لتعلّم الاصطلاحات الخاصّة بكلّ كتاب. ⇦

....

⇦ على أنّ من المحال أن لا يكون للكتب المختلفة فوائد خاصّة ، وأن توجد مطالب جميع الكتب في كتاب واحد . لكنّ اختلاف الاصطلاحات سيسبّب في نسخ كثير من الكتب وهجرها وضياع فوائدها . ويجب ـ إذاً ـ التعمّد في زيادة مشكلة اللغة بجعل اصطلاحات جديدة.

إنّ الأُوروبّيّين الذين يكرهون الإسلام والعرب كراهية شديدة ، لكنّهم مع ذلك لم يغيّروا الكلمات العلميّة العربيّة في لغتهم ، مثل : **الجَبْر ، الكحول ، السَّمْت ، الدبران، رجل الجوزا** وآلاف من الألفاظ الأُخرى . ذلك لأنّهم يعلمون أنّ تغيير تلك الألفاظ لا يعود عليهم بشيء، إلّا إظهار تعصّبهم الجاهليّ ؛ وأنّ ضرر ذلك يتمثّل في تحيّر القرّاء ونسخ أكثر الكتب السابقة، وهو أمر لا يمكن إصلاحه.

إنّ نقص اللغة ليس في اكتسابها قدراً من كلمات لغة أُخرى ، بل النقص هو صعوبة إدراك المعاني من الألفاظ ، وإيقاع القارئ في الخطأ . فالمثلّث والزاوية والمغناطيس والتلغراف والتليفون ينبغي الإبقاء على ألفاظها لتسهيل فهم المتعلّمين ، كما ينبغي المحافظة على العلوم من أن تصبح أداةً بِيَدِ المتعصِّبين الجهلة فيلوّثونها بمقاصدهم.

وكما أنّ الاتّفاق على الاصطلاحات بسبب سهولة الفهم ونشر العلم ، فإنّ حفظ طريقة كتابة الحروف لها نفس التأثير ، لأنّ طبيعة الإنسان إذا حصلت على أُنس بهيئة الكلمة ، فإنّه سيفهم معناها أسرع . فلفظ «خواندن» مثلاً تكتب بالواو ، فإن كتبت بدونها «خاندن» فإنّها ستسبّب حيرة القارئ . وهكذا الأمر بالنسبة إلى الألفاظ المشتركة في السماع والمختلفة كتابةً ، كألفاظ «خاستن» بمعنى قيام ، و«خواستن» بمعنى الإرداة ؛ و«خيش» بمعنى الستارة، و«خويش» التي تعني الضمير . وبالنسبة إلى الألفاظ العربيّة المستعملة في الفارسيّة مثل «سيف» و«صيف» ؛ و«ألم» و«عَلَم» ، فهي تُكتب مختلفةً فلا يحصل بينها اشتباه ، فإن أمكن أن يتلفّظ بها على نحوَين مختلفَين كان ذلك أفضل.

ويجب ألّا تجعل الكتابة تابعةً للّفظ ، استجابةً للمتقاعسين ، لئلّا يسري الإبهام في اللفظ، إلى الكتابة ، فيتضاعف الإشكال . ولو تعلّم القارئ مرّةً واحدة طريقتَين مختلفَتين في كتابة الحروف فكان في أمان من الخطأ طوال عمره ، لكان ذلك أفضل من وقوعه ووقوع جميع الناس في الشبهة عمراً كاملاً . إنّ الأُوروبّيّين ـ الذين صار المعاصرون يقلّدونهم ـ لم يغيّروا طريقة كتابتهم للحروف ، فهم يكتبون اللفظ الواحد المستعمل في معانٍ ⇦

. . . .

⇦ مختلفة بكيفيّات مختلفة ليأمنوا من الخطأ. وعلى من يفتخر بامتلاك لغة واسعة كاملة، أن يتحمّل مشقّة تعلّمها، لأنّ تعلّم اللغة الأكمل أكثر مشقّة.

الاستعارات اللغويّة

من فوائد تتبّع الكتب القديمة استنباط قواعد الاستعارة اللغويّة، حيث يجب في الفارسيّة وفي جميع اللغات الأُخرى، أن تُستعار بعض الكلمات من اللغات المختلفة. ومن خصائص الفارسيّة أنّها تقف في محاذاة العربيّة التي تعدّ أعظم لغة عالميّة وأوسعها وأنّ بإمكانها أن تغرف ما تشاء من هذا البحر الخضمّ، فلا تعجز ـ من ثَمّ ـ عن أداء أيّ معنى.

فهذه اللغة التي نزل بها كتاب الله تعالى فدعاها باللسان العربيّ المبين، قد سبّبت هدينا إلى العلوم المختلفة، كما سبّبت تخليصنا من الضيق والجمود. أمّا اقتباس الألفاظ العربيّة، فله أُسلوبه الذي رعاه القدماء، فإن جرى تجاهل ذلك الأُسلوب صدر الكلام مستهجناً، وصارت الألفاظ مرذولةً، والجُمَل مبهمة مغلقة، وذلك ممّا لايليق بالفصحاء. ومَثَل مَن يريد عدم استعمال كلمات عربيّة أو غير عربيّة في اللغة الفارسيّة، كمثل من يقف إلى جوار كنزٍ طافح بالجواهر النادرة الفريدة، فيمكنه أن يتناول منها ما يشاء بلا مقابل ليزيّن بها قامته، لكنّ تعصّبه الأعمى يصدّه عن ذلك.

ومثل من يستعير بلا أُسلوب صحيح، كمثل من يعصّب رأسه بمعضدٍ ينبغي شدّه على العضد، وكمثل من يعلّق في عنقه خلخالاً.

ولقد استعمل القدماء كلمات معيّنة في معانيها، وأدخلوا تغييرات طفيفة في كلماتٍ أُخرى، وعزفوا عن استعمال كلمات أُخرى؛ وينبغي متابعتهم في ذلك.

أمّا المتأخّرون فكانوا على العكس من ذلك، فقد أوردوا أحياناً ألفاظاً غريبة ووحشيّة في الكلام، واستعملوا أحياناً، ودونما سبب جليّ، لفظاً واحداً في معنيَين مثل «مراجعه كردن» و«مراجعت كردن»؛ وتحرّوا أحياناً من اللفظ العربيّ معنى ليس مذكوراً في العربيّة ولافي الفارسيّة، مثل لفظ «وَبَا» في مرض الإسهال الهنديّ، ولفظ «حصبه» في نوعٍ من الحمى الوبائيّة، ولفظ «محصّل» في طالب العلم، وأمثال ذلك. وأمثال هذا التوسّع واللامبالاة جائز في اللغات العالميّة المنحطّة، لأنّ طائفة معدودة تستفيد منها؛ أمّا اللغات العلميّة والأدبيّة العظيمة، فينبغي أن تُستعمل فيها الكلمات، طبقاً للقاعدة المقرّرة، في نفس المعاني التي استعملها فصحاء أهل اللغة. ⇦

أجل ، فقد أوردنا في هذه الأبحاث أنّ من الواجب على المسلمين أن يحافظوا على اللغة العربيّة حيّةً ، فهي لغة القرآن الكريم ؛ وحياتها بتوسعة استعمالها في المحاورات العامّة ، وبالتكلّم بها ، ومن خلال تدوين الكتب والرسائل بها ، وتدريسها رسميّاً في المدارس ، بل في دور حضانة الأطفال ، بل في البيوت بين العوائل وعند التحدّث إلى الأُمّهات . فكلّما زادوا من إدخال الكلمات العربيّة في لغتهم ، صارت تلك اللغة أقرب إلى القرآن الكريم ، وكلّما زادوا من إقحام كلمات غير عربيّة فيها ، سواء كانت الكلمات المقحمة كلمات قديمة من نفس اللغة أم من اللغات الأجنبيّة الأُخرى ، أضحت تلك اللغة بعيدة عن القرآن .

ومحصّل المطالب أنّ على الفرد المسلم أن يتّجه إلى استعمال العربيّة في المحاورات ، وإلى تعلّم قواعد العربيّة ، وحفظ مفرداتها ، بحيث يصل إلى درجةٍ يتمكّن معها من التحدّث بالعربيّة بطلاقة . سواء في ذلك أكانت لغته الأُمّ هي العربيّة أم غيرها . وعلى المسلم الذي يصلّي ، ويقرأ القرآن ونهج البلاغة ، ويتحتّم عليه اكتساب أحكامه الضروريّة في الفقه والأخلاق

⇦ ويعدّ الانضباط من مستلزمات لغات العالم الكبرى ، لأنّ على أهل اللغة والأجانب على حدٍّ سواء أن يراعوا تلك المسألة ، وينبغي أن تتوفّر وسائل التعليم للجميع . ولو جرى تجاهل القواعد ، لتسبّب ذلك في تحيّر الأجانب ، بل في تحيّر أهل اللغة أنفسهم ، إذ يُقال مثلاً «مأمور مربوطه چنان كرد» و«رئيس مربوطه چنان گفت» ؛ بينما لا يعلم أحد ما معنى كلمة «مربوطه» ، ووفق أيّة قاعدة من قواعد الفارسيّة أو العربيّة أُضيفت ؟ ومن هذا القبيل كثير.

إنّنا إذا أضعنا الكتب القديمة فإنّنا لن نجد لها بديلاً ، أمّا إذا حذفنا كلّ جديد غير فصيح فإنّنا لن نخسر شيئاً ، لأنّ أصل المعاني موجود باللغات الأجنبيّة في روعة الملاحة والفصاحة، ويمكننا أن نطالع كتب القدماء ، في أيّ علم نشاء ، فنتعلّم منها أُسلوب البيان ونهج كمال اللغة الفارسيّة ، فنصوغ المطالب الجديدة بلغتنا وفق الأُسلوب القديم».

والعرفان من أولياء الدين ، والمسلم الذي يشترك في مناسك الحجّ ويشترك مع المسلمين في مساعيهم ويطّلع على أحوالهم ، ويشترك في المؤتمرات والاجتماعات العامّة للمسلمين فيخطب أو يستمع لخطبة غيره ، عليه أن يُتقن العربيّة بحيث يفهم معنى الصلاة التي يصلّيها ، والقرآن الذي يتلوه ، ويفهم معنى دعاء كميل الذي يدعو به ويبكي متفاعلاً معه ، بحيث يفهم كلام الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام . وبغير ذلك فإنّ عليه أن يدرك هذه المطالب عن طريق ترجمة الغير ، وذلك ممّا يبعد عليه الشقّة ويعسر عليه . إنّ اتّحاد لغة المسلمين من الأهمّيّة بمكان ، شأنه في ذلك شأن اتّحاد تأريخهم .

وعلى المسلم ـ عند الإمكان ـ أن يجعل لغته الأُمّ هي العربيّة التي تعدّ أغنى اللغات ، والتي تفوق الفارسيّة ملاحةً واقتداراً . أمّا عند عدم الإمكان ، فيجب عليه أن يجعل العربية لغته الثانية ، ليمكنه الاستفادة من مزايا هذا الدين . أمّا بدون ذلك ، فإنّ الدين سيلوح له كشج بعيد وسرابٍ لا يمكنه بلوغه .[1]

ولهذا السبب نفسه يسعى الاستعمار الكافر جاهداً في جعل الإنجليزيّة اللغة الأُولى (الأُمّ) أو الثانية للمسلمين .[2]

١ـ روى المجلسي في «بحار الأنوار» ج ١ ، ص ٢١٢ ، حديث ٧ ، الطبعة الحروفيّة، عن «الخصال» للصدوق ، بسنده المتّصل عن الإمام الصادق عليه السلام ، قال : **تَعَلَّمُوا العَرَبِيَّةَ ، فَإنَّهَا كَلَامُ اللهِ الَّذِي يُكَلِّمُ بِهِ خَلْقَهُ ؛ وَنَظِّفُوا المَاضِغَيْنِ ، وَبَلِّغُوا بِالخَوَاتِيمِ !**

٢ـ يقول أحمد أمين المصريّ في كتاب «يوم الإسلام» ص ١٤٤ :

بل إنّ فرنسا كان من دعوتها محاربة اللغة العربيّة لأنّها وسيلة للدين الإسلاميّ والدين الإسلاميّ وسيلة للتعصّب ، فكلّ قطر لا يقوى وحده بإصلاحه ودعوته على محاربة الاستعمار، لأنّ الاستعمار أقوى منه ، ولكنّ العالم الإسلاميّ كلّه ـبما فيه من ثلاثمائة ⇦

إنّنا لا نقول بأنّ من يجهل العربيّة لا دين له ، وليس مسلماً ؛ بل نقول بأنّه لا يتمتّع بجميع مزايا الإسلام وفوائده وفضائله .

إنّ مقولة أعداء الإسلام بأنّ الإيرانيّين قد حافظوا على لغتهم على امتداد التأريخ ، وصانوها عن الذوبان في اللغة العربيّة ، فأظهروا بذلك ردّ فعلهم المخالف للإسلام ، هي كلام أجوف لا نصيب له من الصحّة والاعتبار .

يجيب المرحوم الشهيد المطهّريّ رحمة الله عليه على هذه المقولة بقوله :

«لو كان إحياء اللغة الفارسيّة من أجل مكافحة الإسلام أو العرب أو العربيّة ، لكان الإيرانيّون قد ألّفوا في الفارسيّة وقواعدها النحويّة وقواعدها في الفصاحة والبلاغة بدلاً من تأليفهم هذا الحشد الكبير من الكتب في العربيّة وقواعدها النحويّة وقواعد الفصاحة والبلاغة العربيّة ؛ أو كانوا ـ على أقلّ تقدير ـ يمتنعون عن ترويج العربيّة ونشرها وإشاعتها .

إنّ الإيرانيّين لم يعنوا بالفارسيّة عناداً منهم أو عداء للإسلام أو للعرب ؛ كما أنّهم لم يعدّوا العربيّة لغةً أجنبيّة ، بل اعتبروها لغة الإسلام لا لغة العرب وحدهم . وحيث إنّهم كانوا يرون في الإسلام ديناً يتعلّق بجميع المسلمين ، فإنّهم اعتبروا أنّ العربيّة أيضاً ممّا يتعلّق بهم وبجميع المسلمين الآخرين .

⇦ مليون على الأقلّ ـ إذا أخلص النيّة وصحّح العزم على محاربة النصرانيّة مجتمعة ، وقد كان من أهمّ مبادىء الإسلام الحجّ كلّ عام ليكون مؤتمراً يتذاكر فيه المسلمون شؤون دينهم وحالتهم الاجتماعيّة ويرسمون الخطط لهذا الإصلاح ، كما كان من مبادئ الإسلام أن يكون المسلمون كلّهم تحت لواء خليفة واحد يرعى شؤونهم وينظر إلى مصالحهم ، فهذان المبدآن كانا يوحّدان الغرض ويوحّدان العمل.

والحقيقة هي أنّ اللغات الأُخرى من قبيل الفارسيّة ، التركيّة ، الإنجليزيّة ، الفرنسيّة والألمانيّة هي لغات تتعلّق بأُمم وأقوام خاصّة ، فإنّ العربيّة تمثّل لغة كتاب عالميّ هو القرآن . فالفارسيّة ـ على سبيل المثال ـ هي لغة تتعلّق بقوم معيَّن وأُمّة معيّنة . وقد اشترك أفراد كثيرون في إبقائها لغةً حيّة . بحيث لو لم يكن كلّ واحد من هؤلاء بمفرده موجوداً ، لما أثّر ذلك في بقاء الفارسيّة في العالم . فالفارسيّة ـ إذاً ـ ليست لغةً مختصّة بفردٍ معيَّن ولا بكتابٍ معيَّن . فهي ليست لغة الفردوسيّ ، ولا لغة الردوكيّ ، ولا لغة النظاميّ ، ولا لغة سعدي ، ولا لغة حافظ ولا أيّ شخص آخر غيرهم ، بل هي لغة الجميع . أمّا **اللغة العربيّة فهي لغة كتاب واحد هو القرآن الكريم** ؛ والقرآن وحده هو عامل حياة وبقاء اللغة العربيّة وحفظها عن الاندثار .

وجميع الآثار التي أُلِّفت بعد نزول القرآن ودوّنت باللغة العربيّة ، إنّما وجدت في ظلّ القرآن ولأجله . وعلوم القواعد التي وجدت لهذه اللغة ، إنّما وجدت من أجل القرآن . والذين خدموا هذه اللغة وألّفوا الكتب فيها ، فعلوا ذلك لأجل القرآن الكريم . حتّى أنّ الكتب التي ألّفت بالعربيّة في حقول الفلسفة ، العرفان ، التأريخ ، الطبّ ، الرياضيّات ، الحقوق وغيرها ،كانت لأجل القرآن . فالحقّ **أنّ العربيّة هي لغة كتاب ، وليست لغة قوم أو أُمّة** .

وإذا ما كان أفراد كبار يكنّون احتراماً لهذه العربيّة يفوق ما يكنّونه للغتهم الأُمّ ، فقد كان ذلك لأنّهم لم يعتقدوا بأنّ هذه اللغة متعلّقة بقومٍ معيَّن دون غيرهم ، فكانوا ـ لذلك ـ لا يعدّون في عملهم حطّاً من شأن أُمّتهم أو قوميّتهم .

لقد كان أفراد الأُمم غير العربيّة يحسّون بأنّ العربيّة هي لغة الدين ،

بينما لغتهم الأُمّ لغة قوم وأُمّة .

وقد أنشد المولويّ في ديوانه «مثنوي» أبياتاً معروفة بالعربيّة ، قال فيها :

اقْتُلُونِي اقْتُلُونِي يَا ثِقَات إنَّ فِي قَتْلِي حَيَاةً فِي حَيَاة

ثمّ قال :

پارسی گو گر چه تازی خوشتر است

عشق را خود صد زبان دیگر است[1]

وقد رجّح المولويّ في هذا الشعر العربيّة على الفارسيّة لغته الأُمّ ، لأنّ العربيّة هي لغة الإسلام .

وقد دوّن سعدي في الباب الخامس من ديوانه «گلستان» حكايةً في هيئة محاورة مع شابّ من «كاشغر» كان يقرأ كتاب مقدّمة الزمخشريّ في النحو ، يتحدّث فيها عن الفارسيّة والعربيّة ، واصفاً الفارسيّةَ بأنّها لغة العوامّ ، والعربيّةَ بأنّها لغة أهل العلم والفضل .

ويقول حافظ في غزله المعروف :

اگر چه عرض هنر پيش يار بی ادبی است

زبان خموش وليكن دهان پر از عربی‌است[2]

وتبعاً لما ذكره المرحوم القزوينيّ في كتاب «بيست مقاله» (= عشرون مقالة) ، فإنّ أحدَ مَن تخبّطوا في شباك الحماقة ـ وهم ليسوا

١ـ يقول : «تحدَّثْ بالفارسيّة ، وإن كانت العربيّة أجمل وأعذب ، فللعشق مئات اللغات المختلفة!» .

٢ـ يقول : «إنّ إظهار الأدب والفضل عند الحبيب من سوء الأدب ؛ لذا فإنّ فمي مُطبقٌ ، لكنّه مملوء بالعربيّة!» .

قليلين ببركة الخطط الاستعماريّة ـ كان يعتب دائماً على حافظ لقوله في هذا الشعر بأنّ العربيّة هي لغة الأدب والفنّ» .[١]

إنّ كلّ ما ذكره المرحوم الشهيد المطهّريّ في هذه العبارات صحيح وصائب ، كما أنّ قوله بأن **العربيّة هي لغة القرآن** مطابقٌ للصواب ؛ لكنّه لم يوضِّح هذا المعنى كما هو أهل أن يُوضَّح . فاستنتج بأنّ التمسّك بالإسلام والتديّن بالقرآن يحصلان مع حصر لغة الفرد بلغته الأُمّ وعدم التكلّم بالعربيّة ، أو عدم ضرورة التكلّم بالعربيّة .

وإشكالنا ينصبّ على هذه النكتة . فمن الصحيح أنّ العربيّة هي لغة القرآن ، بَيدَ أنّ القرآن لمّا كان متعلّقاً بجميع المسلمين ، فإنّ العربيّة أيضاً ستكون متعلّقة بجميع المسلمين . ولو وُجد شخص لا يستطيع التكلّم بالفارسيّة ، فإنّه يجب ألّا يُعَدّ من أُمّة فارس ؛ كما أنّ شخصاً لو عجز عن التكلّم بلغة القرآن ، فإنّه يجب ألّا يعدّ من الأُمّة القرآنيّة ، ولقد غالط في شرح هذه العبارة فقال : لو أنّ زيداً لم يتكلّم بالفارسيّة ، فإنّ الفارسيّة لن تبرح موجودةً في العالم ، إذ إنّها ليست خاصّة بشخصٍ معيّن .

والكلام هو في هذ النقطة ، إذ إنّ من الطبيعيّ أنّ الفارسيّة ستبقى ، لكنّ الكلام في أنّ زيداً لو لم يتكلّم بالفارسيّة وعجز عن التحدّث بها ، فهل سيعدّ من أهل فارس أم لا ؟ وإذا عجز شخصٌ عن التحدّث بالعربيّة لغة القرآن ، فهل سيعدّ من أهل القرآن أم لا ؟ إنّ بين هذين المطلبين فرقاً شاسعاً .

من الواضح أنّ زيداً لو لم يتكلّم بلغة القرآن ، فإنّ القرآن سيبقى موجوداً ، لكنّ زيداً لن يكون حينذاك زيداً قرآنيّاً .

١ـ «خدمات متقابل اسلام وايران» ص ٨٥ إلى ٨٨.

وكان من الأحرى أن يقول : إنّ الفارسيّة مختصّة بأُمّة وقوم فارس . أمّا القرآن فهو لجميع الأُمّة الإسلاميّة من الفرس والترك والعرب والهنود . وإنّ الرجل لَيُعَدُّ فارسيّاً حين يُتقن الفارسيّة ؛ وإنّه ليعدّ من أهل القرآن حين يعرف العربيّة ، إذ العربيّة لغة القرآن .

وبغضّ النظر عن ذلك ؛ فما الذي تعنيه مقولة أنّ العربيّة هي لغة القرآن ؟! أتعني أنّها اللغة القرآنيّة المكتوبة على صفحات القرآن والمحفوظة بين الدفّتَين ؟! أم القرآن الحيّ الموجود في الصدور ، والذي يواجهه الناس في محاوراتهم ومعاملاتهم وعباداتهم وأحكامهم واجتماعاتهم ، فيتحدّث إليهم ، ويشير لهم إلى الطريق السويّ ؟

بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ .[1]

ستتساوى حينئذٍ مقولة «العربيّة لغة القرآن» مع مقولة «العربيّة لغة المسلمين» .

وحقّ المطلب هو أنّنا قد اعتدنا على لغتنا الأُمّ وعرفنا حلاوتها وتكلّمنا بها ، وأنّها لغتنا السهلة ، لذا صرنا لا نرغب في استبدالها بغيرها ، ولو كانت اللغة البديلة أفضل من لغتنا الأُمّ .

وحين نعلم بأنّ اللغة العربيّة أكثر اقتداراً وإحكاماً وملاحظة وجاذبيّة من الفارسيّة ، وأنّها لغة غنيّة بلحاظ سعة المصطلحات الأدبيّة والطبّيّة والجغرافيّة والصيدلانيّة ، وحتّى في المصطلحات الفيزيائيّة والكيميائيّة ، وأنّها لا تضطرّنا ـ كما تفعل الفارسيّة ـ إلى الاستفادة من المصطلحات الأجنبيّة ، وإلى إقحام أصل أو مشتقّ من اللغات اللاتينيّة في لغتنا في هيئة اسم . وحين نعلم أنّها لغة القرآن الكريم التي يعتمد عليها ديننا ومذهبنا ،

١ـ صدر الآية ٤٩ ، من السورة ٢٩ : العنكبوت .

فَلِمَ لا نجعل العربيّة لغتنا الأُمّ منذ البداية ، فنعلّمها لأولادنا منذ طفولتهم ؟!

إنّنا لو حافظنا على اللغة الفارسيّة ، وتعلّمنا إلى جانبها اللغة العربيّة .

فإنّ سعة معلوماتنا ستكون بنفس القدر الذي امتلكناه سابقاً ، وينطوي هذا على عدّة عيوب :

الأوّل : أنّ جميع أفراد الشعب لن يكونوا قادرين على التكلّم بالعربيّة ، ولا عُشر معشارهم ، بل لن يتمكّن واحدٌ من كلُّ ألف منهم من التكلّم بها .

الثاني : أنّنا لو أردنا تعليم رجل فارسيّ حديثاً أو آيةً من آيات القرآن ، فإنّ عليه أن يعبر بالمعنى في ذهنه من حجاب الترجمة ليدركه في نهاية المطاف . لذا فإنّه سيفهم ذلك المطلب فهماً مشوّهاً ، أشبه بحبل تعترضه العُقد ، أو قطعة قماش رُقّعت بأُخرى ، بخلاف تعليمنا نفس الحديث أو الآية لشخص عربيّ ، لأنّه سيفهم المطلب بسرعة ، بل سيحفظ ذلك الحديث وتلك الآية في ذهنه .

إنّكم تشاهدون أنّ الأطفال الناطقين بالعربيّة يحفظون القرآن بسهولة ويُسر ؛ وأنّ كثيراً منهم يُتمّون حفظ القرآن في سنيّ الرابعة عشر والخامسة عشر ، بينما يعسر ذلك على الأطفال الناطقين بالفارسيّة .

والثالث : أنّ تعلّم اللغة ليس أمراً سهلاً ، بل يستلزم قضاء العمر وصرف الوقت ، ويتطلّب من المرء سلامةً وفراغاً . وينبغي على الإنسان أن يصرف هذا الوقت ويغتنم هذه الفرصة في كسب علوماً ذات موضوعيّة لا طريقيّة .

وليس معرفة اللغة كمالاً في حدّ نفسه ، وليس علماً ، بل تمثّل اللغة آية وطريقة لاكتساب العلوم الواقعيّة . وفي هذه الحال فإنّ الاكتفاء بلغةٍ واحدة سيوصل الشخص إلى كماله المطلوب أسرع بكثير ، بينما تعلّم لغتين

أو عدّة لغات سيجعل ذلك الشخص يملأ ذهنه بالكلمات والاصطلاحات غير الأصيلة ، لأنّه يصل إلى كماله بطريقين أو بعدّة طُرق .

وبالطبع ، فإنّ الضرورة تستلزم أحياناً تعلّم لغة أُخرى ، إلّا أنّ ذلك ينطبق على البعض فقط ، ويحصل ضمن إمكان وشرائط خاصّة . لماذا نجبر جميع الناس على تعلّم لغتَين : اللغة الأُمّ واللغة العربيّة ؟ إنّنا نستطيع اختصار الطريق منذ بدايته ، فنجعل اللغة العربيّة هي اللغة الأُمّ ، لنكون قد طوينا نصف المسافة مجّاناً وبلا عوض .

والسبيل لتنفيذ هذا الأمر يتلخّص فيما يلي : علينا أن نجعل العربيّة اللغة الثانية في المرحلة الأُولى . أي أن نعوّد جميع الناس على التحدّث بالعربيّة بكثرة استعمال مفرداتها ، وبإبعاد الكلمات والمفردات الفارسيّة وغير العربيّة ، بحيث يتمكّن الرجال والنساء من التحاور بالعربيّة والمذاكرة بها .

ثمّ نقول للرجال والنساء في المرحلة الثانية : عليكم من الآن فصاعداً أن تتكلّموا بالعربيّة مع أطفالكم الصغار الذين يبدأون بنطق الكلمات . فبهذه الطريقة ستصبح اللغة ـ وبصورة سريعة مفاجئة ـ لغة القرآن العربيّة . ومضافاً إلى جميع مزايا العلم والمعرفة التي ستعود من ذلك ، فإنّ الوحدة بين المسلمين ـ وإحدى جهاتها وحدة لغة القرآن ـ ستتفتّح بأفضل صورة وأتمّها .

لقد درس هذا الحقير سابقاً في الفرع الفنّيّ ، فكان لي اطّلاع على **اللغة الألمانيّة** ، وقمت بترجمة بعض الكتب الدراسيّة من الألمانيّة إلى الفرنسيّة . ثمّ إنّ مؤلّفاتي وكتاباتي في قم والنجف الأشرف كانت باللغة العربيّة فقط . فكانت الكتب المستقلّة وتقريرات دروس الأساتذة والرسائل الفقهيّة مُدوّنه بأجمعها بالعربيّة .

ثمّ كتبت رسالتَين بالعربيّة عند عودتي من النجف ، إحداهما عن **رؤية الهلال** ضمن مكاتباتي مع سماحة آية الله الخوئيّ قدّس سرّه ؛ والأُخرى «رسالة بديعة في تفسير آية : **ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ**» ، جرى فيها البحث عن عدم جواز تصدّي المرأة للحكومة والجهاد والقضاء ؛كما ألّفتُ كثيراً من المسائل الفقهيّة (التي لم تُطبع بعد) باللغة العربيّة .

أمّا وقد قامت الثورة الإيرانيّة العظيمة على أساس نهضة الإسلام والقرآن ، وشاهدت تعطّش الناس للمعارف ، فقد وجدت من اللازم عَلَيّ أن أشرع بتأليف دورة في العلوم والمعارف الإسلاميّة باللغة الفارسيّة ، لتصل إلى أيدي مسلمي إيران بسرعة ، وتروي أرواحهم بهذه العلوم الإسلاميّة الأصيلة . ولولا ذلك لكان لزاماً أن يكون تأليفي بالعربيّة أيضاً ، حفظاً على جميع جوانبها الإسلاميّة ، وتمكيناً لجميع الإخوة المسلمين من الناطقين بالعربيّة في داخل إيران وخارجها ، من الاستفادة منها .

وآمل أن تُترجم جميع هذه الآثار إلى العربيّة ، ليتلافى هذا القصور اللااختياريّ . وأُوصي جميع أبنائي وأصدقائي الطلبة أن يؤلّفوا جميع آثارهم بالعربيّة إلّا حيثما اقتضت الضرورة ؛ ثمّ يقوموا بترجمة آثارهم إلى الفارسيّة عند الحاجة .

ولقدكان هذا هو دأب العلماء الأعلام ودأب ممسكي زمام العلم والمعرفة ، وديدن المتبصّرين الخبراء بالقرآن وبأُمور المسلمين ، من قديم الأيّام حتّى يومنا هذا . حتّى أنّ كثيراً من الحكّام والوزراء وأصحاب المناصب والولاية خلال الألف سنة الأخيرة ، من العلماء الكبار في الحديث والتفسير والحديث والفلسفة والهيئة والفقه وغيرها ، قدكانت جميع مصنّفاتهم مدوّنة بالعربيّة . وكانوا يُعَدّون من رواة الحديث ، ولهم

مجالس لبحث الحديث وسماعه .

«يقول (القزوينيّ) في مقدّمة كتاب «أحاديث مثنوي» [تأليف فروزانفر] ضمن بيانه التسرب التدريجيّ للأحاديث النبويّة في جميع شؤون الإسلام العلميّة والأدبيّة ؛ يقول نقلاً عن «الأنساب» للسمعانيّ :

وكان الكثير من الأُمراء والوزراء ممّن شجّعوا الشعراء وحموا الكتّاب والمؤلّفين ، يعدّون بأنفسهم من رواة الحديث . فمثلاً كان الأمير أحمد بن أسد بن سامان «المتوفّى سنة ٢٥٠ هـ . ق) وبنوه : أبو إبراهيم إسماعيل بن أحمد (المتوفّى في شهر صفر لسنة ٢٩٥) ؛ وأبوالحسن نصر بن أحمد (المتوفّى في جمادى الآخرة سنة ٢٧٩) ، وأبو يعقوب إسحاق بن أحمد (المتوفّى فى ٢١ صفر سنة ٣٠١) وهم من الأمراء والولاة السامانيّين ،[١] مذكورين ، في طبقات الرواة .

وكان الأمير إبراهيم بن أبي عمران سيمْجور وابنه أبوالحسن ناصر الدولة محمّد بن إبراهيم من أكابر الأُمراء السامانيّين وقائد خراسان في عداد رواة الحديث .

وكان أبو علي مظفّر (أو محمّد) بن أبي الحسن (المقتول في رجب سنة ٣٨٨) ـ وكان أمير خراسان ، ومن المطالبين بالاستقلال ـ راوياً للحديث ، وكان له مجلس لإملاء الحديث . وكان أبو عبد الله الحاكم بن البيّع (صاحب كتاب «المستدرك» المعروف ، والمتوفّى سنة ٤٥٠ هـ . ق) يسمع منه» .[٢]

١ـ السامانيّون من نسل بهرام چوبين القائد المعروف في عصر الساسانيّين . وكان يعدّ من أعدل سلاطين إيران وأكثرهم تديّناً .

٢ـ «خدمات متقابل اسلام وايران» ص ٩٢ و٩٣ .

وإذا كان الإسلام قد زاد اقتداراً وقوّة إثر اعتناق علماء إيران للإسلام والتزامهم بنهجه ؛ فإنّنا نتساءل : لو كانت العربيّةُ لغةَ الشعب الإيرانيّ ، أفلم تكن هذه القوّة والاقتدار الحاصلَين أكثر منهما في الحالة الأُولى ؟!

وعلى الرغم من أنّ أدوارد براون ينقل عن **دوزي** المستشرق الهولنديّ المعروف في كتاب «الإسلام» قوله : «إنّ الإيرانيّين كانوا أهمّ الأقوام الذين غيّروا دينهم . فقد كانوا هم ـ لا العرب ـ الذين جعلوا الإسلام ديناً راسخاً مقتدراً ، والذين ظهرت منهم أبرز الفرق الإسلاميّة» .[1]

فإنّنا نتساءل : ألم تكن هذه الآثار التي دوّنها العلماء الإيرانيّون بالعربيّة ستزيد في قوّة الإسلام واقتداره ، لو وُجدت في محيط إيران وكان جميع أفراده من الناطقين بالعربيّة ؟!

إنّ ممّا يثير العجب أن يقول المرحوم الشهيد المطهّريّ رحمة الله عليه :

«لو كانت اللغة الفارسيّة قد تلاشت واضمحلّت ، لما كان لنا اليوم مثل هذه الآثار والإبداعات الإسلاميّة الفريدة ، كـ «مثنوي» و «گلستان» و «ديوان حافظ» و «ديوان النظاميّ» ومئات الآثار الجميلة الأُخرى .

ويا ليت ـ إذاً ـ لو كان بين المسلمين مئات اللغات الأُخرى المماثلة للفارسيّة ، ليمكن لكلٍّ منها أن تُسدي إلى الإسلام بخدماتها بما تمتلك من قابليّات خاصّة !» .[2]

ونردّ بقولنا : لو كان الملّا الروميّ وسعدي وحافظ والنظاميّ يضيعون بضياع الفارسيّة ، لكان الأمر على ما تفضّل به ؛ أمّا مع حياة هؤلاء العظماء

١ـ «خدمات متقابل اسلام وايران» ص ١٠٨ .

٢ـ «خدمات متقابل اسلام وايران» ص ٨٩ و ٩٠ .

وانغمارهم في الأدب العربيّ وتأليفهم للـ «مثنوى» و«گلستان» و«ديوان حافظ» و«ديوان النظاميّ» باللغة العربيّة ، فالله وحده يعلم أيّ تأثير كبير كانوا سيتركون ! أوَليس في أيدينا الآثار العرفانيّة والأدبيّة **لابن الفارض** المصريّ الذي عاش قبل حافظ بما يقرب من مائة سنة ؟ أم أنّ دواوين **السيّد المرتضى والسيّد الرضيّ ومَهْيار الديلميّ والصاحب بن عبّاد** وصولاً إلى شعراء عصرنا الحاضر العرب من أمثال **السيّد حيدر الحلّيّ والسيّد صالح الحلّيّ والسيّد إسماعيل الشيرازيّ** هي أدنى في القدرة الشعريّة من ديوان النظاميّ و«بوستان» سعدي الشيرازيّ ؟!

أوَليست «مقامات» الحريريّ وبديع الزمان الهمدانيّ المؤلَّفة بالعربيّة في مصافّ ديوان «گلستان» سعدي الشيرازيّ ؟

وافرضوا أنّ الملّا الروميّ وسعدي وحافظ والنظاميّ يفوقون ما ذكرناهم في القريحة والقابليّة ، لكنّ هؤلاء الأعلام والعظماء المتفوّقين لو صرفوا قرائحهم وقابليّاتهم في اللغة العربيّة ، فصاغوا دواوين من أمثال «مثنوى» و«گلستان» وأبدعوا مثل «ديوان حافظ» و«ديوان النظاميّ» بلغةٍ ألطف وتعابير أكثر اقتداراً وقوّة ، أفلم يكونوا سيقدّمون أعمالاً أعظم ، تستحوذ على القلوب والأفئدة أكثر ممّا فعلت سابقاتها ؟!

إنكم تقرّون بأنّ العربيّة لغة أوسع وأقوى ، وأنّ قدرتها وشمولها هو الذي جعل من الفارسيّة لغة قويّة عالميّة . فإن كان الأمر كذلك ، فأيّ تأثيرٍ كانت ستتركه آثار هؤلاء الأعلام لو كانت مدوّنة بالعربيّة ، في محيط عربيّ لشعب ذي قريحة وقابليّة كالشعب الإيرانيّ ؟

إنّ التأسّف على فقدان هذه الكتب ، كتأسّف ذلك الشابّ الذي قيل له : تزوّج من الفتاة الفلانيّة الجميلة ذات الأصالة والشرف ، لتنجب أولاداً ذوي شرف وأصالة ! فقصّر في هذا الأمر ، وتزوّج من فتاة دونها في

الشرف والأصالة والجمال ، فأنجبت له أولاداً . وحين عوتب على ذلك وقيل له : لِمَ لَم تتزوّج من تلك الفتاة ؟!

ردّ يقول : لو تزوّجت منها لما كان لي هؤلاء الأبناء !

ويُقال في جوابه : أكانت تلك الفتاة عقيمة ؟ أكان زواجك منها سيحرمك من الأولاد ! أم أنّ تلك الفتاة كانت ستنجب أولاداً أفضل وأكثر أصالة !

إنّ أمثال هذا الاستدلال لا يعدّ برهاناً ، بل مغالطةً لا يُنتظر أمثالها من أهل الفلسفة .[1]

لقد بذل الاستعمار قصارى جهده لإسقاط القرآن واللغة العربيّة في الممالك الإسلاميّة ، فجاءوا **بأتاتورك** ـ واسمه مصطفى كمال باشا ـ في تركيا ، ولقّبوه بهذا اللقب الذي يعني أبو الأتراك ؛[2] فألغى حجاب النساء ،

ـــــــــــــــــــــ

١ـ الطبعة الأُولى للكتاب «خدمات متقابل اسلام وايران» ، وكان ذلك المرحوم قد أهدى للحقير نسخة منه سنة ١٣٤٩ هـ. ش ، قبل ارتحاله بعشر سنوات تقريباً . وقد ذكر الحقير في مقدّمة كتاب «لُبّ اللباب» الذي نُشر بمناسبة شهادته ، أنّ ذلك المرحوم كان له حالات عرفانيّة وانقلابٌ في السنوات الأخيرة من عمره ، حيث إنّ كتاباته وخُطبه في هذه المرحلة تتفاوت تماماً مع مثيلاتها السابقة ، ويمكن إدراك هذه الحقيقة من المقارنة بينها.

٢ـ يقول أحمد أمين المصريّ في كتاب «يوم الإسلام» ص ١١٨ و ١١٩ :

«وفي تركيا ظهر مدحت باشا يدعو إلى الأخذ من المدنيّة الغربيّة بقدر نافع والاقتباس منهم خير ما عندهم في نظم الحكم . ثمّ جاء مصطفى كمال ودعا إلى الإصلاح من طريق آخر وهو التخفّف من العرب بلغتهم ودينهم كأنّ هذا ثقل عليه ، وغمس الأُمّة كلّها في الحضارة الغربيّة بحذافيرها من غير تنقية ولا انتحال.

وكان من دعائم إصلاحه ؛ إلغاء وزارة الأوقاف وجعل تدبيرها لرئيس الأُمور الدينيّة وهيئة عمليّة استشاريّة بجانبه وإلغاء المحاكم الشرعيّة ، والمدارس الدينيّة ، وقصر التعليم الدينيّ على كلّيّة اللاهوت التي تتبع الجامعة ، وإلغاء الطرق الصوفيّة وإغلاق الزوايا ⇦

واستبدل الملابس التركيّة بالملابس الأُوروبّيّة والقبّعة ؛ وجعل المساجد القديمة ـ من أمثال مسجد «أيا صوفيّة» ـ متاحفاً ، بحيث إنّ مَن يردها للتفرّج لاحقّ له في أداء الصلاة داخلها ؛ ومنع قراءة القرآن في المدارس ، وحرّم استعمال العربيّة ، حتّى وصل به الأمر إلى أن غيّر قراءة القرآن والصلاة والأذان والإقامة إلى اللغة التركيّة الإسلامبوليّة .

وكان خالي المرحوم قد تشرّف بالذهاب إلى مكّة قبل خمسين سنة ، فعاد عن طريق الشام وتركيا ، وكان يقول : كان المؤذِّن في تركيا يرقى المنارة في وقت الأذان فينادي : **اَللهْ بُيُوكْ ديرْ ؛ مُحَمَّدْ سَفيرِ ياخْچِى ديرْ** وهكذا إلى آخر الأذان ، يعني : الله كبير ، محمّد سفير جيّد .

ولقد غيّر **أتاتورك** الحروف أيضاً ، وكانت الحروف التركيّة تماثل الحروف العربيّة فأبدلها إلى الحروف اللاتينيّة ، وبذلك قطع ارتباط هذا الشعب ليس مع مسلمي العالم فحسب ، بل ومع الثقافة الإسلاميّة العظيمة وملايين الكتب المدوّنة في التأريخ والحديث والتفسير والطبّ والهيئة والفقه والمعارف والفلسفة والعرفان وغيرها ، بذريعة أنّ حروف الكتابة

⇦ والتكايا وتحريم الألقاب الصوفيّة من درويش ومريد وأُستاذ وسيّد وشلبي ونقيب... إلى آخره. وتحريم العرافة والسحر والتنجيم وكتابة التعاويذ والأحجبة ، وتحديد الزيّ الدينيّ وعدم السماح به إلّا لطائفة خاصّة كرئيس الأُمور الدينيّة والأئمّة والخطباء والوعّاظ. ومنع الإسراف في الجهاز والزواج ، فلا ينقل جهاز علانية ولا تقام مآدب عامّة في الأفراح. وسنّ قانوناً مدنيّاً بدل مجلّة الأحكام الشرعيّة حرّم فيه تعدّد الزوجات وخوّل لكلّ من الزوجَين الحقّ برفع قضيّة الطلاق لأسباب معيَّنة ، وتحرير المرأة من حيث سفورها ومساواتها بالرجل سياسيّاً واجتماعيّاً ومدنيّاً . ففتح لها مجال الكسب والتوظّف في الوظائف . واعتبر الزواج شركة تتألّف من جزأين متساويَين ، وشرَّع للمرأة حقّ أن تَنتخِب وتُنتخَب ، وفصل الدين عن الدولة فلم يستخدم في التشريع ولا في الحكم ولا في الإدارة ، وغيّر كتابة اللغة التركيّة من الحروف العربيّة إلى الحروف اللاتينيّة.

ينبغي أن تكون عالميّة ، والخطّ اللاتينيّ هو الخطّ العالميّ في العصر الحاضر ، وينبغي كتابة هذه الكتب بهذا الخطّ للاستفادة منها .

ومن الواضح أنّهم لو أرادوا كتابة تلك الكتب بهذا الخطّ اللاتينيّ ، لاستغرق ذلك منهم أكثر من ألف سنة . وها هي رابطة الجيل الحديث مع تلك الثقافة تنفصم بسرعة مُذهلة ، وسوف لن يوجد ـ بعد انهماك الناس بالكتابة باللاتينيّة ـ شخص يعرف الكتابة بالخطّ العربيّ ، ليعيد كتابة الكتب المؤلّفة إلى العربيّة . يضاف إلى ذلك عشرات ومئات المفاسد العظيمة الأُخرى التي تنجم عن تغيير الخطّ .

وبالنتيجة فإنّ ملايين الكتب القديمة الخطّيّة وغير الخطّيّة ستبقى متروكة في رفوف مكتبات تركيا دون أن يستفيد منها أحد . ويوجد حاليّاً في مكتبات تركيا عدد لا يُحصى من الكتب الخطّيّة الفريدة بخطّ مؤلّفيها أو بخطّ يرجع تأريخ نسخه إلى زمن قريب من زمن تأليفها ، وقد رُقّمت ونُظّمت لها فهارس ، فهي تُعرض في المتاحف والمكتبات باعتبارها آثاراً قوميّة قديمة ، من أجل أن يتفرّج عليها الواردون ، وخصوصاً الأجانب منهم . وباعتبار أنّ تركيا كانت مركزاً للحكم الإسلاميّ لما يقرب من خمسة قرون فإنّ تلك الكتب المجموعة هناك تُعدّ من أفضل وأنفس الذخائر العلميّة .

لاحظوا كيف أنّ الاستعمار القبيح الوقح ذا المنظر الكريه المقرف ، قد دفن هذه الكتب هناك في حقيقة الأمر ! تماماً أشبه بإحراق المكتبات من قبل الإسكندر وجنكيزخان ، كلّ ما في الأمر أنّهم يفعلون ذلك بصورة حديثة ، إذ يحفظون الكتب ويضعونها في مكتبات جميلة ورفوف جديدة ، وينظّمون لها فهارس وتقسيمات . أمّا الاستفادة منها فهي للمستشرقين الذين يطالعونها ويستخرجون علومها ، ثمّ يفتخرون علينا ـ نحن

المسلمين ـ ويتبجّحون علينا بأنّهم أصحاب علم وفنّ جديدَين .

أمّا الشعب التركيّ ، فليس فيهم ـ على امتدادهم وسابقتهم ـ شخص واحد يمكنه قراءة تلك الكتب ، فضلاً عن فهم معانيها ومحتوياتها !

كما أنّ هذا الاستعمار قد قام بتفريغ أذهان الناس ، وغسل أدمغتهم ، فجعلهم بلا أصالة ، ضحلين فارغين فأعدّهم بذلك لاستقبال حضارته بألوانها الخادعة المزيّفة العارية من كلّ حقيقة وواقعيّة .

ولقد حُرِّم ارتداء لباس أهل العلم والعمامة في تركيا ، حتّى للأجانب ، وصار على مَن يضع قدمه على أرض تركيا أن يكون بلا عمامة ، وإلّا عُدّ مجرماً تعتقله الشرطة .

وصار الأتراك من أهالي تركيا عندما يتشرّفون بالسفر إلى مكّة لأداء مناسك الحجّ ، لا يتكلّمون مع غيرهم من المسلمين ، لجهلهم بالعربيّة ، ولا يستطيعون قراءة القرآن وسائر الكتب المدوّنة بالعربيّة . وفي المسجد الحرام ومسجد المدينة المنوّرة ، حيث يحمل جميع المسلمين ـ حتّى الهنود والباكستانيّين ـ نُسَخ القرآن وينهمكون في تلاوته ، لا يُشاهَد في أتراك تركيا مَن يُمكنه قراءة القرآن .

لقد ألغى أتاتورك الدين الرسميّ (الإسلام) ، وقال : إنّ الدولة لا تحمل صبغة معيّنة ! ثمّ إنّه أبدل العطلة الأُسبوعيّة ، فجعلها يوم الأحد بدلاً من يوم الجمعة .

وفي نفس عصر أتاتورك ، جاء الإنجليز برضاخان إلى السلطة في إيران فاقتفى آثار أتاتورك في إلغاء الحجاب والعمامة ، ومنع التكلّم على المنابر ، وحاصر المساجد ، وتقرّر أن تُحوَّل أبواب المساجد من الشوارع الرئيسيّة إلى الأزقّة . وكان تدريس العربيّة يبدأ من الابتدائيّة ، فجعله يبدأ من المرحلة المتوسّطة ، في وضع سخيف ومُهين جدّاً .

وحذف قراءة القرآن في المدارس، وكانوا يدرّسون طلبة الصفوف الخامسة والسادسة فقط آيات مُنتخبة من القرآن الكريم ربّما لا تزيد في مجموعها عن الجزء الواحد.

وكانت تلك الآيات المنتخبة تعدّ زمنَ تصدّي على أصغر حكمت لمنصب وزارة التربية والتعليم، وكانت تُدعى حينذاك بوزارة المعارف، حسب نظر وإقرار محمّد علي فروغي (ذكاء الملك) وهو من الماسونيّين المعروفين، ومن ذيول الغرب وخدمة البهلويّ المخلصين،[1] وكان له سمة الرئاسة على علي أصغر حكمت، وكان رئيساً للوزارء لعدّة دورات حكوميّة.

إنّ الآيات القرآنيّة ليست ممّا ينتخب ويُختار، فهي بأجمعها من قِبَل الله تعالى وينبغي أن تُقرأ، سواء في ذلك آيات الصلاة والصيام، وآيات العدل والإحسان، وآيات الجهاد والقتال، وآيات القصص والأمثال.

ولم يكن في الآيات المنتخبة التي كان فروغي يعدّها آية تتحدّث عن الجهاد والقتال وأمثال ذلك، بل كانت مجموعة من الآيات الأخلاقيّة

١ـ تحدّث إسماعيل رائين في ج ٢، من كتاب «فراموشخانه وفراماسونرى در ايران» (= المَحْفِل الماسونيّ في إيران) ص ٤٣ إلى ٥٤ عن عضويّة فروغي في «جماعة اليقظة الإيرانيّة»، وأورد له صورة في ص ٥٣ بدرجة الأُستاذ الأعظم كما ذكر أنّ له هذه الدرجة في ص ٥٤. وقد ذكرنا في ج ٣، البحث الخامس، من هذا الكتاب، «نور ملكوت القرآن» شرحاً عن «تاريخ زندگانى سياسى أحمد شاه» (= تأريخ الحياة السياسيّة للسلطان أحمد شاه) ص ٢٤٥ و ٢٤٦، الطبعة الثانية، تأليف حسين مكّي، أنّه كُلِّف بمهمّة من قبل البهلويّ، حيث أرسله إلى أُوروبّا ليقابل أحمد شاه ومعه مبلغ مليون ليرة ليشتري منه سلطنته ويجلب منه ورقة باستعفائه. فأجابه أحمد شاه: لستُ مستعدّاً للمقايضة مقابل ألف ضعف من هذا المبلغ. فاذهب وقُل لأسيادك: لقد توهّمتم باطلاً!

التي يتساوى في قبول مضمونها المسلم والكافر .

وقد أمر فروغي بوضع كرسي ومنضدة في مسجد مجد الدولة وبعض المساجد الأُخرى في طهران ، وكانوا يقيمون مجالس التأبين فيها ، وكان المشاركون يجلسون على الكرسيّ مادّين أرجلهم فيتلون القرآن . وكان ذلك ممّا لم يسبق نظيره من مسلم ، إذ لم يكن فيهم أحد يمدّ رجليه عند قراءة القرآن ، ولم يكن فيهم أحد يضع منضدة وكرسيّاً في الجزء المسقّف من المسجد .

وكان في نيّة فروغي أن يقوم بتلخيص القرآن ، فيحذف منه الآيات المكرّرة وشبه المكرّرة ، إلّا أن الله سبحانه لم يمهله ، وفاجأه سهم الغيب .

ومع دخول الجيشين الروسيّ والإنجليزيّ إلى إيران ، فقد حزم رضاخان حقائبه ـ حسب اقتراح فروغي الذي كان يشغل حينذاك منصب رئيس الوزراء ـ وفرّ إلى إصفهان ، ومنها إلى بندر عبّاس ، حيث صعد على ظهر سفينة إنجليزيّة واتّجه صوب جزيرة **موريس** بعد أن توقّف في بعض الأماكن . ولم يمهله الأجل هناك طويلاً . وقد تغيّرت الأوضاع الدينيّة في إيران عموماً ، فلم يستطع أعداء الإسلام الألدّاء من أمثال فروغي تنفيذ مقاصدهم الخبيثة . وقد احتلّ فروغي زمن حكم الإنجليز في إيران إلى نهاية الحرب منصب رئيس الوزراء في حكومة محمّد رضا ابن الشاه الهارب ، وقد أنعم على محمّد رضا أسياده بلقب «آريامهر» .

وقد راج من جديد في المدارس تدريس القرآن ، وعمرت المساجد ، وعاد الوعّاظ وأصحاب المنابر إلى إلقاء الخطب والمواعظ . وعادت العمامة على الرؤوس وأُلغي أمر منعها . وبمواجهة آية الله العظمى المرحوم الحاج **آقا حسين القمّيّ** وحركته من النجف وكربلاء إلى طهران ، وإعلانه الحرب على الشاه ودولته من أجل إعطاء الحرّيّة للشعب ، وإعطاء

الحرّيّة للنساء في أمر الحجاب، وإلغاء المدارس المختلطة، وتدريس القرآن والأُمور الشرعيّة، فقد تراجعت ـ ولله الحمد والمنّة ـ الدولة ولم يمكنها المواجهة، فتعهّدت بقبول اقتراحاته الخمسة، فأُلغي أمر منع الحجاب، وعاد الدين والتديّن ـ إلى حدٍّ ما ـ إلى حالهما السابق في مستوى متوسط.[1]

١ـ كان آية الله الحاج آقا حسين القمّيّ الطباطبائيّ في مشهد المقدّسة حين أُلغي الحجاب، فعاد إلى طهران لمقابلة البهلويّ فلم يأذن له، ثمّ إنّه وضع في حديقة «سراج» قرب الشاه عبدالعظيم الحسنيّ (في مدينة الريّ)، دون أن يأذنوا لأحد بمقابلته. ثمّ أُبعد إلى العتبات المقدّسة.

يقول المرحوم الأُستاذ آية الله الحاجّ الشيخ مرتضى الحائريّ أعلى الله مقامه: وقد سئل آية الله القمّيّ بعد ذلك: ماذا رميتم من مقابلة البهلويّ؟ قال: «أردتُ أن أعظه أوّلاً، فإن اتّعظ فبها، وإلّا فقد كنت قد اصطحبت معي قرآناً، وقرّرت أن أُقسم عليه بالقرآن في المرحلة الثانية، فإن لم يتراجع، فإنّي كنت أنهض فأقفز نحوه فأمسك عنقه بيديّ وأخنقه حتّى يموت». فمرحباً بهذه الهمّة وهذه الغيرة!

ومرّت سنوات طوال على إلغاء حجاب النساء وتعريتهنّ (ما يقارب خمس سنوات، منذ ١٣١٤ إلى سنة ١٣١٨ هـ. ش)، وكانت النساء والفتيات الإيرانيّات العفيفات سجينات في بيوتهنّ لا يخرجن منها، ثمّ فرّ البهلويّ في الحرب، ودخلت قوّات الحلفاء إلى إيران، وصار ابن البهلويّ (محمّد رضا) ملكاً لإيران، فعاد آية الله القمّيّ من العتبات المقدّسة إلى طهران لرفع الحظر عن حجاب النساء، فأَمَّ الناس في صلاتهم ثلاث ليالٍ في مسجد الشاه السابق (مسجد آية الله الخمينيّ فعلاً)، وكان أئمّة الجماعة في طهران قد التحقوا به في الصلاة احتراماً لمقدمه. وقد التحق الحقير به في الليلة الثالثة في ذلك المسجد، فاتّخذت مكاناً في الصفوف الأُولى. وكان ازدحام الناس من الشدّة بحيث إنّ سطوح المسجد كانت تغصّ بالناس. وبعد الصلاة ارتقى المنبر واعظ طهران الشهير حينذاك، وهو العالم المتّقي الحاجّ عبدالله الصبوحيّ الطهرانيّ، فوقف على ذروة المنبر وخلع عباءته وعمامته وشمّر عن ساعديه وقرأ هذه الآية: **رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا** إلى آخر الآية. ثمّ تحدّث مفصّلاً عن حال رسول الله وتحمّله الأذى من قريش في مكّة، وهجرته ⇦

ولقد شهدنا عياناً تحقّق وعد الله تعالى الذي ضمن حفظ القرآن ، في قوله تعالى :

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ .[1]

وشاهدنا تحقّقه مرّة أُخرى في هذه الثورة العظيمة التي انتفض فيها الشعب الإيرانيّ المسلم بأسره ، فانهارت تلك الأباطيل ، وانفضّت تلك المجالس ، فهرب محمّد رضا كأبيه ، وانحشر داعية «بوّابة الحضارة الكبير» في ثقب من ثقوبها ، فحمل الشاه حقيبته بيده فارّاً من مكان إلى آخر ، حتّى لفظ أنفاسه في مصر بعد مدّة قصيرة ، وفي قلبه جبال من الحسرة والأمانيّ الخائبة ، من نيابة كورش وسلطنة ألفي وخمسمائة عام . وتجلّت آيات الله المعجزة ، الواحدة بعد الأُخرى ، أمام أعين هذا الشعب المظلوم النجيب .

وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن

⇦ إلى المدينة مُجبراً ، ثمّ عن انتصار الإسلام في المدينة وتحرّك رسول الله إلى مكّة لفتحها يصحبه عشرة آلاف مقاتل . ولا تزال خُطبته العجيبة وصرخاته من على المنبر ترنّ في أُذني إلى اليوم. ثمّ إنّه تحدّث عن حال آية الله القمّيّ وحال رسول الله ، فشبّه بين حال القمّيّ وإبعاده وعودته ظافراً بحال رسول الله وهجرته وفتح مكّة . ثمّ قال : لقد جاء هذا السيّد حفيد رسول الله من كربلاء ليرجو الشاه أن يقرّ هذه الموادّ الخمس ويتعهّد بتطبيقها . ثمّ بادر إلى القول: لقد أخطأتُ . لقد أخطأت في كلامي . لقد قَدِم هذا السيّد ليأمر الشاه بإمضاء هذه الموادّ: حرّيّة ارتداء الحجاب ، وبناء قبور أئمّة البقيع ، وإزالة المدارس المختلطة، وتدريس الأُمور الشرعيّة في المدارس ، وتوفير الطعام والغذاء للشعب . فإن وافق الشاه على الفور فبِهَا، وإلّا فإنّكم سترون غداً أنّنا سنجعل من عماماتنا أعلاماً ورايات فنسير خلف هذا السيّد للجهاد حتّى تُراق دماؤنا ، فهذا السيّد لا أُمنية له غير الجهاد والشهادة . والقصّة مفصّلة، ونذكرها باختصار ، ولقد أُجبر الشاه على إمضاء الموادّ الخمس والموافقة عليها.

١ـ الآية ٩ ، من السورة ١٥ : الحجر .

دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ.[1]

وفي عاتق أساتذة ومعلّمي المدارس الملتزمين أن يبذلوا قصارى جهدهم في تعليم القرآن والأدب العربيّ ، وأن يحذفوا الكلمات الفارسيّة لـ «زند» و«أوستا» من الكتب ، ويستعملون بدلاً منها الكلمات العربيّة الفصيحة المليحة . وإذا لوحظ في المراكز العليا أحداً ممّن يدافع بشدّة واستماتة عن الأدب الزرادشتيّ ، فعليهم أن يقيلوه من منصبه على الفور ، فهذا الأمر من مهام الثورة الإسلاميّة الأصيلة ؛ وبغير ذلك فإنّ الثورة ستتحوّل إلى ثورة إقليميّة محدودة وتبتعد عن الإسلام والعربيّة .

إنّ هدف الاستعمار وأُمنيّته هي أن يسير العربيّ تبعاً لقوميّته وينادي بعروبته ؛ وأن يتابع الإيرانيّ مسيرة أجداده وأسلافه وإحياء سنّته القوميّة .

إنّنا لا نرتبط بالعرب لعروبتهم ، وإنّما نرتبط بهم لأجل الإسلام ولأجل القرآن .

این همه آوازه‌ها از شه بود گر چه از حلقوم عبدالله بود[2]

إنّ القرآن هو المعجزة ، إذ لم يستطع ولا يستطيع أحد أن يأتي

١ـ ذيل الآية ٣١ ، من السورة ١٣ : الرعد .

ولقد أرادوا في إيران ، ولمرّات عديدة ، أن يستبدلوا الحروف بمثيلاتها اللاتينيّة. وكان سعيد النفيسيّ ، وهو من أساتذة الجامعة ممّن ينحدر من أصل يهوديّ ، يصرّ على هذا الأمر. إلّا أنّ مباحثات بعض أصحاب الاطّلاع المنصفين ، وبخاصّة السيّد محمّد محيط الطباطبائيّ قد سبّبت في إدانته وإحباط مساعيه . كما حصلت محاولة استبدال العطلة الأُسبوعيّة في يوم الجمعة بيوم الأحد ، لكنّ سعيهم هذا ـ وكثير آخر من مساعيهم ـ قد تبدّدت أدراج الرياح بسبب عاصفة الثورة الإسلاميّة.

٢ـ يقول : «لقد كانت هذه الأغاني بأجمعها أغاني الشاه ، ولو انبعثت من حُلقوم عبدالله» .

بمثله .

إنّ القرآن هو الذي يمتلك توحيداً ومعارفَ وأخلاقاً وأحكاماً حيّة معجزة ، ناهيك عن فصاحته وبلاغته .

يقول مؤلف كتاب «راه سعادت» (= طريق السعادة) :

«يقول بعض الأُوروبّيين ممّن تعلّم العربيّة وطالع الكتب العربيّة : إنّ بعض الكتب العربيّة ، مثل «مقامات» الحريريّ وبديع الزمان الهمدانيّ تماثل القرآن في عباراته ، بل هي أفضل منه .

و**نُجيب قائلين** إنّ أُولئك الأُوروبّيين لم يكونوا مطّلعين على العربيّة ، ولم يكونوا يدركون معنى الفصاحة والبلاغة ، لأنّ البلاغة لاتعني في لغتهم ما تعنيه في العربيّة والفارسيّة . وكانوا لايفهمون الخصائص الذوقيّة ، حتّى أنّهم لم يكونوا يميّزون الوزن والقافية ، فينظمون شعراً غير موزون . ثمّ إنّ الحريريّ وبديع الزمان لم يدّعيا معارضة القرآن ومماثلته . بل إنّ كثيراً من فصحاء العرب الذين يقرّ الحريريّ بأفضليّتهم ، من أمثال **سَحْبان بن وائل** ، **وابن نُباتة** ، **والحجّاج بن يوسف** ، وأفضل منهم جميعاً :

أمير المؤمنين عليه السلام صاحب «نهج البلاغة» لم يدّعِ أحد منهم مماثلة كلامه للقرآن .

وتحتوي «مقامات» الحريريّ وبديع الزمان عدّة قصص على لسان شحّاذ كان ينتزع أموال الناس بلطائف الحيل .

فقد جاء **أبو زيد** ـ شحّاذ قصّة الحريريّ ـ إلى طائفة من الناس فقال لهم :

إنّ هناك بطلاً صنديداً كان يفتح القلاع ويُريق الدماء ويشترك في الحروب قد توفّي ، ولا كفن له ، فأريد منكم مالاً لأجهّزه به . فأعطوه شيئاً من المال . ثمّ إنّ أحدهم تبعه ليطّلع على سرّه ، ثمّ أمسك بتلابيبه بعد أن

سارا مسافة وقال له : أين الميّت الذي أخبرتنا عنه ؟!

فَكَشَفَ عَنْ سَرَاوِيلِهِ وَأَشَارَ إِلَى غُرْمُولِهِ. [١]

ولبديع الزمان حكايات مخجلة أسوأ من هذه ، نُعرض عن ذكرها. [٢]

١ـ يقول في «أقرب الموارد» : **غرمل** ، الغَراميل : الهضاب الحمر . وقال : الهضبة: الجبل المنبسط على وجه الأرض . وقيل : كلّ جبل خُلق من صخرة واحدة . وقيل : الطويل الممتنع المنفرد ؛ ولا يكون إلّا في حُمر الجبال ، أو دون المرتفع من الجبال ، أو ما ارتفع من الأرض ـ انتهى.

٢ـ إنّ الشيخ سعدي الذي يعتبر القمّة في الأدب ، والذي يُدعى أفصح المتكلّمين، له مطالب مبتذلة في ديوانه «گلستان» تحطّ من أوج بلاغته . ولقد درّس الحقير عدّة دورات من ديوان «گلستان» إلى أولادي في المنزل لتقوية إنشائهم ولتنمية قابليّتهم في الأدب الفارسيّ ، وكانت بعض الحكايات في باب الضعف والهرم وفي باب العشق والشباب مُخجلة إلى الحدّ الذي كنت معه أصرف النظر عن تدريسها ، فأتخطّاها إلى غيرها . وكان هؤلاء الأطفال الأبرياء يتحيّرون ويسألون : لماذا لا ندرس هذه الصفحات ؟!

أما «ديوان حافظ» فجميع أرجائه عشق وتجلٍّ وشهود وعرفان ، وتعبيرات مختلفة عن طريق السلوك إلى الله تعالى . وجميعه درس وطريقة للعمل والسلوك في لباس الشعر والتشبيه والتمثيل ؛ وبيان للمعارف العالية في لباس المجاز ، من باب تشبيه المعقول بالمحسوس. جزاه الله عن السالكين إلى الله خير جزاء السالكين ، وعن المشتاقين إلى لقائه والفناء في حرمه خيرَ جزاء المعلّمين.

ولقد كان المرحوم آية الله الحاجّ الميرزا علي آقاي القاضي رضوان الله عليه، وهو أُستاذ آية الحقّ والعرفان الحاجّ السيّد محمّد حسين العلّامة الطباطبائيّ قدّس الله نفسه القُدسيّة يقول : ليس في أشعار سعدي رائحة للعرفان ، وهي بأجمعها **مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ** ، عدا قصيدة واحدة وإثنان أو ثلاثة أشعار غزليّة . ومن بينها هذه الأبيات:

به جهان خرّم از آنم كه جهان خرم ازوست
عاشقم بر همه عالم كه همه عالم ازوست
زخم خونينم اگر به نشود به باشد
خنك آن زخم كه هر لحظه مرا مرهم ازوست ⇦

فكيف تقاس بقوله تعالى :

وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ . [1]

وينبغي قياس كلامَين في بلاغتهما إذا تحدّثنا عن مرامٍ واحد ، فكان أحدهما أفضل من الآخر ، لا إذا تحدّثا عن مرامين مختلفين» . [2]

إنّ القرآن لاينبغي تعلّمه من فلان الإفرنجيّ ، ولا من **گُورويج** اليهوديّ ولا من **ماسينيون** . فذلك القرآن هو شيطان يقرأ على الإنسان وينفث ، فيُسقط الإنسان في هوّة عميقة سحيقة .

انصتوا إلى خطبة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب التي تبعث فيكم النشاط والبهجة ، ليخطب بكم قائلاً :

وَإِنَّ اللَهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَعِظْ أَحَداً بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ . فَإنَّهُ حَبْلُ اللَهِ المَتِينُ وَسَبَبُهُ الأَمِينُ ، وَفِيهِ رَبِيعُ القُلُوبِ وَيَنَابِيعُ العِلْمِ . وَمَا لِلْقَلْبِ جَلَاءٌ غَيْرُهُ مَعَ أَنَّهُ قَدْ ذَهَبَ المُتَذَكِّرُونَ وَبَقِيَ النَّاسُونَ وَالمُتَنَاسُونَ .

فَإذَا رَأَيْتُمْ خَيْراً فَأَعِينُوا عَلَيْهِ ؛ وَإذَا رَأَيْتُمْ شَرّاً فَاذْهَبُوا عَنْهُ ، فَإنَّ رَسُولَ اللَهِ صَلَّى اللَهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَانَ يَقُولُ : يَابْنَ آدَمَ ! اعْمَلِ الخَيْرَ وَدَعِ الشَّرَّ ؛ فَإذَا أَنْتَ جَوَادٌ قَاصِدٌ . [3]

⇦ يقول : «أنا سعيد بالعالَم ، لأنّ العالَم سعيدٌ به ، وأنا عاشق لجميع العالَم ، لأنّ جميع العالَم منه .

وإن لم يَشْفَ جرحي الدامي فلا ضيْر ؛ إذ هنيئاً للجُرح الذي يضع له الحبيب مرهماً كلّ لحظة» .

١ـ الآيات ١ إلى ٣ ، من السورة ٥٣ : النجم .

٢ـ «راه سعادت» لآية الله الشعرانيّ ، ص ١٩٦ و١٩٧ ، الطبعة الأُولى .

٣ـ «نهج البلاغة» الخطبة ١٧٤ ؛ وفي طبعة مصر مع تعليق الشيخ محمّد عبده؛ ⇦

قال لي المرحوم الشهيد المطهّريّ رضوان الله عليه يوماً: كان المرحوم راشد يقول: يكفي في مقام عظمة وإتقان كتاب «مثنوي» أنّه يعدّ رصيداً ودعامة للقرآن! (أي أنّ مطالب كتاب «مثنوي» أشبه ببحر عظيم من الحياة بحيث يحفظ حقائق القرآن ويصونها).

فقلت له: لقد أخطأ راشد في كلامه هذا. إنّ القرآن هو الرصيد لـ «مثنوي» ولأمثال المثنوي، وهو الذي يمنحها الحياة والقدرة والخلود.

فقال على الفور: نعم، الأمر هكذا. إنّ القرآن هو مُحيي كتاب «المثنوي».

أَفِيضُوا فِي ذِكْرِ اللَهِ فَإنَّهُ أَحْسَنُ الذِّكْرِ. وَارْغَبُوا فِيمَا وَعَدَ المُتَّقِينَ فَإنَّ وَعْدَهُ أَصْدَقُ الوَعْدِ. وَاقْتَدُوا بِهَدْيِ نَبِيِّكُمْ فَإنَّهُ أَفْضَلُ الهَدْيِ. وَاسْتَنُّوا بِسُنَّتِهِ فَإنَهَا أَهْدَى السُّنَنِ.

وَتَعَلَّمُوا القُرْآنَ فَإنَّهُ أَحْسَنُ الحَدِيثِ. وَتَفَقَّهُوا فِيهِ فَإنَّهُ رَبِيعُ القُلُوبِ. وَاسْتَشْفُوا بِنُورِهِ فَإنَّهُ شِفَاءٌ لِلصُّدُورِ. وَأَحْسِنُوا تِلَاوَتَهُ فَإنَّهُ أَحْسَنُ القَصَصِ.

فَإنَّ العَالِمَ العَامِلَ بِغَيْرِ عِلْمِهِ كَالجَاهِلِ الحَائِرِ الَّذِي لَا يَسْتَفِيقُ مِنْ جَهْلِهِ؛ بَلِ الحُجَّةُ عَلَيْهِ أَعْظَمُ، وَالحَسْرَةُ لَهُ أَلْزَمُ، وَهُوَ عِنْدَ اللهِ أَلْوَمُ.[1]

⇦ ج ١، ص ٣٣٠.

١ـ «نهج البلاغة» الخطبة ١٠٨؛ وفي طبعة مصر مع تعليق عبده: ج ١، ص ٢١٦.

البحث العاشر

عظمة القرآن الكريم وأصالته

وتفسير آية

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾

أعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجِيمِ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم

وصلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ وآلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ

ولَعْنَةُ اللهِ عَلَى أعْدائِهِمْ أجْمَعِينَ مِنَ الآنَ إلِى قِيامِ يَوْمِ الدِّينِ

ولاَ حَولَ ولاَ قُوَّةَ إلَّا بِاللهِ العَلِيِّ العَظِيمِ

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ.[1]

من أجل التوصّل إلى معنى هذه الآية نجد أنفسنا مجبرين على ذكر جميع الآيات الحافّة بها :

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * بَلْ مَتَّعْتُ هَـٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ * وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ (أي القرآن الكريم) **قَالُوا هَـٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَـٰفِرُونَ * وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ * وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ**

١ـ الآية ٣١، من السورة ٤٣ : الزخرف .

أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ * وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ. [1]

يذكر الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات توحيد إبراهيم الخليل عليه السلام ، وأنّه جعل ذلك التوحيد في ذرّيّته وعقبه ، فلم يولوه احتراماً ودنّسوه بالشرك ، حتّى أنزل الله تعالى قرآنه على رسوله الكريم فعدّوه سحراً وكفروا به ، وكانوا ينتظرون أن ينزل القرآن على رجل من ذوي الشوكة والمَنَعة والجاه والثروة ، ممّن لهم الصدارة والعظمة في الأُمور الدنيويّة التي تستحوذ على الأنتباه .

فيقول في الآية الأُولى : واذكر يا نبيّنا إبراهيمَ إذ تبرّأ من عبادة الآلهة المتعدّدة ، وقال لأبيه وقومه بأنّه بريء ممّا يعبدون إلّا المعبود الذي أوجده وأنعم عليه بالوجود والفطرة ، لأنّ ممّا يجدر بالإنسان أن يوكل أُموره إلى الربّ الذي خلقه وأوجده من كتم العدم ، وأن يلقي برحال فاقته وحاجاته في فناء ذلك الخالق ، وأن يخضع له ويتواضع أمام ساحته ، إذ هناك تلازماً في العبادة بين خِلقة الخالق والمخلوق ، حيث إنّ الارتباط بينهما يستدعي عبادة المخلوق للخالق وإيكاله أُموره الولائيّة إلى خالقه .

ومثل هذا الخالق المالك لمقام الولاية والمعبوديّة إثر الخلقة ، سيهدي هذا العبد إلى الكمال المطلق وإلى الذروة العليا من القابليّة ، وهي مقام القُرب المطلق والوحدة المطلقة . وليس أمر الهداية منفصلاً عن الولاية والخلقة ، فالله فاطر الأُمور وخالقها سيرعى العبد ويرسّخ أقدامه في عبادته وتواضعه وخضوعه ، وهو الذي ـ بتأثير هذا الأمر ـ سيهدي العبد إلى الكمال ، وهو الذي كان أساس الخلقة بيده ، وهو الهادي في التربية

١ـ الآيات ٢٦ إلى ٣٥ ، من السورة ٤٣ : الزخرف .

والحركة إلى الفعليّة التامّة . الله سبحانه هو الخالق ، وهو المربّي في مسيرة التربية وظهور القابليّات .

ولقد جعل الله تعالى هذه البراءة من الآلهة التي تُعْبَد دون الله تعالى ، كلمةً باقيةً في ذرّيّة إبراهيم وعقبه إلى يوم القيامة ، على أمل أن ينزعوا إلى التوحيد وإلى البراءة من غير الله المنّان .

بَيدَ أنّ هناك أفراداً معدودين في كلّ عصر وزمان استفادوا من كلمة التوحيد **لَا إلَهَ إلَّا اللَهُ** ، ورسّخوا هذه البراءة من الآلهة المعبودة دون الله ، في صُقع نفوسهم وقلوبهم وأسرارهم ؛ أمّا الآخرون فتخلّفوا عن هذه المسيرة .

والبراءة من الآلهة ـ سوى الله تعالى ـ هي بذاتها معنى ومفهوم كلمة التوحيد **لَا إلَهَ إلَّا اللَهُ** ، لأنّ معنى **لَا إلَهَ إلَّا اللَهُ** هو نفي كلّ معبود سوى الله تعالى ، وليس نفياً لوجود الآلهة المعبودة ، وإثباتاً لوجود الله تعالى ، فذلك أشبه بقول بعض الدراويش الذين يقولون بأنّ هذه العبارة مؤلّفة من نفي وإثبات ؛ ففقرة **لَا إلَهَ** هي إثبات لحقيقة وجود الله سبحانه ؛ وهو استدلال غير تامّ ، لأنّ لفظ الجلالة **الله** كان ينبغي حينئذٍ أن يكون منصوباً ليفيد الاستثناء .

بَيدَ أنّ لفظ الجلالة ورد مرفوعاً ، وهو لذلك بدل من محلّ اسم **لَا** المرفوع . أي ليس من إله سوى الله تعالى . وليس من آلهة ولا معبود سوى **الله** سبحانه .

والبدل من حالات المُبْدَل منه التي تطرأ عليه ، أي ليس من إله له صفة كونه غير **الله** . حيث إنّ لفظ **إلَّا** في العبارة بمعنى **غَيْر** ، وعلامة رفع محلّه قد ظهرت في نفس المُستثنى وهو **الله** .

وقد قال النحويّون : عند الاستثناء بـ «غير» ، تكتسب لفظة «غير»

إعراب البدليّة ، أمّا عند الاستثناء بـ «إلّا» فإنّ ما يلي «إلّا» سيكتسب ذلك الإعراب . فنقول : **لَا إِلَهَ غَيْرُ اللَهِ ولَا إِلَهَ إِلَّا اللَهُ** ، حيث رُفع لفظ «غير» في الجملة الأُولى على البدليّة ، ورُفع لفظ الجلالة **الله** في الجملة الثانية على البدليّة . وفي كلا الحالتين جرى حذف خبر **لَا إِلَهَ** وهو «مَوجودٌ» .

وتبعاً لذلك فإنّ عبارة **لَا إِلَهَ إِلَّا اللَهُ** ليست لإثبات الله ، بل هي لنفي الآلهة والأرباب غيره ، لذا صارت تُدعى كلمة التوحيد .

أجل ، فإنّ الله تعالى جعل هذه البراءة من الآلهة من غير الله تعالى في عقب إبراهيم من قريش وسكنة مكّة والحجاز ، عسى أن يلتفتوا إلى التوحيد ، لكنّهم مع ذلك أعرضوا ولم يقبلوا بالتوحيد . ولقد متّع الله تعالى كفّار قريش وآباءهم بالنعم الدنيويّة حتّى جاءهم رسولٌ مُبين منه ـ وكان أيضاً من ذرّيّة إبراهيم ، وممّن ترسّخت في نفسه المقدّسة كلمة التوحيد والبراءة السالفي الذكر ـ فجاءهم بالحقّ وهو القرآن الكريم .

ولمّا واجه كفّار قريش القرآن ، أنكروه وقالوا : إنّه سحر ، وإنّا لا نؤمن به . وقالوا هازئين : ألم يكن في الحجاز ومكّة والطائف أفقر من محمّد وأقلّ بضاعة وجاهاً واعتباراً ، ليجعله الله رسوله ويرسل قرآنه بواسطته ؟!

لِمَ لم ينزل القرآن على أحد الرجلَين العظيمَين في مكّة والطائف ، اللذين يتمتعان بالجاه والثروة والاعتبار ؟!

أورد الطبرسيّ في «مجمع البيان» : «ويعنون بالرجل العظيم من إحدى القريتَين **الوليد بن المغيرة** من مكّة ، **وأبا مسعود عروة بن مسعود الثقفيّ** من الطائف ، عن قتادة .

وقيل : **عُتبة بن أبي ربيعة** من مكّة ، **وابن عبد ياليل** من الطائف ، عن مجاهد ، وقيل : **الوليد بن المغيرة** من مكّة ، **وحبيب بن عمر الثقفيّ** من

الطائف ، عن ابن عبّاس» انتهى .

وقال سماحة الأُستاذ العلاّمة آية الله الطباطبائيّ قدّس الله سرّه : «والحقّ أنّ ذلك من تطبيق المفسِّرين ، وإنّما قالوا ما قالوا على الإبهام وأرادوا أحد هؤلاء من عظماء القريتَين على ما هو ظاهر الآية» .[1]

ثمّ إنّ الله تعالى يقول بعد البيان السابق بأنّ تقسيم الخير والرحمة ونزول القرآن واختيار النبيّ هي من قِبل الله تعالى ، وليس لغيره تصرّف في هذا الأمر أبداً . نحن قسّمنا بينهم معايشهم وحياتهم المؤقّتة في الحياة الدنيا ، ونحن جعلنا الأفراد في درجات ومراتب مختلفة ، ليخضع بعضهم لبعض ، وليسخّر بعضهم بعضاً ، لتأمين احتياجات عامّة الناس .

فكيف يتدخّل هؤلاء الكفّار العاجزون عن تأمين معاشهم ومستلزمات حياتهم المؤقّتة في أمر النبوّة فيقسّمونها ويضعونها بين أيدي المستكبرين والأنانيّين والأثرياء في مكّة والطائف ؟

إنّ رحمة الله تعالى التي هي تقبّل نبوّة الرسول وولايته الإلهيّة والقبول بالحقّ ـ وهو القرآن الكريم ـ هي أفضل وأجمل من هذه الأموال والاعتبارات التي يجمعها هؤلاء في دنياهم .

فهذه الأموال والزخارف ، وهذه الاعتبارات والتعيّنات ، لا قيمة لها عندنا ، وإن علت أبواقها وأصواتها . فنحن لا نُلقي بالاً إلى هذه الضجّة الفارغة ، ولهذه الأوامر والنواهي ، ولهذه الثروات الطافحة والحطام الزخّار .

إنّ المؤمنين لا يسعون إلى كسب المال ؛ وهدفهم ومقصودهم يتلخّصان في المعنى والأُمور المعنويّة وكسب الفضائل ، لا اكتناز الذهب .

١ـ «الميزان في تفسير القرآن» ج ١٨ ، ص ١٠٢ .

ولو طلبوا منّا شيئاً من هذا القبيل لأعطيناهم منه كما نعطي الكفّار وعبدة الدنيا الذين يطلبون الدنيا، فنحن نُغدق عليهم الأموال والجاه.

ولولا سُنّة الأسباب والعلل والمعلولات؛ ولو كان قَدَرُنا أنّ كسب المال والاعتبار يحصل دون مشقّة وجُهد، لرأيتم كيف سنُغدق الأموال على الكافرين بالله تعالى، الذين يسعون إلى جمع الذهب والفضّة واكتساب الدنيا العريضة، بحيث يصنعون لبيوتهم سقوفاً من الفضّة، وسلالم من فضّة يرقون عليها فيعلون تلك السقوف، ولجعلنا لبيوتهم أبواباً من فضّة، وأسرّة من فضّة يتّكؤون عليها. ولزيّنّا بيوتهم بالذهب والزخارف والمجوهرات. ولكن ما الفائدة؟ فهذه المتع والمنافع مؤقّتة، وهذه الحياة حياة وضيعة لا قيمة لها. أمّا فِناء الدار الآخرة فأبديٌّ خالد، إذ الأصالة والحقيقة منحصرة فيه، وهي الدار التي يختارها المتّقون.

ولقد كتب **غوستاف لوبون وجرجي زيدان** المسيحيّ في تأريخ الحضارة الإسلاميّة، وامتدحا عظمتها بلحاظ الحضارة الظاهريّة والفتوحات والأبنية والعمارات العالية والقصور المشيّدة والأسواق المرتفعة وأمثال ذلك، وكان ذلك هو منظار العظمة لديهما. أمّا الإسلام وحقائقه، وأصل العرفان ومعارفه، وتربية النفوس الزكيّة والارتقاء بمستوى الإيمان والإيقان بالله الأحد لدى عامّة البشريّة، فهي أُمور تفوق سابقتها وتعلوها في الفضيلة.

فقد كانت تلك أُمور ذات أهمّيّة في نظر أهل الدنيا، كالكفّار الذين تصوّروا أنّ أهمّيّة النبيّ تكمن في ثروته وتعيّناته الدنيويّة، فكانوا يبحثون عن رسولٍ بهذه المواصفات. ولقد أفهمهم الله تعالى بأنّ الأصالة والشرف ليست في المال والجاه الخارجَين عن الإنسان، بل الفضيلة والشرف ينبغي أن ينبعا من داخل الإنسان.

ولو اتّصفت النفس البشريّة بصفة الكمال ، لفاقت الزبرجد والألماس ؛ وإلّا ، فإنّه لو زُيّن بجميع ما في العالم من زينة ، وحُلّيَ بأنواع الجواهر المرصّعة ، لما زاد ذلك في الإنسان شيئاً .

يقول المرحوم العارف الشهير **الميرفِندرسكيّ** :

هر چه بيرون است از ذاتت نيايد سودمند

خويش را كن ساز اگر امروز اگر فرداستى [١]

إنّ شرف الإنسان هو علمُه . ولقد رفع القرآن مستوى علم البشر ، فنشأت جميع العلوم ووسائل المدنيّة من علم القرآن . لذا يمكن القول حقّاً بأنّ القرآن الكريم هو الكتاب السماويّ الأوحد الذي أمكنه أن يستنقذ الإنسان من مهاوي الجهل العميقة ، ويسمو بمقام الإنسان عن البهيميّة والسبُعيّة . أفوجد حتّى الآن مُدّعٍ ـ حتّى من مُنكري القرآن ـ يمكنه أن يعرّف لنا كتاباً آخر غير القرآن ؟!

من هنا ، يمكن أن يُستفاد بجلاء بأنّ ميزان الأعلميّة في الإسلام هو الأعلميّة بالقرآن الكريم . فمَن فاق الآخرين في العلم بالقرآن وعلومه ، من التوحيد والعرفان ، ومعارف المبدأ والمعاد ، والتأريخ والقضايا الواردة في القرآن ، والعقائد والأحكام النازلة في القرآن ، كان هو أعلم الأُمّة ؛ لا مَن يفوقهم في علمَي الفقه وأُصول الفقه ، إن لم يكن في سائر علوم القرآن في حدّ أكمل وأتمّ ، لأنّ علم الفقه هو فرع من الفروع الدُنيا لعلوم القرآن ، ناهيك عن علم أُصول الفقه . ونستدلّ على هذا الأمر ـ فضلاً عن سيرة رسول الله والأئمّة الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين ـ من دليلَين نقليّين :

١ـ يقول : «إنّ كلّ ما هو خارج ذاتك لاينفعك ؛ فشمِّر لبناء ذاتك إن اليومَ أو غداً!».

الأوّل : أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أمر بعد غزوة أُحد أن يُقدَّم إلى القِبلة الشهيد الذي كان يُتقن القرآن أفضل من غيره ، فيُدفن قرب القِبلة . يقول ابن الأثير في «الكامل في التاريخ» :[1]

أَمَرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ [وَآلِهِ] وَسَلَّمَ أَنْ يُدْفَنَ الاثْنَانِ وَالثَّلَاثَةُ فِي القَبْرِ الوَاحِدِ ؛ وَأَنْ يُقَدَّمَ إلَى القِبْلَةِ أَكْثَرُهُمْ قُرْآنًا ، وَصَلَّى عَلَيْهِمْ.

والثاني : أنّ أبا نعيم يروي في «حلية الأولياء»[2] بسنده المتّصل عن عاصم بن ضمرة ، قال : قال عليّ [ابن أبي طالب عليه السلام] :

أَلَا إنَّ الفَقِيهَ كُلَّ الفَقِيهِ : الَّذِي لَا يُقَنِّطُ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَهِ ، وَلَا يُؤْمِنُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ ، وَلَا يُرَخِّصُ لَهُمْ فِي مَعَاصِي اللهِ ، وَلَا يَدَعُ القُرْآنَ رَغْبَةً عَنْهُ إلَى غَيْرِهِ . وَلَا خَيْرَ فِي عِبَادَةٍ لَا عِلْمَ فِيهَا ، وَلَا خَيْرَ فِي عِلْمٍ لَا فَهْمَ فِيهِ ، وَلَا خَيْرَ فِي قِرَاءَةٍ لَا تَدَبُّرَ فِيهَا.

ومن طريق الخاصّة ، روى محمّد بن يعقوب الكلينيّ في «أُصول الكافي» [3] بسند صحيح عن عدّة من الأصحاب ، عن أحمد بن محمّد البرقيّ ، عن إسماعيل بن مهران ، عن أبي سعيد القَمّاط ، عن الحلبيّ ، عن أبي عبد الله عليه السلام ، قال :

قال أمير المؤمنين عليه السلام :

أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالفَقِيهِ حَقِّ الفَقِيهِ ؟ مَنْ لَمْ يُقَنِّطِ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَهِ ، وَلَمْ يُؤْمِنْهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ ، وَلَمْ يُرَخِّصْ لَهُمْ فِي مَعَاصِي اللهِ ، وَلَمْ يَتْرُكِ

١ـ «الكامل في التاريخ» ج ٢ ، ص ١٦٢ و١٦٣ ، طبعة بيروت ، دار صادر.

٢ـ «حلية الأولياء» ج ١ ، ص ٧٧ ، طبعة مصر ، مطبعة السعادة.

٣ـ «أُصول الكافي» ج ١ ، ص ٣٦ ، كتاب فضل العلم ، باب صفة العلماء ؛ طبعة المطبعة الحيدريّة.

القُرْآنَ رَغْبَةً عَنْهُ إلَى غَيْرِهِ . أَلَا لَا خَيْرَ فِي عِلْمٍ لَيْسَ فِيهِ تَفَهُّمٌ ؛ أَلَا لَا خَيْرَ فِي قِرَاءَةٍ لَيْسَ فِيهَا تَدَبُّرٌ ؛ أَلَا لَا خَيْرَ فِي عِبَادَةٍ لَيْسَ فِيهَا تَفَكُّرٌ.

وفي رواية : **أَلَا لَا خَيْرَ فِي عِلْمٍ لَيْسَ فِيهِ تَفَهُّمٌ ؛ أَلَا لَا خَيْرَ فِي قِرَاءَةٍ لَيْسَ فِيهَا تَدَبُّرٌ ؛ أَلَا لَا خَيْرَ فِي عِبَادَةٍ لَا فِقْهَ فِيهَا ؛ أَلَا لَا خَيْرَ فِي نُسْكٍ لَا وَرَعَ فِيهِ.**

ويروي العلّامة الأمينيّ في كتاب «الغدير» [1] بسند صحيح من طريق العامّة عن مسلم والترمذيّ وأبي داود ، أنّ رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم قال :

يَؤُمُّ القَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللَهِ ؛ فَإنْ كَانُوا فِي القِرَاءَةِ سَوَاءً فَأَعْلَمُهُمْ بِالسُّنَّةِ ، فَإنْ كَانُوا فِي السُّنَّةِ سَوَاءً فَأَقْدَمُهُمْ هِجْرَةً ؛ فَإنْ كَانُوا فِي الهِجْرَةِ سَوَاءً فَأَقْدَمُهُمْ سِلْماً.

يقول **آية الله الشعرانيّ** تغمّده الله برحمته في **تأثير القرآن في نشوء الحضارة الإسلاميّة العظيمة** : (ما ترجمته) :

«إنّ مَن قرأ التأريخ واطّلع على أحوال الأُمم السالفة ، عَلِمَ أنّ اليونانيّين قد بلغوا في العلم والحضارة ما لم تبلغه الأقوام التي سبقتهم أو عاصرتهم ، وأنّ الأُمم التي عاشت قبل اليونانيّين قدكانت أدنى منهم في العلم والحضارة وأنّ العلماء اليونانيّين قبل **الإسكندر** قد وجدوا بأعداد كبيرة ، وكان فيهم أمثال **سقراط وأفلاطون** .

وحين سيطر الإسكندر على دول العالم ، فإنّه نشر العلم واللغة اليونانيّة في العالم ، فنفع الناس بهما . وقدكانت اللغة اليونانيّة لغة العلم العالميّة لما يقرب من ألف سنة ، وكان العلماء يدرّسون بتلك اللغة ويؤلّفون

1ـ «الغدير» ج ١٠ ، ص ٥٣ ، طبعة المكتبة الإسلاميّة .

الكتب بها ، على الرغم من أنّ بعضهم لم يكن يونانيّاً . حتّى أنّ أتباع السيّد المسيح عليه السلام كتبوا تأريخه ـ الذي يُدعى بالإنجيل ـ باللغة اليونانيّة ، ولفظة **الإنجيل** هي كلمة يونانيّة بمعنى البشارة ، على الرغم من أنّ عيسى عليه السلام وأتباعه كانوا يتكلّمون بالعبريّة .

وبعد الإسكندر بألف سنة ظهر **خاتم الأنبياء محمّد بن عبد الله** صلّى الله عليه وآله وجاء بالقرآن باللغة العربيّة فأحدث انقلاباً في أوضاع العالم واحتلّت العربيّة مكانة اللغة اليونانيّة وفاقتها . وقد تعلّم المسلمون العلوم اليونانيّة وأضافوا عليها أضعافها ، فبلغت العربيّة والعلوم المدوّنة بها مكانة عالميّة لم تبلغها لغة قبلها .

وقد جاء في التواريخ أنّ مكتبة الإسكندريّة في مصر كانت أكبر مكتبة في العالم القديم . وكانت تحتوي على العلوم اليونانيّة . وبلغ عدد كتبها خمسة وعشرين ألف كتاباً ، أمّا مكتبة المسلمين فقد ضمّت في العصر الإسلاميّ مليون كتاب .

يقول **جرجي زيدان** في «تاريخ الحضارة الإسلاميّة» و«تاريخ آداب اللغة» :

أنّ خليفتَي مصر الفاطميَّينِ : **العزيز بالله** (٣٦٥ ـ ٣٨٦ هـ . ق) **الحاكم بأمر الله** (٣٨٦ ـ ٤١١ هـ . ق) قد أنشآ مكتبة في مصر اشتملت على ما يقرب من مليون كتاب ، أي على أربعين ضعف من كتب مكتبة اليونان في الإسكندريّة .

ويقول : إنّ المكتبات الكبيرة كانت متواجدة بأعداد كبيرة في مصر والعراق والأندلس وغيرها ، وكانت المكتبة الواحدة تشتمل على مئات الآلاف من الكتب ، وكانت أبواب تلك المكتبات مُشرعة في وجوه طلبة العلم والمطالعين .

فقد كانت الآثار العلميّة العربيّة تفوق نظيرتها اليونانيّة بأربعين ضِعفاً .

ومع أنّ اليونانيّين امتلكوا كتباً في علوم الأدب والأخلاق والموعظة والفقه وسياسة المدن والجغرافيا ، إلّا أنّها لا تقارن بالكتب العربيّة في كثرتها وفي تحقيقها . فلم يكن لدى اليونان كتاب في الأخلاق كـ «إحياء العلوم» ، أو كتاب في الجغرافيا كـ «مُعجم البلدان» .

وقد تفوّق المسلمون على اليونانيّين تفوّقاً عظيماً في الرياضيّات ، وخاصّة في الحساب والجبر والمقابلة والهيئة والنجوم . وكان اليونانيّون يكادون لا يعرفون شيئاً عن علمَي الحساب والجبر . وكان العلم **الأرِيثماطيقيّ** اليونانيّ علماً يختلف عن الحساب ؛ وكانت أعداد ١ ، ٢ ، ٣ غير متداولة بين اليونانيّين .

كما أنّ المسلمين لم يكونوا دون اليونانيّين في سائر علوم الحكمة والطبّ ، بل كانت كفّتهم راجحة فيها أيضاً .

وهذه الأُمور بأجمعها من بركة القرآن ، وليس قولنا هذا جزافاً ، إذ التجربة والتأريخ يشهدان على صِدقه .

إنّ العرب وجميع سكان الشرق لم يمتلكوا هذا النبوغ والرقيّ قبل الإسلام الذي جعلهم في مصافّ اليونانيّين ، أمّا بعد الإسلام فقد بلغوا في الرقيّ مدىً بعيداً جعلهم يتفوّقون على اليونانيّين وأتباعهم . فإن نحن نظرنا في أيّ واحدٍ من العلوم ، شاهدنا أنّ القرآن هو السبب في رقيّه .

ولقد انحصر علم المسلمين في بداية الإسلام في تعلّم القرآن ، فكانوا يتعلّمون ألفاظه ومعانيه من الصحابة والتابعين . ولأنّ المسلمين كانوا يعلمون أنّ تلك الألفاظ هي كلام الله تعالى ، فقد كانوا يجدّون في حفظها كلمةً كلمة ، فظهر من ذلك علم القراءة . ثمّ جرى تدوين الصرف والنحو

لحفظ تلك الألفاظ من الخطأ في الإعراب والبناء والصحّة والاعتدال . ولم يكن تدوين هذين العلمَين ميسوراً بدون تتبّع اللغة والقواعد الأدبيّة .

ثمّ ظهر علم المعاني والبيان لفهم فصاحة القرآن وبلاغته . ثمّ احتاج المسلمون من أجل فهم تفسير كتاب الله الكريم ومعانيه إلى أكثر العلوم ، كالتأريخ والهيئة والكلام وأمثالها ، ليمكنهم بذلك تفسير آيات القرآن .

ولأنّ القرآن أمر باتّباع الرسول وإطاعته ، فقد احتاجوا إلى تدوين كلامه ، فانهمكوا في تدوين أحاديث النبيّ وصاروا في صدد جمع كلامه . ثمّ إنّهم اضطرّوا ـ من أجل تشخيص الأحاديث الكاذبة عن الصحيحة ـ على التأمّل في علل النفوس ، ليعلموا الصفات الموجودة في النفوس البشريّة التي تدفع البشر إلى الكذب أو تجبرهم على التزام الصدق ، لأنّ اختلاق الكذب له علل وقواعد منظّمة في نفوس البشر ؛ والتزام الصدق كذلك . فصاروا محتاجين إلى معرفة رواة الحديث وتمحيص أحوالهم وملكاتهم ، فنشأ من ذلك علم الحديث والدراية والرجال .

ونظراً لورود الأمر في القرآن بمعرفة الوقت والقِبلة للصلاة ، فقد اضطرّ المسلمون على تعلّم الهيئة والنجوم لتعيين اتّجاه القبلة وأوقات الصلاة ، فأحوجتهم الهيئة والنجوم إلى سائر فروع الرياضيّات .

ونظراً لامتلاك قوانين الميراث والفرائض الإسلاميّة حساباً معقّداً ، فقد دفعهم ذلك لتعلّم علم الحساب . ثمّ انصرفوا إلى تعلّم مساحة الأرض وعلم الهندسة لحلّ أُمور الزكاة والخراج .

وقد فتح الجهاد والحجّ للمسلمين أبواب السفر والسياحة والاطّلاع على أحوال الأُمم المختلفة ودول العالم الأُخرى ، فألّف هؤلاء المجاهدون والحجّاج كتباً في الجغرافيا وأمثالها .

ولقد نهى القرآن عن تقليد الآباء والأجداد ، وأوجب الدعوة إلى

الدين الحقّ وإلى التحقيق في الأدلّة ؛ وكان مخالفو الإسلام ومنكرو الأديان يحاججون المسلمين على الدوام ، فأُجبر المسلمون على التباحث معهم عن طريق الاستدلال . فتعلّموا في هذه السبيل أقوال حكماء اليونان وغيرهم ، واكتسبوا طريقة الاستدلال والمنطق .

وهكذا ، إذا تأمّلت ونظرت بدقّة ، وجدتَ أنّهم تعلّموا جميع العلوم ببركة القرآن .

أمّا بالنسبة إلى **علمَي الفقه والأخلاق ، وطريق السير والسلوك وتهذيب النفس** ، التي هي غاية السير الإنسانيّ ، فقد نشأت من القرآن بطبيعة الحال ، ولاحاجة لذكرها . وقد استدلّ العلماء بالآيات القرآنيّة واستشهدوا بها على الخصوص في أكثر أبواب العلوم» .[1]

أجل ، فإنّ اليونانيّين لم يجهلوا علم الحساب فحسب ، بل كانوا كذلك يكتبون الأعداد بكيفيّةٍ لو أراد المسلمون استخدامها في بيان أعداد كبيرة ، وعلى الأخصّ عند ضرب أعداد كبيرة ، لامتنع ذلك عليهم وتعذّر ؛ ولذلك فقد اخترع العرب الأعداد من الواحد إلى العشرة بهذه الكيفيّة :

(١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠)

ثمّ قلّدهم الأُوروبيّون المتأخّرون في استعمال تلك الأعداد ، فجعلوا أعدادهم على الهيئة التالية :

(1 - 2 - 3 - 4 - 5 - 6 - 7 - 8 - 9 - 10)

ويحتاج توضيح هذا المطلب إلى الإتيان بالأعداد اليونانيّة (وهي

١ـ كتاب «راه سعادت» (= نهج السعادة) في إثبات نبوّة خاتم الأنبياء وأدلّة حقّانيّته وحقّانيّة الدين الإسلاميّ ، والردّ على شبهات النصارى والمعاندين ، ص ٤٩ إلى ٥١ ، الطبعة الأُولى.

الأرقام الروميّة) وبيان بحثٍ مختصر بشأنها ، ثمّ ذكر اقتباس الأُوروبـّيّين وتقليدهم .

جاء في كتاب «**تابلِن بوخ**» الألمانيّ شرح الأعداد الروميّة ،كما يلي :

Rmische Zahlen (الأعداد الروميّة)

I = ١ - 1	XX = ٢٠ - 20	CC = ٢٠٠ - 200
II = ٢ - 2	XXX = ٣٠ - 30	CCC = ٣٠٠ - 300
III = ٣ - 3	XL = ٤٠ - 40	CD = ٤٠٠ - 400
IV = ٤ - 4	L = ٥٠ - 50	D = ٥٠٠ - 500
V = ٥ - 5	LX = ٦٠ - 60	DC = ٦٠٠ - 600
VI = ٦ - 6	LXX = ٧٠ - 70	DCC = ٧٠٠ - 700
VII = ٧ - 7	LXXX = ٨٠ - 80	DCCC = ٨٠٠ - 800
VIII = ٨ - 8	XC = ٩٠ - 90	CM = ٩٠٠ - 900
IX = ٩ - 9	IC = ٩٩ - 99	XM = ٩٩٠ - 990
X = ١٠ - 10	C = ١٠٠ - 100	IM = ٩٩٩ - 999
٢٥٣ - 253 = CCLIII		M = ١٠٠٠ 1000 -
١٩٣٩ - 1939 = MCMXXXIX [1]		MM = ٢٠٠٠ - 2000

ومن ملاحظة هذا الجدول يُستنتج أنّ أُصـول الأعـداد الرومـيّة هـي عبارة عن :

I = ١	X = ١٠	C = ١٠٠	M = ١٠٠٠
V = ٥	L = ٥٠	D = ٥٠٠	

فإذا وُضع عدد إلى يمين عـددٍ مـن الأعـداد ، فـإنّه يُـضاف إلى ذلك

١ ـ جرى استنساخ هذه الأعداد من ص ٢٢١ من كتاب ألمانيّ اسمه «كتاب اللوحات الفنّيّة الصناعيّة للعامل» (= TABELLENBUCH F-R METALLGEWERBE)

العدد ، أمّا لو وُضع إلى يسار ذلك العدد فإنّه يجب انقاصه منه .

فـ « V » مثلاً يمثّل عدد خمسة « ٥ » ؛ فإن وضعنا عدد « I » إلى يمينه فصار « VI » فإنّه يصبح عدد « ٦ » . أمّا لو وضعناه إلى يساره « IV » لأصبح عدد « ٤ » ، وهكذا ... .

وبهذه الطريقة فإنّ بعض الأعداد تصبح طويلة جدّاً ، فالعدد «**٣٣٣٣**» مثلاً سيكتب بهذه الصورة : « MMMCCCXXXIII » ؛ والعدد « ٣٨٩٨ » سيُكتب بهذه الصورة : « MMMDCCCXCVIII » . أمّا لو أردنا ضرب هذه الأعداد في بعضها ، فما الذي سيحصل يا ترى ؟!

ومن أجل تلافي هذا النقص الذي يجعل الحساب بمثل هذه الأعداد صعباً أو مستحيلاً لعلماء الرياضيّات ، فقد لجأ الأُوروبّيون المتأخّرون إلى الاستفادة من الأعداد العربيّة على النحو التالي :

الهيئة الجديدة للأعداد العربيّة :

الهيئة القديمة للأعداد العربيّة :

ويُلاحظ أنّ هذه الأعداد الجديدة هي بعينها الأعداد العربيّة . ويسمّي الأُوروبّيون هذه الأعداد بالأعداد العربيّة : ARABIC NUMBERS ، كما يدعون الأعداد الروميّة باسم الأعداد الروميّة : ROMAN NUMBERS (I - II - III - IV - V) .

إنّ أهمّيّة اللغة العربيّة تكمن في أنّ نفس ألفاظ القرآن ـ وليس معانيه ـ هي وحيٌ مُنزَل ، خلافاً للتوراة والإنجيل اللتين ألّفهما الناس فدوّنوا فيهما ألفاظ الأنبياء حسبما شاءوا ، ودوّنوا فيهما سيرة موسى وعيسى على نبيّنا وآله وعليهما السلام . وكان يُوحى إلى الأنبياء السابقين على هيئة معانٍ ـ لا ألفاظ ـ تُلقى إليهم من قِبل الله عزّ وجلّ ، فكانوا يبيّنونها بأيّ لفظ يشاءون . وربّما كانت ألفاظ الأحكام العشرة التي كُتبت على الألواح التي نزلت على النبيّ موسى عليه السلام تمثّل عين الوحي . أمّا القرآن الكريم

فكلماته وألفاظه هي عين الوحي، وقد نزلت ألفاظه بخصوصها من قِبل الله المتعال على قلب رسول الله، ولم تكن المعاني تنزل على قلبه فيقوم ببيانها بأيّ لفظٍ شاء، وهذا المطلب من ضروريّات الإسلام.[١]

وقد تناولنا سابقاً هذا الموضوع بالبحث، وكما أورد آية الله الشعرانيّ في كتاب «راه سعادت» (= نهج السعادة)، فإنّ معنى الآيات الواقعة في سورة القيامة:

لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * (ولا تقلق من سقوط كلمة أو حرف) **إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ * فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ**.[٢]

وأنّ الذين قالوا بأنّ المعاني كانت تُلقى على قلب رسول الله، فكان

١ـ يقول ابن حزم الأندلسيّ الظاهريّ في كتاب «الإحكام إلى أُصول الأحكام» ج ٢، ص ٧٧، و٨٢ و٨٦ بعد بيانٍ في عدم جواز النقل بالمعنى في أحاديث رسول الله صلّى الله عليه وآله: «وأمّا مَن حدَّث وأسند القول إلى النبيّ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم وقصد التبليغ لما بلغه عن النبيّ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم، فلا يحلّ له إلّا أن يتحرّى الألفاظ كما سمعها، لا يبدّل حرفاً مكان آخر وإن كان معناهما واحداً، ولا يقدّم حرفاً ولا يؤخّر آخر. وكذلك من قصد تلاوة آية أو تعلّمها وتعليمها ولا فرق.

وبرهان ذلك أن النبيّ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم علّم البراء بن عازب دعاءً وفيه: **وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ**، فلمّا أراد البراء أن يعرض ذلك الدعاء على النبيّ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم، قال: **وَبِرَسُولِكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ**. فقال النبيّ عليه السلام: لا، **وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ**.

فأمره عليه السلام كما تسمع ألّا يضع لفظة **رسول** في موضع لفظة **نبيّ**، وذلك حقّ لا يحيل معنى، وهو عليه السلام نبيّ. فكيف يسوغ للجهّال المغفّلين أو الفسّاق المبطلين أن يقولوا إنّه عليه السلام كان يُجيز أن توضع في القرآن مكان **عَزِيزٌ حَكِيمٌ**: **غَفُورٌ رَحِيمٌ**، أو: **سَمِيعٌ عَلِيمٌ**، وهو يمنع من ذلك في دعاءٍ ليس قرآناً، والله تعالى يقول مُخبراً عن نبيّه صلّى الله عليه [وآله] وسلّم: **مَا يَكُونُ لِىَ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآىِٕ نَفْسِى**.

٢ـ الآيات ١٦ إلى ١٩، من السورة ٧٥: القيامة.

يبيّنها قد تكلّموا خلاف ضروريّات الإسلام ، فإنّ : **قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْـقُدُسِ عَلَى قَلْبِكَ** .[1]

لا يتنافى مع نزول الألفاظ ، لأنّ روح القدس أنزل عين الألفاظ والكلمات . المتكلّم في القرآن الكريم هو الله تعالى ، والمخاطَب هو رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بعين الحروف والألفاظ .

قيل : إنّ عثمان أراد بعد زمن رسول الله أن يجمع القرآن ، فقال في الآية المباركة في سورة التوبة : **وَٱلَّـذِينَ يَكْـنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْـفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيم**.[2] بأنّ الواو زائدة وينبغي أن تُحذف ، لأنّ معنى **ٱلَّذِين يَكْنِزُونَ** تامّ ، فالمجيء بالواو قبلها ليس عطفاً ولا استئنافاً ولا قَسَماً ، وينبغي أن تُسقَط هذه الواو الخالية من المعنى .

فقال **أُبَيّ بن كَعْب** ـ وكان من القرّاء المشهورين ، وله مكانة لدى رسول الله وعامّة المسلمين ـ : لقد أخذتُ الآية من رسول الله **بالواو** ويجب ألّا تُسقَط !

ودام الجدل بين عثمان وأُبيّ حول هذا الموضوع لمدّة ستّة أشهر ، حتّى غلب رأي أُبيّ ، فدُوّنت الآية في نُسخ القرآن بالواو .

لقد نزل القرآن الكريم تدريجيّاً طوال ثلاث وعشرين سنة ، وكان النبيّ كلّما نزل عليه القرآن ، يتلوه على المؤمنين ، وكانت تلك هي طريقة دعوة الناس إلى الإسلام .

١ـ جاء في صدر الآية ١٠٢ ، من السورة ١٦ : النحل : **قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ** ؛ وجاء في صدر الآية ٩٧ ، من السورة ٢ : البقرة : **قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَهِ** .

٢ـ ذيل الآية ٣٤ ، من السورة ٩ : التوبة .

إنّ دعوة الناس إلى الإسلام في الجزيرة العربيّة لم تكن بحاجة إلى تبليغ وإعداد مُسبق ، فكانت قراءة آيات القرآن على الناس هي الدعوة إلى الإسلام . وكانت هذه الآيات العربيّة المعجزة ذات المعاني الرشيقة والألفاظ البديعة من علوّ القدر وغِنى المضمون بحيث كان المخالفون يدعونها سحراً ويلقّبون الرسول الأكرم بالساحر العظيم .

ولم يُخْفِ رسول الله والمسلمون القرآن عن أحد ، وكان الناس يتعلّمون القرآن فيكتبونه ويحفظونه عن ظهر قلب . وكانوا إذا توجّهوا إلى مكانٍ يدعون فيه المشركين وعبدة الأصنام إلى الإسلام ، يصطحبون معهم عدّة سور من القرآن .

وحين هاجر المسلمون إلى الحبشة ، اصطحبوا معهم السور التي نزلت قبل ذلك التأريخ ، ثمّ قرأ جعفر الطيّار على النجاشيّ ـ ملك الحبشة ـ سورة مريم ، فأسلم النجاشيّ عند سماعها .

وبهذه الكيفيّة فقد انتشرت السور القرآنيّة في زمن رسول الله في جميع جزيرة العرب ، وانتشر القرآن في كلّ مكان ، وعمّ الإسلام كلّ أرجاء بلاد الجزيرة .

وتوجّب على كلّ مسلم أن يقرأ في كلّ ركعة من صلاته سورة فاتحة الكتاب وقدراً من القرآن عن ظهر قلب ، وكان يؤمّ المسلمين في جماعتهم أقرأَهم للقرآن ، طبقاً لأمر الرسول الأكرم لهم : **لِيَؤُمَّكُمْ أَقْرَؤُكُمْ** ؛ فكان ذلك باعثاً على ترغيب الناس في حفظ القرآن .

وبذلك فقد حفظ عدد كبير لا يُحصى من المسلمين في بلاد الحجاز كلّ واحدة من السور القرآنيّة أو قاموا بكتابتها . فقد حفظ سورة **يس** ـ مثلاً ـ عشرة آلاف نفر ، وحفظ سورة **الرحمن** عشرون ألف نفر ، وحفظ سورة **الحمد** عدّة ملايين منهم ، كما حفظ السور الأطول ، كسورة **البقرة** ،

أعداد أقلّ من ذلك . فلم تبقَ سورة لم يحفظها الناس عن ظهر قلب .

وكان الناس مختلفين في حفظهم للقرآن ، فكانوا يحملون من القرآن القدر الذي يستظهرونه منه عن ظهر قلب . فكان بعضهم يستظهر عشر سور ، وبعضهم خمسين سورة ، وكان عدد منهم قد حفظ جميع القرآن عن ظهر قلب أو كان قد استنسخ سورة كاملةً ، وكانوا يمتلكون علماً وإحاطةً بجميع القرآن ، مثل **أمير المؤمنين** عليه السلام و**أُبيّ بن كعب وعبد الله بن مسعود**.[1]

ثمّ قال **آية الله الشعرانيّ** رضوان الله عليه :

«وكان تركيب السور القرآنيّة من آيات ، واحتواء كلّ سورة على عدّة آيات ، وتعيين موضوع كلّ آية في السورة التي ترجع إليها ، أُموراً يعيّنها النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم من قِبل الله تعالى . وكان لكلّ سورة اسماً خاصّاً اشتهر في زمن النبيّ . فكان النبيّ إذا قال : سورة **طه** أو سورة

١ـ قال سماحة العلّامة الطباطبائيّ قدّس سرّه في كتاب «قرآن در اسلام» (= القرآن في الإسلام) ص ١٢٠ ، طبعة دار الكتب الإسلاميّة : «وقد انصرف سكّان المدينة إلى قراءة القرآن وتعليمه وتعلّمه زمن حياة النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم ، وكانوا يستمعون إلى الآيات القرآنيّة التي كانت تنزل تدريجيّاً من النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم. فيحفظونها وكانوا يعرضون عليه ما حفظوا من القرآن . وصار بعضهم في قراءة القرآن مرجعاً يُرجع إليه في التعليم ، فكان طلبتهم يروون قراءتهم ويسندونها إلى أساتذتهم وكانوا يحفظون عادةً ما يتعلّمونه منهم.

وكان الوضع السائد آنذاك يفرض مثل ذلك الحفظ والرواية ، فقد كان الخطّ المستعمل في الكتابة آنذاك هو الخطّ الكوفيّ الخالي من النقطة والإعراب ، فكانت كلّ كلمة تحتمل عدّة أشكال من القراءة . وكان عامّة الناس ـ من جهة أُخرى ـ أُمّيّين لا سبيل لهم إلى ضبط الكلام إلّا بحفظه وروايته . فصارت تلك السيرة سنّة مُتّبعة ، وستبقى تذكاراً خالداً للأجيال القادمة».

مريم أو سورة **هود** ، عرف الناس السورة التي يقصدها . فقد قال النبيّ مثلاً : **شَيَّبَتْنِي سُورَةُ هُودٍ** ، فعرف جميع الناس أيّ سورة يقصد ، إذ كان الآلاف منهم قدكتبوا تلك السورة واستظهروها عن ظهر قلب . وهذه الأُمور معلومة بالتواتر ولا يطرأ إليها الشكّ .

وكان المسلمون حين يحفظون القرآن ويستظهرونه في عصر النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ، يعدّون التسامح في ألفاظه أمراً غير جائز . وكما نحفظ نحن سورة الحمد وسورة أُخرى عن ظهر قلب ونواظب على قراءتها دون خطأ في حرف منها ، فقدكان الناس يحفظون آيات القرآن في ذلك العصر بهذه الدقّة ، فكانوا مثلاً لا يجيزون استعمال لفظ **دَنَتْ** بدل لفظ **اقْتَرَبَتْ** ، مع ترادف اللفظين .

ثم ظهر علم النحو في القرن الهجريّ القمريّ الأوّل لضبط حركات القرآن . فلم تكن الدقّة التي بذلها الصحابة والتابعون والقرّاء السبعة في أداء الكلمات القرآنيّة وليدة الساعة ، بل كانت امتداداً للدقّة المبذولة في عصر النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم في ضبط الحروف .

وأكبر دليل على هذا المطلب هو الحروف المقطّعة في أوائل السور ، فقد ورد في عدّة مواضع حروف **ا لر** ، وورد في أحد المواضع **الۤمر** ، وفي أحدها **طسۤ** ، وفي أحدها **طسۤمۤ** ، وفي عدّة مواضع **حمۤ** وفي موضع واحد **حمۤ * عۤسۤقۤ** .

فقد بُذِل ـ إذاً ـ اهتمام تامّ بالحروف ، وكان تغيير الحروف أو تقديمها وتأخيرها يعدّ أمراً غير جائز .

ثمّ إنّهم دوّنوا **بسم الله** في أوائل جميع السور عدا سورة **براءة** ، وهذا أيضاً من أدلّة تعبّدهم . ولو كانوا مختارين في ترتيب السور والآيات ، أو كانوا يعدّون التصرّف فيها جائزاً ، لدوّنوا **بسم الله** في مطلع سورة **براءة**

أيضاً .

أمّا قول البعض بأن **بسم الله** هي كلمة رحمة ، وإنّ **براءة** كلمة عذاب ، لذا فإنّهم لم يدوّنوا **بسم الله** في مطلع سورة **براءة** لهذا السبب ، فهو غير صحيح ، إذ هناك كثير من السور التي تبدأ بذكر العذاب ، إلّا أنّها ابتُدِأَت بأجمعها بـ : **بسم الله** . فكان عدم كتابة البسملة في بداية سورة براءة محض متابعة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ؛ ولولا ذلك ، لكان ينبغي عدم كتابة **بسم الله** في بداية سورة **هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَاشِيَةِ** .

وبعد ارتحال خاتم الأنبياء صلّى الله عليه وآله وسلّم جرى تدوين نسخة من القرآن الكريم في عهد أبي بكر تطابق ما كان في أيدي الناس ، فأُودِعَتْ لدى حفصة ، وعُدّت نسخة رسميّة ، من أجل الرجوع إليها ، إذا تصرّمت الأعوام وانقرضت الطبقة الأُولى من حفّاظ القرآن ، وتفرّق المسلمون في البلاد العريضة ، فحصل في نقل سور القرآن التي تُنقل بين الصدور أو بالاستنساخ خطأٌ أو سهو .

ثمّ جرى في عهد خلافة عثمان استنساخ عدّة نسخ على ذلك المصحف القديم فأُرسلت كلّ نسخة إلى بلد من البلدان ووُضعت في المساجد الكبيرة ليرجع إليها النُّسَّاخ والقرّاء لإصلاح السهو والخطأ الذي قد يحصل في نُسخهم ، فحافظوا بذلك على القرآن الكريم كاملاً كلمةً فكلمة ، وحرفاً فحرفاً ، حتّى عصرنا الحاضر .

ولقد وعد الله تعالى وحتّم على نفسه حفظ القرآن ، في قوله تعالى : **إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُ** [١] ، وها قد تحقّق هذا الوعد الإلهيّ .

وقد بذل المسلمون في ضبط القرآن دقّة كبيرة ، بحيث إنّهم إذا

١ـ الآية ١٧ ، من السورة ٧٥ : القيامة .

وجدوا في نسخ الصدر الأوّل المخطوطة بالخطّ القديم كلمةً تخالف قواعد الخطّ المعهودة، حفظوها في النسخ المتأخّرة في تلك الكيفيّة، وعدّوا تغييرها أمراً غير جائز.

وعلى سبيل المثال، فإنّ الألف ينبغي أن تُكتب بعد الواو في الفعل الوارد بصيغة الجمع، وقد رُوعيت هذه القاعدة في نسخ القرآن في عصر الصحابة إلّا في كلمات **جَآءُو**، وفآءُو، وبَآءُو، و**سَعَوْ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا** في سورة سبأ؛ و**عَتَوْ عُتُوًّا** في سورة الفرقان، و**ٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ** في سورة الحشر، حيث إنّها دُوّنت في نسخهم بدون ألف، فترك المتأخّرون إيراد الألف ولم يُجيزوا كتابتها، من أجل أن نعلم الأمانة والدقّة التي نقلوا بهما القرآن، وأنّه عارٍ عن التحريف.

كما أنّهم كتبوا الألف واواً في عدّة مواضع، كما في **بَلَـٰٓؤٌا مُّبِينٌ** في سورة الدخان.

كما أنّ **التاء** في آخر الكلمة تُكتب على هيئة **هاء**، كما في **سُنَّة** و**رَحْمَة**؛ أمّا في نسخ القرآن في عهد الصحابة فقد كُتبت بعضها في هيئة تاء طويلة، فلم تُغيّر كتابتها. مثل كلمة **رحمت** التي كتبت بتاء طويلة في سور البقرة، الأعراف، هود، مريم، الروم والزخرف؛ وكلمة **نعمت** في سور البقرة، آل عمران، المائدة، إبراهيم، النحل، لقمان، فاطر، والطور؛ وكلمة **سُنّت** في سور الأنفال، فاطر، وغافر، بينما كُتبت في سائر المواضع الأُخرى هاءً.

كما أنّهم كتبوا بالتاء الطويلة: **كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ**، و**فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ**، و**ٱلْخَـٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ**، و**شَجَرَتُ ٱلزَّقُّومِ**، و**قُرَّتُ عَيْنٍ**، و**جَنَّتُ نَعِيمٍ**، و**بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ**، كما كتبوا بالتاء الطويلة كلمة **امْـرَأَت** حيثما

استُعملت مُضافةً ، مثل : **امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ** ، وكلمة **مَعْصِيَت** في : **قَدْ سَمِعَ** .[1]

كما أنّهم كتبوا كلمة **شَىْء** أينما وردت **بالشين والياء** ، إلّا في سورة الكهف : **وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاىْءٍ** ، فقد فصلوا بين الشين والياء بألف ؛ فحفظت هذه الكتابة دونما تغيير .

وكذلك فقد أقحموا ألفاً بين **لَا** في **لَأَاْذْبَحَنَّهُ** ، **ولَأَاْوْضَعُوا** ، **ولَإِالَى ٱلْجَحِيم** دون حاجة إليها ، لمجرّد المتابعة .

كما أنّهم كتبوا ياءً زائدة في كلمة نبأ في **نَبإِى ٱلْمُرْسَلِينَ** ، وفي **ءَانَآىِٕ ٱلَّيْلِ** في سورة طه ؛ وفي **تِلْقَآىِٕ نَفْسِى** في سورة يونس ؛ وفي **مِن وَرَآىِٕ حِجَابٍ** في سورة الشورى ؛ **وإِيتَاىِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ** في سورة النحل ؛ **وبِلِقَآىِٕ رَبِّهِمْ ولِقَآىِٕ ٱلْأَخِرَةِ** في سورة الروم ، بينما لم يكتبوها في نظائرها .

وممّا يثير العجب أنّهم كتبوا يائين بدلاً من ياء واحدة في كلمة **بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ** ، **وبَنَيْنَـٰهَا بِأَيْيدٍ** ، فحُفظت تلك الكتابة . ونظير هذه الأُمور كثير في القرآن الكريم ، ويحتاج إلى مجال خاصّ لبيانه .

ومن المؤسف كثيراً أنّ هذه النكات لم تجرِ مراعاتها في نسخ القرآن المطبوعة في إيران جهلاً وتساهلاً ، ممّا يعدّه مسلمو باقي الممالك تعمّداً وعناداً ، **نعوذُ بالله**.

وقد شملت هذه الدقّة والاهتمام في كتابة الكلمات القرآنيّة أمر أداء حروفها وحركاتها . فقد قرأ حفص ـ مثلاً ـ في أحد المواضع **يَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا** في سورة الفرقان بإشباع **فِيهِى** ، بينما قرأ نظائره بلا إشباع ، أمّا ابن كثير فقد قرأها بأجمعها بالإشباع .

كما قرأ في موضعين هما : **عَلَيْهُ ٱللَّهَ** ، **وأَنسَـٰنِيهُ** في سورتَي الفتح

١ـ أي في سورة المجادلة ، وهي : «قد سمع الله قول التي تجادلك فى زوجها»(م).

والكهف ، بضمّ هاء الضمير ، بينما قرأ النظائر الأُخرى بالكسر .

وأمثال ذلك كثير في علم القراءة ، وله دلالة على اهتمام الناس في زمن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم وحتّى الآن ؛ ومن المحال أن يحتمل امرؤ أنّ تغييراً أو تحريفاً أو زيادة أو نقصاناً قد طرأ على القرآن ، وقد طرأت في هذا الأمر خزعبلات وأباطيل في أذهان الناطقين بالفارسيّة ، اتّخذ منها المعاندون ذريعة يتشبّثون بها في الفساد . وكيف يتصوّر عاقل أنّ تغييراً أو نقصاناً قد طرأ على القرآن ، ويستبعد أن يطرأ التحريف على حديث نقله نفر واحد ؟!

لقد قرأ ملايين الناس سورة الحمد على هذا النحو الموجود في المصاحف ، فكيف يتصوّر أنّ هؤلاء قد سهوا وأخطأوا بأسرهم ، أمّا ذلك النفر الواحد الذي نقل سورة الحمد على نحوٍ آخر لم يَسْهُ ولم يَنْسَ ؟!» [1]

قال **آية الله العلّامة الطباطبائيّ** قدّس الله تربته في كتابه النفيس «**قرآن در اسلام**» (=القرآن في الإسلام) متحدّثاً عن أسماء سور القرآن :

«إنّ انقسام القرآن الكريم إلى سور متعدّدة له أساس قرآنيّ ، شأنه في ذلك شأن انقسامه إلى آيات . وقد ذكر الله تعالى اسم السورة في عدّة مواضع من كلامه ، كما ذكر اسم الآية أيضاً :

سُورَةٌ أَنزَلْنَـٰهَا (سورة النور ، الآية ١) ؛ **وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ** (سورة التوبة ، الآية ٨٦) ؛ **وفَأْتُوا بُسورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ** (سورة البقرة ، الآية ٢٣) ، ونظائر هذه الآيات .

وتُسمّى السورة أحياناً بالاسم الذي يرد فيها ، أو الموضوع الذي تبحث عنه . فيُقال مثلاً : سورة **البقرة** ، سورة **آل عمران** ، سورة **الإسراء**

١ـ «راه سعادت» (= نهج السعادة) ص ١٣٣ إلى ١٣٦ .

سورة **التوحيد** ؛ وكثيراً ما شوهد في المصاحف القديمة أنّهم كانوا يكتبون في مطلع السورة : **سورَةٌ تُذْكَرُ فِيهَا البقرة** ، و**سُورَةٌ يُذْكَرُ فِيهَا آلُ عمرانَ**.

وقد يحصل أحياناً أن تُجعل الجملة الأُولى في السورة عنوانَ تلك السورة ،كأن يُقال : سورة **ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ** ، وسورة **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ** ، وسورة **لَمْ يَكُنْ** ، ونظائرها .

كما يحصل أحياناً أُخرى أن تُعرَّف السورة من خلال الصفة التي تحملها ، فيُقال سورة **فاتحة الكتاب** ، سورة **أُمّ الكتاب** ، و**السَّبْعُ المَثَانِي** ،[1] سورة **الإخلاص** ، سورة **نِسْبَةُ الرَّبِّ** ،[2] ونظائر ذلك .

وكانت هذه الأساليب مستعملة في صدر الإسلام ، يشهد بذلك الآثار الموجودة ؛ حتّى أنّه شوهد كثيراً في الأخبار النبويّة في زمن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم تسمية سور القرآن مثل سورة البقرة ، وسورة آل عمران ، وسورة هود ، وسورة الواقعة . ومن هنا يمكن القول بأنّ كثيراً من هذه الأسماء قد تعيّنت في عصر النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم على إثر كثرة الاستعمال ، وإنّها لا تحمل أيّ جانب توقيفيّ شرعيّ» .

وقال عن **خطّ القرآن الكريم وإعرابه:**

«وكان القرآن الكريم يُستنْسَخ في زمن النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم وفي القرنين الأوّل والثاني للهجرة بالخطّ الكوفيّ . وكان الإبهام في الخطّ الكوفيّ ـ كما سبق ذكره ـ يستلزم ظهور نظام للحفظ والرواية

١ـ جاء في الهامش : يُقال لسورة الحمد **فاتحة الكتاب** باعتبار وقوعها أوّل القرآن، كما تُدعى **السبع المثاني** باعتبار اشتمالها على سبع آيات.

٢ـ جاء في الهامش : تُدعى سورة **قُلْ هُوَ ٱللَّهُ** بسورة **الإخلاص** لاشتمالها على التوحيد الخالص ؛ كما تدعى **نسبة الربّ** باعتبار وصفها للّه تعالى ، إذ إنّ النسبة تعني الوصف.

والقراءة . ومع ذلك فلم يُحَلّ إشكال الإبهام بصورة كاملة ، وكان الحفّاظ والرواة وحدهم يتمكّنون من تلفّظ القرآن تلفّظاً صحيحاً ، ولم يكن في ميسور كلّ أحد أن يفتح المصحف ويتلو منه بقراءة صحيحة .

ولهذا السبب فقد قام **أبو الأسود الدؤليّ**[١] وهو من أصحاب عليّ عليه السلام بإرشادٍ منه عليه السلام بتدوين قواعد اللغة العربيّة في أواخر القرن الأوّل الهجريّ .[٢]

١ـ «الإتقان» ج ٢ ، ص ١٧١ (التعليقة) .

٢ـ يقول المستشار عبد الحليم الجنديّ ـ من أركان المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة في مصر ـ في كتابه النفيس «الإمام جعفر الصادق» في هامش ص ٢٩ :

روى الأنباريّ في «تاريخ الأدباء» أنّ سبب وضع عليّ كرّم الله وجهه لهذا العِلم ما روى أبو الأسود الدؤليّ (٦٧) ، حيث قال : دخلتُ على أمير المؤمنين عليّ فوجدت في يده رقعة، فقلت: ما هذه يا أمير المؤمنين ؟ فقال : إني تأمّلت كلام العرب فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء (يعني الأعاجم) فأردت أن أضع شيئاً يرجعون إليه ، ثمّ ألقى إلَيَّ الرقعة ومكتوب فيها:

الكَلَامُ كُلّهُ اسْمٌ وَفِعْلٌ وَحَرْفٌ . فَالاسْمُ مَا أَنْبَأَ عَنِ المُسَّمى وَالفِعْلُ مَا أُنبئَ بِهِ وَالحَرْفُ مَا أَفَادَ مَعْنىً .

وقال لي : **انْحُ هَذَا النَّحْوَ وَأَضِفْ إلَيْهِ مَا وَقَعَ عَلَيْك ، واعْلَمْ يَا أَبَا الأَسْوَدِ ! أَنَّ الأَسْمَاءَ ثَلَاثَةٌ : ظَاهِرٌ وَمُضْمَرٌ وَاسْمٌ لَا ظَاهِرٌ وَلَا مُضْمَرٌ . وَإنَّمَا يَتَفَاضَلُ النَّاسُ يَا أَبَا الأَسْوَدِ فِيمَا لَيْسَ بِظَاهِرٍ وَ لَا مُضْمَرٍ . (أرَادَ بِذَلِكَ الاسْمَ المُبْهَم)** .

قال : ثمّ وضعت بابَي العطف والنعت ، ثمّ بابَي التعجب والاستفهام إلى أن وصلت إلى باب أنّ وأخواتها فكتبتها ما خلا «لكنّ» ، فلمّا عرضتُها على أمير المؤمنين عليه السلام أمرني بضمّ «لكنّ» إليها . وكلّما وضعت بابا من أبواب النحو عرضته عليه إلى أن حصلت ما فيه الكفاية. فقال : **مَا أَحْسَنَ هَذَا النَّحْوَ الَّذِي نَحَوْتَ ! فَلِهَذَا سُمِّيَ النَّحْوَ** .

وأنّ المرء ليلاحظ أنّ هذا الفتح العظيم في العلم كان من اهتماماته وهو أمير للمؤمنين، ليس لديه يوم واحد خلا من معركة أو استعداد لمعركة . وأنّ أبا الأسود هو واضع علامات الإعراب في المصحف في أواخر الكلمات بصبغ يخالف لون المداد ⇦

ثمّ جرى تنقيط حروف القرآن بأمرٍ من عبد الملك الخليفة الأمويّ ،[1] فزال بذلك إبهام الخطّ إلى حدٍّ ما .[2]

⇦ الذي كتب به المصحف. فجعل علامة الفتح نقطة فوق الحرف . والضمّ نقطة إلى جانبه والكسر نقطة في أسفله والتنوين مع الحركة نقطتين ، ثمّ وضع نصر بن عاصم (٨٩) تلميذ أبي الأسود النقط والشكل لأوائل الكلمات وأواسطها ، ثمّ جاء الخليل بن أحمد (١٧٥) فشارك فى إتمام بقيّة الإعجام .. والخليل شيعي كأبي الأسود . وهو واضع علم العروض وصاحب المعجم الأوّل وواضع النحو على أساس القياس.

فاللغة العربيّة مدينة لعليّ وتلاميذ عليّ . وكمثلها البلاغة العربيّة.

وعليٌّ معدودٌ من خطباء التأريخ العالميّ بخطبه والمناسبات التي دعت إليها.

١ـ قال المرحوم آية الله السيّد حسن الصدر في كتاب «تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام» ص ٤١ :

«وقال أبو الطيِّب عبد الواحد بن عليّ اللغويّ المتوفّى سنة ٣٥١ في كتابه «مراتب النحويّين»: كان أوّل مَن رسم للناس النحو أبو الأسود الدؤليّ ، وكان أبو الأسود أخذ ذلك عن أميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه إلى آخر كلامه.

وقال أبو عليّ القاليّ : حدّثنا أبو إسحاق الزجّاج : حدّثنا أبو العبّاس المبرّد ، قال: أوّل من وضع العربيّة ، ونقّط المصحف أبو الأسود ، وقد سئل أبو الأسود عمّن نهّج له الطريق؟ فقال: تلقّيته من عليّ بن أبي طالب . حكاه الحافظ بن حجر في «الإصابة» في ترجمة أبي الأسود. وقال الراغب في «المحاضرات» عند ذكره لأبي الأسود : وهو أوّل من نقّط المصحف، وأسّس أساس النحو بإرشاد عليّ عليه السلام».

٢ـ قال آية الله السيّد حسن الصدر في كتاب «تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام» ص ٤٢ :

«وقال ابن النديم في «الفهرست» وهو محمّد بن إسحاق المعروف بابن أبي يعقوب النديم الورّاق صنّف كتابه «الفهرست» في سنة سبع وسبعين وثلاثمائة وتوفّى سنة خمس وثمانين وثلاثمائة وفهرسته من الكتب المعتبرة ، حتّى أنّ الشيخ الطوسيّ شيخ الطائفة اعتمد عليه ونقل عنه في فهرسته ، وكذلك النجاشيّ في فهرسته وكفى بهما حجّة . قال، قال أبو جعفر بن رستم الطبريّ : إنّما سُمّي النحو نحواً لأنّ أبا الأسود الدؤليّ قال لعليّ عليه السلام وقد ألقى عليه شيئاً من أُصول النحو ، قال أبو الأسود واستأذنته أن أضع نحو ما وضع، فسمّي ذلك نحواً. ⇦

إلّا أنّ مشكل الإبهام عموماً لم ينحلّ كلّيّاً حتّى قام **الخليل بن أحمد**[١] النحويّ المعروف ، وهو واضع علم العروض ، بوضع أشكال لكيفيّات تلفّظ الحروف :

المدّ ، **التشديد** ، **الفتحة** ، **الكسرة** ، **الضمّة** ، **السكون** ، **التنوين** المنضمّ إلى أحد الحركات الثلاثة ، **الرَّوْم** ، **الإشمام** ؛ وبهذا النحو ارتفع إبهام التلفّظ ، وكان يُشار قبل ذلك بمدّة [٢] إلى حركات الحروف بوضع نقطة ، فكانوا يضعون بدلاً من الفتحة نقطة على بداية الحرف ؛ وبدلاً من الكسرة نقطة أسفل بداية الحرف ؛ وبدلاً من الضمّة نقطة على آخر الحرف ، وكان ذلك باعثاً على المزيد من الإبهام» .[٣]

وقال عن **جمع القرآن الكريم في مُصحَف** (القرآن قبل ارتحال النبيّ) :

⇦ قال : وقد اختلف الناس في السبب الذي دعا أبا الأسود إلى ما رسمه من النحو، فقال أبو عبيدة: أخذ النحو عن عليّ بن أبي طالب أبو الأسود وكان لا يخرج شيئاً أخذه عن عليّ كرّم الله وجهه إلى أحد ، حتّى بعث إليه زياداً أن : اعمل شيئاً يكون للناس إماماً ويعرف به كتاب الله، فاستعفاه من ذلك حتّى سمع أبو الأسود قارياً يقرأ : **أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ** بالكسر ، فقال : ما ظننت أنّ أمر الناس آل إلى هذا ، فرجع إلى زياد فقال : افعل ما أمر به الأمير فليبغني كاتباً لقناً يفعل ما أقول ، فأُتي بكاتب من عبد القيس فلم يرضه ، فأُتي بآخر، قال أبو العبّاس المبرّد : أحسبه منهم ، فقال أبو الأسود : إذا رأيتني قد فتحتُ فمي بالحرف فأنقط نقطة فوقه على أعلاه ، وإن ضممتُ فمي فأنقط نقطة بين يدي الحرف، وإن كسرتُ فاجعل النقطة من تحت الحرف ، فهذا نقط أبي الأسود ـ انتهى.

فتحة = ــَ ضمّة = ــُ. كسرة = ــِ» .

١ و٢ ـ «الإتقان» ج ٢ ، ص ١٧١ «التعليقة» .

٣ـ «قرآن در اسلام» (= القرآن في الإسلام) ص ١٢٩ و ١٣٠ ، طبعة دار الكتب الإسلاميّة، سنة ١٣٩١ هـ. ق .

«كان القرآن الكريم ينزل سورةً فسورة ، وآيةً فآية ، وكانت شهرته وصِيته يزدادان يوماً بعد يوم بين العرب بسبب بلاغته وفصاحته الخارقتين ، فقدكان العرب حينذاك يُولون عناية فائقة ببلاغة الكلام وفصاحته ، فاستهوتهم بلاغة القرآن وفصاحته حتّى كانوا يأتون إلى النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم من المناطق النائية لسماع عدّة آيات قرآنيّة وتعلّمها .

وكان كبار مكّة ومتنفّذوها من عبدة الأصنام ومن الأعداء الألدّاء للدعوة الإسلاميّة ، وكانوا يزجرون الناس ما استطاعوا عن الاقتراب من النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم ويخوّفونهم من الاستماع إلى القرآن بذريعة أنّ القرآن سحر يُؤثَر ؛ إلّا أنّ البعض كانوا مع ذلك كلّه يتسلّلون في ظُلمة الليل متستّرين عن بعضهم وعن أقاربهم ومواليهم ، فيجلسون قرب بيت النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم ويستمعون إلى القرآن الذي يتلوه النبيّ .[1]

وكان المسلمون بطبيعة الحال يبذلون قصارى جُهدهم في تعلّم السور والآيات القرآنيّة وحفظها في غاية الجدّ ، فهم ـ من جهة ـ يعدّون القرآن كلام الله تعالى والمصدر الوحيد الذي يأخذون عنه عقائد دينهم ، كما أنّ عليهم ـ من جهة أُخرى ـ أن يقرأوا في فريضة الصلاة سورة الحمد وقدراً من سائر القرآن ، ومن جهة ثالثة فإنّ النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم كان مأموراً بتعليمهم القرآن وأحكام الإسلام .[2]

١ـ «الدرّ المنثور» ج ٤ ، ص ١٨٧ (التعليقة).

٢ـ كما في الآية ٤٤ ، من السورة ١٦ : النحل : **وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** .

وكان هذا النهج يزداد انتظاماً بعد هجرة النبيّ الأكرم إلى المدينة وتأسيسه مجتمعاً إسلاميّاً مستقلّاً. فقد كُلّف عدد كبير من أصحاب النبيّ بأمرٍ منه بالإنصراف إلى قراءة القرآن وتعليمه، وإلى تعلّم وتعليم الأحكام الإسلاميّة التي كانت تتكامل في نزولها كلّ يوم، حتّى بلغ الأمر حدّاً أُعفي معه ذلك العدد من الاشتراك في الحرب والجهاد.[1]

ولمّا كان أكثر أصحاب النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم، وعلى الأخصّ أُولئك الذين هاجروا من مكّة إلى المدينة، أُمّيّين لا يعرفون القراءة والكتابة، فقد أمر النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم بالاستفادة من الأسرى لتعلّم الكتابة، وكانت حينذاك بسيطة وسهلة، فوُجد بذلك جماعة تعرف القراءة والكتابة.

وقد دُعي الذين اشتغلوا بقراءة القرآن وحفظ سوره وآياته **بالقُرّاء**؛ وقد استُشهد من القرّاء في وقعة **بِئر مَعونة** أربعون رجلاً أو سبعون رجلاً.[2]

وكان ما نزل من القرآن الكريم وما ينزل منه تدريجيّاً يُكتب على الألواح وسعف النخيل وعظام أكتاف الإبل ونظائر ذلك.

على أنّ ممّا لايشوبه الشكّ ولا يمكن إنكاره، هو أنّ أكثر السور القرآنيّة كانت معروفة ومتداولة بين المسلمين قبل ارتحال النبيّ الأكرم. وقد تردّدت أسماء هذه السور في عشرات ومئات الأحاديث عن طريق أهل السنّة والشيعة في وصف دعوة النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم أو أصحاب النبيّ قبل ارتحال النبيّ، وفي وصف الصلوات التي صلّاها

١ـ الآية ١٢٢، من السورة ٩: التوبة: **وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**.

٢ـ «الإتقان»، ج ١، ص ٧٢ (التعليقة).

النبيّ وسيرته في تلاوة القرآن .

كما تردّدت بكثرة أسماء مجاميع من هذه السور التي كانت متداولة في صدر الإسلام ،كالسور **الطِّوال** ، و**المئين** ، و**المثاني** ، و**المفصّلات** ، وذلك في الأحاديث التي تحكي زمن حياة النبيّ الأكرم» .[1]

١ـ «الإتقان» ج ١ ، ص ٦٥ ، (التعليقة) ؛ و«قرآن در اسلام» (= القرآن في الإسلام) ص ١١١ إلى ١١٣.

وذكر الشيخ محمود أبو ريّة في كتاب «الأضواء» ص ٢٥٢ ، الطبعة الثالثة ،دار المعارف مصر، بحثاً مفصّلاً في كيفيّة جمع وتدوين المصحف الشريف في عصر أبي بكر وعمر، ثمّ قال:

«**وقفة قصيرة :**

ولابدّ لي هنا من أن أقف وقفة قصيرة أستعلن فيها ما عراني من حيرة فيما أوردوه من أنباء هذا الجمع وما فيها من تناقض كثير . فنبأ يقول : إنّ عمر هو الذي فزع إلى أبي بكر في هذا الجمع؛ وخبر يقول :إنّ هذا الجمع لم يكن في عهد أبي بكر . وإنّما هو عمر الذي تولّاه، ورواية ثالثة تفيد أنّ عمر قد قُتِل قبل أن يكمل هذا الجمع ، وأنّ عثمان هو الذي أتمّه. وثَمّ روايات أُخرى كثيرة تحمل مثل هذا التناقض ، لانتوسّع بإيرادها.

ونحن لو أخذنا بالأخبار المشهورة ، التي رواها البخاريّ . وهي التي فزع فيها عمر إلى أبي بكر لكي يجمع القرآن لما رأى القتل قد استحر في وقعة اليمامة وأنّه قد قتل فيها من الصحابة مئات وهم حملة القرآن ، وإذا استمر الأمر على ذلك فإنّ القرآن يضيع وينسى!

لو نحن أخذنا بهذا النبأ فإنّه يتبيّن منه أنّ الصحابة وحدهم هم الذين كانوا في هذا العهد يحملون القرآن ، فإذا ما ماتوا أو قتلوا ضاع القرآن ونُسي . وأنّه ليس هناك مصدر آخر يحفظ القرآن على مدّ الزمان إذ كانوا مادّته وكانوا كتّابه؟

على حين ذكروا قبل ذلك في أخبار وثيقة يرضى بها العقل ويؤيّدها العلم أنّ النبيّ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم كان يكتب كلّ ما ينزل عليه من قرآن وقت نزوله على العسب واللخاف وقطع الأديم وغيرها ، وأنّه اتّخذ لذلك كتاباً أحصى التأريخ أسماءهم.

فأين ذهبت هذه النسخة ، التي لايشكّ فيها أحد ولا يمتري فيها إنسان ؟ لأنّها هي التي حفظ الله بها القرآن الكريم في قوله تعالى : **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ** ، وفي ⇦

وقال أيضاً في موضوع **جمع القرآن الكريم في مصحف واحد** (بعد ارتحال النبيّ) :

«وبعد ارتحال النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله ، فقد عمد **عليّ** عليه السلام إلى **الانزواء** في بيته ، وكان أعرف الناس بالقرآن الكريم حسب النصّ القطعيّ وتصديق النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله ؛ فجمع القرآن في مصحف واحد حسب ترتيب النزول . ولم تنقضِ ستة أشهر على ارتحال النبيّ ، حتّى فرغ من عمله هذا ، ثمّ حمل المصحف الذي دوّنه على بعير وجاء به إلى الناس فعرضه عليهم .[1]

⇦ قوله تعالى: **إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُ**.

إنّ هذه النسخة الفريدة التي تحمل الصورة الصحيحة للقرآن التي ستبقى على وجه الزمن خالدة لو كانت موجودة لأغنتهم عمّا وجدوه في سبيل عملهم من عناء . ولأصبحت هي المرجع الأوّل للقرآن في كلّ عصر ومصر والتي كان يجب على عثمان أن يراجع عليها مصاحفه التي كتبها قبل أن يوزّعها على الأمصار».

١ـ «المصحف السجستانيّ» (التعليقة) .

يقول مؤلّف كتاب «أضواء على السنّة المحمّدية» ص ٢٤٩ ، تحت عنوان : **غريبةٌ توجب الحيرة:**

من أغرب الأُمور . وممّا يدعو إلى الحيرة أنّهم لم يذكروا اسم علي رضي الله عنه فيمن عهد إليهم بجمع القرآن وكتابته . لا في عهد أبي بكر ولا في عهد عثمان ! ويذكرون غيره ممّن هم أقلّ منه درجة في العلم والفقه ! فهل كان عليّ لا يحسن شيئاً من هذا الأمر ؟ أو كان من غير الموثوق ؟ أو ممّن لا يصحّ استشارتهم أو إشراكهم في هذا الأمر ؟

اللهمّ إنّ العقل والمنطق ليقضيان بأن يكون علي أوّل مَن يعهد إليه بهذا الأمر، وأعظم من يشارك فيه ، وذلك بما أُتيح له من صفات ومزايا لم تتهيّأ لغيره من بين الصحابة جميعاً ـ فقد ربّاه النبيّ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم على عينه . وعاش زمناً طويلاً تحت كنفه . وشهد الوحي من أوّل نزوله إلى يوم انقطاعه . بحيث لم يند عنه آية من آياته!!

فإذا لم يُدْعَ إلى هذا الأمر الخطير ، فإلى أيِّ شيء يُدعى ؟! ⇦

ثمّ وقعت حرب اليمامة بعد مرور سنة واحدة وعدّة أشهر [1] من ارتحال النبيّ ، فقُتل فيها من القرّاء سبعون نفراً ، فخشي الخليفة من إمكان نشوب حرب أُخرى للمسلمين يُقتل فيها باقي القرّاء ، فيضيع القرآن إثر ضياع حملته ، ففكّر في جمع سور القرآن وآياته في مصحف واحد .

وقد شرع جماعة من قرّاء الصحابة ، حسب أمر الخليفة ، يتصدّرهم الصحابيّ **زيد بن ثابت** ، بجمع السور والآيات القرآنيّة التي كانت مدوّنة على الألواح وسعف النخيل في بيت النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم بخطّ كتّاب الوحي ، أو لدى قرّاء الصحابة ، فوضعوها في مصحف واحد ، وأرسلوا من ذلك المصحف نُسخاً إلى الأطراف والأكناف .

ثمّ حصل بعد مدّة ، زمن خلافة الخليفة الثالث ،[2] أن أُعلم الخليفة بوقوع اختلافات إثر تساهل الناس عند استنساخ القرآن وقراءته ، وأنّ ذلك ممّا يهدّد بحصول تحريف وتغيير في كتاب الله تعالى .[3]

⇦ وإذا كانوا قد انتحلوا معاذير ليسوغوا بها تخطّيهم إيّاه في أمر خلافة أبي بكر فلم يسألوه عنها ولم يستشيروه فيها ؛ فبأيّ شيء يعتذرون من عدم دعوته لأمر كتابة القرآن ؟ فبماذا نعلل ذلك! وبماذا يحكم القاضي العادل فيه ؟ حقّاً إنّ الأمر لعجيب وما علينا إلّا أن نقول كلمة لا نملك غيرها وهي :

لَكَ اللّهُ يَا عَلِيُّ ! مَا أَنصَفُوكَ فِي شَيءٍ !

١ـ «الإتقان» ج ١ ، ص ٥٩ و ٦٠ (التعليقة) .

٢ـ «الإتقان» ج ١ ، ص ٦١ (التعليقة) .

٣ـ يقول مؤلّف كتاب «أضواء على السُنّة المحمّديّة» ص ٢٤٧ و ٢٤٨ ، تحت عنوان:

جمع القرآن وسببه:

قضى رسول الله ولم يكن القرآن جمع في شيء ، وذلك أنّه كان في الصدور ، وفيما كتب متفرّقاً ، في عهد النبيّ ، ولما تولّى أبو بكر ونشبت حرب الردّة وقتل فيها كثير من الصحابة خشي عمر من ضياع القرآن بموت الصحابة ، فدخل على أبي بكر وقال له: إنّ ⇦

....

⇦ أصحاب رسول الله باليمامة يتهافتون تهافت الفراش في النار ، وإنّي أخشى ألّا يشهدوا موطناً إلّا فعلوا ذلك حتّى يُقتلوا وهم حملة القرآن ، فيضيع القرآن ويُنسى ، ولو جمعته وكتبته؟ فنفر منها أبو بكر ؛ ولمّا تراجعا أرسل أبو بكر إلى زيد بن ثابت وقال له : إنّ عمر قد دعاني إلى أمر فأبيت ، وأنت كاتب الوحي فإن تكن معه اتبعتكما . فنفر زيد كذلك . وقال: نفعل ما لم يفعل رسول الله ؟ فقال عمر : وما عليكما لو فعلتما ذلك ؟ فشرح الله صدري لذلك. ورأيت في ذلك ما رأى عمر . ثمّ تتبّعت القرآن أجمعه من العسب ، واللِّخاف، والأكتاف، وقطع الأديم ، وصدور الرِّجال ... وقد اختصّ أبو بكر زيداً بذلك،لأنّه من كتّاب الوحي ، وكان حافظاً للقرآن ، وهذا الجمع هو ضمّ متفرّق القرآن من صحف لتكون هذه الصحف في مصحف . لمّا اتّفق الرأي على جمع القرآن وتدوينه ، قام عمر في الناس وقال:

مَن تلقّى من رسول الله شيئاً من القرآن فليأت به . وقال أبو بكر لعمر وزيد : اقعدا على باب المسجد فمَن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه ؛ وكان عمر ـ كما علمت ـ لا يقبل ـ من أحد حديثاً عن رسول الله حتّى يشهد شاهدان على أنّهما قد تلقّياه من النبيّ . وعهدوا إلى بلال أن ينادي بأنحاء المدينة ، أن : من كان عنده قطعة عليها شيء من كتاب الله فليأت بها إلى الجامع وليسلّمها إلى الكَتَبَة . قال أبو شامة : وكان غرضهم ألّا يكتب إلّا من عين ما كتب بين يدي النبيّ لا من مجرّد الحفظ . ولذلك قال زيد في آخر سورة التوبة: لم أجدها مع غيره ـ أي لم أجدها مكتوبة مع غيره ـ لأنّه كان لا يكتفي بالحفظ دون الكتابة.

وقد روى ابن وهب في موطئه عن مالك عن ابن شهاب عن سالم بن عبد الله بن عمر أنّه قال : قد جمع أبو بكر القرآن في قراطيس ـ انتهى ، وبذلك يكون أبو بكر هو أوّل مَن جمع القرآن في الصحف وهذا هو الجمع الأوّل.

ويقول في ص ٢٤٩ إلى ٢٥١ :

ما كاد عمر رضي الله عنه ينقلب إلى ربّه ، ويتولّى عثمان الخلافة حتّى أخذ أمر المسلمين يتحوّل ، واختلف المسلمون حتّى في قراءة القرآن.

أخرج ابن أبي داود في المصاحف من طريق أبي قلابة أنّه قال:

لمّا كان في خلافة عثمان جعل المعلّم يعلّم قراءة الرجل ، والمعلّم يعلّم قراءة الرجل، فجعل الغلمان يلتقون فيختلفون ، حتّى ارتفع ذلك إلى المعلّمين ، حتّى كفّر بعضهم بعضاً، فبلغ ذلك عثمان فخطب ، فقال : أنتم عندي تختلفون ، فمن نأى عنّي من الأمصار أشدّ ⇦

....

⇐ اختلافاً. وروى البخاريّ عن أنس ، أنّ حذيفة بن اليمان قَدِمَ على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق . فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة وقال لعثمان: يا أمير المؤمنين **أَدْرِكْ هَذِهِ الأُمَّةَ قَبْلَ أَنْ يَخْتَلِفُوا فِي الكِتَابِ اخْتِلَافَ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى** ـ انتهى.

وممّا ذكره حذيفة : رأيت أناساً من أهل **حمص** يزعمون أنّ قراءتهم خير من قراءة غيرهم وأنّهم أخذوا القرآن عن المقداد ، ورأيت أهل دمشق يقولون إنّ قراءتهم خير من قراءة غيرهم، فإنّهم قرءوا بقراءة أُبيّ بن كعب ، ورأيت أهل الكوفة يقولون مثل ذلك وأنّهم قرأوا على أبي موسى ، ويسمّون مصحفه «لباب القلوب».

وفي رواية عمارة بن غزية ذكرها ابن حجر في «الفتح» ص ١٤ ج ٩ أنّ حذيفة قَدِمَ من غزوة فلم يدخل بيته حتّى أتى عثمان فقال : **يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ أَدْرِكِ النَّاسَ !** قال : وما ذاك؟ قال غزوت فرج أرمينية فإذا أهل الشام يقرءون بقراءة أبيّ بن كعب فيأتون بما لم يسمع أهل العراق، وإذا أهل العراق يقرأون بقراءة عبد الله بن مسعود فيأتون بما لم يسمع أهل الشام فيكفّر بعضهم بعضاً.

ولمّا بلغ كلّ ذلك عثمان ورأى الأمر قد حزب ، أرسل إلى حفصة * ابنة عمر أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثمّ نردها إليكِ ، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف ، وقال عثمان للرهط القرشيّين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنّما نزل بلسانهم ، ففعلوا ، حتّى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ردّ عثمان الصحف إلى حفصة ، فأرسل إلى كلّ أُفق بمصحف ، ممّا نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كلّ صحيفة أو مصحف أن يحرق.

قال الحافظ ابن حجر ـ وكان ذلك في أواخر سنة ٢٤ وأوائل سنة ٢٥ هـ.ق.

وقال أبو ريّة تحت عنوان : **الفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان:**

قال ابن التين وغيره : الفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان . أنّ جمع أبي بكر كان لخشية أن يذهب من القرآن شي بذهاب حَمَلَتِهِ . لأنّه لم يكن مجموعاً في موضع واحد. فجمعه في صحائف مرتّباً لآيات سوره على ما وقفهم عليه النبيّ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم. وجَمْعُ عثمان كان لمّا كثر الاختلاف في وجوه القراءة . حتّى قرءوا بلغاتهم من ⇐

فأصدر الخليفة أمراً ـ تلافياً لهذا الخطر ـ باستعارة المصحف الذي دوّن لأوّل مرّة بأمر الخليفة الأوّل ، وأودع عند حفصة ـ زوجة النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم وابنة الخليفة الثاني ـ وأمر خمسة نفر من قرّاء الصحابة ومنهم **زيد بن ثابت** متصدّي جمع المصحف الأوّل ، بأن يستنسخوا منه عدّة نسخ تكون مرجعاً يُرجع إليه عند استنساخ سائر النسخ . ثمّ أمر بجمع المصاحف التي كانت في أيدي الناس في الولايات المختلفة ، وإرسالها إلى المدينة . وكان ما يصل إلى المدينة من هذه المصاحف يُحرق بأمر الخليفة (أو يُغلى في الماء حسب نقل بعض المؤرّخين) .

ثمّ إنّ النسخ التي استُنسخت جرى توزيعها ، فجُعل أحدها في

⇦ اتّساع اللغات. فأدّى ذلك إلى تخطئة بعضهم بعضاً ، فخشي من تفاقم الأمر في ذلك، فنسخ تلك الصحف في مصحف واحد مرتّباً لسوره ، واقتصر من سائر اللغات على لغة قريش، محتجّاً بأنّه نزل بلغتهم . وإن كان قد وسّع في قراءته بلغة غيرهم . رفعاً للحرج والمشقّة في ابتداء الأمر، فرأى أنّ الحاجة في ذلك قد انتهت فاقتصر على لغة واحدة.

وقال أبو ريّة تحت عنوان : **عدد المصاحف التي أرسلها عثمان إلى الآفاق:**

اختُلِف في عدّة المصاحف التي أمر عثمان بكتابتها والمشهور أنّها كانت خمسة، أرسل أربعة منها إلى الآفاق وأمسك عنده واحداً منها.

* ـ كانت حفصة رضي الله عنها وصيّة من قبل أبيها عمر على أوقافه وتركته ، ويبدو أنّ عمر كان لا يثق بابنه عبد الله ، فقد روى السيوطيّ في كتابه «تاريخ الخلفاء» قال: أخرج النخعيّ أنّ رجلاً قال لعمر : ألا تُخَلِّفَ عبد الله بن عمر ؟ فقال له : **قاتلك الله ! والله ما أردت الله بهذا ! أستخلف رجلاً لم يحسن أن يُطَلِّق امرأته !** (ص ٩٨) وقد ثبت عنه أنّه قال : لو كان سالم مولى حذيفة حيّاً لولّيته (ص ١٢٣ ج ١ «سير أعلام النبلاء») . أمّا خبر هذا الطلاق الذي أشار إليه عمر ، فقد رواه البخاريّ عن نافع عن عبد الله بن عمر أنّه طلّق امرأته وهي حائض على عهد رسول الله ، فقال رسول الله : مره فليراجعها ، ثمّ ليمسكها حتّى تطهر ، ثمّ تحيض، ثمّ تطهر ، ثمّ إنّ شاء أمسك بعد ، وإن شاء طلّق قبل أن يمس . فتلك العدّة التي أمر الله أن يطلّق لها النساء (ص ٢٨٨ ج ٩ «فتح الباري»).

المدينة ، وأرسل بنسخة منها إلى **مكّة** ، ونسخة إلى **الشام** ، ونسخة إلى **الكوفة** ، ونسخة إلى **البصرة**.

وقيل إنّ نسخة أُخرى ـ عدا هذه النسخ الخمس ـ قد أُرسلت إلى **اليمن** ، وإنّ نسخة أُخرى أُرسلت إلى **البحرين** .

وكانت هذه النسخ تُدعى بـ «المصحف الإمام» وتجعل أصلاً لسائر النُّسخ .

أمّا الاختلافات الموجودة بين هذه النُّسخ مع المصحف الأوّل في الترتيب ، فتنحصر في أنّ سورة براءة كانت في المصحف الأوّل بين **المئين** ، وأنّ سورة الأنفال كانت بين **المثاني** ؛ أمّا في «المصحف الإمام» فقد وُضعت سورتَي الأنفال ، وبراءة في مكان واحد بين سورة الأعراف وسورة يونس» .[1]

كما قال في موضوع **اهتمام المسلمين بأمر القرآن الكريم**:

«لقد سبقت الإشارة إلى أنّ السور والآيات القرآنيّة كانت في أيدي عامّة المسلمين عند جمع القرآن للمرّة الأُولى والمرّة الثانية ، وأنّ المسلمين كانوا جادّين في صيانة وحفظ ما كان في أيديهم من القرآن .

مضافاً إلى أنّ طائفة كبيرة من الصحابة والتابعين من قارئي القرآن الذين لم يكن من عمل لهم سوى قراءة القرآن ، لمّا جُمع القرآن في مصحف واحد تحت أنظار الجميع ووُضع بين أيديهم ، قد قبلوا به بأجمعهم واستنسخوا منه لأنفسهم ، ولم يصدر منهم اعتراض في شأنه .

وقد حصل في الجمع الثاني للمصحف زمن عثمان أنّهم أرادوا كتابة الآية الكريمة : **وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ** ،[2] فأرادوا إلقاء الواو ،

١ـ «قرآن در اسلام» (= القرآن في الاسلام) ص ١١٣ و ١١٤ .

٢ـ الآية ٣٤ ، من السورة ٩ : التوبة .

فقال لهم الصحابيّ **أُبيّ بن كعب** [1] مهدّداً : لتلحقنّها أو لأضعنَّ سيفي على عاتقي ! فألحقوها .

وقرأ الخليفة الثاني [2] زمن خلافته يوماً آية : **وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ**، [3] فلم يُلحق الواو في **وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ** ؛ فخاصموه حتّى ألزموه بقراءتها مع الواو .

أمّا **عليّ** عليه السلام ، فمع أنّه كان قد جمع القرآن الكريم حسب ترتيب النزول ثمّ عرضه على القوم فلم يقبلوا به ، ومع أنّهم لم يُشرِكوه في جمع القرآن في كلا المرّتين ، إلّا أنّه مع ذلك كلّه لم يُبدِ مخالفة أو اعتراضاً ، وقَبِل بالمصحف الدائر ، ولم يذكر اعتراضاً عليه طوال حياته ، حتّى في زمن خلافته . كما أنّ أئمّة أهل البيت ، وهم أوصياء عليّ وبنوه ، لم يذكروا شيئاً يقلِّل من اعتبار القرآن الكريم ، حتّى لخاصّة شيعتهم ؛ وكانوا يستشهدون به باستمرار في كلامهم ، ويأمرون شيعتهم باتّباع قراءة الناس . [4]

ويمكن القول بجرأة بأنّ سكوت عليّ عليه السلام ، على الرغم من أنّ المصحف المعهود يختلف عن مصحفه في الترتيب ، كان منبعثاً عن أمر أنّ مذاق أهل البيت يتمثّل في تفسير القرآن بالقرآن ، وهو منهج لا يؤثّر عليه كيفيّة ترتيب السور والآيات المكّيّة والمدنيّة قياساً إلى المقاصد العالية للقرآن الكريم ، حيث ينبغي خلال تفسير كلّ آية ، أن يؤخذ بنظر

١ـ «الدرّ المنثور» ج ٣ ، ص ٢٣٢ (التعليقة) .

٢ـ «الدرّ المنثور» ج ٣ ، ص ٣٦٩ (التعليقة) .

٣ـ الآية ١٠٠ ، من السورة ٩ : التوبة .

٤ـ «الوافي» ج ٥ ، ص ٢٧٣ ، باب اختلاف القرآن ، الطبعة الحجريّة (التعليقة).

الاعتبار مجموع الآيات القرآنيّة، لأنّ الكلام العالميّ الخالد ينبغي ألّا يؤثّر في عموم مقاصده ومطالبه خصائص الزمان والمكان وحوادث زمن النزول التي تدعى بأسباب النزول.

أجل، لمعرفة هذه الخصوصيّات فوائد عديدة من قبيل إيضاح تأريخ نشوء المعارف والأحكام والقصص الجزئيّة المقارنة للنزول، ولكيفيّة تقدّم الدعوة الإسلاميّة خلال مدّة ثلاث وعشرين سنة تمثّل عصر البعثة، ونظائر ذلك، إلّا أنّ صيانة الوحدة الإسلاميّة (التي كانت هدفاً دائميّاً لأئمّة أهل البيت) هي أهمّ من هذه الفوائد الجزئيّة». [1]

ويستنتج من مجموع ما ذُكر، أنّ هذا القدر من الاهتمام الأكيد بحفظ القرآن وحفظ سوره وآياته، بل كلماته وحروفه، نابع من أمر أنّ القرآن الكريم بحروفه وكلماته كان معجزة ووحياً سماويّاً، وكان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بوجوده المقدّس ونفسه النفيسة مهتمّاً بهذا الأمر بدوره، وكان يعلّم المسلمين ذلك.

وقد ضمن الله تعالى بنفسه ـ أوّلاً ـ صون القرآن الكريم، فوعد بجملة: **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ** [2] بأنّه سيحفظه إلى يوم القيامة من التغيير والتبديل والتحريف.

وصار من الواجب الحتميّ على المسلمين ـ ثانياً ـ أن يبذلوا اهتماماً كبيراً بأمر كتابته واستنساخه وطبعه، وأن يجتهدوا في أمر صحّته بحيث لا يطرأ في أمر كتابته أو طبعه خطأ أبداً؛ وأن يكون المتصدّون لكتابته وطبعه من المتبصّرين والخبراء والعارفين بعلم القرآن وكتابته وقراءته،

١ـ «قرآن در اسلام» (= القرآن في الإسلام) ص ١١٥ و١١٦.

٢ـ الآية ٩، من السورة ١٥: الحجر.

ليهتمّوا باقتفاء النهج الذي سلكه أسلافنا في حفظ هـذا الكـتاب السـماويّ وكتابته وتـدوينه ، وأن يـراعـوا التـعبّد فـي الكـتابة إلى الحدّ الذي راعـاه الأسلاف ، حيث كتبوا لفظ نعمة في إحدى السـور ، كـالسورة ٢ : البـقرة ، الآية ٢١١ بالتاء المدوّرة طبقاً للقواعد : **نِعْمَةَ ٱللَّهِ** ، وكتبوا في موضع آخـر من نفس السورة (الآية ٢٣١) بالتاء الطويلة تـعبّداً للسـلف : **نِـعْمَتَ ٱللَّـهِ** ، وكتبوه في السورة ٣ : آل عمران ، الآية ١٠٣ ، بالتاء الطويلة : **نِعْمَتَ ٱللَّهِ** ، بينما كتبوه في موضعَينِ آخرين من نفس السورة ، وهما الآية ١٧١ والآية ١٧٤ ، بالتاء المدوّرة : **بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ** . وكتبوه فـي السـورة ١٤ : إبـراهـيم ، الآية ٦ : **نِعْمَةَ ٱللَّهِ** ، وكتبوه في الآيـتين ٢٨ و٣٤ مـن نـفس السـورة بـلفظ **نِعْمَتَ ٱللَّهِ** .

وعلى من يتصدّى للكتابة والطبع أن لا يتخطّى هذا النهج ، وعـليهم أن لا يكتبوا هذه الألفاظ وفقاً لذوقهم على كيفيّةٍ واحدة ، إذ إنّ هذا الأمـر يعدّ مهمّاً يبيّن أمانة المسلمين في كتابة ألفاظ القرآن وعدم تـحريفها مـنذ زمن خاتم الأنبياء صلّى الله عليه وآله وسلّم وإلى زمننا هذا .

ومع الأسف فإنّ هذا المعنى لم تجرِ مراعاته فـي نسـخ القـرآن التـي طُبعت في إيران قديماً ، أمّا نسخ القرآن طبع **السلطان عبد الحـميد** بـخطّ الحافظ عثمان ، ونسخ القرآن التي طبعتها وزارة أوقاف العراق على نسـخة بخطّ الخطّاط **الحاجّ الحافظ محمّد أمين رشدي** ، وأصلها نسخة أهدتها أُمّ السلطان عبد العزيز إلى مقبرة الجنيد البغداديّ ، ونسخة القرآن التي طبعتها **وزارة الإرشاد** الإسلاميّ في الجمهوريّة الإسـلاميّة الإيـرانـيّة وفـق نسـخة قرآن سوريّ موافق لطبعة **مصحف المدينة المـنوّرة** ، والتـي اشـترك فـي تصحيحها وطبعها لجنة كبيرة ، فـقد رُوعـيت فـيها هـذه النكـات ، وعـلى الأخصّ في القرآن الأخير الذي اشتمل على مزايـا لم تـتوفّر فـي النـوعين

الأوّلين ، فقد ورد في هذا القرآن آية **وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْيدٍ** بهذه الكيفيّة ، أمّا في نُسختَي القرآن السابقتَين فقد ورد بلفظ **بِأَيْدٍ** بياء واحدة .

وقد ورد في النسخ الثلاث عبارة **لَا الَى ٱلْجَحِيمِ** ،[1] وعبارة **لَأَاوْضَعُوا خِلَـٰلَكُمْ** [2] بدون ألف زائدة . أمّا **لَأَاذْبَحَنَّهُۥ** ،[3] فقد وردت في النسخ الثلاث بألف زائدة . ويُحتمل أنّ المصحِّحين والمسؤولين شاهدوا العبارتَين السابقتَين في المصاحف القديمة بدون ألف زائدة ، وشاهدوا لفظ **لَأَاذْبَحَنَّهُۥ** وحده بألف زائدة ، فدوّنوه على نفس الكيفيّة .

والخلاصة ، فإنّ علينا ـ نحن الناطقون بالفارسيّة ـ ألّا ندوّن ألفاظ القرآن وفق التلفّظ الذي نستخدمه في لغتنا . فعلينا ـ مثلاً ـ ألّا نكتب ألفاظ **إسحٰق ، إبرٰهيم ، رحمٰن ، إسمٰعيل ، أُولئك ، ملٰئكة** بألف ممدودة ، لأنّ ذلك يمثل خطأ في رسم الحروف العربيّة ، لأنّ الفتحة وإشباعها التي ينجم منها حرف الألف هما شيء واحد . لذا ينبغي عند رسم الحروف القرآنيّة أن تدوّن بتلفّظ الفتحة .

ومن حسن الحظّ أنّ هذا المعنى قد لُوحظ في نُسخ القرآن الذي طبع في إيران مؤخّراً . وعلى المصنّفين أن يؤلّفوا كتبهم وفق طريقة كتابة هذا القرآن ، وأن يجتنبوا كتابة ألفاظ رحمان وإسحاق وإسماعيل وغيرها .

كما ينبغي أن يكون القرآن المطبوع عارياً عن أيّ ملحق أو زينة ، وأن لا يُكتب في حواشي صفحاته مطالباً من التفاسير وشأن نزول الآيات .

ونتساءل : ما معنى أن يكتب البعض في القسم العلويّ من صفحات

١ـ الآية ٦٨ ، من السورة ٣٧ : الصافّات .

٢ـ الآية ٤٧ ، من السورة ٩ : التوبة .

٣ـ الآية ٢١ ، من السورة ٢٧ : النمل .

القرآن ألفاظ «خوب» (= جيّد) و«بد» (= سيّيء) ؟!

إنّ ضمّ شجرة عائلة صاحب المكتبة ، ورسالة في تعليم التجويد إلى المصحف هو خطأ ينبغي تركه . وينبغي أن يدوّن كشف الآيات وكشف المطالب في ملحق منفصل ،كما يجب أن تُطبع ترجمة القرآن في كرّاس منفصل أيضاً .

وخلاصة القول ، أنّ القرآن هو الكتاب الوحيد القطعيّ الصدور ، فينبغي ألّا تضمّ إليه مطالب غير قطعيّة . ينبغي أن يُدوّن القرآن دون أيّ مُلحق أو مطلب إضافيّ ، وأن يُتلى على تلك الكيفيّة .

ولكن ، ومع بالغ الأسف ، فإنّ نسخ القرآن القديمة التي تُطبع في هذه الأنحاء قد أُلحق بها من الإضافات والزيادات ما يمكن أن يبلغ في سُمكه بقدر سمك القرآن . وما أشبه ذلك بقول السنائيّ الذي وصف دين رسول الله بقوله :

دين تو را از پى آرايشند   وز پى آرايش و پيرايشند
بسكه ببستند بر او برگ و ساز   گر تو ببينى نشناسيش باز[1]

جاء في خاتمة كتاب «اسلام و احتياجات واقعي هر عصر» (= الإسلام والمتطلّبات الواقعيّة لكلّ عصر من العصور) تأليف سماحة الأُستاذ آية الله العلّامة الطباطبائيّ قدّس الله سرّه العزيز مجموعة استفتاءات قدّمتها لسماحته مجلّة «مكتب اسلام» (= مدرسة الإسلام) حول هذه الأُمور ، فأجاب سماحته عليها وختم أسفلها بتوقيعه . ونورد تلك الأسئلة والأجوبة حرفيّاً لجدارتهما بالتأمّل :

١ـ يقول : «لقد زيّنوا دِينكَ وجمّلوه وأضفوا عليه من الذهب المسكوك لوازمَ وعدّة، لو رأيتَهُ لأنكرتَه ولم تعرفه!».

«**سؤال** : أقْدَم بعض الناشرين على ضمّ سلسلة من الأشكال باسم **طِلسم** مع كلام الله في بعض المصاحف التي طُبع أكثرها في إيران ، وطبعوها سويّةً وعرضوها للبيع .

فهل يوجد سند صحيح لهذه الأشكال والطلاسم أم لا ؟

الجواب : ليس هناك أساساً سند صحيح لهذه الأشكال والطلاسم ، سواء ضُمّت إلى القرآن وطُبعت معه ، أم لم تُضمّ . وليس هناك أيّ دليل وفقاً للموازين الدينيّة على صحّة تلك الأُمور .

سؤال : يُذكر للنظر والتطلّع لكلّ واحد من هذه الأشكال والطلاسم ، سلسلة خواصّ عجيبة تُنسب بأجمعها إلى النبيّ الأكرم وأئمّة الهدى صلوات الله عليهم أجمعين ، فما هو نظركم بشأن هذه الآثار والفوائد ؟!

الجواب : بعض المزايا التي نُقلت عن النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله [وسلّم] وأئمّة الهدى عليهم السلام للنظر إلى هذه الأشكال مُختلقة وكاذبة ، مثل ما ذكر بشأن النظر إلى **ختم النبوّة** وأمثال ذلك ؛ والبعض الآخر ليس له سند .

سؤال : ما هو رأي الشرع الأنور في رسم صور النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم وأئمّة الهدى عليهم السلام بالكيفيّة المُشاهدة ، وضمّها إلى القرآن ، وفي ضمّ الأشكال والطلاسم المذكورة أعلاه ، وفي ضمّ تقويم شهر محرّم وتقويم للـ «نوروز» ؟

الجواب : إنّ رسم صور تخيّليّة للنبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله [وسلّم] ولأئمّة الهدى عليهم السلام وضمّها إلى القرآن ، وكذلك إلحاق سلسلة روايات خرافيّة ، مثل رواية «أنّ مَن ينظر إلى ختم النبوّة يُكتب له ثواب يعادل ثواب ألف ألف حِجّة من حجّات رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم» ، أو أنّ شخصاً لو نظر إلى الشكل الفلانيّ ، غُفر له جميع ذنوبه ،

وأُعطي الشفاعة لأُمّة محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم ؛ هو ممّا يؤدّي إلى هتك حرمة القرآن الكريم ، وهو محرّم .

كما أنّ إلحاق سلسلة أشكال باسم طلاسم وغيرها بالقرآن الكريم ـ مع الالتفات إلى ما ذُكر أعلاه من فقدان هذه الأُمور لأدنى سند ودليل ـ لا يخلو من كونه هتكاً للحرمة .

وعلى الفرد المسلم ـ أساساً ـ أن لا ينسى هذه النكتة أو يغفل عنها ، وهي أنّ هذا الكتاب السماويّ المطهّر الذي يدعى بكلام الله وبالقرآن الكريم ، هو السند الوحيد لمعارف الإسلام الأصليّة والفرعيّة ، وهو السند الحيّ للنبوّة ، وهو كرامة واعتبار ستمائة مليون مسلم في أرجاء العالم .

وبلحاظ هذه النكتة ، فإنّ وجدان الفرد المسلم لن يسمح له مُطلقاً بأن يُلحق بالقرآن كتاباً آخر ـ ولو اشتمل ذلك الكتاب على مطالب حقّة ـ فيجعله في عرض القرآن ، وينشره في المجتمع ؛ ناهيك عن أمثال **تقويم شهر محرّم وتقويم النوروز** ، **وأحكام الكسوف والخسوف** ، التي يُنظر إليها في عالمنا المعاصر نظر سخريّة واستهزاء . وأسوأ من ذلك ضمّ الأشكال والرسوم الخرافيّة والصور التخيّليّة إلى القرآن الكريم ، حيث إنّ ذلك يمثّل إهانة إلى مكانة كلام الله واعتباره .

أمّا الناشرون المحترمون الذين يرغبون في نشر بعض المطالب الحقّة ، كتأريخ أولياء الدين ، وكتب العقائد الدينيّة ، وتجويد القرآن وقراءته ، في ظلّ نشر القرآن الكريم ، فيمكنهم أن يطبعوها ويجلّدوها بصورة منفصلة ، ويقدّمونها إلى المراجعين مع القرآن الكريم .

محمّد حسين الطباطبائيّ

ويمكن العثور على مثل هذه التصرّفات في كتب الأخبار والتواريخ والتفاسير ، حيث يجهل أولئك المتصرّفون بخطأ هذا العمل ومجانبته

للصواب . وأساساً فإنّ التصرّف في خطّ الغير وكتابته وإنشائه ، أو في كلامه أو إمضائه هو أمر محرّم . وليس للمرء حقّ في فصل مطلب ما عن كتاب معيّن وطبعه مستقلاً ، ولو طَبَعه باسم المؤلّف ، لأنّ المؤلِّف قد ألّف كتاباً كاملاً ونشره من حيث المجموع ، فتكون تجزئة ذلك الكتاب دون موافقة المؤلِّف محرّمةً .

كما أنّ حقّ التأليف أمر خاصّ بالمؤلّف ، وليس لأحدٍ ـ شرعاً ـ أيّ حقّ في أن يطبع وينشر كتاب شخص آخر . وقد بحث الحقير الجوانب الشرعيّة لهذه المسألة في رسالة مختصرة .

وينبغي أن يكون اسم الكتاب المطبوع ، وكيفيّة الطبع وترجمة الكتاب بإجازة المؤلِّف ، وإلّا عُدّ ذلك سرقةً .

وممّا يُثير العجب ، أنّ كتاباً قد طُبع باسم «استراتژى زن در اسلام» (= استراتيجيّة المرأة في الإسلام) للعلّامة السيّد محمّد حسين الطباطبائيّ ، وقد طُبعت على غلاف الكتاب صورة مرسومة باهتة لامرأة ، من الرسوم المتداولة في هذه الأيّام !

وكان الكتاب بالفارسيّة ، وقد اشتريتُه وطالعتُه ، فوجدت أنّ الإنشاء هو نفس إنشاء سماحة الأُستاذ العلّامة ، لكنّني تعجّبت كثيراً من تسميته ومن شكله الهيولائيّ التخيّليّ للمرأة على غلاف الكتاب الذي لا ينسجم أبداً مع مذاق الأُستاذ . ثمّ حصل ان جاء الأُستاذ إلى طهران في آخر سنة من حياته ، فمكث فيها أربعة أشهر ، فدار الحديث بيننا يوماً عن هذا الكتاب ، فأظهر تعجّبه الزائد ، وقال : إنّني لم أكتبُ هكذا كتاب !

قلتُ : إنّ الكتاب موجود في منزلي ، وسآتي به . ثمّ جئتُ بالكتاب في اليوم التالي وسلّمته لسماحته ، فاحمرّ وجهه من شكل الكتاب واسمه ووضعه ، وقال : دعه عندي لأُطالعه .

ثمّ اتّضح أنّ شخصاً يُدعى ... وحاله واسمه معروفان ، قد جزّأ مقالةً في الحقوق والموازين كانت قد أُلِّفت مع مقالات أُخرى في مكانٍ واحد ، ثمّ طبع تلك المقالة بتلك الكيفيّة الرديئة ونشرها دون أن يُطلع العلّامة أبداً على عمله .

وقد ألّف الحقير كتاباً باسم «**لَمعات الحسين عليه السلام**» ، وأوصيت فيه بأنّ من المناسب أن تدوّن خُطب الإمام وكلماته ومواعظه التي وردت في هذا الكتاب مع نفس ترجمتها على لافتات فتُنصب في المجالس الحسينيّة والتكايا والجامعات وقاعات الاجتماعات وأمثالها ، ليؤدّي ذلك إلى استفادة المستمعين ـ مضافاً إلى الاستفادة السمعيّة ـ من خلال مشاهدة هذه الآثار العجيبة ، فتحلّق أرواحهم في الأُفق الرحيب لأفكار سيّد الشهداء عليه السلام الشاملة الباعثة على الحياة .

ثمّ شوهد بعد ذلك أنّ البعض قد قام بتقطيع بعض الكلمات ، وتغيير ترجمتها ، ثمّ طبعها على قطع قماشيّة جعلها في هيئة أعلام ، وكتب في أسفلها : من كتاب «لمعات الحسين» القيّم !

أفليس من الخطأ نسبة هذه المطالب إلى هذا الكتاب ، حين تختلف ترجمتها عن ترجمة كتاب «اللمعات» وحين تُجزّأ عبارات الخطب وتُورد منتخبات منها ؟!

وحين يشاء هؤلاء أن يكتبوا ما يشاؤون ، فعليهم أن لا يضعوا عليه اسم كتاب «اللمعات» . أو عليهم أن يكتبوا ـ على أقلّ تقدير ـ : اقتباس من «لمعات الحسين عليه السلام» . وإلّا عُدّ ذلك كذباً منهم ، فالكذب له أقسام وأنواع .

ولقد ألّف المرحوم المحدّث القمّي : الحاجّ الشيخ عبّاس ، كتاباً باسم «مفاتيح الجنان» ، وهو كتاب جامع وشامل في الأدعية والزيارات . وبغضّ

النظر عن عدد من السور القرآنيّة التي انتخبها ووضعها في بداية الكتاب ـ وهو عمل غير صائب ـ [1] فإنّ الكتاب يُعدّ في مجموعه كتاباً نافعاً.

وقد جرى بعد وفاة ذلك المرحوم طبع هذا الكتاب ونشره في أكثر من خمسين شكلاً وهيئة، فقد طُبع في هيئة كتاب سميك مع الترجمة، وطبع بدون ترجمة، وباسم «كلّيّات مفاتيح الجنان»، و«منتخب المفاتيح»،

١ـ إنّ جعل سور قرآنيّة خاصّة في بداية الكتاب، يعدّ نسخاً لباقي القرآن وإهمالاً له، ويعتبر اهتماماً بهذه السور وتجاهلاً لسائر السور. وإنّ مَن يقرأ دعاءً أو زيارةً إن احتاج أثناء ذلك إلى قراءة سورة خاصّة، فيمكنه أن يقرأها من المصحف. وينبغي أن يوجد القرآن لدى المؤمن مقدّماً على «مفاتيح الجنان»؛ وإلّا لنسخت كتبُ الأدعية هذه القرآن الكريم، وهي مصيبة عظمى.

فإن قُلتَ: إنّ المنهمك في الدعاء والزيارة، بالاستفادة من «مفاتيح الجنان» يمكنه أن يعثر على هذه السور المنتخبة بسرعة فيقرؤها. كان الجواب أنّ القرآن ينبغي أن يوجد لدى الداعي والزائر أقربَ متناولاً وأكثر تقدّماً من «المفاتيح»، وهذا العمل قد تسبّب في قلّة مشاهدة المصاحف في المشاهد المشرّفة، وفي كثرة تواجد «المفاتيح». أليس هذا العمل نسخاً عمليّاً للقرآن؟!

ونظير هذا العمل، بل وأسوأ منه، هو تجزئة القرآن إلى ٣٠ أو ٦٠ أو ١٢٠ جزءاً، يُجلّد كلُّ منها مستقلّاً، ويحصل كثيراً أن تقطّع كثير من الآيات، فيقع نصفها في جزء، ونصفها الآخر في جزء آخر. أليس هذا هتكاً للقرآن؟!

والأقبح منه، أنّ كثيراً من الذين يقومون بوقف هذه الأجزاء يطبعون في بداية كلّ جزء صورتهم مع صورة الوقف، أو يطبعون صورة شابّ فقدوه فأوقفوا هذه الأجزاء الثلاثين تذكاراً له. ثمّ إنّهم طبعوا سورة الفاتحة مستقلّةً فضمّوها إلى هذه الأجزاء. وهذه الأعمال حرام على وجه التحقيق وهي مدعاة للعبث بكلام الله المجيد. والسبب في ذلك هو عدم وجود إدارة مسؤولة للنظر في هذه الأُمور، ممّا يؤدّي إلى قيام كلّ شخص من العوام غير ذوي الاطّلاع بمثل هذه الأعمال من تلقاء نفسه طلباً للثواب. مضافاً إلى أن أصحاب المكتبات ودور النشر ليس لديهم اطّلاع عن عاقبة هذه الأُمور، مما يتسبّب في نشوء هذه المفاسد العظيمة في عاقبة الأمر.

و«المفاتيح مع حديث الكساء» ، وبضمّ بعض سور القرآن التي لم يضمّها المرحوم ... إلى آخره ، حيث إنّ من المؤكّد أنّ روح ذلك المرحوم تلعن مثل هذه التصرّفات .

أفيمكن ـ بلحاظ الشرع ـ العثور على سبيلٍ صحيح لمثل هذه التصرّفات ؟

يقول المحدِّث القمّيّ في «المفاتيح» [1] بعد شرح مبسوط في أضرار التصرّف في الأدعية وفي عبارات الآخرين ، وانتقاد دعاء **حُبَّى** المُختلق ، والزيارة **المَفْجَعَة** :

«فتجد ـ مثلاً ـ كتابي الفارسيّ المسمّى «**منتهى الآمال**» المطبوع حديثاً قد عبث فيه الكاتب بما يلائم ذوقه وفكره ، ومن نماذج ذلك أنّ الكاتب دسّ كلمة **الحمد للّه** في أربعة مواضع خلال سطرَين من الكتاب ، فقد كتب في حال **مالك بن يُسر** اللعين أنّه قد شُلّت يداه بدعاء الحسين عليه السلام **الحمد للّه** ، فكانتا في الصيف كخشبتَين يابستَين **الحمد للّه** ، وفي الشتاء يتقاطر منهما الدم **الحمد للّه** ، فكان عاقبة أمره خُسراً **الحمد للّه**.

ودسّ أيضاً في بعض المواضع كلمة «خانم» (= السيّدة) عقيب اسم **زينب وأُم كلثوم** تجليلاً لهما واحتراماً .

وكان الكاتب مُعادياً **لحميد بن قَحْطَبَة** ، فحرّف اسمه إلى **حميد بن قَحْبَة** ، ثمّ احتاط احتياطاً فأشار في الهامش إلى أنّ في بعض النُّسخ **حميد بن قحطبة** . واستصوب أن يكتب الاسم **عبد الله** عوض **عبد رَبِّه** ؛ والاسم **زَحْر بن قيس وبالحاء** المهملة التزم أن يسجّله **بالجيم** أينما وجده ؛

١ـ نقلنا الترجمة العربيّة لكلام المحدِّث القمّيّ ، من «مفاتيح الجنان» المعرَّب، تعريب السيّد محمّد رضا النوريّ النجفيّ بتصرّف يسير.(م)

وخطّأ كلمة **أُمّ سلمة** ، فسجّلها **أُمّ السلمة** ؛ إلى غير ذلك» .

ثمّ قال المرحوم المحدِّث القمّيّ : «والغاية التي توخّيتُها بعرض هذه النماذج من التحريف ، هي بيان أمَرين : أوّلاً : نلاحظ هذا الكاتب أنّه لم يُجرِ ما أجراه من الدسّ والتحريف ، إلّا وهو يزعم بفكره وذوقه أنّ في الكتاب نقصاً يجب أن يُزال ، وليس النقص والوهن إلّا ما يُجريه من التحريف . فلنقسْ على ذلك الزيادات التي يبعثنا الجهل على إضافتها ...

ولنُلاحظ ثانياً الكتاب الذي تكلّمنا عنه ، [فـ] إنّه كتاب لمؤلّف حيّ يُراقب كتابه ويترصّد له ، يجري فيه من التحريف والتشويه نظائر ما ذكرتُ ، فكيف القياس في سائر الكتب والمؤلّفات ، وكيف يجوز الاعتماد على الكتب المطبوعة إلّا إذا كانت من المؤلّفات المشهورة للعلماء المعروفين ، وعُرضتْ على علماء الفنّ فصدّقوها وأمضوها» .[1]

كما أنّ المرحوم المحدِّث القمّيّ ـ الذي يُعدّ في ضبط وثبت ونقل الحديث والتأريخ بدقّة متناهية خرّيت الفنّ ومن نوادر مُعاصرينا الأجلّاء ـ يقول في مقدّمة كتابه الشريف «نفس المهموم في مُصيبة أبي عبد الله الحسين المظلوم عليه السلام» :

«فلو شاء أحد نقل فائدة أو مطلب عن هذا الكتاب ، فلا ينقلنّ عنه بلا واسطة ولا إشارة ، وعليه أن يذكر اسم هذا الكتاب أوّلاً ، فيذكر أنّه ينقل عن «نفس المهموم» ؛ ذلك أنّي أحبّ أن يُعَدّ هذا الكتاب الشريف من كتب المقاتل ، وأن يذكر أصحابُ المنابر هذا الداعي ، ولا ينسونه في دعائهم» .[2]

١ـ «مفاتيح الجنان» ص ٤٣٣ ، الطبعة الأصليّة للمكتبة الإسلاميّة.

٢ـ «نفس المهموم» ص ١ ، طبعة المكتبة الإسلاميّة ، وهذه الفقرة وردت بالفارسيّة فقمنا بتعريبها ، أمّا الفقرة اللاحقة فقد وردت بالعربيّة.(م)

ثمّ قال : **عَلَى أَنَّهُ قَدْ وَصَلَ عَنِ السَّلَفِ قَدِيماً : أَنَّ اسْتِرَاقَ الفَوَائِدِ عِنْدَ أُولِي الكَمَالِ أَفْظَعُ مِنَ اسْتِرَاقِ ذَخَائِرِ المَالِ . وَغَيْرَتِهِمْ عَلَى بَنَاتِ الأَفْكَارِ كَغَيْرَتِهِمْ عَلَى البَنَاتِ الأَبْكَارِ . وَمَنْ كَذَبَ كُذِّبَ ؛ وَمَنْ سَرَقَ عُذِّبَ»** .[1]

وقد كان أُستاذنا في النجف الأشرف في الفقه والأُصول ـ سماحة شيخ الفقهاء والمجتهدين ، العلّامة الثاني : آية الله العظمى الشيخ حسين الحلّيّ أعلى الله تعالى درجته ـ يوصينا بقوله : لا تُلقوا بالاً إلى نقل الأقوال ، حتّى تعثروا بأنفسكم على المصدر الذي نُقل القول منه ، فترونه عياناً !

ولقد شاهدنا بأنفسنا ، حين كنّا نُراجع كتاباً ما لنتحقّق عمّا نُقل عنه من قول أو مطلب ، أنّ حوالي سبعين في المائة من الأقوال المنقولة لا تطابق الواقع .

وعلى كلّ حال ، فلنرجع إلى الحديث في إعجاز القرآن وكونه عربيّاً ، فنذكر كلاماً لسماحة الأُستاذ آية الله العلّامة الطباطبائيّ قدّس الله مضجعه المُنيف ، فقد وُجّه إليه السؤال التالي : «لماذا عُدّت اللغة العربيّة من لوازم الإيمان والاعتقاد بالإسلام ؟ وهل تجب قراءة القرآن والصلاة وغيرها بالعربيّة أم بأيّ لغة أُخرى ؟» .[2]

فقال في الإجابة :

«نظراً لأنّ القرآن الكريم يمتلك إعجازاً من جهة ألفاظه (كما يمتلك إعجازاً من جهة معانيه) ، فإنّ لفظه العربيّ يجب أن يُحفظ . وحفظ كون

١ـ «نفس المهموم» ص ١ ، طبعة المكتبة الإسلاميّة .

٢ـ «فرازهائى از اسلام» للعلّامة السيّد محمّد حسين الطباطبائي، ص ٣٠٦ ، السؤال رقم ٣٩، طبعة جهان آرا.

الصلاة عربيّةً يتلخّص في وجوب القراءة فيها لقدرٍ من القرآن الكريم (سورة الحمد مع سورة أُخرى) في كلّ ركعة . ومن جهة أُخرى ، فإنّ الآيات والأخبار ، التي هي السند الأساس للدين ، قد جاءت بالعربيّة . وهذا هو السبب في اهتمام المسلمين باللغة العربيّة» .[1]

وقال العلّامة :

«وأمّا إعجاز القرآن الكريم في بيانه ، فمع أنّ أُسلوب القرآن الخارق للعادة كان من سنخ اللغة العربيّة في عصر فصاحة الأُمّة العربيّة وبلاغتها ، حيث كان أشبه بشعلة ساطعة اختصّت بالعرب دون غيرهم ؛ وأنّ هذه اللغة قد تعرّضت في عصر الفتوحات الإسلاميّة في القرن الأوّل الهجريّ إلى اختلاط باللغات الأجنبيّة ، ممّا أدّى في نهاية الأمر إلى فقدان لغة المخاطبة العربيّة ـ شأنها شأن سائر اللغات ـ رونقها السابق ، وإلى ابتعادها وتغرّبها عن إشراقها وروعتها . بَيدَ أنّ القرآن الكريم ليس مُعجزاً في أُسلوبه اللفظيّ فحسب ، بل إنّ جهاته المعنويّة ـ كجهاته اللفظيّة ـ معجزة ، وهو

١ـ «فرازهائى از اسلام» للعلّامة السيّد محمّد حسين الطباطبائيّ ، ص ٣٣٠ ، رقم ٣٩.
يقول أحمد أمين المصريّ في كتاب «يوم الإسلام» ص ١٦٨ و ١٦٩:

وكان ممّا أتت به المدنيّة الغربيّة النعرة القوميّة ، فكلّ أُمّة تتعصّب لجنسها ، وسرت هذه الروح إلى العالم الشرقيّ مع المدنيّة الحديثة وقد كانوا لا يعرفون إلّا قسمة العالم إلى قسمين: دار **الإسلام ودار الحرب** ؛ فالمسلم داره العالَم الإسلاميّ كلّه ، لذلك سهلت عليه الرحلات من مثل **ابن بطوطة وابن جبير وغيرهما** ، وتنقُّل رجال الحديث من قطر إلى قطر يجمعون ما انتشر من الحديث وكأنّهم بين أهليهم ، حتّى كانت لعنة الوطنيّة التي ابتدعتها أُوروبّا وأسرفت فيها . والقانون الطبيعيّ يقتضي تدرّج العالَم من نظرة جزئيّة لا ينظر الإنسان فيها إلّا إلى نفسه كالطفل في مهده ، ثمّ يرتقي فينظر إلى عائلته ، ثمّ يرتقي فينظر إلى قومه ، ثمّ يرتقي فينظر إلى الإنسانيّة كلّها ، وبّما كان الإنسان في هذا الطور لا ينظر إلّا إلى قومه ولما يصل من الرقيّ إلى حدّ أن ينظر إلى الإنسان كلّه.

يتحدّى مَن لا يؤمن به بتلك الجهات جميعاً .

وبالنظر إلى هذه الأُمور ، فإنّ من يمتلك إلماماً ومعرفة باللغة العربيّة ، ومن يمتلك تتبّعاً في النظم والنثر العربيّين ، لا يسعه أبداً أن يشكّ في أنّ لغة القرآن هي لغة فصيحة جميلة ومحبّبة يقف إدراك الإنسان مبهوتاً أمام روعتها ، وتتحيّر الألسن عن وصفها .

فلغة القرآن ليست شعراً ولا نثراً ، بل هي أُسلوب يفوق أُسلوب الشعر والنثر ، له جاذبيّة تفوق جاذبيّة الشعر ، وسلاسة تفوق سلاسة النثر .

وحين توضع آية من القرآن أو جملة منه في خطبة من خطب البلغاء والفصحاء السابقين أو المؤلّفين المعاصرين ، لكانت كالمصباح المشرق في ديجور الظلام ، ولبدا غيرها أمامها هزيلاً لا يرقى إلى مرتبتها» .[1] وقال : **القرآن معجزة**.[2]

١ـ «قرآن در اسلام» (= القرآن في الإسلام) ص ١١٨ و ١١٩ ، طبعة دار الكتب الإسلاميّة، سنة ١٣٩١ هـ . ق .

٢ـ من بين الآيات القرآنيّة المعجزة ، آيات الإرث ، ومجموعها ثلاث آيات ، هي الآيات ١١ و١٢ وآخر آية من سورة النساء ، حيث تنطوي في هذه الآيات الثلاث جميع أحكام الإرث في ثلاث طبقات مختلفة ، في تعقيد كبير وحسابات رياضيّة غامضة يبحث فيها الفقهاء في كتاب الميراث . وقد بعثت علماء العالم على التحيّر أمامها من جهة إيجازها وفصاحة عبارتها، ومن جهة إتقان ومتانة قوانين الإرث . فهذه الأحكام المختلفة للإرث ممّا ينبغي التأمّل فيها سنواتٍ طويلة ، ولو شاء واضعها تدوينها بقوةٍ بشريّة ، لابتلي بالكثير من الإشكالات، ولواجه الكثير من المتاعب والمحن . وقد نزلت على النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم فجأة ودون مقدّمة طويلة ، فقرأها النبيّ على الناس.

أورد الواقديّ في «المغازي» ج ١ ، ص ٣٣١ في تتمّة غزوة أُحد أنّ سعد بن ربيع استُشهد في غزوة أُحد ، وخلّف ابنتين ، وكانت امرأته حاملاً . فجاء أخوه فأخذ تركته حسب قانون الجاهليّة ، ولم يكن قد نزل على رسول الله وحيٌ في الميراث ، وكانت امرأة سعد ⇦

من المسلّم أنّ العربيّة لغة مُقتدرة واسعة يمكنها بيان مقاصد الإنسان والتعبير عن إحساساته الداخليّة بأدقّ وجهٍ وأجلاه؛ وليس هناك لغة أُخرى تناظر العربيّة في هذا المجال.

والتأريخ شاهد على أنّ عرب الجاهليّة ـ قبل الإسلام، وكان أغلبهم يقيمون في الخيام محرومين من تقاليد المدنيّة ومن معظم مزايا الحياة ـ كان

⇦ حازمة جليلة مُحتاطة، فدعت رسول الله في منزلها خارج المدينة هو وعشرين نفر من الصحابة، فقدّمت إليهم طعاماً بسيطاً فأكلوا منه حتّى شبعوا بأجمعهم ببركة رسول الله.

قال الواقديّ:

«ثمّ قامت امرأة سعد بن رَبيع فقالت: يا رسول الله! إنَّ سعد بن رَبيع قُتل بأُحُد، فجاء أَخوه فأَخذ ما ترك، وترك ابنتين ولا مال لهما، وإنّما يُنكَح ـ يا رسول الله ـ النساءُ على المال. فقال رسول الله صلَّى الله عليه [وآله] وسلَّم: **اللّهُمَّ أَحْسِنِ الخِلَافَةَ عَلَى تَرِكَتِهِ**؛ لم ينزل عَلَيّ في ذلك شيءٌ، وعودي إليَّ إذا رجعتُ! (قال جابر، راوي الرواية): فلمّا رجع رسول‌الله صلَّى الله عليه [وآله] وسلَّم إلى بيته جلس على بابه وجلسنا معه، فأخذ رسولَ الله صلَّى‌الله عليه [وآله] وسلَّم بُرَحاء حتّى ظننّا أنّه أُنزل عليه. قال: فسُرّي عنه والعَرَق يتحدّر عن جبينه مثل الجُمّان. فقال: عَلَيّ بامرأة سعد! قال: فخرج أبو مسعود عُقبة‌بن عمرو حتّى جاءَ بها. قال: وكانت امرأةً حازمةً جَلْدَة، فقال: أين عمّ ولدك؟ قالت: يارسول‌الله، في منزله. قال: ادعيه لي! ثمّ قال رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلَّم: اجلسي! فجلستْ وبعث رجلاً يعدو إليه فأتى به وهو في بَلْحارث بن الخزرج، فأتى وهو مُتعب. فقال رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلَّم: ادفع إلى بنات أخيك ثُلُثَى ما ترك أخوك. فكبّرت امرأته تكبيرة سمعها أهل المسجد، وقال رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلَّم: ادفع إلى زوجة أخيك الثُّمن وشأنك وسائر ما بيدك. ولم يُورَث الحَمْلُ يومئذٍ.

وقد نقلنا هنا مختصراً من هذه القصّة الجميلة المفصّلة. والآية الأُولى التي جعلت للبنتَين ثُلثي المال هي: **يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ**.

والآية التالية التي عيّنت إرث الزوجة هي: **وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ**.

لهم مقام عظيم في قدرة البيان وبلاغة الكلام، بحيث لا يوجد في صفحات التأريخ من ينافسهم في هذا المجال أبداً.

وكان للكلام الفصيح البليغ منزلاً لا يدانيه منزل في المحافل الأدبيّة العربيّة، فكان العرب يجلّون الكلام الجميل الأدبيّ كثيراً، وكانوا يعلّقون الأشعار الرائعة التي تستحوذ على القلوب التي يُنشدها الشعراء المبرّزون على جدار الكعبة بنفس الاحترام الذي ينصبون فيه أصنامهم وآلهتهم في الكعبة.

وعلى الرغم من ذلك الشمول والسعة للّغة العربيّة؛ وعلى الرغم من تفوّق العرب في فصاحتهم وبلاغتهم بحيث كانوا يستعملون قوانينها الدقيقة وإشاراتها دون أدنى زلل، وبحيث كانوا يبدعون في استعمال الألفاظ الجزلة العذبة الجميلة، إلّا أنّ الآيات القرآنيّة الكريمة التي كانت تنزل على النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم فيتلوها بدوره على الناس، قد أحدثت، ومنذ الأيّام الأولى، ضجّة كبيرة في أوساط العرب وخطبائهم ومتكلّميهم، واستحوذ بيان القرآن الجذّاب المحبّب ذي المحتوى الكبير على مجامع القلوب، وبهر أصحاب الألباب بحيث أنساهم كلّ كلامٍ سواه فأنزلوا ـ من ثمّ ـ الأشعار النضرة الرائعة لأساتذة الفصاحة (المعلّقات) من أستار الكعبة.

وحقّاً فإنّ هذا الكلام الإلهيّ يجتذب بروعته وجماله اللامتناهي كلّ قلب، ويختم بأُسلوبه المحبّب بختم الخرس والتلجلج على أفواه المتكلّمين ذوي الكلام الجميل.

بَيدَ أنّ القرآن كان ـ من جهة أُخرى ـ علقماً، صَعُب على المشركين وعبدة الأصنام تجرّعه ـ لأنّه يستدلّ على دين التوحيد ببيان بليغ ومنطق قويّ متين، ويذمّ نهج الشرك وعبادة الأصنام أشدّ الذمّ، ويحقّر الأصنام

التي كانت تُدعى بالآلهة وتُمَدّ إليها أيدي المحتاجين ضارعة ، وتُقرّب إليها القرابين ، وتُعبد في نهاية المطاف من دون الله تعالى ؛ فكان القرآن يذكرها على أنّها تماثيل حجريّة وخشبيّة بلا روح ولا أثر ولا خاصيّة .

كما كان القرآن يدعو عرب الجاهليّة المتوحّشين الذين انغمروا في الكبر والعنجهيّة ، وأرسوا حياتهم على أساس سفك الدماء وقطع الطريق ؛ إلى دين عبادة الحقّ واحترام العدل والإنسانيّة .

لذا ، فقد هبّ العرب عبدة الأصنام لمحاربته ومقابلته ، وتوسّلوا بكلّ الطرق لإخماد مشعل هدايته المتّقد المتأجّج ، إلّا أنّهم لم يحصدوا من كلّ جهودهم ومساعيهم الخاسرة إلّا اليأس .

وقد جمع المشركون في أوائل البعثة بين النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم وبين أحد الفصحاء ويدعى **الوليد** ، وكان من المتبحّرين المشهورين في الفصاحة والبلاغة ، فقرأ النبيّ آياتٍ من أوّل سورة **حمَ السجدة** . وكان الوليد يُنصت بدقّة ، والغرور والكبر يملآن وجوده ، حتّى إذا بلغ النبيّ إلى الآية الشريفة : **فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَـٰعِقَةً مِّثْلَ صَـٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ** ،[1] اقشعرّ جلد الوليد ، وغمرته الرعدة ، حتّى لم يقوَ على تمالك نفسه ، فانفضّ المجلس وتفرّق مَن كان فيه .

ثمّ ذهب إلى الوليد عدّةٌ من المشركين فعتبوا عليه أنّه فضحهم لدى محمّد ، فقال : لا والله ، فأنتم تعلمون أنّي لا أخشى أحداً ، وليس لي طمع في شيء ؛ وتعلمون أنّي أديب متبحّر في الفصاحة . ولكنّي سمعتُ من محمّد كلاماً لا يُشبه كلام الناس في شيء ، فهو كلام جذّاب يأخذ بمجامع القلب ، وما هو بشعر ولا نثر ، بل كلامٌ أصيلٌ كثير المعنى . وإن كنتُ قائلاً

١ـ الآية ١٣ ، من السورة ٤١ : فصّلت (حم السجدة) .

في حقّه شيئاً ، فإنّ عليكم أن تمهلوني ثلاثاً لأفكّر فيه . فتركوه ، ثمّ جاءوا إليه بعد ثلاث ، فقال : إنّ كلام محمّد سحرٌ ، فإنّه أخذ بقلوب الناس ! واقتفى المشركون أثر الوليد ، فدعوا القرآن سحراً وشعوذة ، واجتنبوا سماعه ، ومنعوا الناس من الإنصات إليه . وكان النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم يتلو القرآن في المسجد الحرام أحياناً ، فكانوا يصفّقون ويرفعون أصواتهم بالغناء كي لا يسمع أحد تلاوته .

ومع ذلك كلّه ، فقد استحوذ بيان القرآن الفصيح المحبّب على قلوبهم ، فكانوا كثيراً ما يستغلّون ظلمة الليل ، ليتجمّعوا خلف جدار بيت النبيّ وينصتون لتلاوة القرآن ، ثمّ يتهامسون بينهم : لا يمكن لبشرٍ مخلوق أن يقول مثل هذا الكلام .

وقد أشار الله تعالى إلى هذا المعنى في الآية المباركة :

نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا.[١]

أي : أنّنا نعلم خير العِلم أنّهم حين يستمعون إلى تلاوتك ، بأيّ آذانٍ يسمعون القرآن . ونعلم أنّ هؤلاء الظالمين يقولون إنّ هذا الرجل مسحور ، ويهمسون بذلك في آذان بعضهم إذا انصرفوا من عندك .

وكان النبيّ الأكرم يذهب في بعض الأحيان قرب الكعبة ، فينشغل بتلاوة القرآن ودعوة الناس ، وكان فصحاء العرب يمرّون أمام النبيّ ، فينحنون لئلّا يراهم ويعرفهم . يقول تعالى : **أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ.**[٢]

١ـ الآية ٤٧ ، من السورة ١٧ : الإسراء .

٢ـ صدر الآية ٥ ، من السورة ١١ : هود .

والخلاصة ، فإنّ هذه العظمة مختصّة بالقرآن الكريم فقط ، حيث أوّلاً : إنّ عين عباراته وكلماته ـ وليس معانيه وحدها ـ وحيٌ . وثانياً : إنّ تلك الكلمات قد بلغتنا دون أدنى تغيير أو تحريف . حيث جرى تناقلها في كلّ عصر بالكتابة والحفظ ، من جيلٍ إلى جيل ، ومن عصرٍ إلى العصر الذي يتلوه .

وذلك أمر لم يتحقّق إلّا بواسطة جهاد المسلمين العظيم في حفظه وصيانته منذ زمن النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم إلى يومنا هذا ، وبواسطة الوعد المعجز الإلهيّ بحفظ وصيانة هذا الكتاب الإلهيّ .

أمّا كتب اليهود والنصارى ،كالتوراة والإنجيل وسائر الكتب المرسلة وكتاب **تلمود** اليهود ، فليس فيها ما يماثل القرآن أبداً .

أوّلاً :كما ذكرنا سابقاً ، فإنّ معاني ومفاهيم التوراة والإنجيل ـ وليس ألفاظها ومعانيها ـكانت وحياً سماويّاً على النبيّ موسى والنبيّ عيسى على نبيّنا وآله وعليهما الصلاة والسلام . وألفاظ وعبارات التوراة والإنجيل هي بأجمعها من إنشائهما ، حيث كانا يصبّان تلك المعاني في قالب العبارات وفق ما يشاءان ، باستثناء الألواح التي نزلت على النبيّ موسى .

وثانياً : إنّ مطالب النبيّ موسى في التوراة والإنجيل قد ضاعت . وهذه الكتب الفعليّة التي تُدعى باسم التوراة والإنجيل قد دُوّنت فيما بعد معتمدةً على رواية شخص واحد ، عديمة السند .

بَيدَ أنّ القرآن الكريم لمّا أقرّ أصل التوراة والإنجيل ، ونظراً للتذكير بأنّ مقاطع من التوراة والإنجيل الأصليّين موجودة في الكتابَين الحاليّين ؛

وانظر : «خلاصة تعاليم الاسلام» للعلّامة آية الله الطباطبائيّ قدّس الله سرّه ، ص ١٠٤ إلى ١٠٦ ، انتشارات كعبة.

فينبغي أن تدعى كتباً مدسوسة ، أي كتباً امتزج فيها الحقّ بالباطل .

أمّا الآية التي تدلّ على أنّ بعضاً من التوراة الحقّة موجود لدى اليهود ، فهي قوله تعالى :

وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُولَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ .[1]

وأمّا الآية الدالّة على أنّ بعضاً من الإنجيل الحقّ موجود في أيدي النصارى ، فقوله تعالى :

وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّا نَصَـٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ .[2]

ودلالة هاتين الآيتين على اشتمال التوراة والإنجيل الفعليّين على بعض الأحكام الحقّة ظاهرة .

إنّ كتب اليهود والنصارى هي كتب جمعها الناس وألّفوها نظير كتب الأخبار والتواريخ الموجودة لدينا . فكتابَي التوراة والإنجيل أشبه بكتب «روضة الصفاء» و«تاريخ الطبريّ» و«سيرة ابن هشام» التي تتحدّث عن أحوال موسى وعيسى وغيرهما . أمّا قولهم : كتاب موسى عليه السلام ،[3] فإنّهم يقصدون به الكتاب الذي يتحدّث عن أحواله وسيرته ، ولا يقصدون كتاباً كتبه موسى بنفسه .

١ـ الآية ٤٣ ، من السورة ٥ : المائدة .

٢ـ الآية ١٤ ، من السورة ٥ : المائدة .

٣ـ جاء في «قاموس كتاب مقدّس» مادّة «موسى» ص ٨٤٩ : موسى بمعنى المُنتشَل من الماء. وفي ص ٨٥٣: ولا يعلم أحد حتّى الآن موضع قبر موسى.

وكذلك قولهم : كتاب المسيح عليه السلام ، أي ترجمة حياته وليس كتاباً من تأليفه . وكتاب يوشع : أي الكتاب الذي يتحدّث عن ترجمة أحواله ، وليس كتاباً كتبه يوشع بنفسه . تماماً كقولنا : كتاب المختار ، أي الكتاب الذي أُلّف في شرح أحوال المختار وقيامه .

ومع كلّ هذه الأُمور ، فإنّ كتبنا الحديثيّة تفوق في اعتبارها كتابَي التوراة والإنجيل اللذين يُعدّان لدى اليهود والنصارى كتابَين سماويّين ، فقد وردت في أحاديثنا روايات متواترة ومستفيضة كثيرة ، بينما التوراة والإنجيل ليسا كذلك . كما أنّ أغلب سند رواياتنا متّصل ، وحال الرواة وترجمتهم معلوم ومدوّن ، أمّا التوراة والإنجيل فليسا قطعيَي الصدور ، وليس لها سند متّصل .

ولتفصيل حقيقة الأمر ، فإنّنا مجبرون على خوض بحث مستقلّ حول كلّ من كتابَي التوراة والإنجيل ، وحول التغييرات والتحوّلات التي طرأت عليهما .

أمّا بالنسبة إلى التوراة ، فقد قال سماحة آية الله العلّامة الطباطبائي قدّس الله تربته الشريفة تحت عنوان «ما هو الكتاب الذي ينتسب إليه أهل الكتاب وكيف هو ؟» :

«الرواية وإن عدّت المجوس من أهل الكتاب ، ولازم ذلك أن يكون لهم كتاب خاصّ أو ينتموا إلى واحد من الكتب التي يذكرها القرآن ككتاب نوح ، وصحف إبراهيم ، وتوراة موسى ، وإنجيل عيسى ، وزبور داود ؛ لكنّ القرآن لا يذكر شأنهم ، ولا يذكر لهم كتاباً . والذي عندهم من «أَوِستا» لا ذكر منه فيه ، وليس عندهم من سائر الكتب اسم .

وإنّما يطلق القرآن **أهل الكتاب** فيما يُطلق ، ويريد بهم اليهود والنصارى ، لمكان الكتاب الذي أنزله الله عليهم .

والذي عند اليهود من الكتب المقدّسة خمسة وثلاثون كتاباً ، منها توراة موسى ، مشتملةً على خمسة أسفار ،[١] ومنها كتب المؤرّخين اثنا عشر كتاباً ؛[٢] ومنها كتاب أيّوب ، ومنها زبور داود ، ومنها ثلاثة كتب لسليمان ،[٣] ومنها كتب النبوّات سبعة عشر كتاباً .[٤]

ولم يذكر القرآن من بينها إلّا توراة موسى وزبور داود عليهما السلام» .[٥]

ثمّ قال في البحث التأريخيّ :

«قصّة التوراة الحاضرة : بنو إسرائيل هم الأسباط من آل يعقوب ، كانوا يعيشون أوّلاً عيشة القبائل البدويّين ، ثمّ أشخصهم الفراعنة إلى مصر ، وكانوا يعامل معهم معاملة الأُسراء المملوكين حتّى نجّاهم الله بموسى من فرعون وعمله .

١ـ وهي سفر الخليقة ، وسفر الخروج ، وسفر الأحبار ، وسفر العدد ، وسفر الاستثناء، (التعليقة).

٢ـ وهي كتاب يوشع ، وكتاب قضاة بني إسرائيل ، وكتاب راعوث ، والسفر الأوّل من أسفار صموئيل والثاني منها ، والسفر الأوّل من أسفار الملوك ، والثاني منها ، والسفر الأوّل من أخبار الأيّام ، والسفر الثاني منها ، والسفر الأوّل لعزرا ، والثاني له ، وسفر إستير، (التعليقة).

٣ـ وهي كتاب الأمثال ، وكتاب الجامعة ، وكتاب تسبيح التسابيح ، (التعليقة).

٤ـ وهي كتاب نبوّة أشعيا ، وكتاب نبوّة أرميا ، ومراثي أرميا ، وكتاب حزقيال، وكتاب نبوّة دانيال، وكتاب نبوّة هوشع ، وكتاب نبوّة يوبيل ، وكتاب نبوّة عاموص ، وكتاب نبوّة عويذيا، وكتاب نبوّة يونان ، وكتاب نبوّة ميخا ، وكتاب نبوّة ناحوم ، وكتاب نبوّة حيقوق، وكتاب نبوّة صفونيا ، وكتاب نبوّة حجى ، وكتاب نبوّة زكريا ، وكتاب نبوّة ملاخيا، (التعليقة).

٥ـ «الميزان في تفسير القرآن» ج ٣ ، ص ٣٣٧ و ٣٣٨ .

وكانوا في زمن موسى يسيرون مسير الحياة بالإمام ، وهو موسى ، وبعده **يوشع** عليهما السلام . ثمّ كانوا بُرهةً من الزمان يدبّر أمرهم ا لقضاة مثل **إيهود وجدعون** وغيرهما . وبعد ذلك يشرع فيهم عصر الملك . وأوّل الملوك فيهم شاؤل ، وهو الذي يسمّيه القرآن الشريف **بطالوت** ، ثمّ **داود** ، ثمّ **سليمان**.

ثمّ انقسمت المملكة وانشعبت القدرة ، ومع ذلك ملك فيهم ملوك كثيرون كـ : **رُحبُعام وإبيام ويِربُعُام ويهوشافاط ويهورام** وغيرهم بضعة وثلاثون ملكاً .

ولم تزل تضعف القدرة بعد الانقسام حتّى تغلّبت عليهم ملوك بابل [1]

١ـ جاء في تعليقة المعلّق على كتاب «تاريخ تمدّن اسلام وعرب» (= تاريخ حضارة الإسلام والعرب» ص ١٢ ، المقدّمة ، الطبعة الثانية : «تقع مدينة بابل بالقرب من نهري دجلة والفرات التي تدعى حاليّاً بالعراق العربيّة . ويبلغ امتدادها مائة ميل . وكانت قد أُحيطت بسور ارتفاعه ثلاثة أمتار ، وعرضه بهذا المقدار ، بحيث كانت العجلات التي تجرّها أربعة خيول تعبر من فوقه بيُسر . والملك الذي بنى مدينة بابل هو **نمرود** ، وزمنه يرجع إلى **٢٢٣٥** قبل الميلاد. وتقع عاصمة بابل في الموضع الذي تحتلّه مدينة الحلّة الحاليّة».

وقد ورد في «قاموس كتاب مقدّس» (= قاموس الكتاب المقدّس) مادّة «بابل»، ص ١٥٠ إلى ١٥٥ بحث مفصّل عن تأريخ هذه المدينة ، ويتلخّص في أنّ هذه المدينة قد بُنيت قبل نمرود ، وكانت علوم النحت على الحجارة والحياكة والهيئة والنجوم قد بلغت أوجها في مدينة بابل . وقد حكمها **نمرود** ابن **كوش** والكوشيّون مدّة سبعين سنة . وكانوا يعبدون الأصنام ، وكانوا يعبدون الأجرام السماويّة ويصنعون لها تماثيل متعدّدة ذكوراً وإناثاً. ثمّ أعقب العربُ الكوشيّين في حكم تلك المنطقة . ثمّ هاجم الآشوريّون العرب فاحتلّوها. ومن سلاطين الآشوريّين **نَبوپُلَصَر** ، ثمّ أعقبه ابنه **نبوكد نصّر**.

وكانت بابل أعظم مدينة في العالم ، ولم يكن لها مثيل أو نظير . ولا تدانيها في سعتها وامتدادها أيّة مدينة من المدن الكبرى في عالمنا الحاضر . وقد عدّها المؤرّخون (لجنائنها المعلّقة) إحدى عجائب الدنيا السبع . وقد تقدّمت فيها صناعة النسيج القماشيّ إلى حدٍّ ⇦

فاحتلّوا **أُورشليم** وهو **بيت المقدس** ، وذلك في حدود سنة ستمائة قبل المسيح ، وملك بابل يومئذٍ **بُخت نَصَّر (نَبُوكد نصّر)** .

ثمّ تمرّدت اليهود عن طاعته ، فأرسل إليهم عساكره فحاصروهم ، ثمّ فتحوا البلدة ونهبوا خزائن الملك وخزائن **الهيكل** (المسجد الأقصى) ، وجمعوا من أغنيائهم وأقويائهم وصنّاعهم ما يقرب من عشرة آلاف نفساً وساروا بهم إلى بابل ، وما أبقوا في المحلّ إلّا الضعفاء والصعاليك . ونصب بخت نصّر **صِدْقيا** وهو آخر ملوك بني إسرائيل ملكاً عليهم ، وعليه الطاعة لبخت نصّر .

وكان الأمر على ذلك قريباً من عشر سنين ، حتّى وجد صدقيا بعض القوّة والشدّة ، واتّصل بعض الاتّصال بواحد من فراعنة مصر فاستكبر وتمرّد عن طاعة بخت نصّر .

فأغضب ذلك بخت نصّر غضباً شديداً ، فساق إليهم الجيوش وحاصر

⇦ كان الروميّون معه يفتخرون بارتدائهم أقمشة بابل . قيل إنّ في قصر الإمبراطور نيرون قطعة قماش معلّقة قد نقشت فيها الصور المختلفة ، وقد قدّرت قيمتها بـ« ٣٢٣٠٠ ليرة إنجليزيّة».

وكانت نساء البابليّين يتزينّ بجميع أنواع الزينة ، ويرتدين أفخر الألبسة ، ويعشنَ في منتهى الرفاهيّة والراحة . بَيدَ أنّ ترفهم الزائد وإفراطهم في المنكرات جرّهم إلى الفساد، فأضحت فتياتهم هزيلات نحيلات ، وأدْمَنّ على المسكرات . وبذلك راج فيهم الوقاحة وفقدان الحياء، فاستكبروا . والخلاصة فإنّ الفسق والفجور شاعا بين ساكني هذه المدينة حتّى بين فتياتهم ، فكانوا يبيعون الفتيات في الأسواق ويدفعون بنسائهم الجليلات إلى أعمال الفسق والزنا والتبرّج ، فكنّ يتصيّدن الرجال بكلّ حيلة . حتّى جفّت الأنهار والقنوات وامتلأت منابع المياه . ثمّ تعرّضوا لهجوم الأعداء الذين أعملوا فيهم السيف ، فلم يبق من تلك المدينة المُدمّرة الكبيرة إثر التخريب والقتل والغارات من أثر إلّا تلال ترابيّة وأطلال تلك الأبنية العالية والقصور المشيّدة.

بلادهم ، فتحصّنوا عنه بالحصون ، وتمادى بهم التحصّن قريباً من سنة ونصف حتّى ظهر فيهم القحط والوباء .

وأصرّ بخت نصّر على المحاصرة حتّى فتح الحصون ، وذلك في سنة خمسمائة وستّ وثمانين قبل المسيح ، وقتل نفوسهم وخرّب ديارهم وخرّبوا **بيت الله** ، وأفنوا كلّ آية وعلامة دينيّة ، وبدّلوا هيكلهم تلّاً من تراب ، وفُقدت عند ذلك التوراة والتابوت الذي كانت تُجعل فيه .

وبقي الأمر على هذا الحال خمسين سنة تقريباً وهم قاطنون ببابل ، وليس من كتابهم عينٌ ولا أثر ، ولا من مسجدهم وديارهم إلّا تلال ورياع .

ثمّ لمّا جلس **كورش** من ملوك فارس على سرير الملك ، وكان من أمره مع البابليّين ما كان ، وفتح بابل ودخله وأطلق أُسراء بابل من بني إسرائيل .

وكان عزرا المعروف من المقرّبين عنده فأمّره عليهم ، وأجاز له أن يكتب لهم كتابهم التوراة ويبني لهم الهيكل ، ويُعيدهم إلى سيرتهم الأُولى . وكان رجوع عزرا بهم إلى بيت المقدس سنة أربعمائة وسبعة وخمسين قبل المسيح ، وبعد ذلك جمع عزرا كتب العهد العتيق وصححها ، وهي التوراة الدائرة اليوم .[1]

وأنت ترى بعد التدبّر في القصّة أنّ سند التوراة الدائرة اليوم مقطوعة غير متّصلة بموسى عليه السلام إلّا بواحد (وهو عزرا) ، لا نعرفه أوّلاً ، ولا نعرف كيفيّة اطّلاعه وتعمّقه ثانياً ، ولا نعرف مقدار أمانته ثالثاً ، ولا نعرف من أين أخذ ما جمعه من أسفار التوراة رابعاً ، ولا ندري

١ـ يقول العلّامة في التعليقة : «مأخوذة من قاموس الكتاب المقدّس تأليف مستر هاكس الأمريكانيّ الهمدانيّ ومآخذ أُخرى من التواريخ».

بالاستناد إلى أيّ مستند صحّح الأغلاط الواقعة أو الدائرة خامساً .[١]

وقد أعقبت هذه الحادثة المشؤومة أثراً مشؤوماً آخر ، وهو إنكار عدّة من باحثي المؤرّخين من الغربيّين وجود موسى وما يتبعه ، وقولهم : إنّه شخصٌ خياليّ ؛ كما قيل نظيره في المسيح عيسى ابن مريم عليهما السلام ؛ لكنّ ذلك لا يسع لمسلم ، فإنّ القرآن الشريف يصرّح بوجوده عليه السلام وينصّ عليه» .[٢]

إنّ ما ذكره سماحة الأُستاذ في هذا المجال صحيح وصائب ، وقصّة كورش وفتح بابل وإطلاق أسرى اليهود وإرسالهم إلى بيت المقدس صحيح بأجمعه . أمّا جمع عزرا للتوراة وبناؤه للهيكل (المسجد الأقصى) وذهابه إلى هناك ، فلم يكن بأمر كورش ، بل بعد وفاة كورش بمدّة طويلة تبلغ ثمان وستّين سنة .

فقد جرى أسر بني إسرائيل على يد بخت نصّر في سنة ٦٠٦ قبل الميلاد ، وفتح كورش بابل سنة ٥٣٨ قبل الميلاد ، وكان اليهود خلال هذه المدّة التي تقرب من سبعين سنة في الأسر .

١ـ يقول أحمد أمين المصريّ في كتاب «يوم الإسلام» ص ١٥٧ :

«وحتّى المحايدون من المسيحيّين اعترضتهم شبهات كثيرة على الإسلام ، منها أنّهم رأوا خلافاً بين القرآن والتوراة من جهة ، وأحياناً نقصاً في القرآن عمّا ورد في التوراة من جهة أُخرى. والجواب عن المسألة الأُولى أنّ المسلمين يعتقدون أنّ التوراة حدث فيها بعض التحريف، وقد أيّد ذلك الباحثون من العلماء في الكتاب المقدّس ، وإذا كان هناك اختلاف بين القرآن والتوراة فلم يكون الصحيح هو التوراة والخطأ هو القرآن ولا يكون العكس؟ وأمّا المسألة الثانية فالتوراة تعرّضت لكثير من المسائل التي هي من صميم التأريخ على حين أنّ القرآن لم يتعرّض إلّا للمسائل التي هي موضع العِظَة والاعتبار فقط ، فلا يهمّهم إن كان النبيّ عمّر كم سنة أو نحو ذلك . على هذا كان أُسلوب القرآن أوقع ، لأنّه كتاب دين لا كتاب تأريخ».

٢ـ «الميزان في تفسير القرآن» ج ٣ ، ص ٣٣٩ إلى ٣٤١ .

أمّا وفاة كورش فقد حصلت في سنة ٥٢٥ قبل الميلاد ، وكانت حركة عزرا من بابل إلى بيت المقدس في سنة ٤٥٧ قبل الميلاد . ولذلك فإنّ ذهاب عزرا إلى أُورشليم وجمع التوراة كانت أيضاً بعد موت كورش بثمان وستّين سنة ، أي ما يقرب من سبعين سنة .

ومن هنا ، فستكون مائة وتسعاً وأربعين سنة قد مرّت منذ زمن أسر اليهود على يد بخت نصّر الذي حصل في سنة ٦٠٦ قبل المسيح إلى مجيء عزرا وجمع التوراة وكتابتها وبناء المسجد الأقصى في سنة ٤٥٧ قبل المسيح ، أي بفاصلة مائة وخمسين سنة ، أي مدة قرن ونصف القرن .

وتوضيح هذا المطلب : أنّ «قاموس الكتاب المقدّس» يقول في أحوال النبيّ دانيال : «**دانيال** (يعنى الله حاكمي) : لقّبه الكلدانيّون بـ **بَلْطَشَصَّر** . اقتيد إلى بابل أسيراً سنة ٦٠٦ قبل المسيح ، وانتُخب مع رفقاءه : **حنينا وميشائيل وعَزَريا** [1] لمحض الإقامة في قصر **نبوكد نصّر** (بخت نصّر) .

ثمّ إنّ بخت نصّر شاهد رؤيا عبّرها له دانيال تعبيراً أظهر امتلاكه لهبة النبوّة ، فارتفع مقامه ، وارتقى إلى حكومة بابل ورئاسة سلسلة العلماء والكهنة .

ثمّ إنّ **الفرس والمِديّين** فتحوا بابل ، فتربّع **داريوش** الهخامنشيّ على العرش بعد **بَلْشَصَّر** ، فأكرم دانيال ، وعاش دانيال في كنف داريوش إلى أن حانت وفاته ، وكان يقضي أوقاته جادّاً في الدعاء والصيام ، وكان يُشير على داريوش بإعادة اليهود إلى وطنهم ، فقد حان الزمن الموعود . وانقضى عمره على هذا الأمل ، بَيدَ أنّه ليس معلوماً أنّه عاد إلى **أُورشليم** مرّة أُخرى

١ـ ينبغي العلم بأنّ **عَزريا** هو غير **عَزْرا**.

أم لم يعد. فقد بلغ عمره حينذاك (أي في سنة **٥٣٦** قبل المسيح) ثمانين عاماً». [1]

أمّا رؤيا بخت نصّر وتعبير دانيال المعروف، فكانت وفقاً لقول آية الله الشعرانيّ على النحو التالي:

«حصل في زمن النبيّ دانيال من بني إسرائيل ـ وكان آنذاك أسيراً في بابل ـ أن شاهد ملك بابل بخت نصّر رؤيا أزعجته وأخافته، فأرسل إلى علماء بابل وطلب منهم تعبيراً لرؤياه، وقال لهم: لقد شاهدتُ رؤيا. وعليكم أن تقصّوا عَلَيّ رؤياي أوّلاً، ثمّ تعبّروها لي!

فقالوا: ليس بإمكان أحد أن يعرف الرؤيا ويعبّرها! أخبرنا برؤياك وسنعبّرها لك!

فغضب بخت نصرّ، وقال: إن لم تُخبروني برؤياي قتلتُكم جميعاً!

فعجزوا، وأمر بخت نصّر بقتلهم، فأخذهم السيّاف خارجاً ليقتلهم، وكان دانيال فيهم، فاستمهله لينفّذ أمر الملك، وتضرّع إلى الله تعالى ليكشف له سرّ الملك. ثمّ عاد إلى السيّاف وقال له: سأُخبر الملك بما طلب، فاترك حكماء بابل ولا تقتلهم! ثمّ مثل بين يدي الملك، وقال:

لقد ذهبتَ إلى فراشك وأنت تفكّر فيما يقوم به أمر هذا العالم، ثمّ نمتَ فشاهدت في نومك تمثالاً كبيراً رأسه من الذهَب، وصدره وذراعاه من الفضّة، وبطنه وفخذاه من النحاس الأصفر، أمّا ساقاه فكان بعضها من الطين وبعضهما الآخر من الحديد! وشاهدتَ أنّ حجراً قد رُمي دون أن يُعرف حجمه، فأصاب ساق التمثال فانكسر وتحطّم وتلاشى من رأسه إلى

١ـ «قاموس الكتاب المقدّس» تأليف جيمز هاكس، ترجمة دانيال، مقتطفات من ص ٣٦٦ و ٣٦٧.

قدميه ، وأنّ ذلك الحجر الذي أصاب التمثال أضحى جبلاً كبيراً ملأ الأرض بأسرها ! فأقرّ بخت نصّر كلامه وصدّقه .

ثمّ قال دانيال : وأمّا تعبير رؤياك فهي أنّ كلّ قطعة من التمثال إشارة إلى دولةٍ تصل إلى الحكم . فرأس التمثال الذهبيّ فهو دولتك . ثمّ ستخلف دولتك دولةٌ أوطأ من الفضّة ثمّ مملكة أوطأ من النحاس ، ثمّ سينقسم العالم إلى قسمَين ،كساقَي ذلك التمثال . إحداهما قويّة كالحديد ، والأُخرى ضعيفة كالطين . وسيرسل الله تعالى زمن أُولئك الملوك حكومة لا تزول أبداً ، ستغلب الدول الباقية وتبقى قائمة أبداً ... .

فقال الملك لدانيال : الحقّ أنّ إلهك إله الآلهة ، وإله الملوك ، وكاشف الأسرار ، لأنّك قدرت على كشف هذا السرّ ! ...» .

ثمّ يقول آية الله الشعرانيّ : «وقد اختصرنا الرؤيا بعض الشيء ، وكما هو معلوم فقد كانت الدولة الأُولى هي دولة بخت نصّر وملوك بابل ، والدولة الثانية هي دولة الهخامنشيّين ، والثالثة هي دولة الإسكندر ، والرابعة التي انقسمت إلى قسمين : القسم الأوّل إيران وكانت من الحديد ، والقسم الثاني دولة الروم وكانت من الطين .

أمّا ذلك الحجر الذي حطّم ذلك التمثال ثمّ ملأ الأرض بأسرها فهو الإسلام .

ولقد كانت لكلّ واحدة من تلك الدول إله خاصّ ، وكانت كلّ دولة تصل إلى دفّة الحكم تجعل ذلك الإله الخاصّ إلهاً يعبده الناس ؛ أمّا دولة الإسلام فحطّمت كلّ الآلهة ، وقدّمت إلهاً واحداً للجميع ، وديناً واحداً للجميع ؛ والأنبياء يرون ما يرون مصطبغاً بصبغة دينيّة» .[1]

١ـ «راه سعادت» (= نهج السعادة) ص ١٧٩ و ١٨٠ ، الطبعة الأُولى.

جاء في «قاموس الكتاب المقدّس» :

«**عَزرا** ـ ويعني هذا اللفظ الإعانة والمساعدة ـ هو كاهن العبرانيّين وهاديهم المعروف ، وكان كاتباً ماهراً للشريعة ، وعالماً أميناً مقتدراً . ويبدو أنّه كان يحظى بمكانة ومنزلة جليلة في بلاط سلطان إيران . وقد عاصر خلال مدّة عمره ـ البالغة ثمانين سنة ـ أغلب عصر سلطنة **كورُس** (كيخسرو) ، وجميع زمن سلطنة **كمبايسيس واسمرديس** (أي لُهراسب) ، وسلطنة داريوس **هستاسپيس** . (أي گشتاسب) ، وسلطنة **زُركْسيس** (أي اسفنديار) ، وثمانية أعوام من سلطنة **ارتَك زركسيس لانگى مينس** (أي أردشير ذي اليد الطويلة) .

وقد تسلّم عزرا من هذا الملك الأخير الكتب والأوامر والنقود وما يلزم من الإعانات والمساعدات ، وتوجّه عائداً إلى أُورشليم في سنة **٤٥٧** قبل المسيح على رأس جماعة كبيرة من الأسرى . فقام هناك بإصلاح وتعديل كبير في أُسلوب معاملة القوم ، كما أصلح عبادة جماعةٍ منهم ، وقام بتأسيس عدّة كنائس كانت مراسم تلاوة الكتب المقدّسة والدعاء تُقام فيها باستمرار . ويُعتقد عموماً بأنّه قام بعد هذه الوقائع بتصنيف كتب التواريخ وكتاب عزرا وقسماً من كتاب **نحميا** .

كما قام بجمع وتصحيح جميع كتب العهد العتيق التي تشكّل قانوننا المعاصر . واستعان في هذا العمل بـ **نَحميا** و**مَلاكي** .

وقد كُتب قدرٌ من **كتاب عزرا** بالكلدانيّة ، ويشتمل على تأريخ اليهود وتأريخ عودتهم منذ زمان كورش ، ويذكر أعمالهم خلال فترة ستّين سنة التي تلت ذلك . وهو حكاية عن الوقائع التي وقعت لغاية سنة **٤٥٦** قبل المسيح» .[1]

١ـ «قاموس الكتاب المقدّس» تأليف جيمز هاكس ، كلمة (عزرا) ، ص ٦٠٩ و ٦١٠.

وفيه أيضاً : «وكان **كورس** (الشمس) مؤسّس سلطنة فارس وفاتح الممالك الأُخرى . وقد اختاره الله تعالى لتنفيذ المقاصد الخيّرة التي قدّرها لليهود حسبما أخبر النبيّ أشعيا .

والخلاصة فإنّه كان نَجْل **كَمْبُسيس** وابن أخ داريوش مِدي **سباكْسَرِس** ؛ وقد جمع في شخصه قوّة واقتدار ممالك **فارس ومدي** . أمّا أشهر المدن التي فتحها فكانت بابل التي فتحها سنة ٥٣٨ قبل المسيح . ثمّ إنّه أمر بعد ذلك بعودة اليهود بعد أن قضوا في الأسر في بابل مدّة سبعين سنة . وأنفق من خزانته الخاصّة أموالاً طائلة في أمر إعادتهم .

وكان دانيال حينذاك في بيت المجانين الذي بناه كورس ، وكان كورس قد فارق الحياة متأثّراً بجرح أصابه سنة ٥٢٥ قبل المسيح» .[١]

أجل ، فقد اتّضح من مجموع ما أوردنا في هذا المجال أنّ عودة أسرى بني إسرائيل إلى أُورشليم قد حصلت مرّتين ، الأُولى في عصر كورش بعد سبعين سنة من أسرهم في بابل ، حيث أعادهم كورش . وكان النبيّ دانيال في بابل حينذاك ، وكان له من العمر آنذاك ثمانون سنة ، ولم يرجع دانيال معهم . أمّا عزرا فأدرك قدراً من سلطنة كورس ، ولم يرجع إلى أُورشليم مع الأسرى المهاجرين .

والمرّة الثانية في زمن أردشير بعد الواقعة الأُولى بثمانين سنة ، وقد حصلت هذه الهجرة بقيادة عزرا لجماعة من بني إسرائيل بأمرٍ من أردشير ذي اليد الطويلة وبمعونة ماليّة ومساعدةٍ منه .

وقد أدرك عزرا المذكور قدراً من سلطنة كورس وجميع سلطنة لهراسب وگشتاسب وإسفنديار وأردشير . وقد حصلت هذه الهجرة بعد مائة

١ـ «قاموس الكتاب المقدّس» كلمة (كورس) ، ص ٧٤٣ .

وخمسين سنة من حملة بخت نصّر على أُورشليم وخراب بيت المقدس والهيكل وفقدان التوراة وصندوقها .

ولو اعتبرنا ـ وفقاً لكلام هؤلاء المؤرّخين ـ أنّ فقدان التوراة وخراب الهيكل قد حصلت خلال الهجوم الثاني لبخت نصّر سنة ٥٨٦ قبل الميلاد ، فيكون قد انقضى مائة وثلاثون سنة إلى وقت عودة عزرا وكتابة التوراة سنة ٤٥٧ قبل الميلاد .

وكان هذا تحقيقاً تفضّل به سماحة الأُستاذ حول عدم حجّيّة التوراة واعتبارها ، وقد أوردناه مع قدرٍ من التفصيل .

أمّا المادّة التي كانت عليها تلك التوراة التي كانت في صندوقٍ ثمّ فُقدت ، أكانت هي الألواح الزمرّديّة التي أنزلها الله تعالى على النبيّ موسى في جبل الطور بعد ميعاد أربعين ليلة ؟ أم أنّها استُنسخت على تلك التوراة ثمّ جُعلت في صندوق ؟ فإنّ هذا ليس موضع تفصيل ذلك وبيانه .

كان هذا بياناً في عدم كون التوراة قطعيّة الصدور ، حيث تبيّن بحمد الله بجلاء أنّ التوراة الفعليّة ليست إلّا خبر واحداً غير مسند ، يفتقر إلى الاعتبار والقيمة العلميّة .

أمّا في شأن الإنجيل ، فقد ذُكر أنّه كالتوراة غير قطعيّ الصدور ، ولسماحة الأُستاذ كلام في تفسيره تحت عنوان «قصّة المسيح والإنجيل» ، نورده هنا :

«اليهود مهتمّون بتأريخ قوميّتهم وضبط الحوادث الظاهرة في الأعصار التي مرّت بهم ، ومع ذلك فإنّك لو تتبّعتَ كتبهم ومسفوراتهم لم تعثر فيها على ذكر المسيح **عيسى ابن مريم** عليه السلام ، لا على كيفيّة ولادته ، ولا على ظهوره ودعوته ، ولا على سيرته والآيات التي أظهرها الله على يديه ، ولا على خاتمة حياته من موتٍ أو قتلٍ أو صلب أو

غير ذلك .

فما هو السبب في ذلك ؟ وما هو الذي أوجب خفاء أمره عليهم أو إخفائهم أمره ؟

والقرآن يذكر عنهم أنّهم قذفوا مريم ورموها بالبُهتان في ولادة عيسى ، وأنّهم ادّعوا قتل عيسى ؛ قال تعالى :

وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا * وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا.[1]

فهل كانت دعواهم تلك مستندة إلى حديثٍ دائر بينهم كانوا يذكرونه بين قصصهم القوميّة من غير أن يكون مودعاً في كتاب ؟ وعند كلّ أُمّةٍ أحاديث دائرة من واقعيّات وأساطير لا اعتبار بها ما لم تنتهِ إلى مآخذ صحيحة قويمة .

أو أنّهم سمعوا من النصارى الذِّكر المكرّر من المسيح وولادته وظهوره ودعوته ، أخذوا ذلك من أفواههم وباهتوا مريم ، وادّعوا قتل المسيح ؟

لا طريقَ إلى استبانة شيءٍ من ذلك ؛ غير أنّ القرآن ـ كما يظهر بالتدبّر في الآية السابقة ـ لا ينسب إليهم صريحاً إلّا دعوى القتل دون الصلب ، ويذكر أنّهم على ريب من الأمر ، وأنّ هناك اختلافاً ! (هذه هي نظريّة اليهود حول المسيح) .

وأمّا حقيقة ما عند النصارى من قصّة المسيح وأمر الإنجيل

١ـ الآيتان ١٥٦ و١٥٧ ، من السورة ٤ : النساء .

والبشارة، فهي أنّ قصّته عليه السلام وما يتعلّق بها تنتهي عندهم إلى الكتب المقدّسة عندهم، وهي **الأناجيل الأربعة**، التي هي أناجيل **مَتَّى ومُرقُس ولوقا ويوحَنّا**، وكتاب أعمال الرسل للوقا، وعدّة رسائل لبولس وبطرس ويعقوب ويوحنّا ويهوذا، واعتبار الجميع ينتهي إلى اعتبار الأناجيل، فلنشتغل بها:

أمّا إنجيل متّى: فهو أقدم الأناجيل في تصنيفه وانتشاره؛ وذكر بعضهم أنّه صُنّف سنة ٣٨الميلاديّة؛ وذكر آخرون أنّه كُتب ما بين سنة ٥٠ إلى سنة ٦٠؛[١] فهو مؤلَّف بعد المسيح.

والمحقّقون من قدمائهم ومتأخّريهم على أنّه كان أصله مكتوباً بالعبرانيّة، ثمّ تُرجم إلى اليونانيّة وغيرها، أمّا النسخة الأصليّة العبرانيّة فمفقودة، وأمّا الترجمة فلا يُدرى حالها، ولا يُعرَف مترجمها.[٢]

وأمّا إنجيل مرقس: فمرقس هذا كان تلميذاً لبطرس، ولم يكن من الحواريّين؛ وربّما ذكروا أنّه إنّما كتب إنجيله بإشارة بطرس وأمره، وكان لا يرى إلهيّة المسيح.[٣]

ولذلك، ذكر بعضهم أنّه إنّماكتب إنجيله للعشائر وأهل القرى فعرّفَ المسيح تعريف رسولٍ إلهيّ مبلّغٍ لشرائع الله؛[٤] وكيف كان فقد كتب إنجيله

١ـ «قاموس الكتاب المقدّس» للمستر هاكس؛ مادّة (متّى)، (التعليقة).

٢ـ كتاب «ميزان الحق». واعترف به على تردّد في «قاموس الكتاب المقدّس»، (التعليقة).

٣ـ نقل ذلك عبد الوهّاب النجّار في «قصص الأنبياء» عن كتاب «مروج الأخبار في تراجم الأخيار» لبطرس قرماج، (التعليقة).

٤ـ ذكره في «قاموس الكتاب المقدّس»، يقول فيه: إنّ نصّ تواتر السلف على أنّ مرقس كتب إنجيله برومية، وانتشر بعد وفاة بطرس وبولس، لكنّه ليس له كثير اعتبار، ⇦

سنة ٦١ ميلاديّة .

وأمّا إنجيل لوقا : فلوقا هذا لم يكن حواريّاً ولا رأى المسيح ، وإنّما تلقّن النصرانيّة من بولس ؛ وبولس كان يهوديّاً متعصّباً على النصرانيّة يؤذي المؤمنين بالمسيح ويقلّب الأُمور عليهم ، ثمّ اتّفق مفاجأةً أن ادّعى أنّه صرع ، وفي حال الصرع لمسه المسيح ولامه وزجره عن الإساءة إلى متّبعيه ، وأنّه آمن بالمسيح وأرسله المسيح ليبشّر بإنجيله .

وبولس هذا هو الذي شيّد أركان النصرانيّة الحاضرة على ما هي عليها ؛[1] فبنى التعليم على أنّ الإيمان بالمسيح كافٍ في النجاة من دون عمل ، وأباح لهم أكل الميتة ولحم الخنزير ، ونهى عن الختنة وكثير ممّا في التوراة ،[2] مع أنّ الإنجيل لم يأتِ إلّا مصدّقاً لما بين يديه من التوراة ، ولم يُحلِّل إلّا أشياء معدودة .

وبالجملة ، إنّماجاء عيسى ليقوّم شريعة التوراة ويردّ إليها المنحرفين والفاسقين لا ليُبطل العمل ويقصر السعادة على الإيمان الخالي .

وقد كتب **لوقا** إنجيله بعد إنجيل مرقس ، وذلك بعد موت بطرس وبولس ، وقد صرّح بأنّ إنجيله ليس كتاباً إلهاميّاً كسائر الأناجيل[3] كما

⇐ لأنّ ظاهر إنجيله أنّه كتبه لأهل القبائل والقرويّين لا لأهل البلاد وخاصّةً الروميّة ؛ فتدبّر في كلامه! (التعليقة).

١ـ راجع مادّة «بولس» من «قاموس الكتاب المقدّس» ، (التعليقة).

٢ـ راجع كتاب «أعمال الرسل» و«رسائل بولس» ، (التعليقة) .

٣ـ قال في أوّل إنجيل لوقا : «لأجل أنّ كثيرين راموا كتب قصص الأُمور التي نحن بها عارفون كما عهد إلينا أُولئك الأوّلون الذين كانوا من قبل معاينين وكانوا خدّاماً للكلمة ، رأيتُ أنا أيضاً إذ كنت تابعاً لكلّ شيء بتحقيق أن أكتب إليك أيـّها العزيز **ثاوفيلا**» .

ودلالته على كون الكتاب نظريّاً غير إلهاميّ ظاهرة . وقد نقل ذلك أيضاً عن مستر ⇐

يدلّ عليه ما وقع في مبتدأ إنجيله.

وأمّا إنجيل يوحنّا: فقد ذكر كثير من النصارى أنّ يوحنّا هذا هو يوحنّا بن زبدي الصيّاد، أحد التلاميذ الاثني عشر (الحواريّين)، الذي كان يحبّه المسيح حبّاً شديداً.[1]

وذكروا أنّ **شيرينطوس وأبيسون** وجماعتهما لمّا كانوا يرون أنّ المسيح ليس إلّا إنساناً مخلوقاً لا يسبق وجوده أُمّه، اجتمعت أساقفة آسيا وغيرهم في سنة ٩٦ ميلاديّة عند يوحنّا والتمسوا منه أن يكتب ما لم يكتبه الآخرون في أناجيلهم، ويبيّن بنوع خصوصيّ لاهوت المسيح، فلم يسعه أن يُنكر إجابة طلبهم.[2]

وقد اختلفت كلماتهم في السنة التي ألّف فيها هذا الإنجيل، فمن قائلٍ إنّها سنة ٦٥، وقائلٍ إنّها سنة ٩٦، وقائلٍ إنّها سنة ٩٨.

وقال جمعٌ منهم إنّه ليس تأليف يوحنّا التلميذ،[3] فبعضهم على أنّه

⇦ **كدل** في «رسالة الإلهام». وصرّح **جيروم** أنّ بعض القدماء كانوا يشكّون في البابين الأوّلين من إنجيل لوقا، وأنّهما ما كانا في نسخة فرقة مارسيوني.

وجزم إكهارن في كتابه ص ٩٥ أن من ف ٤٣ إلى ٤٧ من الباب ٢٢ من إنجيل لوقا ملحقة. وذكر إكهارن أيضاً في ص ٦١ من كتابه: قد اختلط الكذب الروائيّ ببيان المعجزات التي نقلها لوقا، والكاتب ضمّه على طريق المبالغة الشاعريّة، لكنّ تمييز الصدق عن الكذب في هذا الزمان عسير، وقول **كلي مي شيس** إنّ متّى ومرقس يتخالفان في الكتابة، وإذا اتّفقا ترجّح قولهما على قول لوقا. نُقل عن «قصص الأنبياء» للنجّار ص ٤٧٧، (التعليقة).

١ـ راجع «قاموس الكتاب المقدّس» مادّة (يوحنّا)، (التعليقة).

٢ـ نقله في «قصص الأنبياء» عن جرجس زوين الفتوحيّ اللبنانيّ في كتابه، (التعليقة).

٣ـ يوحنّا المسيحيّ هو أحد حواريّ عيسى ابن مريم الاثني عشر. وقيل: هو أفضلهم. وجاء في «قاموس الكتاب المقدّس» مادّة (يوحنّا) ص ٩٦٥: «حين سقط ⇦

تأليف طالب من طلبة المدرسة الإسكندريّة ؛[1] وبعضهم على أنّ هذا الإنجيل كلّه وكذا رسائل يوحنّا ليست من تصنيفه ، وإنّما صنّفه بعضهم في ابتداء القرن الثاني ونسبه إلى يوحنّا ليعتبره الناس ؛[2] وبعضهم على أنّ إنجيل يوحنّا كان في الأصل عشرين باباً ، فألحقت كنيسة **أفاس** الباب الحادي والعشرين بعد موت يوحنّا .[3]

فهذه حال هذه الأناجيل الأربعة . وإذا أخذنا بالقدر المتيقّن من هذه الطرق انتهت إلى سبعة رجال هم : **متّى** ، **مرقس** ، **لوقا** ، **يوحنّا** ، **بطرس** ، **بولس** ، **يهوذا** ، ينتهي ركونهم كلّه إلى هذه الأناجيل الأربعة ، وينتهي الأربعة إلى واحد هو أقدمها وأسبقها وهو إنجيل متّى ، وقد مرّ أنّه ترجمة مفقود الأصل لا يُدرى مَن الذي ترجمه ، وكيف كان أصله ، وعلى ماذا كان يبني تعليمه ، أبرسالة المسيح أم بأُلوهيّته ؟

ويبيّن هذا الإنجيل الموجود : أنّه ظهر في بني إسرائيل رجل يُدعى عيسى بن يوسف النجّار وأقام الدعوة إلى الله ، وكان يدّعي أنّه ابن الله مولود من غير أبٍ بشريّ ، وأنّ أباه أرسله ليفدي به الناس عن ذنوبهم بالصلب والقتل ، وأنّه أحيى الميّت ، وأبرأ الأكمه والأبرص وشفى المجانين بإخراج الجنّ من أبدانهم ، وأنّه كان له اثنا عشر تلميذاً : أحدهم

⇦ المسيح بيد اليهود، كان يوحنّا وبطرس هما اللذين تبعا المسيح ، أمّا التلامذة الآخرون فلاذوا بالفرار. ويوحنّا هو الذي كان حاضراً عند صلب المسيح».

١ـ نقل ذلك من كتاب «كاتُلِك هرالد» في الجزء السابع المطبوع سنة ١٨٤٤، ص ٢٠٥ ، نقله عن استادلن عن القصص (أي «قصص الأنبياء») ، وأشار إليه في القاموس في مادّة «يوحنّا»، (التعليقة).

٢ و٣ ـ قال ذلك برطشنيدر على ما نقل عن كتاب «الفاروق» الجزء الأوّل ، (عن القصص)، (التعليقة).

متّى صاحب الإنجيل بارك لهم وأرسلهم للدعوة وتبليغ الدين المسيحيّ ... إلى آخره».

فهذا ملخّص ما تنتهي إليه الدعوة المسيحيّة على انبساطها على شرق الأرض وغربها، وهو لا يزيد على خبر واحد مجهول الاسم والرسم، مُبهم العين والوصف. وهذا الوهن العجيب في مبدأ القصّة هو الذي أوجب لبعض أحرار الباحثين عن أُوروبّا أن ادّعى أنّ المسيح ابن مريم شخص خياليّ صوّرته بعض النزعات الدينيّة على حكومات الوقت أوّلها، وتأيّد ذلك بموضوع خرافيّ آخر يشبهه كلّ الشبه في جميع شؤون القصّة، وهو موضوع **كرشنا** الذي تدّعي وثنيّة الهند القديمة وأنّه: ابن الله نزل عن لاهوته وفدى الناس بنفسه صلباً ليخلّصهم من الأوزار والخطايا. كما يُدعى في عيسى المسيح حذو النعل بالنعل، (كما سيجيء ذكره).

وأوجب لآخرين من منتقدي الباحثين أن يذهبوا إلى أنّ هناك شخصَين مُسمَّيَّين بالمسيح: المسيح غير المصلوب، والمسيح المصلوب، وبينهما من الزمان ما يزيد على خمسة قرون.

وأنّ التأريخ الميلاديّ الذي سنتنا هذه سنة ألف وتسعمائة وستّة وخمسين منه لا ينطبق على واحد منهما، بل المسيح الأوّل غير المصلوب يتقدّم عليه بما يزيد على مائتين وخمسين سنة، وقد عاش نحواً من ستّين سنة؛ والمسيح الثاني المصلوب يتأخّر عنه بما يزيد على مائتين وتسعين سنة، وقد عاش نحواً من ثلاث وثلاثين سنة.[1]

١ـ باعتبار أنّ تأريخ كتابة هذا الجزء من «تفسير الميزان» كان يوافق هذه السنة، لذا فقد ذكرها الأُستاذ. أمّا وقد انقضت مدّة ثلاث وثلاثين سنة إلى زمن تأليف كتابنا هذا، فإنّ التأريخ الميلاديّ الفعليّ يصادف سنة ألف وتسعمائة وتسعة وثمانين. ⇦

على أنّ عدم انطباق التأريخ الميلاديّ على ميلاد المسيح في الجملة ممّا لم يسع النصارى إنكاره ،[1] وهو سكتة تأريخيّة .

على أنّ هاهنا أموراً مُريبة موهمة أُخرى ، فقد ذكروا أنّه كتب في القرنَين الأوّلين من الميلاد أناجيل كثيرة أُخرى ، ربّما أنهوها إلى نيّف ومائة من الأناجيل ، والأناجيل الأربعة منها ، ثمّ حرّمت الكنيسة جميع تلك الأناجيل إلّا الأناجيل الأربعة التي عُرفت قانونيّة لموافقة متونها تعاليم الكنيسة .[2]

⇦ وقد فصّل القول في ذلك الزعيم الفاضل «بهروز» في كتاب ألّفه جديداً في البشارات النبويّة، وأرجو أن أوفّق لإيداع شذرة منه في تفسير آخر سورة النساء من هذا الكتاب. والقدر المتيقّن (الذي يهمّنا منه) اختلال التأريخ المسيحيّ ، (التعليقة).

١ـ راجع مادّة «مسيح» من «قاموس الكتاب المقدّس» ، (التعليقة).

وجاء في هذا القاموس ، ص ٨٠٢ : لا يخفى أنّ ولادة السيّد المسيح كانت سنة ٧٤٩ بعد تأسيس الروم ، أي : قبل التأريخ المسيحيّ الحاليّ بأربع سنوات . وكان مسقط رأسه بيت لحم، وأُمّه مريم اليهوديّة.

٢ـ وقد لام **شيلسوس** الفيلسوف في القرن الثاني النصارى في كتابه «الخطاب الحقيقيّ» على تلاعبهم بالأناجيل ، ومحوهم بالغد ما أدرجوه بالأمس . وفي سنة ٣٨٤م أمر البابا **داماسيوس** أن تُحرّر ترجمة لاتينيّة جديدة من العهدين القديم والحديث تُعتبر قانونيّة في الكنائس . وكان **تيودوسيس** الملك قد ضجر من المخاصمات الجدليّة بين الأساقفة. وتمّت تلك الترجمة التي تسمّى **فولكانا** ، وكان ذلك خاصّاً بالأناجيل الأربعة : **متّى ومرقس ولوقا** و **يوحنّا**.

وقد قال مرتّب تلك الأناجيل : «بعد أن قابلنا عدداً من النسخ اليونانيّة القديمة رتّبناها، بمعنى أنّنا نقّحنا ما كان فيها مُغايراً للمعنى ، وأبقينا الباقي على ما كان عليه» . ثمّ إنّ هذه الترجمة قد ثبّتها المجمع **التريدنتينيّ** سنة ١٥٤٦ ، أي بعدها بأحد عشر قرناً ، ثمّ خطّأها **سيستوس** الخامس سنة ١٥٩٠ وأمر بطبع نسخة جديدة ، ثمّ خطّأ **كليمنضوس** الثامن هذه النسخة الثانية أيضاً وأمر بطبعة جديدة منقّحة هي الدارجة اليوم عند الكاثوليكيّين. ⇦

ومن جملة الأناجيل المتروكة **إنجيل برنابا**[1] الذي ظهرت نسخة منه منذ سنين ، فتُرجمتْ إلى العربيّة والفارسيّة ، وهو يوافق في عامّة قصصه ما قَصَّه القرآن في المسيح عيسى ابن مريم» .[2]

⇦ («تفسير الجواهر» ج ٢، ص ١٢١ ، الطبعة الثانية) ، (التعليقة).

١ـ وقد وُجد هذا الإنجيل بالخطّ الإيطاليّ منذ سنين ، وترجمه إلى العربيّة الدكتور خليل سعادة بمصر ، وترجمه إلى الفارسيّة الحبر الفاضل «سردار كابلي» بإيران . (التعليقة).

٢ـ و**إنجيل برنابا** ، وُجد مكتوباً بالخطّ الإيطاليّ القديم ، وقام العالِم الإنجليزيّ **لونْسدال** مع عقيلته الفاضلة **مدام لورا راغ** بترجمته إلى الإنجليزيّة . ثمّ قام الدكتور خليل سعادة بترجمته إلى العربيّة في مصر **باقتراح من السيّد محمّد رشيد رضا الحسينيّ** مُنشئ مجلّة «المنار» . ثمّ قام **سردار كابلي حيدر قُلي خان قزلباش** بترجمته إلى الفارسيّة مع ملاحظة الترجمة العربيّة (المنقولة من الإنجليزيّة) . ولدى الحقير كلا الترجمتَين : العربيّة والفارسيّة. وقد طبعت الترجمة العربيّة للمرّة الأُولى في مطبعة المنار سنة **١٣٢٥** هجريّة قمريّة، أمّا الترجمة الفارسيّة المنجزة سنة **١٣٥٠** فقد طُبعت في مطبعة شركة «سعادت» في كرمانشاه. وقد كتب كلّ من هذين العالِمَين مقدّمة منفصلة صدّر بها الإنجيل المترجَم. وعلى الرغم من أنّ المقدِّمة العربيّة للدكتور خليل سعادة والسيّد محمّد رشيد رضا لم تُطبع مع الإنجيل العربيّ الموجود لدى الحقير ، إلّا أنّ سردار كابلي قد قام بترجمة تينك المقدّمتين إلى الفارسيّة، وضمّ إليهما مقدّمته على كتاب الإنجيل ، فطُبعت سويّاً مع الترجمة الفارسيّة للإنجيل.*

ومقدّمة الدكتور خليل سعادة مفصّلة ، ونورد عدّة مقاطع منتخبة منها مع ملاحظة النسخة العربيّة:

يقول : «والنسخة الوحيدة المعروفة الآن في العالم ، التي نُقل عنها هذا الإنجيل إنّما هي نسخة إيطاليّة في مكتبة **بلاط فينّا** ، وهي تُعدّ من أنفس الذخائر والآثار التأريخيّة فيها...

وأوّل من عثر على النسخة الإيطاليّة ممّن لم يعف التأريخ أثرهم ، ولم تدرس الأيّام ذكرهم هو **كريمر** أحد مستشاري ملك بروسيا ، وكان مُقيماً وقتئذٍ في **امستردام** ، فأخذها سنة ١٧٠٩ من مكتبة أحد مشاهير ووجهاء المدينة المذكورة ... فأقرضها كريمر **طولَند** ، ثمّ أهداها بعد ذلك بأربع سنين إلى البرنس **أيوجين سافوي** الذي كان على كثرة حروبه ⇦

....

⇦ ومعاركه ووفرة مشاغله السياسيّة شديد الولع بالعلوم والآثار التأريخيّة ، ثمّ انتقلت النسخة المذكورة سنة ١٧٣٨ مع سائر مكتبة البرنس المنوّه عنه إلى مكتبة البلاط الملكيّ في فيينّا، حيث لا تزال هناك حتّى الآن على ما مرّ بك بيانه.

بَيدَ أنّه وُجد في أوائل القرن الثامن عشر نسخة أُخرى إسبانيّة تقع في مائتين واثنين وعشرين فصلاً وأربع مائة وعشرين صفحة جرّ عليها الدهر ذيل العفاء ، فطمست آثارها ودرستْ رسومها ، وكان قد أقرضها الدكتور **هُلم** من هدلي (بلدة من أعمال همبشير) المستشرق الشهير **سايل** ، ثمّ تناولها بعد سايل الدكتور **منكهوس** أحد أعضاء كليّة الملكة في أكسفورد، فنقلها إلى الإنجليزيّة ، ثمّ دفع الترجمة مع الأصل سنة ١٧٨٤ إلى الدكتور **هويت** أحد مشاهير الأساتذة . ولقد أشار الدكتور هويت المنوّه عنه في إحدى الخطب التي كان يلقيها على الطلبة إلى هذه النسخة ، حيث استشهد ببعض الشذرات منها . ولقد طالعتُ هذه الشذرات وقابلتها بالترجمة الإنجليزيّة المنقولة عن النسخة الإيطاليّة الموجودة الآن في مكتبة بلاط فيينّا، فوجدت الإسبانيّة ترجمة حرفيّة عن تلك ، ولم أرَ بينهما فرقاً يستحقّ الذكر... .

ويؤخذ ممّا علّقه **سايل** على النسخة الإسبانيّة أنّه مسطور في صدرها أنّها مترجمة عن الإيطاليّة بقلم مسلم أروغانيّ يُسمّى **مصطفى العرنديّ** ، ومصدّرة بمقدّمة يقصّ فيها مكتشف النسخة الإيطاليّة ـ وهو راهب لاتينيّ يُسمّى **فرامرينو** ـ كيفيّة عثوره عليها. ومن جملة ما قال بهذا الصدد:

إنّه عثر على رسائل لـ **ايرينايوس** وفي عدادها رسالة يندّد فيها بالقدّيس **بولُص** الرسول، وإنّ ارينايوس أسند تنديده هذا إلى إنجيل **القدّيس برنابا** ، فأصبح من ذلك الحين الراهب مرينو المشار إليه شديد الشغف بالعثور على هذا الإنجيل . واتّفق أنّه أصبح حيناً من الدهر مقرّباً من البابا **سكتُس** الخامس ، فحدث يوماً أنّهما دخلا معاً مكتبة البابا ، فران الكرى على أجفان قداسته ، فأحبّ مرينو أن يقتل الوقت بالمطالعة إلى أن يُفيق البابا، فكان الكتاب الأوّل الذي وضع يده عليه هو هذا الإنجيل نفسه ، فكاد أن يطير فرحاً من هذا الاكتشاف، فخبأ هذه الذخيرة الثمينة في أحد ردنيه ولبث إلى أن استفاق البابا ، فاستأذنه بالانصراف حاملاً ذلك الكنز معه ، فلمّا خلا بنفسه طالعه بشوقٍ عظيم فاعتنق على أثر ذلك الدين الإسلاميّ . ⇦

. . . .

⇦ هذه هي رواية الراهب فرامرينو على ما هو مدوّن في مقدّمة النسخة الإسبانيّة كما رواها المستشرق **سايل** في مقدّمة له لترجمة القرآن، وهي مع ما تقدّم الإلماع إليه من خطب الأُستاذ هويت المصدر الوحيد الذي لنا الآن بخصوص النسخة الإسبانيّة التي لم أعثر على كيفيّة فقدانها، سوى أنّه عهد بترجمتها إلى الدكتور **منكهوس** فدفعها إلى الدكتور **هويت**، ثمّ طمس بعد ذلك خبرها وامّحى أثرها».

ثمّ يتحدّث الدكتور سعادة بالتفصيل عن أنّ النسخة الإيطاليّة الحاضرة، هل هي النسخة التي اختلسها الراهب من مكتبة البابا سكتس الخامس، أم أنّها نسخة أُخرى غيرها، فيخوض في بحث لا يتجاوز فيه حدود الظنّ والحدس والتخمين، حيث يقول:

«والتأريخ الذي يخمّنه العلماء من كلّ ما تقدّم بيانه يتراوح بين منتصف القرن الخامس عشر والسادس عشر. وعليه، فمن الممكن أن تكون النسخة الإيطاليّة هي عينها التي اختلسها فرامرينو من مكتبة البابا على ما مرّت الإشارة إليه. ولمّا شاع خبر إنجيل برنابا في فجر القرن الثامن عشر، أحدث دويّاً عظيماً في أندية الدين والعلم ولا سيّما في إنجلترا... وأوّل أمر توجّهت إليه هممُ الباحثين الخوض في أمر النسخة الإيطاليّة، وفيما إذا كانت منقولة عن نسخة أُخرى أو هي النسخة الأصليّة التي كانت عند الراهب فرامرينو وادّعى اختلاسها من مكتبة البابا سكتس الخامس؟».

ثمّ يقول الدكتور سعادة بعد بيانه بحثاً في هذا الخصوص: «والذي أرمي إلى الاستدلال عليه من هذا البيان أنّ النسخة الإيطاليّة التي هي الآن في مكتبة البلاط الملكيّ في فينّا إنّما هي مأخوذة بلا مراء عن نسخة أُخرى، وبالتالي لا يصحّ اعتبارها النسخة الأولى الأصليّة».

ثمّ يستدلّ الدكتور سعادة باختلاف الهوامش العربيّة المدوّنة على الإنجيل بلحاظ الأدب العربيّ وكون إنشاء بعضها خطأً وبعضها الآخر صحيحاً، على أنّ هذه النسخة ينبغي أن تكون منقولة عن نسخة أُخرى. ثمّ يقول:

«وهو استنتاج ينطبق على ما قابل به الثقات بعد التدقيق وإمعان النظر في نوع خطّ النسخة الإيطاليّة الموجودة الآن في مكتبة **بلاط فينّا**، فقد توصّلوا إلى الجزم بأنّ ناسخها إنّما هو من أهالي البندقيّة، نسخها في القرن السادس عشر أو أوائل السابع عشر، ويرجّح أنّه أخذها عن نسخة **طسكانيّة** أو عن نسخة بلغة البندقيّة تطرّقت إليها اصطلاحات طسكانيّة، وهي أقوال **لونسدال** و**لورا راغ** بعد أن أخذا في ذلك آراء أعظم الثقات الإيطاليّين الذين ⇦

. . . .

⇐ يؤخذ قولهم حُجّة في هذه المباحث الأخصّائيّة.

ويذهب الكاتبان المذكوران إلى أنّ النَّسخ حدث نحو سنة ١٥٧٥ ، وأنّ من المحتمل أن يكون ناسخ هذا الإنجيل الراهب **فرامرينو** الذي ورد ذكره في مقدّمة النسخة الإيطاليّة على ما جاءت الإشارة إليه ، ثمّ يقولون بعد ذلك ما ترجمته «وكيف كان الحال ، فيمكننا الجزم بأنّ كتاب برنابا الإيطاليّ إنّما هو كتاب إنشائيّ ، وسواء قام به كاهن أم علمانيّ أم راهب أم أحد العامّة، فهو بقلم رجلٍ له إلمامٌ عجيب بالتوراة اللاتينيّة يقرب من إلمام **دَنت** ، وأنّه نظير دنت متضلّع على نوع خاصّ من الزبور ، وهو من صنع رجل معرفته للأسفار المسيحيّة تفوق كثيراً اطّلاعه على الكتب الدينيّة الإسلاميّة ، فيرجّح إذاً أنّه مرتدّ عن النصرانيّة».

والباعث على المقارنة بين كاتب هذا الإنجيل والشاعر الشهير دنت ما في كلامهما في الملابسات».

ولقد تبادر إلى ذهن العلماء بادئ بدء أنّ النسخة الإيطاليّة مأخوذة عن أصل عربيّ. وكان أوّل من أشار إلى ذلك كريمر الذي مرّ بك ذكره ، حيث صدّر النسخة الإيطاليّة التي أهداها إلى **الدوق سافوي** ببضعة أسطر من عنده يذكر أنّ هذا **الإنجيل المحمّديّ** مُترجم عن العربيّة أو غيرها».

ثمّ يتطرّق الدكتور سعادة إلى بحث يقول بعده:

«ثمّ إنّه لم يرد ذكرٌ لهذا الإنجيل في كتابات مشاهير الكتّاب المسلمين ، سواء في الأعصر القديمة أو الحديثة ، حتّى ولا في مؤلّفات مَن انقطع منهم إلى الأبحاث والمجادلات الدينيّة، مع أنّ إنجيل برنابا أمضى سلاحٍ لهم في مثل تلك المناقشات . وليس ذلك فقط، بل لم يرد ذكر لهذا الإنجيل في فهارس الكُتب العربيّة القديمة عند الأعارب أو الأعاجم أو المستشرقين الذين وضعوا فهارس لأندر الكتب العربيّة من قديمةٍ وحديثة».

ويقول الدكتور سعادة هنا : «بَيدَ أنّه لابدّ لي من التصريح بعد كلّ ما تقدّم بيانه، أنّي أشَدُّ مَيلاً للاعتقاد بالأصل العربيّ منّي بسواه ، إذ لا يجوز اتّخاذ عدم العثور على ذلك الأصل حُجّةً دافعة على عدم وجوده ، وإلّا لوجب الاعتقاد بأنّ النسخة الإيطاليّة هي النسخة الأصليّة لهذا الإنجيل ، فإنّه لم يعثر أحدٌ قطّ على نسخة أُخرى سوى النسخة الإسبانيّة التي مرّ بيانها والتي ورد في مقدّمتها أنّها مترجمة عن نسخة إيطاليّة ، والمطالع الشرقيّ يرى لأوّل وهلة أنّ لكاتب إنجيل برنابا إلماماً بالقرآن ، حتّى أنّ كثيراً من فقراته تكاد أن تكون ترجمة حرفيّة ⇐

....

⇐ أو معنويّة لآياتٍ قرآنيّة. أقول هذا وأنا عالم أنّي في ذلك مخالف لجلّة كتّاب الغرب الذين خاضوا عباب هذا الموضوع وفي جملتهم **لونسدال ولورا راغ** اللذان يزعمان أنّ إلمام كاتب هذا الإنجيل بالإسلام قليل، فكان هذا من جملة الأسباب التي حملتهما على نفي القول بأصل عربيّ. ومن ذلك حديث إبراهيم مع أبيه، ومنه ما ينطبق على سورة **٢١** و**٣٧**، وكقوله عن سبب سقوط إبليس إنّه أبى أن يسجد لآدم على حدّ ما جاء في سورة البقرة. وكذلك ما ورد في سورة الحجر. ولولا ضيق المقام لأوردتُ كثيراً من تلك الفقرات مع مايقابلها من آيات القرآن. وليس ذلك فقط، بل إنّ في إنجيل برنابا كثيراً من الأقوال التي تنطبق على الأحاديث النبويّة».

إلى أن يصل إلى قوله:

«غير أنّ القول بأنّ هذا الإنجيل عربيّ الأصل لا يترتّب عليه أن يكون كاتبه عربيّ الأصل، بل الذي أذهبُ إليه أنّ الكاتب يهوديّ أندلسيّ اعتنق الدين الإسلاميّ بعد تنصّره واطّلاعه على أناجيل النصارى، وعندي أنّ هذا الحلّ هو أقرب إلى الصواب من غيره، لأنّك إذا أعملتَ النظر في هذا الإنجيل وجدتَ لكاتبه إلماماً عجيباً بأسفار العهد القديم لاتكاد تجد له مثيلاً بين طوائف النصارى إلّا في أفراد قلائل من الأخصّائيّين الذين جعلوا حياتهم وقفاً على الدين، كالمفسّرين، حتّى أنّه ليندر أن يكون بين هؤلاء أيضاً من له إلمام بالتوراة يقرب من إلمام كاتب إنجيل برنابا. والمعروف أنّ كثير من يهود الأندلس كانوا يتضلّعون من العربيّة، ولقد نبغ بينهم مَن كان له في الأدب والشعر القدح المعلّى، فيكون مثلهم في الاطّلاع على القرآن والأحاديث النبويّة مثل العرب أنفسهم.

وممّا يؤيّد هذا المذهب ما ورد في هذا الإنجيل عن وجوب الختان والكلام الجارح الذي جاء فيه من أنّ الكلاب أفضل من الغُلف، فإنّ مثل هذا القول لا يصدر من نصرانيّ الأصل».

ثمّ يستنتج الدكتور سعادة من مجموع ما مرّ فيقول: «فالرأي الذي أذهبُ إليه أنّ الكاتب الأصليّ هو يهوديّ أندلسيّ اعتنق الإسلام ... ويذكر التأريخ أمراً أصدره **البابا جلاسيوس الأوّل** الذي جلس على أريكة البابويّة سنة **٤٩٢** يعدّد فيه أسماء الكتب المنهيّ عن مطالعتها وفي عدادها كتاب يُسمّى **إنجيل برنابا**. فإذا صحّ ذلك كان هذا الإنجيل موجوداً قبل ظهور نبيّ المسلمين بزمن طويل، وهو دليل على أنّ هذا الإنجيل لم يكن حينئذٍ ⇐

....

⇦ لابساً هذا الثوب القشيب الذي يرفل فيه الآن ، لأنّ مجرّد إصدار البابا المشار إليه نهياً عن مطالعته دليلٌ على شيوعه أو على اشتهار أمره بين خاصّة العلماء إن لم يكن بين العامّة...».

إلى أن يصل إلى قوله : «ويُباين هذا الإنجيل الأناجيل الأربعة المشهورة في عدّة أُمور جوهريّة: **أوّلها** : قولها إنّ يسوع أنكر أُلوهيّته وكونه ابن الله ، وذلك على مرأى ومسمع من ستّمائة ألف جنديّ وسكّان اليهوديّة من رجال ونساء وأطفال . و**الثاني :** أنّ الابن الذي عزم إبراهيم على تقديمه ذبيحةً للّه إنّما هو إسماعيل لا إسحاق ، وأنّ الموعد إنّما كان بإسماعيل. **والثالث :** أنّ **مَسيا** أو **المسيح** المنتظر ليس هو يسوع بل **محمّد** . وقد ذكر **محمّداً** باللفظ الصريح المتكرّر في فصول ضافية الذيول ، وقال : إنّه رسول الله ؛ وإنّ آدم لمّا طُرد من الجنّة رأى مسطوراً فوق بابها بأحرف من نور : **لا إله إلّا الله محمّد رسول الله** . **والرابع :** أنّ يسوع لم يُصلَب، بل حُمل إلى السماء ، وأنّ الذي صُلب إنّما كان يهوذا الخائن الذي شبّه به، فجاء مطابقاً للقرآن : **وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ**».

إلى أن يقول : «وكيف كان الحال ، فالحقيقة التي لا مراء فيها أنّ كاتب **إنجيل برنابا** كان على جانب كبير من الفلسفة وسمّو المدارك وقوّة الحجّة وشدّة العارضة وجلاء البيان، وأنّ مباحثه الفلسفيّة في الجسد والحسّ والنفس من الوجهة الدينيّة لمن أسمى ماكتب الباحثون الدينيّون في هذا الموضوع ... وبعد كلّ ما تقدّم فإنّ هذا الإنجيل قد أتى على آيات باهرة من الحكمة وطراز راقٍ من الفلسفة الأدبيّة وأساليب تسحر الألباب ببلاغتها السامية ، على ما فيها من البساطة في التعبير ، وهو يرمي إلى ترقية العواطف البشريّة إلى أُفقٍ سام ، وتنزيهها عن الشهوات البهيميّة ، آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، حاثّاً على الفضائل ، مقبّحاً للرذائل، داعياً الإنسان إلى تضحية نفسه في سبيل الإحسان إلى الناس حتّى يزول عنه كلّ أثر للأنانيّة ويحيا لنفع إخوانه».

وبعد ذكر عدّة جمل أُخرى يختم الدكتور سعادة هذه المقدِّمة بإمضائه في القاهرة، مصر، شهر مارس سنة ١٩٠٨ ميلاديّة.

ونرى مدى الخطأ الذي وقع فيه بنسبته هذا الإنجيل إلى شخص يهوديّ أندلسيّ مجهول وليس له ما يحمله على ذلك إلّا التخيّلات الواهية والأوهام السخيفة الضعيفة التي تتبيّن بجلاء في أرجاء كلامه.

ونسأل منه : لقد قلتَ بأنّ كاتب هذا الإنجيل شخص ذو مقام رفيع في الفلسفة ⇦

....

⇦ والأدب، وذو اطّلاع واسع على التوراة والإنجيل ، فمن هو هذا الشخص العظيم يا ترى؟ إنّ من المحتّم أن يكون شخصاً مشهوراً من علماء الطراز الأوّل . فلِمَ لا يوجد له أدنى ذكر في التأريخ ؟!

لماذا لا يوجد له اسم أبداً ؟ إنّ جميع علماء الإسلام وفضلائه مشخّصون بترجمات أحوال، فَمن يكون يا ترى هذا العالم الأندلسيّ المنتميّ إلى الإسلام حديثاً ؟ أجل ، إنّ هذه الأوهام والخيالات كَرامٍ في ليلٍ داج ، وليست إلّا **رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ** . فلهذا لم يتطرّق أحد من علماء أُوروبّا ومحقّقيها ومستشرقيها إلى مثل هذا القول ، مع أنّ التفوّه به سيسهّل عليهم الأمر من جهات عديدة . لقد عثر على نسخة من هذا الإنجيل بالخطّ الإ يطاليّ القديم، ولو كانت قد استُنسخت من نسخة أُخرى . لتوجّب ـ قاعدةً ـ أن تكون النسخة الأُولى نظير هذه النسخة وبلغتها أو نظير لغتها . أفلا يمثّل البحث عن نسخة أُخرى بلغةٍ أُخرى ، ونسبتها إلى شخص يهوديّ أسلم حديثاً ، أو إلى شخص نصرانيّ ارتدّ عن النصرانيّة وأسلم ، دون شواهد تأريخيّة قطعيّة ، ومع وجود إشكالات هذا الاحتمال التي لا تنطبق على **إنجيل برنابا**، ألَا يمثّل نسجاً للأوهام ونزوعاً إلى الخيال؟

ونلحظ في هذا المجال أنّ **السيّد محمّد رشيد رضا** صاحب التفسير ومنشئ مجلّة «المنار» يعدّ في مقدّمته جميع أدلّة الدكتور سعادة واهيةً ضعيفة.

ونورد هنا فقراتٍ من كلامه ، استشهد بها سردار كابلي في مقدّمته بعد ذكر مقدّمة الدكتور سعادة ، حيث يقول:

«إنّنا نرى مؤرّخي النصرانيّة قد أجمعوا على أنّه كان في القرون الأُولى للمسيح عليه السلام أناجيل كثيرة ، وأنّ رجال الكنيسة قد اختاروا منها أربعة أناجيل ورفضوا الباقي. فالمقلِّدون لهم من أهل ملّتهم قبلوا اختيارهم بغير بحث ، وسيكون ذلك شأن أمثالهم إلى ما شاء الله.

وأمّا مَن يحبّ العلم ويجتنب التقليد من كلّ أُمّة ، فهو يودّ إذا أراد الوقوف على أصل هذا الدين وتأريخه لو يطّلع على جميع تلك الأناجيل المرفوضة ، ويقف على كلّ ما يمكن الوقوف عليه من أمرها ، ويبني ترجيح بعضها على بعض بعد المقابلة والتنظير على الدلائل المرجّحة التي تظهر له هو وان لم تظهر لرجال الكنيسة.

لو بقيت تلك الأناجيل كلّها لكانت أغزر ينابيع التأريخ في بابها ، ما قبل منها أصلاً ⇦

....

⇦ للدين وما لم يُقبَل ، ولرأيت لعلماء هذا العصر من الحكم عليها والاستنباط منها بطرق العلم الحديثة المصونة بسياج الحرّيّة والاستقلال في الرأي والإرادة ما لا يأتي مثله من رجال الكنيسة الذين اختاروا تلك الأربعة ورفضوا ما سواها.

إنجيلُ المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام واحدٌ ، هو عبارة عن هَديه وبشارته بمن يجيء بعده ليتمّ دين الله الذي شرّعه على لسانه وألسنة الأنبياء من قبله ، فكان كلّ منهم يبيّن للناس منه ما يقتضيه استعدادهم ، وإنّما كثرت الأناجيل ، لأنّ كلّ مَن كتب سيرته عليه السلام سمّاها إنجيلاً ، لاشتمالها على ما بشَّر وهَدَى به الناس.

من تلك الأناجيل **(إنجيل برنابا)** ، وبرنابا حواريٌّ من أنصار المسيح الذين يلقّبهم رجال الكنيسة بالرسل ، صحبه بولص زمناً....

ومقدّمة هذا الإنجيل الذي تقدّم ترجمته لقرّاء العربيّة اليوم ناطقة بأنّ بولص انفرد بتعليم جديد مخالف لما تلقّاه الحواريّون عن المسيح . ولكنّ تعاليمه هي التي غلبت وانتشرت واشتهرت وصارت عماد النصرانيّة . ويذهب بعض علماء الإفرنج إلى أنّ إنجيل مرقس وإنجيل يوحنّا من وضعه ، كما في «دائرة المعارف الفرنسيّة» . فلا غرو إذا عدّت الكنيسة إنجيل برنابا إنجيلاً غير قانونيّ أو غير صحيح.

لم نقف على ذِكرٍ لإنجيل برنابا في أسفار التأريخ أقدم من المنشور الذي أصدره البابا جلاسيوس الأوّل في بيان الكتب التي تحرم قراءتها ، فقد جاء في ضمنها إنجيل برنابا. وقد تولّى جلاسيوس البابويّة في أواخر القرن الخامس للميلاد ـ أي قبل بعثة نبيّنا صلّى الله عليه [وآله] وسلّم ـ على أنّ بعض علماء أُوروبّا يرتابون اليوم في ذلك المنشور ، كما ذكر الدكتور سعادة في مقدّمته والمثبت مُقَدَّم على النافي.

مرّت القرون وتعاقبت الأجيال ولم يسمع أحد ذِكراً لهذا الإنجيل حتّى عثروا في أُوروبّا على نسخة منه منذ مائتي سنة** فعدّوها كنزاً ثميناً ، ولو وجدها أحد في القرون الوسطى ـ قرون ظلمات التعصب والجهل ـ لما ظهرت ، وأنّى يظهر الشيء في الظلمة والنور شرط الظهور؟

بحث علماء أُوروبّا في هذه النسخة وكتبوا في شأنها فصولاً طويلة لخّصها الدكتور سعادة في مقدّمته ، فمن مباحثهم ما هو علميّ دقيق ككلامهم في نوع ورقها وتجليدها ولغتها، ومنها ما هو من قبيل الخرص والتخمين كأقوالهم في الكاتب الأوّل لها والزمن ⇦

....

⇦ الذي كتبت فيه....

فإنّ كثيراً من الباحثين يبنون أبحاثهم على فرض يتّخذونه قاعدة مسلّمة ، وربّما كان فاسداً فيجيء كلّ ما بني عليه مِثله ، لأنّ ما بني على الفاسد فاسد حتماً . مثال هذا ما امتحن به بعض الفلاسفة تلاميذه وهو أنّه عمد إلى جرّة كانت في الشمس فقلبها من غير أن يروه ودعاهم، فقال : إنّي أرى وجه هذه الجرّة المقابل للشمس بارداً ، ثمّ قلبها ولمس الجانب الآخر معهم فإذا هو سخن ، فطالبهم بعلّة ذلك فطفقوا ينتحلون العلل وهو يردّها ، ولمّا سألوه عن رأيه في ذلك ، قال : إنّه يجب أن يتثبّت من صحّة الشيء أوّلاً ثمّ يبحث عن علّته. وكون الجانب المقابل للشمس من هذه الجرّة بارداً والجانب المقابل للأرض سخناً غير صحيح، بل قلبتها أنا لأختبر فطنتكم.

وكذلك فعل بعض الباحثين في إنجيل برنابا ، فقد فرضوا أنّه من وضع بعض المسلمين، ثمّ حاروا في حزر تعيين واضعه ، هل هو غربيّ أم شرقيّ ، عربيّ أم عجميّ ، قديم أم حادث. وما قال أحد فيه قولاً إلّا وجد من الباحثين من يفنّده حتّى رأى الدكتور سعادة بعد الاطّلاع على تلك الأقوال أنّ الأقرب إلى التصوّر أن يكون كاتبه يهوديّاً أندلسيّاً من أهل القرون الوسطى اعتنق المسيحيّة ، ثمّ دخل في الإسلام وأتقن اللغة العربيّة وعرف القرآن والسنّة حقّ المعرفة، ثمّ صار له إحاطة بكتب العهد العتيق والجديد . واستدلّ على هذا الفرض بعلمه الواسع بأسفار العهد القديم وموافقة التلمود وإحاطته بالعهد الجديد، وغفل عن عزوه إلى كتب العهدين ما لا يوجد في نسخها التي عرفت في القرون الوسطى وهي التي بين أيدينا الآن كعزو قصّة **هوشَع وحجَّى** إلى كتاب **دانيال** ، وعن مخالفته لها أحياناً في مسائل أُخرى، ولو كان من أهل القرون الوسطى وما بعدها لما وقع في هذا الغلط الظاهر مع علمه الواسع.

واستدلّ أيضاً بموافقة بعض مباحثه للقرآن والأحاديث وما كلّ ما وافق شيئاً في بعض مباحثه يكون مأخوذاً منه ، وإلّا لزم أن تكون التوراة مأخوذة من شريعة **حمورابي** لا وحياً من الله لموسى عليه السلام . على أنّ معظم مباحث هذا الإنجيل لم تكن معروفة عند أحد من المسلمين وأُسلوبه في التعبير بعيد جدّاً من أساليب المسلمين عامّة والعرب منهم خاصّة، كما بيّن ذلك بعض القسّيسين في مجلة دينيّة ، وأيُّ مسلم يَذكُر اللهَ ولا يثني عليه، والأنبياءَ ولايصلّي عليهم ، ويسمِّي الملائكة بغير الأسماء الواردة في الكتاب والسنّة ؟ ⇦

....

⇦ وقد كانت مسألة اليوبيل أقوى الشبهات عندي على كون كاتبه من أهل القرون المتوسّطة لا من قرن المسيح ، حتّى بيّن الدكتور سعادة ضعفها بدقّة نظره ، فلم يبق للباحثين دليل يعوّل عليه في هذا المقام ، فإنّ موافقة بعض ما فيه لبعض ما ورد في شعر **دانتي** يمكن أن يعلّل بأنّ دانتي اطّلع عليه وأخذ منه إن لم يكن ذلك من قبيل توارد الخواطر.

أمّا الهوامش العربيّة التي وجدت على النسخة ، فيحتمل أن تكون للراهب **فرامرينو** الذي اكتشف هذا الإنجيل في مكتبة البابا ، بأن يكون دخوله في الإسلام حمله على تعلّم العربيّة حتّى كان مبلغ علمه فيها أن يترجم بعض الجمل بعبارة سقيمة تغلب عليها العجمة، وما فيه من العبارات الصحيحة على قلّتها لا ينافي ذلك ، فإنّ كلّ مَن يتعلّم لغة أجنبيّة في سنّ الكبر تكون كتابته فيها لأوّل العهد من هذا القبيل : صواب قليل ، وخطأ كثير ، على أنّ أكثر العبارات الصحيحة في هذه الهوامش منقول من القرآن أو بعض الكتب العربيّة التي يمكن أن يكون قد اطّلع عليها الكاتب . ويحتمل أن يكون بعض القسوس أو من هم على شاكلتهم تعلّم العربيّة ليتبيّن هل فيها مصادر لهذا الإنجيل يمكن إرجاعه إليها . ويرجّح هذا الاحتمال تسميته الفصول سوراً تشبيهاً له بالقرآن . أمّا عزو هذه الهوامش إلى مسلم عريق في الإسلام فخطأ لا يحتمل الصواب ، إذ لا يوجد مسلم عربيّ ولا عجميّ يطلق لفظ السور على غير سور القرآن، أو يقول **الله سُبحان** كما جاء في مواضع منها هامش ص ١٤١ و١٦ ، لأنّ كلمة **سُبحان الله** ممّا يحفظه كلّ مسلم من أذكار دينه ، أو يقول **ميخائيل** بدل **ميكائيل** ، ويجهل اسم **إسرافيل** فيسمّيه **أُوريل** ، أو يقول : إنّ السماوات أكثر من سبع ، وإن كان العدد لا مفهوم له كما قال علماء الأُصول . ولذلك أمثلة أُخرى أضف إليها عدم اطّلاع علماء المسلمين في الأندلس وغيرها على هذا الإنجيل كما حقّقه الدكتور **مرجليوث** مؤيداً تحقيقه بخلو كتب المسلمين الذين ردّوا على النصارى من ذكره ، وناهيك **بابن حزم الأندلسيّ وابن تيميّة المشرقيّ** ، فقد كانا أوسع علماء المسلمين في الغرب والشرق اطّلاعاً كما يعلم من كتبهما، ولم يذكروا في ردّهما على هذا الإنجيل.

بقي أمر يستنكره الباحثون في هذا الإنجيل بحثاً علميّاً لا دينيّاً أشدّ الاستنكار، وهو تصريحه باسم **النبيّ محمّد** عليه الصلاة والسلام قائلين : لا يعقل أن يكون ذلك كتب قبل ظهور الإسلام، إذ المعهود في البشارات أن تكون بالكنايات والإشارات ، والعريقون في الدين لا يرون مثل ذلك مستنكراً في خبر الوحي وقد نقل **الشيخ محمّد بيرم** عن رحّالة ⇦

....

⇦ إنجليزيّ أنّه رأى في دار الكتب البابويّة في الفاتيكان نسخة من الإنجيل مكتوبة بـالقلم الحِميريّ قبل بعثة النبيّ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم وفيها يقول المسيح : **وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي ٱسْمُهُۥ أَحْمَدُ** . وذلك موافق لنصّ القرآن بالحرف ، ولكن لم ينقل عن أحد من المسلمين أنّه رأى شيئاً من هذه الأناجيل التي فيها البشارات الصريحة ، فيظهر أنّ في مكتبة **الفاتيكان** من بقايا تلك الأناجيل والكتب التي كانت ممنوعة في القرون الأُولى ما لو ظهر لأزال كلّ شبهة عن إنجيل برنابا وغيره».

ثمّ يُنهي السيّد محمّد رشيد رضا مقدّمته بعد عدّة عبارات بإمضائه في القاهرة، مصر، في ٢١ صفر سنة ١٣٢٦ هجريّة . والحقّ أنّ نظريّاته كانت صائبة ، وأنّ إشكالاته على الدكتور سعادة وسائر الذين أرادوا خدش سند إنجيل برنابا كانت صحيحة وواردة.

وكذلك قام العالم الفاضل والمتبحّر الخبير المعاصر حيدر قلي سردار الكابليّ رضوان الله عليه في مقدّمته بالردّ على كلام الدكتور سعادة والأُوروبّيّين الذين ادّعوا اختلاق الإنجيل المشار إليه، وقال في جملة كلامه:

«إنّ قولهم بأنّ هذا الإنجيل أُلِّف في القرن الخامس عشر أو السادس عشر هو قول مبنيّ على الحدس ومفتقر إلى الدليل والبرهان . إلّا أنّ الذنب الوحيد الذي يمكن إثباته لهذا الإنجيل هو مخالفته للأناجيل الأربعة المعروفة في أُصول الدين ، وبغير ذلك فقد ورد التصريح بإنجيل برنابا في الجزء الثاني من دائرة المعارف الإنجليزيّة ، الطبعة الثالثة عشر، ص ١٨٠ ، مادّة **ابوكريفَل لتريجر** ، Apocryphal Litreture . ونهى البابا جلاسيوس الأوّل عن مطالعته. وكان تأريخ جلوس جلاسيوس على أريكة البابويّة سنة أربعمائة واثنتين وتسعين الميلاديّة، أي قبل الهجرة بمائة وثلاثين سنة ، وقبل بعثة خاتم الأنبياء صلّى الله عليه وآله وسلّم بمائة وثمانية عشر عاماً».

ثمّ قال : «وفي ظنّ الحقير أنّ النسخة الأصليّة لإنجيل برنابا كانت باللغة العبريّة أو اليونانيّة، ثمّ تُرجمت إلى اللاتينيّة ، ثمّ إنّ هذه النسخة الموجودة في فينّا استنسخت من الترجمة اللاتينيّة في القرون الوسطى . وأمّا النسخة الأصليّة وترجمتها ، فقد تعرضت للتلف والضياع بمرور الأيّام وكونها هُجرت بسبب نهي البابا عن مطالعتها ، أو تعرّضت للإتلاف بسبب التعصّب الدينيّ لدى القائمين بأُمور الدين . أمّا ظنّ البعض بأن الإنجيل المذكور من تأليف أحد المسلمين ، فظنٌّ فاسد ، إذ يوجد في هذا الإنجيل مطالب تخالف الدين ⇦

....

⇦ الإسلاميّ بصراحة».

ثمّ ذكر ثلاثة موارد من موارد مخالفة مضمون ما في الإنجيل مع القرآن ، ثمّ قال:

«ومن الجليّ أنّه ليس هناك مسلم يذكر في كتابه أدنى شيء يخالف نصّ القرآن الشريف».

ويقول كذلك : «ولم ينفرد برنابا في مخالفة بولص ، بل يشترك معه في مخالفة بولص القدّيس الإنجيل **الأغنسطيّ** . ومجموع الأناجيل التي نهى البابا جلاسيوس الأوّل عن قراءتها هي : **إنجيل أندريو ، إنجيل برنابا ، إنجيل برتولوماس ، إنجيل جيمس وإنجيل تديوس.** وقد حرّم قراءة هذه الأناجيل الخمسة ، حيث ورد التصريح بذلك في «دائرة المعارف». ويكفي نفس أمر جلاسيوس في الدلالة على وجود إنجيل برنابا قبل الإسلام».

ثمّ يُنهي هذا الرجل العالي الهمّة مقدّمته هنا بذكر إمضائه . والحقّ أنّ مطالعة أدلّته وكلام منشئ «المنار» الذي مرّ ذكره لا يُبقي أيّ شُبهة في أمر وجود إنجيل برنابا قبل الإسلام وكونه متداولاً بين المسيحيّين.

ولقد كان للمرحوم القاضي أُستاذ العلّامة آية الله الطباطبائيّ رضوان الله عليهما عناية بهذا الإنجيل ، وكان يوصي تلامذته في السلوك والعرفان بقراءته.

ويذكر **فريد وجدي** في كتابه «دائرة المعارف» ج ١ ، ص ٦٥٦ ، مادّة (إنجيل) هذا الإنجيل، فيقول: «وُجد في القرن الثامن عشر في مكتبة أحد الأُمراء ، وتُرجم للإنجليزيّة، وطُبع بها مراراً ، وتُرجم للعربيّة ؛ وهو موافق لما جاء في القرآن من ناحية عدم صلب عيسى وغير ذلك».

ويقول **جيمز هاكس** في «قاموس الكتاب المقدّس» ص ١٧٥ ، مادّة (برنابا):

ومضافاً إلى رسالة برنابا إلى العبرانيّين ورسالة أُخرى مسمّاة باسمه ، فهناك كتاب آخر يُدعى إنجيل برنابا كُتب في عصرنا الحاضر باللغة الإيطاليّة من قبل أحد المسلمين، ممّا يُظهر أنّ الكتاب المقدّس قد تعرّض إلى التحريف ؛ وفي الحقيقة فإنّه لم يحصل على مطلب عائد إلى عيسى المسيح من مصادر موثّقة» . انتهى.

ويتّضح ممّا ذكرناه مدى العمى الذي ألحقه التعصّب بأعين هذا الرجل المسيحيّ ، فهو أوّلاً: ينسب إلى العصر الحاضر إنجيل برنابا الذي يرجع تأريخه إلى ما قبل الإسلام بمائة سنة. وثانياً: ينسب إلى العصر الحاضر هذه النسخة الإيطاليّة التي قال الأعلام بأنّ تأريخ ⇦

. . . .

⇦ كتابتها يعود إلى ما بين القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر. وثالثاً: فإنّه يعتبر كاتب الإنجيل مسلماً. ورابعاً: يعتبر أنّ القصد بهذا الإنجيل هو تحريف الكتاب المقدّس، ولا يعدّه مصدراً موثّقاً. وهذه بأجمعها نسب مخالفة للواقع.

ويلاحظ نظير هذا التعصّب الأعمى لدى **فؤاد أفرام البُستانيّ المسيحيّ** في كتاب «دائرة المعارف»، حيث يقول في ص **٣٦٣**، مادّة (برنابا): «وقد عثر على إنجيل مزوّر منسوب إلى برنابا باللغة العربيّة، حيث تُرجم إلى الإنجليزيّة والإسبانيّة والإيطاليّة. والظاهر أنّ جماعة من **الأراتِقة** قد زوّروه. وقد جعله **فوتيليريوس** في قانونه الرسوليّ بين كتب **أبوكريفيه**؛ وحرّمه البابا جيلاسيوس الثاني سنة ١١١٨». انتهى.

ونرى كيف أنّ هذا الرجل ذا الاطّلاع الواسع حكم **أوّلاً**: بتزوير هذا الإنجيل. ونراه **ثانياً**: يقول بأنّ أصل الإنجيل بالعربيّة، ثمّ ترجم إلى الإنجليزيّة والإسبانيّة والإيطاليّة. بينما نحن نرى أنّ نسخته الوحيدة مدوّنة بالإيطاليّة، ثمّ ترجمت إلى الإسبانيّة والإنجليزيّة ثمّ ترجمت إلى العربيّة مؤخّراً. و**ثالثاً**: بأيّ دليل وسند ينسب تزوير الإنجيل إلى الأراتقة؟ إنّ هذه بأجمعها مطالب من شأنها أن تحطّ مقام الشخص المحقّق واعتباره.

وينبغي أن يُعلم بأن برنابا القدّيس له رسالة إلى العبرانيّين، وله أيضاً رسالة أُخرى مسمّاة باسمه. وقد جرى البحث في هاتين الرسالتين في «قاموس الكتاب المقدّس» وفي «دائرة المعارف» للبستانيّ المسيحيّ، وعن اكتشافهما في القرون القديمة، وعن الأشخاص المعروفين من أصحاب الاطّلاع الذين حصلوا عليهما منذ سنة ٧٠ الميلاديّة إلى عصرنا الحاضر. وهاتان الرسالتان هما غير إنجيل برنابا مورد البحث. بَيدَ أنّ هذا الأمر قد اشتبه على مؤلّف كتاب «بشارات العهدَين» فتصوّر الرسالة إنجيلَ برنابا، فذكر من «دائرة المعارف» للبستانيّ و«قاموس الكتاب المقدّس» شواهد على قِدَم إنجيل برنابا، بينما مطالب هذين الكتابين صريحة في إنكار إنجيل برنابا. وكلامهما حول صحة إسناد الرسالة إلى القدّيس برنابا من مطالب كبار المحقّقين يتضمّن محاولتهما استنباط قِدَم الرسالة وإسنادها. (مطالب «بشارات العهدين» في مقدّمة الكتاب، ص ١٤ إلى ١٦).

* ـ بعد مرور سنة على كتابة هذه الفقرة، حصل الحقير على نسخة أُخرى من الترجمة العربيّة للإنجيل طبعتها مطبعة محمّد علي صبيح وأولاده في الأزهر في مصر، سنة **١٣٧٣** هجريّة قمريّة. وفي هذه النسخة مقدّمة المترجم: الدكتور خليل سعادة، من ص «ج» ⇦

ولآية الله الشعرانيّ كلامٌ في عدم قطعيّة صدور الإنجيل ، تحت عنوان : **عدم تواتر الإنجيل** ، نورده هنا لأهمّيّته :

«لقد كان النبيّ عيسى على نبيّنا وآله وعليه السلام من بني إسرائيل ، وكان يتكلّم العبريّة ، وبدأت نبوّته في بيت المقدس حيث أهلها يتكلّمون العبريّة ، فلم يؤمنوا به إلّا قليلاً منهم ليس لدينا اطّلاع على حالهم . بَيدَ أنّه كان هناك أفراد من أهل بيت المقدس ممّن يعرفون اليونانيّة ، وقد تفرّق هؤلاء الأفراد في مُدن آسيا الصغرى ودعوا الناس إلى المسيحيّة ، ودوّنوا كتباً باللغة اليونانيّة أودعوها بعض المطالب . وكانوا يقولون لليونانيّين والروميّين : لقد قال عيسى كذا وكذا ، وفعل كذا وكذا .

وكان الذين شاهدوا عيسى وشهدوا أعماله وأقواله وعرفوا لغته يسكنون في فلسطين ، وكانوا لم يؤمنوا به ، فكانوا ـ من ثمّ ـ يعدّون تلك الحكايات المكتوبة باليونانيّة حكايات مختلقة . أمّا الذين كانوا يقبلون بهذه الكتب والحكايات ، فكانوا من القوم الأباعد الذين لم يروا بيت المقدس ولم يشاهدوا المسيح ، ولم يعرفوا لغته .

ولو كانت القصص المدوّنة في الإنجيل مكذوبة ، لما كان هناك من رادع يردع مؤلّفيها عن كتابتها ، ولما كان هناك سبيل لسامعيها إلى تكذيبها .

ولو فرضنا أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم كان قد رُفض من قِبل العرب ، وأنّهم لم يؤمنوا به حتّى فارق الحياة ؛ ولو فرضنا أنّ القرآن

⇦ إلى ص «س»، ومقدّمة الناشر : السيّد محمّد رشيد رضا من ص «ق» إلى ص «ث».

** ـ والسنوات المائتان كانت إلى زمن تأليف وكتابة هذه المقدّمة ؛ أمّا إلى زماننا فقد انقضت ما يقرب من ثلاثمائة سنة.

أيضاً ـ نعوذ بالله ـ قد ضاع نتيجة عدم إيمان العرب ، ثمّ إنّ عدّة أفراد من العرب هاجروا بعد خمسين سنة إلى بلاد الروم فدوّنوا باللغة الروميّة حكايات عن النبيّ بخمسين وجهاً يخالف بعضها البعض الآخر ، فإنّ العرب كانوا سينكرونها والروميّين كانوا سيقبلون بها ؛ فإنّ الاطمئنان لن يحصل بأقوال أُولئك الأفراد قطّ .

نقول : إن الإنجيل كان له هذه الحال ، وهو ليس بمتواتر . ولقد كتب مؤلّفو الإنجيل ما يقرب من مائة إنجيل مخالفة لبعضها ، ونشروا قصص السيّد المسيح عليه السلام بين قوم لا يميّزون بين الصدق والكذب في أقوال هؤلاء المؤلّفين . خلافاً لأحاديث الإسلام ، حيث آمن العرب أنفسهم بالنبيّ ، ونقلوا كلامه بلغتهم في حضور جماعة رأوا النبيّ بأجمعهم وسمعوا كلامه وفهموه ، فلم يكن بإمكان أحد أن يكذب في حضور أُولئك العرب ، ولو كذب لأنكروا عليه .

فمثلاً جاء في إنجيل متّى أنّ السيّد المسيح لمّا ولد جاء عدّة من المجوس من الشرق فسألوا : أين ملك اليهود الذي وُلد حديثاً ، فقد رأينا نجمه في المشرق ؟ فلم يدلّوهم عليه . ثمّ إنّهم ـ فجأةً ـ رأوا ذلك النجم يتحرّك في السماء فيقف فوق سطح البيت الذي كان عيسى عليه السلام فيه ، فعرفوا بيته .

ولقد دوّنوا هذه الحكاية القطعيّة الاختلاف دون خوف من الفضيحة ، إذ إنّهم لم يكتبوها بالعبريّة لسكنة بيت المقدس ، بل كتبوها للغرباء الأجانب ، فكان يمكن ـ والحال هذه ـ أن يلفّقوا ويكذبوا كثيراً .

ونحن موقنون بأنّه ليس هناك منجّم يعتقد بظهور نجم مع ولادة أيّ شخص ، وبحركة ذلك النجم فوق رأس ذلك الشخص . فلا المجوس يعتقدون بذلك ولا غير المجوس .

ونقول أيضاً بأنّ قدماء المسيحيّين مُختلفون في مقتل السيّد المسيح ، وقد جاء في بعض الأناجيل أنّه لم يُقتل أصلاً ؛ مع أنّه لو قُتل شخص في مدينةٍ ما ، لما خفي ذلك على سكنة تلك المدينة ، لكثرة التفات الناس إلى هذه الأُمور ، وخاصّة إذا صُلب ذلك الشخص .

أمّا لأنّ مؤلّفي الإنجيل قد ألّفوه للغرباء ، وبلغة أجنبيّة غريبة ؛ ولأنّ هؤلاء الأجانب لم يكونوا في بيت المقدس ليمكنهم الاطّلاع على حقيقة قتل أو عدم قتل ذلك النبيّ ، فقد كتب مؤلّفو الإنجيل كلّ ما اعتبروا كتابته من المصلحة دون أن يخشوا شيئاً . ثمّ إنّهم شكّلوا مجلساً بعد السيّد المسيح بثلاثمائة سنة ، فتشاور علماء النصارى في كيفيّة القضاء على الاختلاف في هذه الأُمور ، فارتأوا انتخاب أربعة أناجيل من بين الأناجيل واعتبار مطالبها صحيحة ، واعتبروا سواها ـ ممّا لا حدّ له ولا حصر ـ باطلاً . فصار أمر عدم قتل المسيح المذكور في الأناجيل المرفوضة أمراً غير رسميّ» .[1]

١ـ «راه سعادت» (= نهج السعادة) ص ١٣٦ إلى ١٣٨ ، الطبعة السابقة.

يقول أحمد أمين المصريّ في كتاب «يوم الإسلام» ص ٢٢٩ و ٢٣٠ :

إنّ أهمّ الفروق بين الإسلام والنصرانيّة ، أنّ الإسلام رعا الدنيا حقّ رعايتها وجعل من الممكن الاحتفاظ بالحياة الروحيّة مع الاستمتاع بالدنيا ، بينما النصرانيّة رأت ألّا ينفتح باب السماء إلّا إذا انغلق باب الأرض . ولعلّ سبب ذلك أنّ الإسلام جعل الإنسان مسؤولاً فقط عن عمله **وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ** ، و: **لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ** ، على حين أنّ النصرانيّة حمّلت الإنسان خطيئة آدم وجعلته يؤمن بشرّ النفس الإنسانيّة لا بخيرها ، كما فعل الإسلام. وفرق آخر وهو أنّ المدنيّة الغربيّة جعلت من الممكن أن يرقى الإنسان بالحياة المادّيّة فقط ، من اقتصاديات وصناعات واختراعات وفلسفات . بينما الإسلام يرى أنّه لايمكن رقيّه إلّا بالاعتماد على الركنين جميعاً : أعني الجسم والروح.

والفرق الثالث أنّ المسلم يعتمد في حياته على ربّه ويعتقد أنّ قوّته هو لا تكفي ما لم تدعم بسند متين وركن شديد هو **الله** مدبّر هذا العالم . أمّا الغربيّ ، فيرى **الله** قد كفّ ⇦

إنّ ضياع التوراة والإنجيل هو أثر غضب الله تعالى على اليهود المعتدين الظالمين وسخطه عليهم، فقد رفع كتابه من بينهم. ولقد عاش اليهود الفلسطينيّون في ظلّ نبوّة عيسى على نبيّنا وآله وعليه السلام في أفضل النعم الدنيويّة والأخرويّة، فقد نجوا من ذُلّ أسر الفراعنة وصار لهم استقلال وعزّة عظيمين، وسكنوا في أفضل الأماكن التي سكنها أسلافهم. ولقد كانت قوانين التوراة ـ الكتاب السماويّ ـ وتعاليمها دليلاً عجيباً يضمن لهم سعادة الدارَين، لكنّهم عصوا واكتنفهم الغرور والاستكبار والتعالي، ففقدوا جميع تلك النِّعم، وسلّط الله عليهم الظالمين في مرحلتين متفاوتتَين، فمزّقوهم شرّ تمزيق.

قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: [قال تعالى]: **الظَّالِمُ سَيْفِي؛ أَنْتَقِمُ بِهِ وَأَنْتَقِمُ مِنْهُ.**[1]

⇦ يده عن العالَم منذ خلقه، وتركه يتطوّر كما يشاء وبقى في السماء، والأرض تعمل عملها. والمسلم يرى أنّ خالق الأرض يضع يده في كلّ شيء، طبقاً لخطّة مرسومة، معروف له هدفها وأنّ المسلم مجبر على اتّباع هذه القوانين، شاء أو أبى.

والفرق الرابع أنّ إمام المدنيّة الإسلاميّة القرآن وتعاليمه التي أبناها. أما المدنيّة الغربيّة فإمامها المدنيّة الرومانيّة من جملة نواح:

١ ـ الاعتزاز بشخصها، واحتقار ماعداها، حتّى أنّ العدل واجب على الرومانيّ للرومانيّ، لا لغيره.

٢ ـ حبّ الفتح والاستعمار والاستعلاء واستغلال البلاد المفتوحة للمصلحة الرومانيّة لا للمفتوحين، بينما الإسلام يرى أنّ البلاد المفتوحة لها ما له وعليها ما عليه.

٣ ـ الاهتمام بالحياة الفرديّة والحياة الاجتماعيّة على السواء، وتشريعه للناحيتَين على السواء.

أمّا في المدنيّة الغربيّة، فتشجيع للحياة المادّيّة لا إلى حدّ، وإهمال للحياة الروحانيّة لا إلى حدّ كذلك.

١ـ هذه الرواية سمعتها من المرحوم أبي. وقد وردت في «كلمة الله» ص ١٨٠، ⇦

وقد تعرّض اليهود إلى هجمات شديدة وتخريب شديد إثر اعتداءاتهم ، إلّا أنّ القرآن الكريم قد عدّ لهم اعتداءَين مهمّين سمّاهما فساداً في الأرض ، وقد سلّط الله على اليهود إثر ذلك بخت نصّر ملك بابل وتيطوس الروميّ ، فأفقدهم جميع مزايا الحياة ، وأضاع التوراة والإنجيل منهم .

وبنو إسرائيل هم بنو يعقوب ، وهو ابن إسحاق . ويسمّي اليهود يعقوب **إسرائيل** ، ويعني «مَن تفوّق على الله» فبناءً على عبارة التوراة ، أنّ يعقوب تصارع مع مَلَك الله في **فنيئيل** ، فغلبه ، فلقّب بهذا اللقب .[1]

وقد توجّه بنو إسرائيل بعد قضاء أربعين سنة في صحراء التيه وبعد ارتحال النبيّ موسى على نبيّنا وآله وعليه السلام إلى فلسطين ، فتولّى ولاية أمرهم **يوشع بن نون** وصيّ موسى .

⇦ الحديث ٢١٠ ، الطبعة الأُولى ، دار الصادق ، بيروت . وجاء في ص ٥٤٦ : وقد ورد هذا الحديث مُرسلاً. بَيدَ أنّه أورد حديثاً آخر برقم ١٠٩ ، فيه : **يَقُولُ اللَهُ عَزَّ وَجَلَّ : إذَا عَصَانِي مِنْ خَلْقِي مَنْ يَعْرِفُنِي ، سَلَّطْتُ عَلَيهِ مَنْ لَا يَعْرِفُنِي** . وذكره في ص ٥٤٥ و٥٤٦ بثلاثة أسانيد:

١ : «الكافي» مسنداً عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام.

٢ : «إرشاد القلوب» للديلميّ .

٣ ـ «أمالي الصدوق» مسنداً عن الإمام عليّ بن الحسين السجّاد عليهما السلام.

وأورد المجلسيّ رحمة الله عليه في «بحار الأنوار» ج ٧٥ ، ص ٣١٣ ، الطبعة الحروفيّة، المكتبة الإسلاميّة ، عن «ثواب الأعمال» للصدوق ، مسنداً عن الإمام محمّد الباقر عليه السلام: **قَالَ : مَا انْتَصَرَ اللَهُ مِنْ ظَالِمٍ إلَّا بِظَالِمٍ ؛ وَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضًا** . («ثواب الأعمال» ، ص ٢٤٤).

١ـ «قاموس الكتاب المقدّس» ص ٥٣ ، مادّة (إسرائيل) . وتعبير التغلّب على الله وعلى مَلَك الله في التوراة . وهو من المواضع المحرّفة فيها ، لأنّ التغلّب على الله محال عقلاً، والتعبير به حرام شرعاً.

ولم يكن لهم مسجد ، فكانوا يقيمون عباداتهم في الخيام . وكانت أكثر أحكامهم تقديم القرابين ، فكان عليهم أن يقدّموا حيواناً قرباناً لكلّ شيء ، وكان عليهم أن يذبحوا بقرة أو شاةً أو طيراً للطهارة من الحيض والنفاس والجنابة .

وكانت القرابين مختلفة ، وكان ينبغي القيام بها في حضور كاهن من ولد هارون وفي مذبح خاصّ في الأرض المقدّسة . أمّا بدون تقديم القرابين ، فإنّهم لم يكونوا يطهروا من الحيض والجنابة ، وكان أولادهم حينذاك أولاداً ولدوا على غير طُهر .

ولم يكن لبني إسرائيل ملك إلى زمن **طالوت** ، وكان الفقهاء يحكمون فيهم ، وكان معبدهم خيمة ، وكانوا يقدّمون الذبائح والقرابين في الخيمة . حتّى تغلّب طالوت على جالوت في الحرب وقتله ، فاختاره بنو إسرائيل حينذاك ليحكم فيهم ، فأعقبه في المُلك النبيّ داود والنبيّ سليمان .

وقد بنى بنو إسرائيل في ذلك العصر **بيت المقدس** ، وتوارث أولاد داود المُلك ، وأصبحت التجمّلات الملكيّة والتشريفات أمراً معهوداً رائجاً ، فترك أولاد سليمان أحكام التوراة ، وصاروا يقتلون أنبياء الله ، ولا يتّعظون بمواعظ الأبرار والصالحين ،[1] وراج بينهم عبادة الأصنام ؛

١ـ ورد في كتاب «منقول رضائي» الطبعة الحجريّة ، قبل نهاية الكتاب بثلاث صفحات، مطالب عن تحريفات اليهود الأُصوليّة والفروعيّة في التوراة ، جاء فيها: ويحلّ اليهود زواج بنت الأخ من عمّها الذي هو بمنزلة أبيها ؛ ويحلّون زواج بنت الأُخت من خالها الأقوى في الحرمة عقلاً ونقلاً ؛ كما يعتبرون الشراب والعرق وسائر المُسكرات حلالاً. ويعتقد اليهود بأنّهم أولاد الله ويعتبرون الملائكة بنات الله . ويقولون في الفقرتين في سورة **قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ** إلى آخر السورة في قوله تعالى : **لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ** : هذا مخالف لما جاء في التوراة، إنّ الله ذكر بني إسرائيل على أنّهم أولاده ، وذكر أرض بيت المقدس على أنّها ⇦

فغضب عليهم الله آنذاك وهو **أَشَدُّ المُعَاقِبِينَ فِي مَوْضِعِ النَّكَالِ والنَّـقِمَةِ**، فسلّط عليهم بخت نصّر، فجعل بيت المقدس قاعاً صفصفاً، وتسبّب في ضياع التوراة، وساق بني إسرائيل أسرى إلى بابل.

ثمّ تاب بنو إسرائيل، فسلّط الله كورش الهخامنشيّ فانتزع بابل من يد أولاد بخت نصّر، وأعاد بني إسرائيل إلى بيت المقدس، فقاموا في زمن عزرا الكاهن بإعادة بناء بيت المقدس، وعملوا بأحكام التوراة ولم يعبدوا أصناماً، وملكهم أحد أولاد داود عليه السلام واسمه **زُروبابِل**، ودامت حكومته إلى زمان عيسى المسيح على نبيّنا وآله وعليه السلام، وكان هذا هو البناء والعمران الثاني لبيت المقدس. (حيث كان الأوّل من قِبل النبيّ سليمان، والثاني من قِبل عزرا).

بَيدَ أنّ اليهود لمّا لم يؤمنوا **بروح الله**، واتّهموه وأُمّه ولم يتورّعوا عن إلحاق صنوف الأذى بهما، فإنّهم استحقّوا غضب الله مرّة أُخرى، فسخط عليهم وقام باسم **أَعْظَمُ المُتَجَبِّرِينَ فِي مَوْضِعِ الْكِبرِيَاءِ وَالعَظَمَةِ** بتسليط تيطوس الروميّ عليهم، فخرّب بيت المقدس وفرّق اليهود من جديد، فهم حتّى زماننا الحاضر متفرّقون في بلاد العالم. وقد أشار تعالى إلى هذا التخريب المجدّد إلى بيت المقدس وإلى فتنة اليهود وإفسادهم

⇦ زوجه، والتوراة على أنّها مهر أُمّهم. وكانوا يأخذون أموالاً من العوامّ الذين هم كالأنعام لقاء ذبح الشاة وغيرها من ذبائحهم، مع أنّ الارتزاق بالحرام حرام، وتناول ذلك الوجه حرام».

وجاء في «قاموس الكتاب المقدّس» ص ٨٥٠ و ٨٥١، مادّة (موسى): «ولم يختن موسى ولده؛ وكان ذلك معصيةً منه. فأراد الله قتل موسى في الطريق بهذا الجُرم، فقامت زوجته صِفوره على الفور بختن ابنه بحجر حادّ». ثمّ يقول: «وعلى أيّة حال، فيتّضح أنّ سنّة الختان التي أُعطيت لخليل الرحمن قد طُلب من جميع نسله تنفيذها».

مرّتين ، فقال في سورة الإسراء :

وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَـٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَـٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا * إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا * عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ حَصِيرًا.[1]

ويظهر من هذه الآيات بجلاء أنّ عزّة بني إسرائيل وشوكتهم بعد الواقعة الأُولى كانتا بسبب توبتهم وإنابتهم وإحسانهم ؛ بَيدَ أنّهم لمّا ابتلوا من جديد بالعصيان والتمرّد ، فقد تحقّقت الواقعة الثانية جزاءً لأعمالهم وأمّا الضمير في **عَلَيْهِمْ** في **ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ** وفي **لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ** ، فمع أنّه يعود ظاهراً إلى نفس القوم السابقين الذين حاربوا بني إسرائيل ودمّروا بيت المقدس ، بقرينة أنّ بخت نصّر أو البابليّين لم يشنّوا حملة جديدة مدمّرة ، فإنّه يستفاد بأنّ الضمير يعود إلى مطلق الأعداء ، سواءً كانوا بابليّين أم روميّين . وقد استفاد سماحة الأُستاذ قدّس الله نفسه ذلك أيضاً ، ولم يعتبر له منافاة مع تحقّق المرحلة الثانية من قبل الروم ، فقال :

«والمبعوث ثانياً هو قيصر الروم **إسبيانوس** ، سيّر إليهم وزيره **طوطوز** فخرّب البيت وأذلّ القوم قبل الميلاد بقرن تقريباً» .[2]

١ـ الآيات ٤ إلى ٨ من السورة ١٧ : الإسراء.

٢ـ «الميزان في تفسير القرآن» ج ١٣ ، ص ٤٦ .

وقد أُشير إلى هذه الواقعة في التوراة أيضاً ، في سِفر **التثنية** ، الآية الثامنة عشرة ، الباب التاسع والثلاثين ، لكنّ اليهود ينتظرون المرّة الثالثة لتعمير بيت المقدس ليحكم هناك ملك من نسل داود على نبيّنا وآله وعليه السلام ، ويُعيد اليهود إليها .

ويسمّي اليهود هذا الملك باسم **ماشيح** بمعنى **المسيح** . فالمسيح في العبريّة يلفظ بالشين المعجمة والياء المفتوحة . وهو استعارة وكناية عن الملك . بَيدَ أنّ كتب اليهود لم تعدهم بعمران بيت المقدس مرّة ثالثة . وقد ورد في سِفر **لَوِيان** فقط ، الآية السادسة والعشرين من الباب الرابع والأربعين الوعد باحترام الأنبياء والصالحين القدماء ، وأن لا يقتلوهم ، وأن يوفوا بعهودهم لهم مع وجودهم في أرض أعدائهم .

ونرى أنّ هذا الوعد الإلهيّ قد تحقّق ، فقد تلاشى الأقوام السابقون **كالآشوريّين والبابليّين والعمالقة والفينيقيّين** وضاعت تقاليدهم وعاداتهم ، أمّا اليهود فقد بقوا مع كتابهم ودينهم وهذا من معجزات أنبياء بني إسرائيل وإخبارهم بالغيب . فقد ورد في سفر **المُثَنَّى** ، الآية الثامنة والعشرين من الفصل السادس والأربعين قوله : وسيكون لك ولأولادك بدلاً من ذلك آية ومعجزة . بيد أنّ هذا ليس وعداً بحكم ملك وتأسيس دولة مستقلّة ، فاليهود إنّما يرعون هذا الوهم الساذج في رؤوسهم عبثاً . وقد بيّنت الآية الهادية الوافية :

ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ،[1] حال اليهود وأمرهم إلى يوم القيامة .

١ـ ذيل الآية ٦١ ، من السورة ٢ : البقرة .

وليس أمام اليهود من مفرّ غير قبول الإسلام، والدخول في الدين المحمّديّ الحنيف، والولاية العلويّة، وتقبّل القرآن العظيم، كما أخبر النبيّ موسى على نبيّنا وآله وعليه السلام، وكما بُشِّر بقدومه المبارك في كتب العهدين التوراة والإنجيل.

وقد تشرّف العالم الكامل والخبير البصير الذي كان من أعاظم علماء اليهود في طهران، بالانتماء إلى الإسلام في سنة ١٢٣٨ هجريّة قمريّة، وكان معاصراً لسماحة **آية الله العظمى الحاجّ المولى أحمد النراقيّ** ومعاصراً لفتح علي شاه القاجاريّ، وسمّى نفسه ميرزا محمّد رضا. وأنشد هذه الأبيات الثلاثة:

از منزل عدم به وجود آشنا شدم
بر امّت كليم خدا پيشوا شدم
در مُصحف كليم و در أحكام أنبياء
ديدم **محمّد** است محمّد رضا شدم
رفتم از اين جهان به در دوست شادمان
از بهر آنكه طالب دين خدا شدم[1]

وقد امتلك هذا العالم الخبير، كما هو واضح من كتابه الذي ألّفه، مهارةً عظيمة واطّلاعاً واسعاً على كتب العهد القديم، فقد قام بإثبات نبوّة خاتم الأنبياء بأدلّة وشواهد وبراهين قاطعة انتزعها من كتبهم.

١ـ يقول: «جئت من منزل العدم وعرفتُ الوجود، فكنتُ إماماً مقدّماً على أُمّة الكليم.
رأيت في مصحف الكليم وفي أحكام الأنبياء، اسم **محمّد** فصار اسمي محمّد رضا.
لقد رحلتُ من هذا العالم إلى أعتاب الحبيب فرحاً، لأنّي صرتُ طالباً لدين الله».

وقد ألّف هذا الرجل الجليل كتابه باللغة العبريّة والخطّ العبريّ ؛ وارتحل إلى عالم الأبديّة سنة **١٢٦٦** هجريّة قمريّة ودُفن في طهران ، شارع المولويّ ، محلّة باغ فردوس (= روضة الفردوس) بجوار المستشفى ، في زاوية مسجدٍ هناك ، ولمقبرته شبّاك إلى الخارج ، وصار الناس يذهبون لزيارة قبره الشريف ، وقد زار الحقير قبره .

وقد قام العالم الربّانيّ : المرحوم السيّد علي بن حسين الحسينيّ ، بمساعي الآخوند الملّا محمّد علي الكاشانيّ الملقّب بـ «آقا جاني» ، وآقا محمّد جعفر ابن أخ المؤلّف ، بترجمة كتاب ذلك الفقيد من العبريّة إلى الفارسيّة وأعادوا تأليفه وذلك سنة **١٢٩٢** هجريّة قمريّة في عصر ناصر الدين شاه . ويدعى أصل الكتاب بـ «منقول رضائي» حسب تسمية المؤلِّف له ، أمّا المؤلَّف الثاني (وترجمة) الكتاب الأوّل فيسمّى «إقامة الشهود في ردّ اليهود في منقول رضائي» .

والحقّ أنّه كتاب نفيس ذو منهج تحقيقيّ ، وقد استفاد الحقير منه كثيراً . وقد قام مؤلّفه بالردّ بمنهج تحقيقيّ مستعيناً بالأدلّة العقليّة على الأدلّة التي كتبها أعلام اليهود من أمثال **هارم بام وربي إسحاق وابرنبال** وغيرهم حول أبديّة التوراة .

وإذ آمن هذا الرجل الجليل ، فقد تشرّف جميع أولاده وأقاربه وجمع كثير من اليهود الذين كانوا يثقون به بالانتماء إلى الدين الإسلاميّ المقدّس ؛ **اللَهُمَّ احْشُرْهُ مَعَ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينَ** .

البحث الحادي عشر

في قاطعية القرآن الكريم وشموله

وتفسير آية

﴿الٓمٓصٓ ۝ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾

أعُوذُ بِاللَهِ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجِيمِ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم

وصلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ وآلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ

ولَعْنَةُ اللهِ عَلَى أعْدائِهِمْ أجْمَعِينَ مِنَ الآنَ إلَى قِيامِ يَوْمِ الدِّينِ

ولَا حَولَ ولَا قُوَّةَ إلَّا بِاللَهِ العَلِيِّ العَظِيمِ

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :

الٓمٓصٓ * كِتَـٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ .[1]

ويقول تعالى بعد هذه الآية :

ٱتَّبِعُوا مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَـٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ * فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ (وإنّ هذا العذاب والبؤس والنكال ،كان جزاءً على أعمالنا لَحِق بنا بسببها . فقد سبّبنا في الحقيقة هذا الجزاء والانتقام الذي لحقنا ، وهو حصاد ما عملته أيدينا) .

وتبيّن هذه الآيات التي أعقبت آية **كِتَـٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ** أنّ القرآن مدعاة لطمأنينة القلب ، وأنّه يؤدّي إلى طيّ السبيل المستقيم بلا حرج ولا اعوجاج ، وأنّ الحرج واضطراب الخاطر

١ـ الآيتان ١ و٢ ، من السورة ٧ : الأعراف .

وتشويش الحواسّ والقلق والانهيار العصبيّ والأفكار الشيطانيّة المضطربة ناشئة بأجمعها من عدم اتّباع هُدى القرآن الذي يقود الإنسان إلى الاتّباع المحض لربّه الكريم، ويحذّره من أيّة متابعة لغيره تعالى.

ثمّ يقول تعالى: **فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ * فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ**.

لاحظوا كيف تؤدّي هذه الآيات المطلب بقاطعيّة تامّة: إنّ هذا القرآن كتاب أُنزل إليك من ربّك، فينبغي ألّا يكون في قلبك أيّ حرج أو اضطراب أو شدّة أو قلق! وهذا الكتاب هو كتاب إنذار وإعلام، لتنذر به الناس، وليكون ذكرى يذكّر المؤمنين بربّهم الجليل.

فيا أيّها المخاطبون بهذا الخطاب، اعلموا أنّ هذا الكتاب قد نزل على النبيّ، إلّا أنّكم جميعاً المخاطبون به فرداً فرداً، وعليكم أن تتّبعوا ما أُنزل إليكم من ربّكم، وأن لا تتّخذوا من دونه وليّاً ولا نصيراً ولا موضع سرّ! لماذا لا يذكر الله منكم إلّا القليل النادر؟ إنّ عذابنا سيحلّ بالمتمرّدين، وإنّ بأسنا سيصيبهم في حال تنعّمهم وغفلتهم، فلا يجدون مفرّاً إلّا الإقرار بمظالمهم والاعتراف بتجاوزاتهم.

إنّ جميع أفراد المخلوقات سواء في نظرنا في هذه الجهة، الأنبياء المرسلون المنذِرون، والمنذَرون أُرسِلُوا إليهم. فهم بأسرهم في مرأىً منّا ومسمع، وهم جميعاً عبادنا المملوكون مطلق العبوديّة والملكيّة؛ وهم جميعاً تحت أمرنا وخاضعون لتكليفنا، فلا عيسى يمكنه أن يدّعي الأُلوهيّة، ولا أُمّه مريم. وسنسألهم جميعاً، سنسأل الأنبياء عمّا واجهتهم به أُممهم. وسنسأل الأُمم عن أعمالهم مع المُرسَلين وعن مدى إطاعتهم لأوامرهم وإرشاداتهم. وسنقصّ عليهم عن علم ومعاينة تامّة، بأنّنا كنّا دوماً حاضرين وناظرين غير غائبين، وأنّ لنا المعيّة مع جميع الموجودات.

كما نلاحظ أنّ جميع هذه الجمل والعبارات قد صِيغت في قالب الألفاظ بحيث جاءت مع تأكيد لام القسم ونون التأكيد الثقيلة، وأنّها أدّت خطاباتها ومضامينها بقاطعيّة ليس فوقها قاطعيّة.

إنّ أيّاً من الكتب السماويّة لم يحتوِ على التأكيد بقدر ما احتوى عليه القرآن. وكم بدأت الآيات القرآنيّة بيانها بـ «إنَّ» و«أنَّ» ولام القسم والجملة الاسميّة! وكم تمتلك آيات القرآن من القاطعيّة! إنّها حيث تتحدّث عن مطلب معيّن، فإنّها تتحدّث عنه بقاطعيّة؛ لكأنّ القاطعيّة كانت هي المادّة الأوّليّة التي صُبّ القرآن في قالبها.

لاحظوا الآيات التالية:

إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ * إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ * فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ * إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ.[1]

حيث نرى في هذه الآيات أنّها تعتبر النبيّ ـ بتأكيدٍ وإبرامٍ كاملين ـ سائراً على طريق الحقّ المبين، لذا فإنّها تأمره بالتوكّل على ربّه، وأن يقيم أمره على أساس الجدّ. فالكفّار واليهود لن يقبلوا بكلامه ولن يحكّموا آيات القرآن لتهديهم في رفع اختلافاتهم في التوراة، وهم موتى. أفيمكن إسماع الميّت؟! إنّ من مات قلبه هو ميّت حقّاً. فالميّت الحقيقيّ ليس أحداً إلّاه. فكيف تنتظر من هؤلاء الموتى أن يؤمنوا بك! أو أن يسمعوا لقولك؟ إنّ الميّت ليس له من مُخّ، ولا قلب، ولا مركز إدراك وتفكير.

١ـ الآيات ٧٦ إلى ٨١، من السورة ٢٧: النمل.

وهؤلاء صمٌّ لا يسمعون ؛ ومهما كان الصوت عالياً ، ومهما كانت الضجّة والصخب عاليَين ، فإنّ الأصمّ لا يسمع ذلك أبداً ، إذ ليس له مركز للسمع .

وهؤلاء عُمي فقدوا مركز الإبصار . أفأنت تريد هدي العُمي على منهاج قويم ؟ إنّ هؤلاء عُمي ليس لهم من أعين حقيقةً . فالعُمي الحقيقيّون هم كهذا . وأساساً فينبغي ألّا يُدعى الأعمى جسميّاً بالأعمى ، لأنّ الأعمى هو الذي حُجبت أعين بصيرته ، فلم يبق له بصيص من نور يهتدي به . وهؤلاء عُميان بتمام معنى الكلمة .

المُبصر هو المؤمن بالله ، والسميع هو الذي له آذان قلب صاغية لاستماع آيات الله . وهو الذي يسمع فيخضع في مسيرة العبوديّة والتسليم للحقّ تعالى .

يَسٓ * وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ.[1]

حيث تعتبر الآيات بقاطعيّة أنّ النبيّ سائر على نهجٍ صائب مستقيم ، وأنّه من المرتبطين بعالم الغيب والمتّصلين بالعالم الأعلى ومن مرسلي الحقّ جلّ وعلا .

قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ.[2]

قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ.[3]

١ـ الآيات ١ إلى ٤ ، من السورة ٣٦ : يس .

٢ـ الآية ١٠٨ ، من السورة ١٢ : يوسف .

٣ـ ذيل الآية ٩١ ، من السورة ٦ : الأنعام .

ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ.[1]

فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ.[2]

فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ.[3]

إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ.[4]

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ.[5]

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ.[6]

لقد ضَعُفَ العابد والمعبود ؛ وضعفتم أنتم الذين تسعون إلى قضاء حوائجكم ، وضعف كذلك الذين تربّعوا على أريكة التصنّع وهم يحسبون أنّهم هم الذين يقضون لكم حاجاتكم .

وإحدى قاطعيّات القرآن العظيم تتمثل في إخباره عن الحوادث والوقائع الآتية ، فهو يُخبر عن تلك الوقائع بأُسلوب حتميّ مسلّم لا يعتريه أدنى ريب ، في حالٍ تخلو من أيّ أثر وأرضيّة لتحقّق تلك الوقائع ، بل على

١ـ الآية ٣ ، من السورة ١٥ : الحجر .

٢ـ الآية ٨٣ ، من السورة ٤٣ : الزخرف ؛ والآية ٤٢ ، من السورة ٧٠ : المعارج.

٣ـ الآية ٤٥ ، من السورة ٥٢ : الطور .

٤ـ الآية ٥٦ ، من السورة ٢٨ : القصص .

٥ـ الآية ١١ ، من السورة ٢٢ : الحجّ .

٦ـ الآية ٧٣ ، من السورة ٢٢ : الحجّ .

العكس فإنّ إخباره عنها يجري في ظروف وشرائط لها دلالة على خلاف إخبار القرآن.

فحين تجاوز مشركو مكّة الحدّ في إلحاق الأذى برسول الله، فهاجر إلى المدينة وحيداً فريداً غريباً، وترك مكّة وطنه الذي ألفه بسبب امتناع أقاربه من قريش عن نُصرته، فإنّ الله تعالى يُخبره في تلك الحال:

إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ.[1]

وقد نزلت هذه الآية على النبيّ في منطقة **الجحفة** وسط الطريق بين مكّة والمدينة، وكانت عودة النبيّ إلى مكّة تبدو حينذاك أمراً عسيراً، ولم تتحقّق تلك العودة إلّا بالجهاد والحرب وفتح مكّة بعد أن بقي في المدينة ثمان سنين. وكان من الممكن أن يُقتَل النبيّ خلال هذه المدّة الطويلة في غزوات بدر وأُحد والأحزاب وغيرها، أو أن يموت، أو أن يُهزَم في معركة فتح مكّة. وعلى أيّ تقدير، فقدكانت عودة النبيّ إلى مكّة تبدو بعيدة في النظر، وعلى أقلّ تقدير فقدكان أمر عدم عودته يبدو محتملاً؛ بَيدَ أنّ هذه الآية الكريمة تقول بضرسٍ قاطع: إنّ الله سيُعيدك إلى مكّة حتماً!

كما أنّ القرآن الكريم أخبر عن فتح مكّة في سورة الفتح قبل أن تُفتح فعلاً: **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ.**[2]

ويقول أيضاً في نفس السورة:

لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن

١ـ الآية ٨٥، من السورة ٢٨: القصص.

٢ـ الآيتان ١ و٢، من السورة ٤٨: الفتح.

شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا.[1]

وقد تحقّق فتحُ مكّة بعد نزول هذه الآيات بسنتين ؛ أمّا الفتح الذي سبقه فكان فتح خيبر الذي تحقّق أوائل السنة التي أعقبت نزول هذه الآيات .

ويقول القرآن أيضاً في نفس السورة :

وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا * وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا.[2]

ونرى هنا أنّ الله تعالى يعد المسلمين بغنائم كثيرة ، الأُولى : غنائم معجَّلة ينالونها ، وكانت هي غنائم مكّة وحُنين وقبائل أرض الجزيرة العربيّة .

والثانية : غنائم مملكة إيران ومملكة الروم ، التي لم يكن العرب قبل الإسلام قادرين على مجرّد تصوّر الحصول عليها ، كما أنّهم كانوا عاجزين عن التفكير في القُدرة على نيلها . لكنّ تلك الغنائم قد صارت في أيديهم ببركة الإسلام واقتدار الدين المحمّديّ .

وإحدى الأُمور التي أخبر عنها القرآن بقاطعيّة ، بحيثّ عُدّ ذلك إخباراً عن الغيب ، واعتبر إحدى معجزات القرآن الظاهرة ، هي إخباره عن غلبة الروم على الجيش الإيرانيّ ، حيث جاء في سورة الروم :

الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ

١ـ الآية ٢٧ ، من السورة ٤٨ : الفتح .

٢ـ الآيتان ٢٠ و ٢١ ، من السورة ٤٨ : الفتح .

سَيَغْلِبُونَ * فِى بِضْعِ سِنِينَ لِلَهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ ٱللَهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ * وَعْدَ ٱللَهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَهُ وَعْدَهُۥ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْأَخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ.[1]

وتذكر هذه الآيات قصّة الحرب بين إيران والروم، وكيف أنّ الإيرانيّين الوثنيّين عبدة النار لمّا كانوا يهزمون الروم المسيحيّين أهل الكتاب، فقد كان مشركو العرب يفرحون ويبتهجون بتفوّق دولة مقتدرة تشترك معهم في دينهم، بينما كان المسلمون ـ في الجانب المقابل ـ يغتمّون ويحزنون لأنّ دولة مسيحيّة تشترك معهم في الإيمان بالتوحيد والعمل بكتاب سماويّ قد هُزمت ودُحرت من قِبَل دولة وثنيّة تدين بعبادة النار.

وعلى العكس، فحين كانت دولة الروم تتفوّق في الحرب، فإنّ المسلمين كانوا يفرحون ويبتهجون، بينما يحزن ـ في المقابل ـ مشركو العرب، لأنّ المسلمين كانوا يرون دولة الروم القويّة التي تُسايرهم في أصل الكتاب والتوحيد ظافرةً منصورة، بينما يرون دولة إيران القويّة التي تدين بعبادة النار مدحورة منكوبة.

وإجمال القصّة هو أنّ **بهرام چوبين** تغلّب على **كسرى أبرويز** سنة ٥٩٠ ميلاديّة، وتمرّد على أمره وادّعى المُلك لنفسه، فجهّز كسرى وأخواه **بَندويه وبَسطام** جيشاً جرّاراً مجهّزاً لمحاربته، بَيدَ أنّهم انهزموا أمامه، ففرّ كسرى إلى بلاد الروم، والتجأ لدى قيصر الروم وكان يُدعى **موريق** (موريس Maurice)، فرحّب به قيصر كثيراً، وأسبغ عليه أنواع الهدايا

١ـ الآيات ١ إلى ٧، من السورة ٣٠: الروم.

والمجوهرات ، وزوّجه ابنته مريم ، فعاش إلى كنف قيصر منعّماً مدّة سنة ونصف السنة .

ثمّ إنّ **موريق** بعث ابنه الأكبر **بناطوس** على رأس جيش من سبعين ألف أو مائة ألف جنديّ إلى إيران يصحبهم كسرى ، فحاربوا بهرام وانتصروا عليه ، ففرّ بهرام إلى الصين والتحق بالخاقان ، حتّى قُتل على يد زوجة الخاقان .

وقد أحسن كسرى ضيافة **بناطوس** وجنوده الروميّين بعد استقرار سلطانه ، وسيّرهم إلى بلاد الروم مع هدايا وتحف كثيرة .

وبعد هذه القضيّة بأربع عشرة سنة ، قتل الروم **موريق** وابنه **بناطوس** وادّعى المُلك شخص يُدعى **فُكاس** (قوفا) ، فجاء ابن موريق الآخر إلى إيران وطلب من خسرو برويز أن يُعينه على استرجاع المُلك ، فأرسل كسرى برويز ثلاثة من قادة جيشه المعروفين لاسترجاع تاج وعرش موريق ، وجهّزهم بالعُدّة والعدد .

وقد تحرّك أوّل القادة الثلاثة ، واسمه **رميوزان** إلى الشام وفلسطين ، فأغار على تلك الديار ودمّرها وسيطر على جميع نواحيها ، ثمّ استعان بستّة وعشرين ألف يهوديّ على محاصرة بيت المقدس وفتحها ، وأرسل **الصليب الأكبر** إلى إيران ، أي الصليب الحقيقيّ الذي يقولون إنّهم صلبوا عليه عيسى ، وكانوا قد وضعوه في صندوق ذهبيّ ودفنوه تحت الأرض للمحافظة عليه .

كما تحرّك القائد الثاني **شاهين** إلى مصر والإسكندريّة ، فاحتلّها ، وفتح **النوبة** بكاملها ، وأرسل مفتاح الإسكندريّة إلى إيران .

أمّا القائد الثالث **شهر بَراز** فتحرّك إلى الروم وقسطنطينيّة،[١] ففتح بلاد الروم بأسرها وحاصر القسطنطينيّة ووصل إلى الخليج. وألحق بالروم هزيمة ساحقة في **كالسِدون** قرب القسطنطينيّة في سنة ٦١٧ ميلاديّة.

وقد قتل الروم في تلك الفترة **قوفا**، وكان رجلاً عابثاً فاسداً، وعاد **هِرْقِل** (هراكليوس) إلى بلاد الروم من إفريقيا عن طريق البحر، فاستقبله الناس وجعلوه ملكاً عليهم، وكان هرقل مؤمناً بالمسيح، وكان في انزعاج من دمار البلاد ووقوعها بيد الإيرانيّين المجوس.

وقد أرسل **هرقل** سفيراً إلى كسرى أبرويز وأعلمه برغبته في الصلح، إلّا أنّ مباحثاتهما لم تسفر عن شيء، فقد جعلت الفتوحات الكبيرة كسرى مغروراً متكبّراً، فلم يكن حاضراً للبحث في أمر الصلح، بل إنّه هدّد السفير بالقتل وألقاه في السجن لأنّه لم يأته بهرقل مكبّلًا بالأغلال أمام عرشه.[٢]

١ـ القسطنطينيّة هي مدينة إسلامبول.

٢ـ يقول غياث الدين بن همام الدين الحسينيّ المعروف بـ«خواند أمير» في كتابه: «حبيب السير» ج ١، ص ٢٥٠: «وكان لأبرويز عرش في منتهى الكبر والرفعة، وكان مرصّعاً بجواهر ثمينة، وقد سُمِّر بمسامير من فضّة بلغ عددها مائة وأربعين ألف مسمار، وزُيّن بكرات ذهبيّة يبلغ عددها ألف كرة، وصوّر فيه الأبراج الاثني عشر والكواكب السبعة وغير ذلك. وكان لبرويز ثلاثون ألف سرج مرصّع، ومائة كنز أحدها كنز جاءت به الريح. وقصّة هذا الكنز الذي حصل عليه أبرويز بلا تعب ولا مشقّة هي أنّ قيصر عمد مرّة إلى أموالٍ له لا تُحصى، فعبّأها في ألف سفينة وأرسلها إلى موضع حصين، فهبّت الريح وجاءت بالسفن إلى المناطق التي يسيطر عليهما عمّال أبرويز، فضمّها أبرويز إلى سائر كنوزه. وكان أبرويز يمتلك قدراً من الذهب الليّن يصنع منه ماشاء بلاحاجة إلى إذابته بالنار. وكان في قصر حريمه ثلاث آلاف فتاة حرّة الأصل حوراء واثنتا عشرة ألف جارية. وكان يحرسه كلّ ليلة ستّة آلاف رجل. وكان في اصطبله ثمانية آلاف فَرَس وبغل لركوب الخاصّة، وكان ⇦

ثمّ إنّ كسرى أبرويز فتح **كالسدون**، فبلغت حدود إيران الحدود التي كانت عليها في زمن الهخامنشيّين.

وقد تردّد في أرجاء العالم صدى غلبة الفرس للروم، وكان لها ضجّة كبيرة، فقد كان العالم قد سقط بيد رجل قويّ ليس له مَن ينافسه، وكان مشركو مكّة يشمتون بالمسلمين ويؤمّلون أنفسهم بهزيمة محمّد صلّى الله عليه وآله وأتباعه، فقد كان جنوب بلاد الحجاز خاضعاً للإيرانيّين، وكان جمع كثير من الإيرانيّين يقيمون في اليمن منذ أن أخرج أنوشيروان الحبشةَ منها. وكانت تلك الناحية تُدار من قبل عامل أنوشيروان ويُدعى **باذان**، وكانت بلاد الحجاز ـ بما فيها مكّة والمدينة ـ خاضعة لحكومتهم.

وقد أحزنت هزيمة الروم رسول الله والمؤمنين، وأفرحت المشركين، وكان ذلك في السنة الثامنة لبعثة رسول الله، قبل الهجرة بخمس سنين، سنة ثمانية وأربعين من عام الفيل، أي سنة ٦١٧ و٦١٨ الميلاديّة؛ فنزلت على النبيّ الآيات: **الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِى بِضْعِ سِنِينَ**.

وحين نزلت الآيات وقرأها المؤمنون، فإنّها لم تكن قابلة للتصديق من قِبل المشركين، فقد كانت إيران بقدرتها وعظمتها وجيوشها قرينة الظفر والغلبة والنصر مدّة خمس عشرة سنة متوالية، أي منذ سنة ٦٠٣ الميلاديّة.[1] حتّى ذلك الحين، وكان الأمر قد استتبّ لها بهذه الهزيمة

⇦ يمتلك اثني عشر ألف بعير للأحمال وعشرين ألف ناقة من النوق البخاتيّة وتسعمائة وستّين فيلاً. وكان فرسه شبديز مشهوراً، إذ كان يسابق الريح في عدوه. وكان يلازمه القاصّ باربد الذي لم يكن له مثيل في الآفاق، وكانت شيرين في شرفة قصر أبرويز، وهي التي كان حسنها وجمالها قد نكّد عيش أرباب الملاحة».

١ـ ذكر مشير الدولة في كتاب «ايران باستانى» (= إيران القديمة) ص ٣٤٥، أنّ ⇦

النهائيّة للروم. وكانت خزائن إيران وثروتها في ذلك الوقت قد فاقت الحصر والإحصاء، فقدكان لكسرى أبرويز مائة كنز أحدها كنز جاءت به الريح،[1] وكان فيها كنز أُخذ كغنيمة من خاقان تركستان، وكان عبارة عن ٢٥٦ حمل بعير من الذهب والمجوهرات النفيسة. وكان أحد كنوزه عبارة عن ٣٤٨ مليون مثقال من الذهب. وكان رصيده من المال في السنة الثلاثين من حكمه ـ على الرغم من الحروب الطويلة ذات النفقات الكبيرة التي خاضها ـ يبلغ ١٦٠٠ مليون مثقال من الذهب. وكانت مصر قد سقطت بيده بعد تسعمائة سنة، فكان سلطانه يمتدّ من حدود الصين إلى نهاية أرض مصر. وكان قد حارب الروم أربع عشرة سنة دون أن يُهزم أبداً.[2]

⇦ حروب كسرى أبرويز قد دامت من سنة ٦٠٣ إلى ٦٢٧ للميلاد.

١ـ وهذا الكنز عبارة عن حمل ألف سفينة كان هرقل قد حمّلها جميع نفائس وذخائر خزينة الروم وأراد إرسالها إلى إفريقيا لتكون مصونة، بنيّة أن يذهب إلى هناك بنفسه. فساقت الريح تلك السفن إلى ساحلٍ كان جند أبرويز قد عسكروا فيه، فصارت تلك الذخائر والنفائس في خزينة كسرى في منتهى السهولة.

٢ـ وكان كسرى أبرويز في منتهى الغطرسة والغرور، فبدلاً من أن يسير على نهج جدّه أنوشيروان فيبلغ بإيران إلى ذروة الرقيّ والتعالي والعدل، ويبسط العمران فيها خلال مدّة حكمه التي دامت ثمان وثلاثين سنة، فقد قضى مدّة حكمه في حروب افتعلها مع الروم، فأضاع الثروة في هذا المجال. يقول مؤلّف «حبيب السير» ج ١، ص ٢٥١: «وقد أرسل له رسول الله كتاباً في السنة السادسة للهجرة يدعوه فيه إلى الإسلام، فمزّق كتاب النبيّ وقال: لماذا قدّم هذا العربيّ الذي هو عبدٌ من عبيدي اسمَه على اسمي؟ فلمّا بلغ رسول الله ذلك قال: **مَزَّقَ اللهُ مُلكَهُ كَمَا مَزَّق كِتَابِي!**». وجاء في «روضة الصفاء» ج ٢، في ذكر كسرى أبرويز وحاله وعاقبة أمره: «وقال رسول الله: إنّ الله أخبرني البارحة لسبع ساعات من الليل أنّه سلّط عليه ابنه (شيرويه) فمزّق بطنه. وكان ذلك في ليلة الثلاثاء، ١٠ جمادى الأُولى، السنة السابعة للهجرة». وجاء في «حبيب السير»: فقيّده أعيان إيران في السنة التاسعة للهجرة، وأجلسوا ابنه شيرويه على العرش وطلبوا منه أن يصدر أمراً بقتل أبيه.

وكان الروم ـ في المقابل ـ في غاية الضعف والوهن ، فقد خسروا جميع البلاد التي حكموها ولم يبقَ في أيديهم سوى شبه جزيرة القسطنطينيّة . وكان **البلغاريّون** يهاجمونها من الشمال ، ولم يكن لها من ثروة ولا خزينة .

وكان خبر تغلّب الروم على الإيرانيّين ممتنعاً بلحاظ الأسباب الظاهريّة ، وكان ذلك الخبر أمراً لا يُصدّق من جميع الجهات بالنسبة إلى الكفّار والمشركين ، لذا فقد كذّبوا هذا الخبر القرآنيّ أيضاً ، وحملوه على سائر ادّعاءات محمّد صلّى الله عليه وآله .[1]

١ـ ولقد كانت هزيمة إيران غير مترقّبة وبعيدة حسب الأسباب الظاهريّة ، بحيث لا يمكن تعليلها إلّا بالإرادة الحتميّة للحقّ تعالى لانقراض حكومة برويز الجائرة ولملمة بساط عدوانه ، لأنّ احتلال الممالك التي كانت خاضعة للروم لم يحصل دفعةً واحدة ليكون فقدانها أمراً ميسوراً ، فقد احتلّت إيران تدريجيّاً طوال مدّة أربع عشرة سنة فلسطين والشام وآسيا الصغرى (تركيا) ، وسيطرت جيوشها على تلك المناطق سيطرةً تامّة . ثمّ انتزعوا مصر من أيدي الروم ، فصاروا القوّة العظيمة الوحيدة في العالم . ولولا أنّ الإرادة الإلهيّة لم تقدّر حوادث غير مترقّبة ، لانقرضت مملكة الروم بصورة كاملة ؛ أشبه بما فعله الإسكندر المقدونيّ بإيران من قبل . وكان من بين التأييدات الإلهيّة ـ كما يقول مشير الدولة في كتاب «ايران باستانى» ـ إنّ احتلال كالسدون كان محالاً للروم ، ولكن ما إن اصطفّ الجيشان مقابل بعضهما حتّى هبّت الريح على جيش إيران ، وكانت تعصف بالغبار والحصى والحشائش في وجوه الجيش الإيرانيّ ممّا صعّب عليهم مواجهة عدوّهم ، فاجترأ عليهم الروميّون وهزموهم.

ينقل كريستِنْسِن في «تاريخ ساسانيان» عن كتاب «التاج» للجاحظ : أنّ شهر براز قائد الجيش الإيرانيّ استلم رسالتين متضادّتين من كسرى أبرويز ، فخشي كيد برويز فلحق بهرقل وسهّل له تقدّمه حتّى بلغ النهروان.

وهذه بأجمعها دلائل على أنّ غلبة الروم كانت أمراً غير مترقّب ، وأنّها لا يمكن أن تُعزى إلّا إلى التأييد الإلهيّ . ويمكن استفادة هذه الحقيقة من الآية القرآنيّة ، حيث تقول ⇦

وجاء في الأثر أنّ هذه الآية لمّا نزلت وفيها وعد بغلبة الروم في بضع سنين ، قام **أُمَيّة بن خَلف** ـ وكان من أعداء رسول الله ومن المشركين المعاندين ـ فقال لأبي بكر مستهيناً : إنّه لوعدٌ مكذوب ، وسترى أنّه لن يكون .

فقال أبو بكر : أُراهنك على ذلك على عشر قلائص ، فإن ظهرت الروم على فارس غرمتَ ، وإن ظهرت فارس غرمتُ ، إلى ثلاث سنين ! فلمّا بلغ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله الخبر ، قال : زايده في الخطر ومادّه في الأجل ، لأنّ **البِضْع** من الثلاث إلى التسع .

فزاد أبو بكر مقدار الرهان إلى مائة قلوص ، وزاد في الأجل .

وقد اعتبر العلاّمة الطباطبائيّ قدّس الله سرّه ومحمّد حسنين هيكل **أَدْنَى ٱلْأَرْضِ** أقرب مناطق الروم إلى أرض الحجاز ، وهي **أذرِعات وبُصرَى** ؛ أمّا مشير الدولة حسن بيرنيا فاعتبر أنّ ذلك في **كالسدون** قرب القسطنطينيّة .

ويظنّ الحقير أنّ كلام بيرنيا أقرب إلى الصواب ؛ أوّلاً : لأنّ فتح أذرعات وبصرى (وهي من مناطق الشام الجنوبيّة) حدث قبل ذلك بكثير ، وربّما حصل في سنوات ٦١٢ و٦١٣ ميلاديّة ، فيكون الفاصل بين ذلك وبين غلبة الروم وخاتمة الحرب التي حصلت في سنة ٦٢٥ اثنتى عشرة أو ثلاث عشرة سنة ، بينما تنصّ الآية المباركة أنّ المدّة بين هذين الانتصارين أقلّ من عشر سنين .

وثانياً : أنّ هزيمة الروم في أذرعات الواقعة بين المدينة وبلاد

⇦ أوّلاً: **لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ** ، ثمّ تقول : **يَنصُرُ مَن يَشَآءُ** . أي أنّ الأمر كان نصراً إلهيّاً على أساس انحصار الأمر في يده تعالى ، فقدّر سبحانه الظفر والنصر للروم.

الشام ، والبعيدة جدّاً عن روما والقسطنطينيّة ينبغي ألّا تُعدّ هزيمةً للروم ، خلافاً لـ «كالسدون» الواقعة قرب العاصمة ، حيث إنّ الهزيمة هناك تعتبر هزيمة حقيقيّة .

أجل ، فقدكان المؤمنون يترقّبون انتصار الروم وفقاً للوعد القرآنيّ ، فلننظر ما الذي حلّ بالروم .

بعد سقوط أرض الروم بيد حكومة إيران ، عانى الروم المسيحيّون الأمرّين ، حتّى أنّ النجاشيّ ـ وكان مسيحيّاً ـ نذر إن حرّر الله أرضه من أيدي الفُرس ، لَيَذهبنَّ من إفريقيا لزيارة بيت المقدس ماشياً . وقد وفى بنذره بعد انتصار الروم ، فكانت البُسط تُفرش أمامه على الأرض ، فتُنثر عليها الورود والرياحين ، فيسير النجاشيّ عليها .

أمّا هرقل فقد وجد نفسه محاصراً بين الفرس والبلغار ، فأراد في بداية الأمر أن يفرّ من العاصمة إلى **قَرطاجنة** ـ وهي إحدى مدن إفريقيا ، وتقع قرب الجزائر ـ فحمل خزانة الروم من القسطنطينيّة بهذا القصد . بَيدَ أنّ الخزانة سقطت بيد الملك خسرو برويز ، فُدعيت بـ «الكنز الذي جاءت به الريح» .

ثمّ إنّ رجال الدين المسيحيّين وباقي الناس ضجّوا إلى هرقل ، وتقرّر أن يجري إنفاق نفائس الكنائس في إعداد معسكرات الجيش وتغطية نفقات الحرب ، على أن تُعاد تلك الأموال بعد الحرب مع فوائدها .

ولم يكن قد بقي من إمبراطوريّة الروم غير مدينة القسطنطينيّة وجزءاً من اليونان وإيطاليا وعدّة مدن إفريقيّة .

ورفع **هرقل** يده بالدعاء والتضرّع إلى الله تعالى ، ثمّ تحرّك بجيشه فعبر مضيق **الدردنيل** في سنة ٦٢٢ ، فدارت بينه وبين **شهر براز** حربٌ قرب إرمينية انتهت بنصر هرقل .

ثمّ إنّ هرقل اتّحد في السنة التالية مع سكّان المناطق الشماليّة للخزر، وعبّأ جيشاً من **لازيكا** متّجهاً إلى إيران، فَخفّ خسرو برويز للقائه في جيش من أربعين ألف نفر، فالتقيا في آذربايجان، فانتصر هرقل.

ثمّ إنّه توجّه إلى المدن الإيرانيّة، فخرّب معابد النيران، وكان ذلك سنة **٦٢٣**، فدمّر أكبر معبد للنار يُدعى **آذر گُشنَسب**، وأعاد صليب عيسى إلى بيت المقدس. وقد استعاد الروميّون خلال هذا التقدّم منطقةَ كالسدون.

ثمّ جهّز هرقل في السنة التالية جيشاً قوامه سبعون ألف جندي، فعبر نهر دجلة، فقتل **راهزاد** القائد الإيرانيّ مع ستّة آلاف جندي، وانهزم ستّة آلاف آخرون.

وكان راهزاد قد كتب إلى كسرى أبرويز يقول: إنّ عدد الجيش الروميّ سبعون ألف جندي، وليس بإمكاني مواجهتهم! فكتب كسرى في جوابه: لكنّ بإمكانك أن تقاتلهم وتسفك دمك في طاعتي!

والخلاصة، فقد حلّت الهزيمة النهائيّة بالجيش الإيرانيّ سنة **٦٢٥**، ففرّ كسرى من محلّ سلطنته إلى المدائن فتحصّن فيها من ضعفه. وكان يريد إعداد جيش لمهاجمة هرقل حين عاد هرقل مظفّراً إلى روما.

وقد حصلت هذه الهزيمة العظيمة وغير المترقّبة للفُرس في السنة الثانية للهجرة في يوم **غزوة بدر**، فكان للمسلمين في ذلك اليوم فرحتان: الأُولى ظفرهم بأعدائهم من قريش وانتصار الإسلام على الكفر؛ والثانية انتصار الروم على فارس وانتصار المسيحيّين على عبدة النار الذي وصلهم نبأه فيما بعد.

وكانت الفترة الزمنيّة بين غلبة إيران للروم في **كالسدون** في **٦١٧** ميلاديّة، وغلبة الروم للإيرانيّين في **٦٢٥**، هي ثمان سنوات، وهي أقلّ من

عشر سنوات .[1]

وقد أخذ **أبو بكر** القلائص المائة التي راهن عليها **أُمّية بن خلف** من ورثته ، فقد كان أُميّة متوفّىً آنذاك . وقيل : إنّ الرهان لم يكن محرّماً في الإسلام حتّى ذلك الوقت ، فقد أقرّ النبيّ رهان أبي بكر في مكّة المكرّمة ، ثمّ حُرّم الرهان بعد ذلك بكلّ أنواعه .

فقد نقل أعاظم المفسّرين والمؤرّخين قصّة الآية المباركة ، وحكم القرآن القاطع بغلبة الروم ، وقد نقلنا في هذا المجال مقتطفات من أقوال أُستاذنا الفقيد سماحة العلّامة آية الله الطباطبائيّ ،[2] ومحمّد حسنين هيكل ،[3] وابن الأثير الجزريّ[4]، والطبريّ[5]، والميرخواند[6]،

١ـ جاء في «الكامل في التاريخ» ج ١ ، ص ٢٦٩ ، الطبعة الأُولى : «ولد رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم عام الفيل . وروى عن ابن الكلبيّ قال : ولد عبد الله بن عبدالمطّلب أبو رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم لأربعٍ وعشرين سنة مضت من مُلك أنوشِروان، ووُلد رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم سنةً اثنتين وأربعين من مُلكه. وبعث الله نبيّه محمّداً صلّى الله عليه [وآله] وسلّم لعشرين مضت من مُلك كسرى أبرويز. وكانت هجرته سنة اثنتين وثلاثين من مُلكه». انتهى.

وباعتبار أنّنا نعلم أنّ ولادة النبيّ كانت سنة ٥٧٠ ميلاديّة ، فتكون بعثته في سنة ٦١٠ م، وهجرته في سنة ٦٢٣ م ، وارتحاله سنة ٦٣٣ ميلادية . فتكون حرب الفُرس مع الروم التي أدّت إلى غلبتهم للروم ، والتي وقعت في السنة الثامنة للهجرة ، قد حصلت سنة ٦١٨ ميلاديّة، أمّا غلبة الروم للفرس التي وقعت سنة ٦٢٥ م والموافقة للسنة الثانية أو الثالثة للهجرة، فقد حصلت بعد سبع أو ثمان سنوات.

٢ـ «الميزان في تفسير القرآن» ج ١٦ ، ص ١٦١ و ١٦٢ ، وص ١٦٩ إلى ١٧١.

٣ـ «حياة محمّد» ص ٤ ، الطبعة الأُولى .

٤ـ «الكامل في التاريخ» ج ١ ، ص ٢٧٩ إلى ٢٨٣ ، الطبعة الأُولى.

٥ـ «تاريخ الأُمم والملوك» ج ١ ، ص ٥٨٧ إلى ٥٩٤ ، طبعة القاهرة ، مطبعة الاستقامة.

٦ـ «روضة الصفاء» ج ١ ، ذكر سلطنة «خسرو برويز» ؛ و ج ٢ ، ذكر إرسال الرسل ⇦

وخواند أمير ،[1] وبيرنيا ،[2] ولم يخرج مجموع المطالب التي ذكرناها عن كلماتهم .

وقد ذكر سماحة العلّامة الطباطبائيّ قدّس الله رمسه عدّة مطالب ، ذيل آية **وَعْدَ ٱللَهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَهُ وَعْدَهُۥ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْأَخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ**، التي نزلت بعد البشارة بغلبة الروم ، يمكن أن تُستنتج منها ثلاث نكاتٍ دقيقة وبديعة.

الأُولى : أنّ هذه الغلبة قد تحقّقت على أساس الوعد الإلهيّ المستند إلى مشيئة الله وإرادته . أمّا أكثر الناس فلا يُدركون الارتباط بين الباطن والظاهر ، ويجهلون حقائق الباطن ووعد الحقّ المتعالى وإيعاده .

الثانية : أنّ الناس يعلمون ظاهراً من الأسباب والمسببات وعلل العالم ومعلولاته ، أمّا عن الآخرة التي هي باطن الدنيا وحقيقتها فليس لهم علم بذلك .

والثالثة : أنّ علم الناس للأُمور الظاهريّة ولعلوم الحياة الدنيويّة هو بعينه عدم العلم . فلا يمكن في الحقيقة إطلاق لفظ العلم على معارفهم ، إذ العلم منحصر بالعلوم الأُخرويّة وبالمعارف التي تربط بين الدنيا والآخرة ، وبين الظاهر والباطن . فلهذا أعقبت جملةُ **يَعْلَمُونَ** جملةَ **لَا يَعْلَمُونَ** وكانت بدلاً منها .

والخلاصة ، فقد تكلّمنا بتفصيلٍ ما في هذا الإخبار القرآنيّ القاطع في الآية المباركة المذكورة ، لأنّ إخبار القرآن عن الغيب هو أمر لم يرد الشكّ

⇦ من قِبل رسول الله إلى الملوك ، الطبعة الحجريّة.

١ـ «حبيب السير» الجزء الثاني من المجلّد الأوّل ، ص ٢٤٧ إلى ٢٥٠.

٢ـ «ايران باستانى» ص ٣٤٣ إلى ٣٤٩.

فيه ، ولم يحتمل أحد خلافه ، وقد أقرّ جميع المفسّرين والمؤرّخين ، وحتّى أعداء القرآن بأمر قاطعيّة القرآن في هذه الآية الكريمة المباركة .

وانظروا أيضاً إلى الآيات التالية كيف تحكم بالأمر على نحو القطع واليقين :

أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ * سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ.[1]

وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ (عذاب الدنيا) **دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**.[2]

حيث إنّ المراد بالعذاب الأدنى هنا ، هو العذاب في الدنيا من حرب وجرح وقتل وأسر ، مقابل عذاب البرزخ ، لأنّ **لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** قرينة لهذا المعنى . ولو كان العذاب الأدنى أحد أنواع العذاب البرزخيّ أو حين الاحتضار ، لما كان من أمل بالرجوع عن الذنب ، لأنّ الأمر سيكون ممّا لا رجعة فيه .

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ * (أمّا إذ لم يَحِنْ ذلك الزمن بعدُ) **فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ * وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ** (ماذا سيحلّ بهم) .[3]

وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ.[4]

إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ * سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ[5] (فيبقى أثره واضحاً على الدوام) .

١ـ الآيتان ٤٤ و٤٥ ، من السورة ٥٤ : القمر .

٢ـ الآية ٢١ ، من السورة ٣٢ : السجدة .

٣ـ الآيات ١٧١ إلى ١٧٥ ، من السورة ٣٧ : الصافّات .

٤ـ الآية ٤٧ ، من السورة ٥٢ : الطور .

٥ـ الآيتان ١٥ و١٦ ، من السورة ٦٨ : القلم .

وهذه الآيات عائدة إلى **الوليد بن المُغيرة**، وكان من المشركين ومن أعداء رسول الله، وقد نزلت هذه الآيات في مكّة، وكان إذا تُليَت عليه آياتُ القرآن قال: ليس في الأمر من جديد، فهذا كلّه من أساطير الأوّلين. ويقول الله تعالى: إنّنا سنسمه على خُرطومه أي على أنفه، وسماً يبقى ولا يزول.

وقد جاء هذا الرجل في وقعة بدر التي وقعت قرب المدينة في السنة الثانية للهجرة، ليحارب النبيّ مع المشركين، فهوى سيفٌ من سيوف المسلمين على أنفه، فبقي وسمه وأثره إلى آخره عمره.[1]

وهذه الآية من آيات سورة **نٓ وَٱلْقَلَمِ** التي نزلت في بداية البعثة، وبينها وبين غزوة بدر أربع عشرة أو خمس عشرة سنة. وكان **الوليد بن المُغيرة** أحد الرجلين العظيمين اللذين كان المشركون يقولون: لِمَ لَم ينزل القرآن على أحد هذين الرجلين العظيمين (الوليد بن المغيرة وعُروة بن مسعود الثقفيّ)، وأوّلهما في مكّة والثاني في الطائف؟

وهو الذي جاء وصفه في سورة **المُدَّثِّر** التي نزلت أيضاً أوائل بعثة رسول الله في مكّة، حيث استمع الوليد إلى رسول الله وهو يتلو آيات القرآن، فاستمهل قومه ثلاثة أيّام ليفكّر، ثمّ جاءوه بعد ثلاث فقال: **إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ**[2] (بحيث يؤثّر في النفوس هذا التأثير القويّ).

١ـ ذكر ورود هذه الآيات في أمر مقتل الوليد بن المغيرة المخزوميّ واشتراكه في حرب بدر كلّ من التفاسير التالية: «الصافي»، «الكشّاف»، «بيان السعادة»، «الميزان»، وذكره تفسير «مجمع البيان» بعنوان «قيل». أمّا ابن الأثير الجزريّ فقد ذكر في «الكامل في التاريخ» ج ٢، ص ٤٨، الطبعة الأُولى، المنيريّة، مصر، أنّه توفّي بعد الهجرة بعدّة أشهر، كما ذكر ابن هشام في «السيرة» ص ٢٧٧ و ٢٧٨، طبعة مصر؛ وابن إسحاق في «السيرة» ص ٢٧٣؛ والبيهقيّ في «دلائل النبوّة» ج ٢، ص ٨٥ و ٨٦ روايةً تدلّ على موته قبل الهجرة.

٢ـ ذيل الآية ٢٤، من السورة ٧٤: المدّثّر.

عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ. [1]

وقد نزلت هذه الآية في مكّة المكرّمة في بداية البعثة ؛ ولم تحصل أيّة حرب خلال مدّة ثلاث عشرة سنة التي عاش فيها رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في مكّة ، بل وقعت الحروب والغزوات بعد الهجرة إلى المدينة .

فكيف يخبر القرآن عن الغيب بمثل هذه القاطعيّة التامّة ، فيُخبر عمّا سيؤول إليه حال المسلمين بعد هذه السنوات المتمادية ؟

لقد افتقد رسول الله الناصر والمعين في بداية البعثة في مكّة ، وكان المؤمنون في منتهى الضعف . لذا فقد صدر هذا الإخبار القرآنيّ دون أيّة أرضيّة ومقدّمة أوّلاً ؛ وكان يمكن أن يُقتَل النبيّ قبل أن تقوى شوكة المسلمين أو يحلّ أجلُه فلا ينال الجهاد ثانياً . بَيدَ أنّ القرآن يُخبر بقاطعيّة وثبات أشبه بثبات الجبل الراسخ عن حياة النبيّ وجهاد المسلمين بعد الهجرة .

لَهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ. [2]

وهذه الآية مكّيّة أيضاً ، لأنّها من آيات سورة الرعد ، وهي من السور المكّيّة ؛ والله تعالى يوعد المستهزئين برسول الله في هذه الآية بالحرب والقتل والإصابة بالجراح وبالنكبة التي ستحلّ بهم .

أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ

١ـ مقطع من الآية ٢٠ ، من السورة ٧٣ : المزّمّل .

٢ـ الآية ٣٤ ، من السورة ١٣ : الرعد .

ٱلْأَرْضِ.[١] (هو اللائق بالعبادة، أم من تشركون به).

وهذه الآية الكريمة المباركة من آيات سورة النمل، وهي من السور التي نزلت في مكّة، وهي تعد المسلمين بالحكومة والخلاص من ذلّ مكّة وأذى أهلها.

وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا.[٢]

وهذه الآية الشريفة في سورة الإسراء، وهي أيضاً من السور المكّيّة.

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا.[٣]

وهذه الآية صريحة في أنّ الله تعالى سيمنّ على المؤمنين بقدرة وحكومة في الأرض، ليشكّلوا دولة كدولة الساسانيّين والهخامنشيّين والروم وأهل بابل وكلدة، بل أعلى وأهمّ. وقد تحقّق هذا الوعد، وصارت حكومة المسلمين واقتدارهم لامثيل لهما في العالم، ونحن في انتظار الدولة الحقّة لقائم آل محمّد عليهم السلام التي ستتحقّق في المستقبل إن شاء الله تعالى، وهي دولة أعلى وأكثر نزاهة.

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ.[٤]

والآيات من هذا القبيل كثيرة في القرآن الكريم. ولو اطّلع المرء

١ـ صدر الآية ٦٢، من السورة ٢٧: النمل.

٢ـ الآية ٨١، من السورة ١٧: الإسراء.

٣ـ صدر الآية ٥٥، من السورة ٢٤: النور.

٤ـ الآية ٣٣، من السورة ٩: التوبة؛ والآية ٩، من السورة ٦١: الصفّ.

على تأريخ الإسلام ، وخاصّة على فترة بعثة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في مكّة ، لعلم جيّداً أنّ قاطعيّة آيات القرآن الكريم ليست قابلة للوصف بأيّ وجه من الوجوه مع الظواهر التي تتمثل بغلبة الكفّار والمشركين وأذاهم لرسول الله وللذين آمنوا . وقد اشتهرت طائفة من المؤمنين برسول الله من أمثال **خَبّاب بن أرَتّ وبَلال بن رِباح** وأب **عمّار ابن ياسر** بالمعذَّبين ، حيث ذاقوا صنوف العذاب في مكّة على أيدي الكفّار بجرم إسلامهم .

ويذكر التأريخ فصلاً خاصّاً للمحاصرة الاقتصاديّة والسياسيّة والاجتماعيّة التي طبّقها المشركون في حقّ رسول الله والمسلمين حين حاصروهم في شِعب أبي طالب ثلاث سنين .كما أنّ هجرة المسلمين إلى الحبشة وإقامتهم المديدة فيها تحتلّ فصلاً آخر في تأريخ الإسلام .

ويعتقد أغلب المستشرقين الذين بحثوا وتعمّقوا في أحوال نبيّ الإسلام وتأريخ دعوته وتأريخه ـ حيث ألّفوا كتباً ورسائل في هذا المجال ـ أنّ النبيّ الأكرم كان يؤمن بما يقول إيماناً راسخاً ، وأنّه كان يعتقد حقّاً بأنّه صاحب وحي وارتباط بالملائكة ، وأنّه كان يتحرّك حسب ما يُمليه عليه إيمانه بوظيفته وواجبه .

يقول الشيخ محمّد عبده ذيل الآية المباركة :

ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ.[1]

«أي صدّق الرسول بما أُنزل إليه في هذه السورة وغيرها من العقائد والأحكام والسنن والبيّنات والهدى تصديقَ إذعانٍ واطمئنان ، وكذلك المؤمنون من أصحابه عليهم الرضوان . وقد شهد لهم بهذا الإيمان أثره في

١ـ صدر الآية ٢٨٥ ، من السورة ٢ : البقرة .

نفوسهم الزكيّة وهممهم العالية وأعمالهم المرضيّة، والله أكبر شهادةً» .

ثمّ يقول: «وقد اعترف كثيرٌ من علماء الإفرنج الباحثين في شؤون المسلمين وعلومهم وسائر شؤون أُمم الشرق بأنّ النبيّ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم كان على اعتقادٍ جازم بأنّه مُرسَل من الله ومُوحى إليه، وكانوا من قبل متّفقين على أنّه ادّعى الوحي لأنّه رآه أقرب الطرق لنشر حكمته والإقناع بفلسفته، أو لنيل السلطة وهو غير معتقدٍ به» .[1]

ويؤيّد **جُرجي زيدان** المسيحيّ هذا القول، فيقول:

«زعم بعض الكتّاب من غير المسلمين أنّ صاحب الشريعة الإسلاميّة إنّما قام بهذه الدعوة طمعاً بالسيادة ورغبةً في ملاذ الدنيا.

وأمّا نحن فلا نرى مسوّغاً لهذا القول. وتأريخ الدعوة يدلّ دلالة صريحة على أنّه إنّما قام بها عن صدق وإخلاص، فلم يدعُ الناس إلى الإسلام إلّا وهو يعتقد اعتقاداً متيناً بصحّة رسالته، وأنّ الله أرسله لبثّ تلك الدعوة. ولولا هذا الاعتقاد، لم يصبر على ما ناله من الاضطهاد وضروب العذاب» .

إلى أن يصل إلى قوله بعد بيان المحن التي واجهها النبيّ:

«فتتابعت بموتهما (يقصد موت خديجة وأبي طالب» المصائب عليه، واستبدّت به قريش، ولا سيّما عمّه **أبولهب والحكم بن العاص، وعُقبة بن أبي مُعَيط** لأنّهم كانوا جيرانه بمنزله، فكانوا يُلقون الأقذار في طعامه، ويرمونه بها وقت صلاته. حتّى إذا لم يعد يستطيع صبراً على هذا الضيم، فرّ إلى الطائف لعلّه يلقى بها مَن ينصره ويؤمن بدعوته، فلم يلقَ إلّا

١ـ «تفسير المنار» إنشاء الشيخ محمّد عبده، وتأليف السيّد محمّد رشيد رضا، ج ٣، ص ١٤٣ و ١٤٤.

الإعراض والإهانة ، فعاد وقد يئس منهم ، لكنّه لم يرجع عن حرفٍ من دعوته . ولم يكتفِ أهلُ الطائف بإعراضهم عنه ، بل أغروا بعض سفهائهم وعبيدهم أن يسبّوه ويصيحوا به ففعلوا ، حتّى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى الحائط وردّوا السفهاء عنه فرجعوا ، فأحسّ عندئذٍ بما هو فيه من الضيق ، فشكا أمره إلى الله وعاد إلى مكّة ولم يغيّر ذلك شيئاً من عزيمته ، فلقيه قومُه هناك وهم أشدّ وطأةً عليه ممّا كانوا من قبل .

فاعتبر حاله بعد ذلك الرجوع وقد نبذه الناس قريبهم وبعيدهم ، مع علمه أنّه إذا رجع عن عودته لقي منهم ترحاباً وإكراماً كما صرّحوا له جهاراً ، لكنّه لم يكترث بشيءٍ من ذلك ولا همّه أمر الدنيا .

فلولا اعتقاده المتين بصدق الدعوة التي قام بها ، وأنّه مُنتدب لهذه الرسالة من قِبل الله سبحانه وتعالى ، لما صبر على كلّ ذلك» .[1]

وقصّة ذهاب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم إلى الطائف والمرارات والمحن التي عادت عليه من سفر ممّا يهزّ الإنسان ويزلزله .

نقل الطبريّ في تاريخه : «وكان رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم يدعو الناس إلى الله في مكّة جهراً وعلانية ، وكان يصبر على أذاهم وتكذيبهم واستهزائهم ، حتّى أنّ أحد الكفّار طرح عليه صلّى الله عليه [وآله] وسلّم رَحِم شاة وهو يصلّي ، وكان أحدهم يطرحها في بُرْمته[2] إذا نُصبت له . فكان رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم إذا طرحوا عليه ذلك الأذى ، يخرج به على العود ، فيقف به على بابه (أي باب الذي ألقاه عليه ، وكانوا من جيرانه أو أقاربه) ثمّ يقول :

١ـ «تاريخ التمدّن الإسلاميّ» تأليف جرجي زيدان ، ص ٣٣ و ٣٤.

٢ـ البُرمة : القدر من الحَجَر . (م)

يَا بَنِي عَبْدِ مُنَافٍ ![1] أَيُّ جِوَارٍ هَذَا ؟!

ثمّ إنّ خديجة وأبا طالب هلكا في عامٍ واحد ، وكان ذلك قبل الهجرة بثلاث سنوات . وكان في موتهما مصيبة عظمى لرسول الله ، إذ إنّ قريشاً وصلوا من أذاه بعد موت أبي طالب إلى ما لم يكونوا يصلون إليه في حياته منه ؛ حتّى نثر بعضُهم على رأسه التراب ... .

[و] لمّا نثر ذلك السفيه الترابَ على رأس رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم ، دخل رسولُ الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم بيته والتراب على رأسه ، فقامت إليه إحدى بناته تغسل عنه التراب وهي تبكي ، ورسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم يقول لها : **يَا بُنَيَّةُ لَا تَبْكِي ؛ فَإنَّ اللهَ مَانِعٌ أَبَاكِ !**

ويقول رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم : **مَا نَالَتْ مِنِّي قُرَيْشٌ شَيْئاً أَكْرَهُهُ حَتَّى مَاتَ أَبُوطَالِبٍ.**[2]

١ـ عبد مناف هو الجدّ الأعلى لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : محمّدبن عبداللهبن عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف.

٢ـ أورد آقاي محمّد القزوينيّ في رسالته لعلي أصغر حكمت كتقريظ على كتابه في ترجمة أحوال «جامي» مطالبَ عديدة في تعصّب «جامي» في تسنّنه ، وفي الشواهد والأدلّة المتقنة على إيمان أبي طالب عليه السلام تستحقّ المطالعة . وقد ذُكرت هذه الرسالة في نهاية كتاب «جامي» تأليف علي أصغر حكمت ، من الصفحة ٣٩٥ إلى الصفحة ٤٠٧.

ومن ضمنها قوله : «وكان أبولهب طوال عمره ، بعد بعثة الرسول من أشدّ المستهزئين برسول الله والمؤذين له . وكان دائماً يُلقي بالأقذار والنجاسات على منزل النبيّ.

وكان النبيّ إذا دعا شخصاً أو قبيلة إلى الإسلام ، صرخ فيهم أبولهب : لا تصدّقوا كلامه! فهذا ابن أخي وقد ربّيتُه ، وهو مجنون . وكانت امرأة أبي لهب : أُمّ جميل بنت حرب أُخت أبي سفيان ، معروفة أيضاً بعداوتها لرسول الله وإيذائها له . ولم تكن دون زوجها الملعون في ذلك. وكانت تجمع الأشواك فتجعلها في طريق النبيّ . وقد سمّاها القرآن لذلك **بحَمَّالَةَ** ⇦

ولما هلك أبو طالب خرج رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم إلى الطائف يلتمس من ثقيف النصر والمنَعة له من قومه؛ وذُكِر أنّه خرج إليهم وحده ؛ فحدثّنا ابن حميد ، قال : حدّثنا سلمَة ، قال : حدّثنا ابن إسحاق قال : حدّثني يزيد بن زياد ، عن محمّد بن كعب القرظيّ ، قال : لما انتهى رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم إلى الطائف عَمَد إلى نفرٍ من ثَقيف ـ هم يومئذٍ سادة ثقيف وأشرافهم ، وهم إخوة ثلاثة : **عبد ياليل** بن عمرو ابن عمير ، **ومسعود** ابن عمرو بن عمير ، **وحبيب** بن عمرو بن عمير ؛ وعندهم امرأة من قريش من بني جُمَح . فجلس إليهم ـ فدعاهم إلى الله وكلّمهم بما جاء لهم من نصرته على الإسلام ، والقيام معه على مَن خالفه من قومه ، فقال أحدهم : هو يمرُط [1] ثياب الكعبة إن كان الله أرسلَك ! وقال الآخر : ما وجد الله أحداً يرسله غيرك ! وقال الثالث : والله لا أكلّمك كلمةً أبداً ؛ لئن كنتَ رسولاً من الله كما تقول ؛ لأنتَ أعظمُ خطراً من أن أردّ عليك الكلام ؛ ولئن كنتَ تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلّمك !

فقام رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم من عندهم ، وقد يئس من خيرِ ثقيف ؛ وقد قال لهم ـ فيما ذكر لي ـ: **إذْ فَعَلْتُم مَا فَعَلْتُمْ فَاكْتِمُوا عَلَيَّ.** وكره رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم أن يبلُغَ قومه عنه ، فيُذئرهم [2]

⇦ **الحَطَبِ**. بَيدَ أنّ أباطالب ـ كما قلنا ـ قد دافع عن النبيّ طوال اثنتين وأربعين سنة بكلّ قواه، وقد قال رسول الله عن أبي طالب : **مَا نَالَتْ مِنِّي قُرَيْشٌ شَيْئًا أَكْرَهُهُ حَتَّى مَاتَ أَبُو طَالِبٍ.** وقال: **مَا زَالَتْ قُرَيْشٌ كَاعَّةً عَنِّي حَتَّى مَاتَ عَمِّي أَبُو طَالِبٍ**» . انتهى موضع الحاجة من كلام آقاي محمّد القزوينيّ رحمة الله عليه.

أقول : كائع : خائف من شيء ، والجمع :**كَاعَة** ، (منتهى الأرب).

١ـ يمرط : ينزع الشيء ويرمي به . (م)

٢ـ يُذئرهم : يحرش بينهم ، (هامش التاريخ) . (م)

ذلك عليه ، فلم يفعلوا وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، يسبّونه ويصيحون به ؛ حتّى اجتمع عليه الناس والجأوه إلى حائط [١] **لعتْبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة** ، وهما فيه ، ورجع عنه من سفهاء ثَقيفٍ مَن كان يتّبعه ، فعمد إلى ظلّ حَبَلةٍ [٢] من عنب ، فجلس فيه ، وابنا ربيعة ينظران إليه ، ويريَان ما لقي من سفهاء ثقيف . وقد لقي رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم ـ فيما ذكر لي ـ تلك المرأة من بني جُمح ، فقال لها : **مَاذَا لَقِينا مِنْ أَحْمَائِكِ !** فلمّا اطمأنّ رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم ، قال ـ فيما ذكر لي : **اللَهُمَّ إلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي ، وَقِلَّةَ حِيلَتِي ، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ ؛ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ ، أَنتَ رَبُّ المُسْتَضْعَفِينَ ، وَأَنْتَ رَبِّي ، إلَى مَن تَكِلْنِي ! إلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي ، أَوْ إلَى عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي ؛ إنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أُبَالِي ! وَلَكِنَّ عَافِيَتَكَ [٣] هِيَ أَوْسَعُ لِي . أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، مِنْ أَنْ يَنْزِلَ بِي غَضَبُكَ ، أَوْ يَحِلَّ عَلَيَّ سَخَطُكَ ، لَكَ العُتْبَى حَتَّى تَرْضَى ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِكَ .**

فلما رأى ابنا ربيعة : عُتبة وشَيْبة ما لقى ، تحرّكت له رحِمهما ، فدعوا له غلاماً لهما نصرانيّاً ؛ يقال له **عدّاس** ، فقالا له : خذ قِطفاً [٤] من هذا العَنب

١ـ حائط : بستان ، (هامش التاريخ) . (م)

٢ـ الحبلة : الكرمة من العنب ، (هامش التاريخ) . (م)

٣ـ العافية هنا بمعنى الرضا، مقابل السخط والغضب. **عافى مُعافاةً وعِفاءً وعافيةً ، اللهُ فلاناً: دفع عنه العلّة والبلاء والسوء** . أي: إن صرفتَ عنّي غضبك ونظرتَ إليَّ نظر الرضا والمحبّة، لأبهجني ذلك وحلّ جميع هذه المشكلات والحوادث ، ولاستقبلتُ بصدر رحب جميع المصائب والنوائب.

٤ـ القِطف : اسمٌ لكلّ ما يُقطف . (هامش التاريخ) . (م)

وضعه في ذلك الطَّبَق ، ثـمّ اذهب به إلى ذلـك الرجل ، فقل له يأكل مـنه ؛ ففعل عدّاس ، ثمّ أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله صلّى اللـه عـليه [وآله] وسلّم ، فلمّا وضع رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم يده ، قال : **بسم الله** ، ثمّ أكل .

فنظَر عدّاس إلى وجهه ، ثمّ قال : والله إنّ هذا الكلام ما يـقوله أهـل هذه البلدة .

قال له رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم : ومِن أهـل أيّ البـلاد أنت يا عدّاس ؟ وما دينك ؟ قال : أنا نصرانيّ ، وأنا رجلٌ من أهل **نينوى** .

فقال له رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسـلّم : أمِـن قـرية الرجـل الصالح **يونس بن مَتّى** ؟

قال له : وما يدريك ما يونس بن متّى ؟

قال رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم : ذاك أخِي ،كان نبيّاً وأنا **نبيّ** ، فأكبّ عدّاس على رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم يقبّل رأسه ويديه ورجليه ، قال : يقول ابنا ربيعة أحدهما لصـاحبه : أمّـا غـلامك فـقد أفسده عليك .

فلما جاءهما عدّاس قالا له : ويلك يا عدّاس ! مالك تـقبّل رأس هـذا الرجل ويديه وقدميه !

قال : يا سيِّدَي ما في [هذه] الأرض خيرٌ من هذا الرجل ! لقد خبّرني بأمر لا يعلمه إلّا نبيٌّ .

فقالا : ويحك يا عدّاس ! لا يصرفنّك عن دينك ، فإنّ دينَك خيرٌ من دينه .

ثمّ إنّ رسـول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم انصـرف مـن الطـائف

راجعاً إلى مكّة حين يئس من خبرِ ثقيف، حتّى إذا كان **بنخلة**،[١] قام من جَوْف الليل يصلّي، فمرّ به نفرٌ من الجنّ الذين ذكر الله عزّ وجلّ وهم سبعة نفر من جنّ **أهل نَصيبين اليمن**. فاستمعوا له، فلمّا فرغ من صلاته ولّوا إلى قومهم مُنذرين، قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا، فقصّ الله عزّ وجلّ خَبَرهم عليه: **وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ**، إلى قوله: **وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ**.[٢] وقال: **قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ...**[٣] إلى آخر القصّة من خبرهم في هذه السورة.

وتسمية النفر من الجنّ الذين استمعوا الوحى: **حسّا**، **ومسّا**، **وشاصر**، **وناصر**، **واينا الأرد**، **وأينين**، **والأحقم**.

ثمّ قدمِ رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم مكّة، وقومُه أشدّ ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه، إلّا قليلاً مستضعفين ممّن آمن به.

وذكر بعضُهم أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم لمّا انصرف من الطائف مريداً مكّة مرّ به بعض أهل مكّة، فقال له رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم: هل أنت مبلّغ عنّي رسالة أُرسِلك بها؟ قال: نعم.

قال: ائت **الأخْنَس بن شَريق**، فقل له: يقول لك محمّد: هل أنت مجيري حتّى أبلّغَ رسالة ربّي؟

١ـ نخلة: اسم موضع.

٢ـ الآيات ٢٩ إلى ٣١: من السورة ٤٦: الأحقاف: **وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ * قَالُوا يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ * يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ**.

٣ـ الآية ١، من السورة ٧٢: الجنّ.

قال : فأتاه ، فقال له ذلك فقال الأخْنَس : **إنَّ الحَلِيفَ لَا يُـجِيرُ عَـلَى الصَّرِيح** .

قال : فأتى النبيّ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم : فأخبره .

قال : تعود ؟ قال : نعم .

قال : ائت **سُهَيْل بن عمرو** ، فقل له : إنّ محمّداً يقول لك : هـل أنت مجيري حتّى أبلِّغ رسالات ربّي ؟

فأتاه فقال له ذلك ، قال : فقال : **إنَّ بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ لَا تُجِيرُ عَـلَى بَنِي كَعْبٍ** .

قال : فرجع إلى النبيّ صلّى الله عـليه [وآله] وسـلّم ، فأخـبره . قـال : تعود ؟ قال : نعم . قال : ائت **المطعِم بن عدّي** ، فقل له : إنّ محمّداً يـقول لك : هل أنت مجيري حتّى أبلِّغ رسالات ربّي ؟

قال : نعم ، فليدخل ، قال : فرجع الرجل إليه ، فأخبره ، وأصبح المطعِم ابن عديّ قد لبس سلاحه هو وبنوه وبنو أخيه ، فدخلوا المسجد ، فـلمّا رآه أبو جهل ، قال : **أَمُجِيرٌ أَمْ مُتَابِعٌ** ؟ قال : بل مجير .

قال : فقال : قد أجرْنا مَن أجرتَ .

فدخل النبيّ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم مكّة ؛ وأقام بها ، فدخل يوماً المسجد الحرام والمشركون عند الكعبة ، فلما رآه أبوجهل ، قال : هذا نبيّكم يا بني عبد مناف .

قال **عُتبة بن ربيعة** : وما تنكِرُ أن يكون منّا نبيّ أو ملك !

فأخبر بذلك النبيّ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم ـ أو سمعه ـ فأتـاهم ، فقال :

أمّا أنتَ يا عُتبة بن ربيعة فوالله ما حميتَ للّـه ولا لرسـوله ؛ ولكـن حميتَ لأنفِك .

وأمّا أنت يا أبا جهل بن هشام؛ فوالله لا يأتي عليك غير كبير من الدهر حتّى تضحك قليلاً وتبكي كثيراً.

وأمّا أنتم يا معشر الملأ من قريش؛ فوالله لا يأتى عليكم غير كبير من الدهر حتّى تدخلوا فيما تنكرون، وأنتم كارهون». [١]

والخلاصة، فقد كانت قصّة سفر رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم إلى الطائف والأحداث التي ذكرناها ممّا تثير العجب.

فهي، **أوّلاً**: تبيّن أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم كان يتعرّض في مكّة إلى الأذى بحيث إنّه لم يكن يأمن على نفسه، وكان دمه غير ذي قيمة، وإنّ قومه وعشيرته كانوا أكثر أذىً له من سواهم، حتّى بلغ به الأمر إلى استنصار أهل ثقيف ليدفعوا عنه قومه وعشيرته. والدليل على المطلب طلبه مُجيراً يُجيره، فقد كان في خطر جدّي وحتمي بغير مُجير. لذا نراه يستجير بالكافر، ليمكنه في جواره أن يبلّغ رسالات الله. ولم يكن في مكّة مسلمٌ مُقتدر واحد يمكنه إجارته.

ولو قال قائل: وما الأهمّيّة في ذلك لديه؟ فليُقتل! فإنّ جوابه: أنّ الواجب عليه هو إبلاغ رسالات الله إلى الناس. فإن قُتل أو عرّض نفسه للقتل أو تسامح أدنى مسامحة في حفظ حياته، لما تمكّن من إنجاز ما عُهد إليه، ولعاتبه الله على ذلك. إنّ الأمر المهمّ كان تنفيذ المهمّة على أحسن وجهٍ وأكمله.

و**ثانياً**: كيف سار هذا النبيّ الرحيم الرؤوف العطوف، وهو في سنّ الخمسين، [٢] على قدميه من مكّة إلى الطائف؟ وكيف طوى ذلك الطريق

١ـ «تاريخ الأُمم والملوك» ج ٢، ص ٧٩ إلى ٨٣، طبعة مطبعة الاستقامة، القاهرة.

٢ـ لأنّ النبيّ بُعث في سنّ الأربعين، وكان سفره إلى الطائف بعد ارتحال أبي ⇦

الجبليّ الوعر الذي يعدّ في العصر الحاضر من الطرق الشاقّة ، فضلاً عن ذلك الزمان . وكان في سفره هذا وحيداً فريداً لا يتحرّك إلّا حبّاً للّه ، وحبّاً لتنفيذ ما أُمر به ، ودعوة المشركين للإسلام . وكان خلال حركته مهدّداً بالموت في كلّ لحظة ، لكن بأيّة قاطعيّة وحزم كان يتحرّك ؟!

ثالثاً : الضجّة والصخب الذي افتعلوه أمامه ، فقد كانوا أشبه بأُناسٍ يُلاحقون مجنوناً ، وكانوا يصرخون خلفه حتّى ألجأوه إلى باب البستان . ثمّ إنّ رؤساءهم وأشرافهم ردّوا عليه أقبح ردّ ، ثمّ لم يكتموا سرّه ، فأثاروا ذلك الصخب والضجيج ، وأوقعوا به ما أوقعوا من البلاء والأذى .

رابعاً : لكنّه إذ يجلس تحت كرمة العنب ويستظلّ بظلّها ، نراه يُناجي ربّه بجملات تنبع من حاقّ العبوديّة ، وتحكي عن عالمٍ من التواضع والخشوع لديه أمام ربّه : إلهي وربّي وخالقي ! أعوذ بك من أن تكون غاضباً عَلَيَّ ، ومن أن تُجازني بأعمالي أو قلّة حزمي في تنفيذ ما أمرتني به ، فتكلني إلى عدوّي ، وتجعلني مورد سخرية الجهّال والسفهاء . إلهي ! لا أخشى إلّا سخطك ، ولا أخاف إلّا أن يكون قد حلّ بي ما حلّ عن غضبٍ منك . ولو علمتُ أنّك عنّي راضٍ ، فلست أخشى شيئاً . سأضرع إليك باكياً ، وأُمرّغ جبيني في فِنائك فقيراً ، حتّى ترضى عنّي ، لأنّك أملي ومُرادي . ولأنّ دأبي وسُنّتي تحصيل رضاك .

إلهي ! بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وأضاءت له السماوات والأرض ، وانتظمت به أُمور الدنيا والآخرة ظاهرها وباطنها ، أسألك عاجزاً فقيراً مملوكاً أن ترضى عنّي ، ولا تؤاخذني بقصوري

⇦ طالب، وكانت وفاة أبي طالب في السنة العاشرة من البعثة ، لذا فإنّ العمر المبارك لرسول الله عند سفره إلى الطائف كان خمسين سنة.

وتقصيري ! فلا حول ولا قوّة إلّا بك !

ولقد كان الحقير يفكّر كثيراً منذ قديم الأيّام في سفر رسول الله إلى الطائف ، وكيف أنّه سار الليل والنهار راجلاً عبر الجبال المخوفة ثمّ عاد بتلك الكيفيّة ، وكيف أنّه كان يخشى العودة إلى وطنه ومدينته ومسقط رأسه مكّة ، ويخاف أن يُقتل قبل أن ينفِّذ ما أمره الربّ ذو الجلال ، وبذهاب الرجل الذي أرسله إلى مكّة وعودته ثلاث مرّات ، حيث ينبغي أن يكون قد تأخّر في ذلك مدّةً ما ؛ ولقد كانت عظمة رسول الله مشهودة في هذه الأُمور بحيث إنّها أثّرت عَلَيَّ ربّما أكثر من هجرته إلى المدينة واختفائه في غار ثور والمصائب التي واجهها عند خروجه من مكّة وخلال الطريق إلى المدينة التي تبعد ما يقرب من تسعين فرسخاً .

أجل ، إنّ هذا النبيّ الذي تحمّل هذه الأُمور بمثل هذا الحزم إثر نزول الآية القرآنيّة القاطعة : **فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا**،[1] والذي له مِثل هذه السعة والقابليّة ، هو خاتم النبيّين والحلقة الأخيرة في سلسلة المُرسلين .

خامساً : أنّه لم يفه بكلمة واحدة خشنة في مقابل الإهانات والصرخات والسباب والشتائم ، طوال هذا السفر ، في ذهابه وإيابه وخلال وجوده في الطائف ، بل كان يتحمّل بصبر وحلم كلّ ما يبدر عنهم من تصرّفات .

ثمّ إنّه يجلس تحت كرمة العنب على التراب ، فيوضع عنقود العنب

١ـ ورد الأمر بالإستقامة في آيتين ، الاولى : الآية ١١٢ ، من السورة ١١ : هود : **فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَ لَا تَطْغَوْا** . والثانية : الآية ١٥ ، من السورة ٤٢ : الشورى : **فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ** .

أمامه فيأكل بكلّ تواضع ، حتّى أنّه لا يردّ هذا الإحسان البسيط ، ويقول : بِسم الله ، فيربط في هذه الفرصة القصيرة قلب شابٍّ مسيحيّ بالله تعالى . فمرحى لهذا الخُلُق الكريم ، ومرحباً بهذه الشيمة العظيمة !

ثمّ إنّه يصل إلى مكّة ، فيأتي إلى المسجد الحرام ، ويواجه إهانة أبي جهل واستخفافه ، فيردّ أوّلاً على عتبة بأنّ ما قاله لم يكن للّه ، بل كان منبعثاً عن غرور النفس والحميّة ، وذلك ممّا لا قيمة له .

ثمّ إنّه ثانياً يُخبر أبا جهل بقاطعيّة وإعجاز : سينقضي عليك أيّام قلائل تضحك فيها ، ثمّ إنّ المسلمين سيقتلونك في غزوة بدر بعد خمس سنوات . وإنّ هؤلاء المؤمنين والمستضعفين الذين تستخفّ بهم من أمثال عبد الله بن مسعود سيقطعون رأسك . ثمّ إنّك ستبكي طويلاً ابتداءً من عالم البرزخ وسكرات الموت ، وعالم القيامة والوقوف ، والحساب وصحائف الأعمال ، والميزان والصراط ، والعرض وتطاير الكتب ، والجحيم !

يا أبا جهل ! إنّ بكاءك الأبديّ ذلك هو عاقبة سوء نيّتك واعتداءاتك ! ونتيجة خياناتك وجناياتك ! وثمرة تربيتك السيّئة لنفسك وتحصيلك لمَلَكة الشقاوة ! فلا قيمة لضحك أيّام قلائل اخترته بإرادتك واختيارك يَعقبه بكاء دهور متمادية !

وثالثاً ، يا رجال قريش الكبار ! ويا قومي وعشيرتي اعلموا تحقيقاً أنّ مكّة ستُفتح ، وأنّكم ستدخلون طوعاً أو كرهاً في الإسلام الذي أنكرتموه ، وتصدّقون بنبوّتي !

وهي بأجمعها أخبار قاطعة تعدّ من معجزات رسول الله ، كأنّ القرآن عُجن به ، وكأنّه عُجن بالقرآن ، فأضحت إخباراته القاطعة بالغيب عين إخبار القرآن القاطع .

مــحَمَّدٌ سَــيِّدُ الكَـوْنَيْنِ وَالثَّـقَلَيْنِ
وَالفَرِيقَيْنِ مِـنْ عَـرَبٍ وَمِـنْ عَـجَمِ
دَعـا إلَـى اللَـهِ فَـالْمُسْتَمْسِكُونَ بِـهِ
مُسْـــتَمْسِكُونَ بِـحَبْلٍ غَـيْرِ مُـنْفَصِمِ
فَاقَ النَّبِيِّينَ فـي خَـلْقٍ وَفـي خُـلُقٍ
وَلَــمْ يُـدانـوهُ فـي عِـلْمٍ وَلَا كَـرَمِ
وَكُـلُّهُمْ مِـنْ رَسـولِ اللَـهِ مُـلْتَمِسٌ
غَرْفاً مِنَ البَحْرِ أَوْ رَشْفاً مِنَ الدِّيَـمِ
وَواقِــــفونَ لَــدَيْهِ عِــنْدَ حَــدِّهِم
مِنْ نُقْطَةِ العِلْمِ أَوْ مِنْ شَكْلَةِ الحِكَمِ
فَــهْوَ الَّــذي تَـمَّ مَـعْناهُ وَصـورَتُهُ
ثُــمَّ اصْـطَفاهُ حَـبِيباً بـارِئُ النَّسَـمِ
مُــنَزَّهٌ عَــنْ شَـرِيكٍ فـي مَـحاسِنِهِ
فَـجَوْهَرُ الحُسْـنِ فـيهِ غَـيْرُ مُـنْقَسِمِ
دَعْ ما ادَّعَـتْهُ النَّـصارَى فـي نَـبِيِّهِم
وَاحْكُمْ بِمَا شِئْتَ مَدْحاً فيهِ وَاحْتَكِمِ
فَانْسِبْ إلَى ذاتِهِ ما شِئْتَ مِنْ شَرَفٍ
وَانْسِبْ إلَى قَدْرِهِ ما شِئْتِ مِنْ عِظَمِ
فَـإنَّ فَـضْلَ رَسـولِ اللَـهِ لَـيْسَ لَـهُ
حَــدٌّ فَــيُعْرِبَ عَــنْهُ نــاطِقٌ بِــفَمِ
لَــوْ نــاسَبَتْ قَــدْرَهُ آيـاتُهُ عِـظَماً
أَحْيَا اسْمُهُ حينَ يُدْعَى دارِسَ الرَّمَمِ

لَـمْ يَـمْتَحِنّا بِـما تَـعيا العُـقُولُ بِـهِ
حِرْصاً عَلَيْنا وَلَمْ نَـرْتَبْ وَلَـمْ نَـهِمِ
أعْمَى الوَرَى فَهْمُ مَعْناهُ فَلَيْسَ يُرَى
في القُرْبِ وَالبُعْدِ مِنْهُمْ غَيْرُ مُـنفَحِمِ
كَالشَّمْسِ تَـظْهَرُ لِـلْعَيْنَيْنِ مِـنْ بُـعْدٍ
صَــغِيرَةً وَتَكِـلُّ الطَّـرْفُ مِـنْ أُمَـمِ
وَكَـيْفَ يُـدْرِكُ فِـي الدُّنْـيَا حَـقِيقَتَهُ
قَــوْمٌ نــيامٌ تَسَــلُّوا عَــنْهُ بِـالحُلُمِ
فَــــمَبْلَغُ العِــلْمِ فــيهِ أَنَّــهُ بَشَــرٌ
وَأَنَّـــهُ خَــيْرُ خَــلْقِ اللَــهِ كُــلِّهِمِ
دَعْنِي وَوَصْـفِيَ آيـاتٍ لَـهُ ظَـهَرَتْ
ظُهورَ نَـارِ القِـرَى لَـيْلاً عَـلَى عَـلَمِ
لَــمْ تَــقْتَرِنْ بِـزَمانٍ وَهْـيَ تُـخْبِرُها
عَـنِ المَـعَادِ وَعَـنْ عـادٍ وَعَـن إرَمِ
دامَتْ لَــدَيْنا فَـفاقَتْ كُـلَّ مُـعْجِزَةٍ
مِــنَ النَّـبِيِّينَ إذْ جـاءَتْ وَلَـمْ تَـدُمِ
لَا تَــعْجَبَنْ لِــحَسُودٍ رَاحَ يُـنكِرُها
تَجاهُلاً وَهُـوَ عَـيْنُ الحـاذِقِ الفَـهِمِ
قَدْ يُنْكِرُ العَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ
وَيُنكِرُ الفَمُّ طَعْمَ المَـاءِ مِـنْ سَـقَمِ[1]

١ـ مقطفات من القصيدة المعروفة والمشهورة بالبُردة ، وقد أنشدها البـوصيريّ مـع مقدّمات وتفصيل . وقد طُبعت هذه القصيدة في مجموعة واحدة مع «المعلّقات السبع» ⇦

وهناك في القرآن الكريم كلمات واصطلاحات بديعة لم يسبق لها نظير في الكتب السماويّة الأُخرى ولا في اللغة العربيّة وأشعارها وآدابها .

فكلمة **الحقّ** مثلاً التي استعملها القرآن الكريم للتعبير عن الباري تعالى شأنه وعلى الموجودات والأُمور الواقعيّة من الاعتقادات والأفعال والأقوال ، بهذا التعبير عن لطافة المعنى وظرافته في جميع الموارد ، وذلك من مختصّات القرآن .

ونذكر هنا موارد استعمال كلمة الحقّ من كتاب **الراغب الإصفهانيّ** القيّم «المفردات في غريب القرآن» ، يقول :

حقّ : **أَصْلُ الحَقِّ المُطَابَقَةُ والمُوَافَقَةُ كَمُطَابَقَةِ رِجْلِ البَابِ فِي حَقِّهِ لِدَوَرَانِهِ عَلَى اسْتِقَامَةٍ.**

والحقّ يقال على أوجه :

الأوّل : يقال للموجِد الشيء بسبب ما تقتضيه الحكمة ، ولهذا قيل في الله تعالى : هو الحقّ .

قال الله تعالى : **وَرُدُّوٓا إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ** . وقيل بُعَيدَ ذلك : **فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ**.[١]

الثاني : يقال للموجِد بحسب مقتضى الحكمة ، ولهذا يقال : فِعْلُ الله تعالى كلُّه حقٌّ . وقال تعالى : **هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا**، إلى قوله تعالى : **مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ**.[٢]

وقال في القيامة : **وَيَسْتَنبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ** [٣]

⇦ بالطباعة الحجريّة.

١ـ مقطع من الآية ٣٠ والآية ٣٢ ، من السورة ١٠ : يونس .

٢ـ صدر الآية ٥ ، من السورة ١٠ : يونس .

٣ـ صدر الآية ٥٣ ، من السورة ١٠ : يونس .

ـ **لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ**.[1] وقوله عزّ وجلّ: **ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ**[2] ـ **وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ**.[3]

والثالث: في الاعتقاد للشيء المطابق لما عليه ذلك الشيء في نفسه، كقولنا: اعتقاد فلان في البعث والثواب والعقاب والجنّة والنار حقّ.

قال الله تعالى: **فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا ٱخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ**.[4]

والرابع: للفعل والقول الواقع بحسب ما يجب، وبقدر ما يجب، وفي الوقت الذي يجب، كقولنا: **فِعْلُكَ حَقٌّ وَقَوْلُكَ حَقٌّ**.

قال الله تعالى: **كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ**؛[5] **حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ**.[6]

وقوله تعالى: **وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ**[7] يصحّ أن يكون المراد به اللهُ تعالى، ويصحّ أن يُراد به الحُكم الذي هو بحسب مُقتضى الحكمة.

ويُقال: **أَحْقَقْتُ كذَا**، أي أثْبَتُّهُ حَقّاً أو حكمتُ بِكَوْنه حقّاً. وقوله تعالى: **لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ**،[8] فإحقاقُ الحقّ على ضَربيْن: أحدهما: بإظهار الأدلّة والآيات، كما قال تعالى: **وَأُولَـٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا**،[9] أي:

١ـ مقطع من الآية ١٤٦، من السورة ٢: البقرة.

٢ـ صدر الآية ١٤٧، من السورة ٢: البقرة.

٣ـ مقطع من الآية ١٤٩، من السورة ٢: البقرة.

٤ـ قسم من الآية ٢١٣، من السورة ٢: البقرة.

٥ـ صدر الآية ٣٣، من السورة ١٠: يونس.

٦ـ قسم من الآية ١٣، من السورة ٣٢: السجدة.

٧ـ صدر الآية ٧١، من السورة ٢٣: المؤمنون.

٨ـ صدر الآية ٨، من السورة ٨: الأنفال.

٩ـ ذيل الآية ٩١، من السورة ٤: النساء.

حُجّةً قويّة.

والثاني: بإكمال الشريعة وبثّها في الكافّة، كقوله تعالى: **وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ**؛[1] ـ **هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ**.[2]

وقد جاء لفظ **مِن** في الآية المباركة **ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ** التي وردت في موضعين من القرآن الكريم، وفي الآية: **وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ** بمعنى ابتداء الغاية، الذي ينطبق في هذه العبارات وأمثالها على معنى **النشويّه**، حيث يدلّ على حقيقة مهمّة جدّاً وهي أنّ الخالق العظيم هو مركز الحقّ ومنبعه، وأنّ ما في عالم الوجود من مطابقة للأصالة والواقعيّة إنّما هو من الله تعالى. وباعتبار أنّ اللفظ محلّى بالألف واللام، فإنّه يدلّ على حصر الحقّ من قِبل الله تعالى. أيّ أنّ الحقّ أينما وُجد، فهو من الربّ جلّ وعلا. وأنّ جميع الحقائق والأُمور الخارجيّة وآثارها وشؤونها مستمدّة وناشئة من الربّ العظيم.

وقد جاء في سورة الإسراء المباركة:

وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا.[3]

ذلك أنّ الله سبحانه لا يُجبر الإنسان على المعصية، بل إنّ اختيار الإنسان دخيلٌ بصورة حتميّة في المعصية وعنوانها. وبهذه القرينة فإنّ المراد من قوله **أَمَرْنَا** ليس الأمر بالفسق والمعصية، لأنّه تعالى **وَلَا يَرْضَىٰ**

١ـ ذيل الآية ٨، من السورة ٦١: الصفّ.

٢ـ صدر الآية ٣٣، من السورة ٩: التوبة؛ وصدر الآية ٢٨: من السورة ٤٨: الفتح.

٣ـ الآية ١٦، من السورة ١٧: الإسراء.

لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ؛[1] بل المراد بذلك ؛ أنّنا نأمرهم بالطاعات ، فيخالفون أمرنا ويفسقون ، فيُعذَّبون .

والمراد بعبارة **حَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ** هو أنّ كلمة العذاب والانتقام تحقّ وتُثبَّت عليهم بواسطة انطباق عملهم على العصيان والتجرّي .

ونظير هذه الآية ، الآية الواردة في سورة الأحقاف :

وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ * أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَـٰسِرِينَ .[2]

قال سماحة العلّامة آية الله الطباطبائيّ رضوان الله عليه : **وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ** ، الظاهر أنّه مبتدأ في معنى الجمع ، وخبره قوله بعد **أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ** .[3]

وقال أيضاً : بأنّ الآية نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر ، قال : وفي «الدرّ المنثور» بسنده عن عبد الله قال : إنّي لفي المسجد حين خطب مروان فقال : إنّ الله قد أرى أمير المؤمنين (معاوية) في يزيد رأياً حسناً ، وإن يستخلفه فقد استخلف أبو بكر وعمر .

فقال عبد الرحمن بن أبي بكر : **أَهِرْقِلِيَّةٌ ؟!**

إنّ أبا بكر ـ والله ـ ما جعلها في أحدٍ من ولده ولا أحد من أهل بيته ، ولا جعلها معاوية إلّا رحمةً وكرامةً لولده .

١ـ قسم من الآية ٧ ، من السورة ٣٩ : الزمر .

٢ـ الآيتان ١٧ و١٨ ، من السورة ٤٦ : الأحقاف .

٣ـ «الميزان في تفسير القرآن» ج ١٨ ، ص ٢٢٠ .

فقال مروان: ألستَ الذي قال لوالديه: **أُفٍّ لَّكُمَا**؟

فقال عبد الرحمن: ألستَ ابنَ اللعين الذي لعن أباك رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم؟

قال: وسمعتها عائشة فقالت: يا مروان! أنت القائل لعبد الرحمن كذا وكذا؟![1]

كذبتَ والله ما فيه نزلتْ. نزلتْ في فلان بن فلان.

وفيه (أي في «الدر المنثور»): أخرج ابن جرير عن ابن عبّاس في «الذي قال لوالديه أفّ لكما» الآية، قال: هذا ابنٌ لأبي بكر».

ثمّ قال سماحة الأُستاذ العلّامة قدّس الله نفسه: «أقول: وروي ذلك أيضاً عن **قتادة والسدّيّ**. وقصّة رواية مروان وتكذيب عائشة له مشهورة».

ثمّ قال: قال (الآلوسي) في «روح المعاني» بعد ردّ رواية مروان: ووافق بعضهم كالسهيليّ في «الأعلام» مروان في زعم نزولها في عبد الرحمن. ثمّ قال (الآلوسي): وعلى تسليم ذلك لا معنى للتعيير لاسيّما

١ـ يقول السيّد علي خان المدنيّ الشيرازيّ في شرح الصحيفة السجّاديّة المسمّى بـ«رياض السالكين» ج ١، ص ١٦٥، طبعة مؤسّسة النشر الإسلاميّ: «وقال (فخر الدين) الرازيّ في تفسير **الشجرة الملعونة**: قال ابن عبّاس: الشجرة الملعونة في القرآن المراد بها بنو أُمّية الحكم بن ابي العاص وولده. قال: رأى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في المنام أنّ وِلد مروان يتداولون منبره، فقصّ رؤياه على أبي بكر وعمر وقد خلا في بيته معهما، فلمّا تفرّقوا سمع رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم الحكم يُخبر برؤيا رسول الله، فاشتدّ عليه ذلك، فاتّهم عمر في إفشاء سرّه، ثمّ ظهر أنّ الحكم كان يتسمّع إليهم، فنفاه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم. قال: وممّا يؤكّد هذا التأويل قول عائشة لمروان: لعن الله أباك وأنت في صُلبه، فأنتَ بعضُ مَن لعن الله».*

* ـ «التفسير الكبير» للفخر الرازيّ، ج ٣، ص ٢٣٧، (التعليقة).

من مروان ، فإنّ الرجل أسلم وكان من أفاضل الصحابة وأبطالهم ، وكان له في الإسلام عناء يوم اليمامة وغيره ، و**الإسلامُ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ** ، فالكافر إذا أسلم لا ينبغي أن يُعيَّر بما كان يقول . انتهى .

ثمّ إنّ العلّامة يعترض هنا على كلام الآلوسي فيقول : «وفيه أنّ الروايات لو صحّت لم يكن مَناص عن صريح شهادة الآية عليه بقوله : **أُولَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ** ، إلى قوله : **إِنَّهُمْ كَانُوا خَـٰسِرِينَ** ؛ ولم ينفع شيء ممّا دافع عنه به» .[1]

وكان محور إشكال سماحة العلّامة على الآلوسيّ هو عبارة **حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ** ، لأنّها تبيّن تثبيت ومطابقة كلمة عذاب الله له في جملة مَن جاء قبله من الجنّ والإنس ، الذين كانوا من الخاسرين ممّا يوجب بقاءه على الكفر وكون إيمانه إيماناً صوريّاً ، أمّا إسلامه ودخوله في معركة اليمامة وغيرها فلا يصحّ شاهداً على خلاف ذلك ، لأن كثيراً من المسلمين غير الواقعيّين كانوا يشتركون في هذه المعارك بسبب غلبة الإسلام وموقعه وصدارته .

فلا يمكن ـ مع نزول هذه الآية في حقّه ـ الدفاع عنه بإسلامه وأفعال الخير الصادرة عنه .[2]

١ـ «الميزان في تفسير القرآن» ج ١٨ ، ص ٢٢٥ و ٢٢٦ .

٢ـ إلّا أنّ هناك مطلباً يستحقّ التأمّل في هذا المجال ، وهو أنّ بنت عبدالرحمن بن أبي بكر كانت جدّة الإمام جعفر الصادق عليه السلام لأُمّه ، والشيعة مُجمعون على أنّ آباء الأئمّة المعصومين وأُمّهاتهم ينبغي أن يكونوا موحّدين . وهو أمر يتحقّق إذا كان عبدالرحمن مسلماً ؛ إلّا أن نقول بأنّ إسلام بنت عبد الرحمن كان كافياً لسعة حمل نطفة الإمام على الرغم من كون الأب كافراً . كما في أمر شهربانو ونرجس اللتين كانتا مسلمتين ، فلم يكن هناك ضرر من شرك أبويهما. ⇦

وكلمة **ضَلال** ككلمة حقّ قد استعملها القرآن في آياته حين تحدّث عن الكفّار والمشركين والمتمرّدين والمعتدين والفاسقين، فصرنا نرى في هذا الكتاب السماويّ كثيراً من كلمات المصدر: الضلال ومشتقّاته.

والضَّلال بمعنى الضياع، ويعني عدم الوجود في المكان اللازم المترقّب، والاضمحلال والهلاك قبل بلوغ المقام والمرتبة اللازمة.

والمشركون والكفّار يضيعون، أي أنّ سعة قدرتهم ونور ذواتهم وهويّتهم الأصليّة لا تبلغ مرحلة الفعليّة التامّة، فهم يضيعون ويُعدمون قبل الوصول إلى كمالهم، وتضيع قابليّاتهم، ويتيهون في مسير حركتهم وسيرهم إلى الهدف الأعلى من الخلقة.

⇦ وبيان ذلك أنّ العلماء الأعلام، ومن جملتهم آية الله الحاجّ السيّد محسن الأمين العامليّ في «أعيان الشيعة» ج ٤، القسم الثاني، ص ٢٩، الطبعة الثالثة، في سيرة الإمام جعفر الصادق عليه السلام أوردوا أنّ أُمّ الإمام هي أُمّ فروة بنت القاسم بن محمّد بن أبي بكر. وأُمّها ـ أي جدّة الإمام ـ بنت عبد الرحمن ابن أبي بكر، وهذا هو معنى قوله عليه السلام: **إنَّ أَبَا بَكْرٍ وَلَّدَنِي مَرَّتَيْنِ**،* وفي هذا يقول السيّد الشريف الرضيّ:

وحُزناً عتيقاً وهو غاية فخركم بمولد بنتِ القاسمِ بن محمّد

وعلى أيّة حال، فقد كان القاسم بن محمّد من أصحاب الإمام زين العابدين عليه السلام الأجلّاء، وكان أحد فقهاء المدينة السبعة ومن الثقات والمعتمدين. نشأ في بيت فقه. وكانت أُمّ فروة من النساء الجليلات. وقال الصادق عليه السلام في شأنها: **كَانَتْ أُمِّي مِمَّنْ آمَنَتْ وَاتَّقَتْ وَأَحْسَنَتْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**.

والخلاصة، فقد تزوّج القاسم بن محمّد من ابنة عمّه: أسماء بنت عبد الرحمن، فوُلِد لهما أُمّ فروة هذه المرأة الجليلة. وكانت أسماء مسلمة، ولا يُلحق كُفر أبيها ـ بناءً على صحّة الروايات المذكورة وبناءً على تفسير الآية الكريمة في شأن الأب ـ ضرراً بإجماع الشيعة.

* ـ يقول السيّد علي خان المدنيّ الشيرازيّ في شرح الصحيفة السجّاديّة الموسوم بـ«رياض السالكين» ج ١، ص ٧١، طبعة مؤسّسة النشر الإسلاميّ، ضمن شرح حال ونسب الإمام الصادق عليه السلام: لهذا كان الصادق عليه السلام يقول: **وَلَدَنِي أَبُو بَكْرٍ مَرَّتَيْنِ**.

أمّا المؤمنون فإنّهم يربّون أنفسهم ويزيدون في قوّتها باستمرار من خلال مجاهدتهم أنفسهم في سبيل الله ، ومن خلال الإيمان والعمل الصالح الذي يزيد الثبات لديهم ، فيجعلون أنفسهم بالرياضات المشروعة مقتدرةً ليمكنها تحمّل لقاء جمال الربّ الودود ، أو المقاومة أمام تجلّيات الجلال في مرحلة الأسماء والصفات ، وليمكنها العبور من عوالم المادّة والشهوة والحجب الظلمانيّة ، والعبور في مرحلةٍ لاحقة من الحجب النورانيّة وسطوع الأنوار الملكوتيّة ، ثمّ الاستفادة من تجلّي الأسماء والصفات الكلّيّة ونيل مقام الفناء في الذات .

وتعبير الضلال يبيّن أنّ الضالّين يضيعون قبل بلوغهم المقصد بسبب ضعف قابليّاتهم الوجوديّة ، فلا يمتلكون اسماً ولا أثراً في العوالم العُليا ، ومن المعلوم بطبيعة الحال أنّ هذا الضلال والضياع إنّما يحصل في نفوسهم وليس في طبائعهم ولا أبدانهم المادّيّة ، إذ إنّ كثيراً منهم عاشوا بتلك الأبدان وامتلكوا قوّة وشوكة ، لكنّهم ـ بلحاظ النفس ـ ساروا إلى مرحلة معيّنة ثمّ توقّفوا فضاعوا في المراحل التي تعلوها .

يقول القرآن الكريم : إنّنا نُضلّ أمثال هؤلاء المتمرّدين بحيث يعجز الباحث عنهم عن العثور على أدنى أثر .

وقد ورد في القرآن الكريم تعبيران مختلفان مهمّان عن نزول العذاب ؛ أحدهما : أنّنا ننزل عليهم العذاب بحيث إنّهم ينعدمون ويفنون حتّى كأنّهم لم يوجدوا أصلاً . ويقول التعبير الثاني : إنّنا نمحو آثارهم ونجعلها أخباراً وحكايات .

وقد جاء التعبير الأوّل في موضعَين من سورة هود :

الأوّل : في شأن **قوم ثمود** الذين عقروا ناقة **صالح** على نبيّنا وآله وعليه السلام :

فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ * وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ.[1]

والثاني : في شأن **أصحاب مَدْيَن** الذين كانوا يؤذون نبيّهم **شُعيب** على نبيّنا وآله وعليه السلام ويهدّدونه برجمه إن لم يكفّ عن دعوته ؛ وهي الآية التالية :

وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ.[2]

غَنَى يَغْنَى بِالمَكَانِ وَفِي المَكَانِ بمعنى أقام فيه . **وجَٰثِمِينَ** بمعنى **مُتَلَبِّدِينَ** . أي أنّ ظلم أصحاب مدين لنبيّهم شعيب ، وظلم قوم ثمود لنبيّهم صالح ، على نبيّنا وآله وعليهما السلام ، وتمرّدهم على ذينك النبيَّين ، قد سبّب أخذهم بالصيحة السماويّة بحيث أضحوا تراباً ،كأنّهم لم يسكنوا تلك الديار أبدا ، وبحيث لم يبق منهم اسم ولا أثر ولا أزواج ولا أولاد ولا بساتين ولا تجارة .

أمّا **التعبير الثاني** فقد ورد في سورة المؤمنون ، وهو تعبير أعجب وأغرب ، لأنّه يقول : وجعلناهم «أحاديث» ، أي أنّنا أهلكناهم حتّى لم يبق من حقيقتهم في هذا العالم إلّا الأحاديث والأخبار والقصص والحكايات ، أشبه بقولنا : **زَيْدٌ عَدْلٌ** . والآية لا تقول : إنّنا أضعنا آثارهم وأبقينا

١ـ الآيات ٦٦ إلى ٦٨ ، من السورة ١١ : هود .

٢ـ الآيتان ٩٤ و٩٥ ، من السورة ١١ : هود .

أخبارهم ؛ بل تقول : إنّنا أخذناهم بالعذاب بحيث جعلنا آثارهم وحقائقهم الوجوديّة «أخباراً» ؛ وكأنّ حقائق ماهيّاتهم ليست إلّا مقولة الحديث والخبر والحكاية .

وقد جاءت هذه القصّة في القرآن الكريم بعد بيان قصّة قوم نوح الذين أُغرقوا ، ثمّ إنّ الله خلق مِن بعدهم قوماً آخرين فأرسل إليهم نبيّاً فكذّبوه ؛ قال :

فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَـٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ * ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ * مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ * ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ.[1]

ومن الأُمور المختصّة بالقرآن الكريم ، أمر عدم التصريح بالألفاظ القبيحة ، إذ للقرآن أدب خاصّ يتفرّد به . وقد صرّح سماحة أُستاذنا آية الله العلّامة قدّس الله سرّه كراراً في مواضع مختلفة من تفسيره ، ونوّه بأنّ القرآن يمتلك أدباً خاصّاً متميّزاً . حيث يلاحظ أنّه لا يستعمل ألفاظاً صريحة قطّ في المواضع التي ينبغي أن يذكر فيها أحكاماً بخصوص موضوعات معيّنة ،كالتبوّل والتغوّط ومجامعة النساء وأمثال ذلك ؛ ونرى أنّه ـ على الدوام ـ قد ذكر تلك المطالب على نحو الكناية والاستعارة والتلميح .

فهو مثلاً يعبّر عن مجامعة النساء بـ**الملامسة والمباشرة والغِشيان والرَفَث** (وهو الكلام الذي يعدّ قبيحاً في غير ذلك الموضع) ، **والمقاربة والإتيان** وغير ذلك .

١ـ الآيات ٤١ إلى ٤٤ ، من السورة ٢٣ : المؤمنون .

كما أنّه عبّر عن **البراز بالغائط** (و هو الموضع المنخفض) ، لأنّ الأفراد الذين يتبرّزون في الصحراء ، يلجأون عادةً إلى موضع منخفض يسترهم عن الأنظار ، لذا فقد جعل العودة من ذلك الموضع كنايةً عن التبرّز : **أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ**.[1]

ومن مختصّات القرآن ، تعبيره عن بعض الأفراد والمعاني بكلمات تبيّن حقيقة أُولئك الأفراد وتلك المعاني وقيمتهم في النظر القرآنيّ . فهو ـ مثلاً ـ يعبّر بكلمة **الملأ** عن الأغنياء والأثرياء الذين حصلوا على اعتبار من خلال كونهم أغنياء لا غير ؛ فصاروا يعدّون أنفسهم حكّاماً ، ويعتبرون الآخرين رعايا وعبيد لهم . وتعني كلمة الملأ : الأفراد المملوئين بالغرور والاستكبار : **قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ**.[2]

كما عبّر القرآن عن الأفكار التي تفتقد في نظره للقيمة الحقيقيّة بـ **الهوى والأهواء** أي الأُمور الجوفاء ؛ مهما تسنّمت تلك الأفكار الذروة والرقيّ في المجتمع وبين علماء الاجتماع والمدنيّة ؛ إذ إنّ تلك الأفكار لم تتشبّع بالأصالة والواقعيّة ، فعبّر عنها القرآن بالأُمور الجوفاء .

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ.[3]

أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ.[4]

وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ.[5]

١ـ مقطع من الآية ٤٣ ، من السورة ٤ : النساء ؛ ومقطع من الآية ٦ : من السورة ٥: المائدة.

٢ـ الآية ٦٠ ، من السورة ٧ : الأعراف .

٣ـ مقطع من الآية ٥٠ ، من السورة ٢٨ : القصص .

٤ـ مقطع من الآية ٢٣ ، من السورة ٤٥ : الجاثية .

٥ـ مقطع من الآية ٤٨ : من السورة ٥ : المائدة . ⇦

....

⇦ ومن مختصّات القرآن الكريم استعماله لفظ **الجهل** في مورد العلم بالأُمور الظاهريّة والمعارف المادّيّة والاجتماعيّة والسياسيّة، إذا لم يكن فيه رصيد من العلم المعنويّ والروحيّ ومن الإيمان بالله وعالم الغيب، مهما كان التبحّر في تلك العلوم الظاهريّة كاملاً ووافياً. وقد وردت أمثال عبارة **فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ** خطاباً من الله تعالى إلى رسوله الأكرم، وعبارة **إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ**، و**أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ**، و**بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ** ونظائرها من العبارات على لسان النبيّ موسى والنبيّ لوط والرسول الأكرم خطاباً منهم لأُممهم. ويبدو أنّ أشدّ سباب وشتم شخّصه القرآن الكريم في حقّ هؤلاء الأقوام هو نعتهم بصفة الجهل. لأنّ الجهل منشأ جميع العيوب والمفاسد والمعاصي. وقد عبّر القرآن عن الغيرة والعصبيّة والحميّة الناشئة من حبّ الجاه ومن العصبيّة للقوم والعشيرة بالحميّة الجاهليّة. حيث يقول في الآية ٢٦، من السورة ٤٨: الفتح: **إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ**.

ويقول في الآية ١٥٤، من السورة ٣: آل عمران: **وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ**.

ويقول في الآية ٥٠، من السورة ٥: المائدة: **أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ**.

وعلى هذا الأساس فقد جعل الإسلام كُنية أبي الحكم عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي «أبو جهل» فقد كان أبو جهل من رجال السياسة في مكّة. وكان الناس يرجعون إليه في أمورهم، وكان ذا نفوذ وشخصيّة بارزة في قومه. بَيدَ أنّه يؤمن بالله، ودفعه استكباره وعصبيّته القبليّة وأنانيّته إلى العناد والعداء والأذى لرسول الله، فكُنّي في التأريخ بأبي جهل، أي أنّه دُعي أباً للجهل الذي هو منبع كلّ العيوب.

أورد المحدّث القمّيّ في «الكنى والألقاب» ج ١، ص ٣٧ و٣٨؛ وفي «هديّة الأحباب» ص ٩ و١٠، الطبعة الحجريّة عن أبي جهل: كان من أشدّ الناس عداوةً للنبيّ. قُتل يوم بدر كافراً؛ وأخباره مع النبيّ وكثرة أذاه إيّاه مشهورة. وروي أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم قال فيه: إنّ هذا أعتى على الله عزّ وجلّ من فرعون. إنّ فرعون لمّا أيقن بالهلاك وحّد الله، وإنّ هذا لمّا أيقن بالهلاك دعا باللات والعُزّى. وعمّه الوليد بن المغيرة، وكان شيخاً كبيراً مجرّباً من دُهاة العرب، يتحاكمون إليه في الأُمور ... وهو أحد المستهزئين الخمسة الذين ⇦

والقرآن كتاب تربية وأدب ، لذا فقد ردع عن السبّ والشتم ، حتّى أنّه يقول : لا تسبّوا آلهة المشركين وأصنامهم ، لأنّهم سيردّون عليكم فيسبّون الله المتعال جهلاً .

وَلَا تَسُبُّوا ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا ٱللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.[1]

ولهذا فإنّ المؤمنين يتورّعون عن سبّ طائفة اليهود والنصارى والمجوس ، وحتّى عن سبّ المشركين والتحدّث عنهم بما لا يليق ، لأنّ كثيراً منهم قد اعتقدوا بما اعتقدوا عن جهل ، ولو تبيّن لهم الحقّ لقبلوا به . ويُدعى أمثال هؤلاء بالمستضعفين . وقد بُشّر المستضعفون في القرآن بالرحمة .

كما أنّ المؤمنين ليس لهم الحقّ في لعن أبناء السنّة والتحدّث عنهم بما لا يليق ، لأنّ كثيراً منهم قد اعتنقوا ذلك المذهب نتيجة علل وأسباب خارجة عن إرادتهم واختيارهم حجبتْ الحقّ عنهم . أمّا لعن **أعداء آل محمّد** صلّى الله عليه وآله وسلّم فمن مستلزمات الإيمان .

ونعني بالأعداء : المعاندين والمتجاسرين والمتجاوزين ، وهم طائفة خاصّة قد تحدّث التأريخ عن نهجها وأُسلوب عملها بالقدر الكافي ، وهم الذين ضيّعوا حقوق آل محمّد عن علم وبصيرة ؛ وليس لعن أمثال أُولئك

⇦ كفى الله شرّهم... (ثمّ يورد قصّة قوله بأنّ القرآن سحر ، ويقول :) فأنزل الله تعالى فيه: **ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا** إلى قوله : **عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ** . وكان ابنه خالد بن الوليد فاتكاً، وقد جاءت ترجمته في التأريخ الإسلاميّ مفصّلةً.

١ـ الآية ١٠٨ ، من السورة ٦ : الأنعام .

الأعداء جائزاً فحسب، بل إنّ لعن كلّ ظالم يعدّ أمراً جائزاً أيضاً:

أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ.[1]

وبغضّ النظر عن ذلك، فقد ورد في القرآن الكريم التصريح بلعن الله تعالى للذين يؤذون الله ورسوله:

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا.[2]

وقد ورد في صحاح السنّة وكتب الشيعة المعتبرة بأسانيد مستفيضة أنّ مَن آذى ذرّيّة رسول الله وأهل بيته كمن آذى رسول الله.

ونحن نعلم أنّ حُجّيّة السُّنّة معتبرة، وأنّها في حكم حجّيّة القرآن ونظيرتها في القوّة، فلو ضُمّت الآية السابقة التي تنصّ على جواز لعن مَن يؤذي الله ورسوله إلى السُّنّة المعتبرة التي تَعُدّ أهل بيت النبيّ وذرّيّته (كأصحاب الكساء) كنفس النبيّ، وتعتبر أذاهم كأذى رسول الله، فإنّ النتيجة تكون جواز لعن من يؤذي آل محمّد عليهم السلام.

فتكون الآية القرآنيّة هي كُبرى المسألة، والسُّنّة المعتبرة صُغراها، وجواز لعن الأعداء هو النتيجة من هذا القياس.

إنّ القرآن الكريم يتعامل بروح محبّة ووداد وإخلاص ومداراة مع جميع خلق الله تعالى، حتّى أنّه يقول في شأن المشركين:

وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ.[3]

١ـ الآية ١٨، من السورة ١١: هود.

٢ـ الآية ٥٧، من السورة ٣٣: الأحزاب.

٣ـ الآية ٦، من السورة ٩: التوبة.

أي حتّى تدلّه على الله وتبيّن له أمر المعاد والولاية والعقائد الحقّة لتسكن فيه ويطمئنّ قلبه ، فذلك هو مأمنه ومحلّ سكون خاطره واطمئنان قلبه .

وهذه الآية من بدائع آيات القرآن الكريم ، وقد استُعملت فيها كلمات قليلة دلّت على الذروة من الثبات والمتانة والأخلاق والدلالة على غاية الرسالة والإيصال إلى مقصدها . ويحوي كلّ واحد من ألفاظ **أَجِرْهُ** ، **يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ** ، **أَبْلِغْهُ** **ومَأْمَنَهُ** بمفرده مطالب عميقة ودروساً رشيقة من الحكمة .

أجل ، فلمّا كان القرآن الكريم هو المبيّن لأُصول المطالب والعقائد والأحكام ، فإنّه أوكل أمر توضيحها وتفصيلها وتفسيرها إلى السُّنّة .

أي أنّ القرآن الكريم قد جعل قول رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، وأمره ونهيه وبيانه وعمله حجّةً .. تأمّل هذه الآيات الكريمة :

مَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا.[1]

إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا.[2]

وَإِن تُطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَايَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا.[3]

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَطِيعُوا ٱللَّـهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُولِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ.[4]

١ـ الآية ٧ ، من السورة ٥٩ : الحشر .

٢ـ الآية ٥١ ، من السورة ٢٤ : النور .

٣ـ الآية ١٤ ، من السورة ٤٩ : الحجرات .

٤ـ الآية ٥٩ ، من السورة ٤ : النساء .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّـذِينَ ءَامَـنُوٓا أَطِـيعُوا ٱللَّـهَ وَأَطِـيعُوا ٱلرَّسُـولَ وَلَا تُـبْطِلُوٓا أَعْمَـٰلَكُمْ.[1]

قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ.[2]

ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ... أُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ.[3]

وبناءً على هذه الآيات ونظائرها ، فإنّ العمل بأوامر النبيّ وأُولي الأمر ـ وهم الأئمّة الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين ـ فرضٌ حتميّ لازم ، وأنّ السُّنّة (وهي قول المعصوم وفعله) قد جُعلت في مصافّ الآيات الإلهيّة ، وعُدّت حُجّةً . ونحن إنّما نحصل على النتيجة المتوخّاة في كثير من مسائل الأُصول والفروع من خلال ضمّ الكتاب والسُّنّة إلى بعضهما . أمّا اللجوء إلى أحدهما والإعراض عن الآخر ، فيجعل الإجابة على المسائل الاعتقاديّة أو العلميّة أمراً عقيماً .

أمّا في المسائل الاعتقاديّة ، فكالعلّة الفاعلة التي ينسبها القرآن الكريم إلى الله تعالى في خصوص الحياة والصحّة ، في خطاب النبيّ إبراهيم عليه السلام لعمّه آزر وقومه وعشيرته :

فَإِنَّهُمْ (والضمير عائد للأصنام) **عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ * ٱلَّـذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ * وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَـرِضْتُ فَـهُوَ يَشْفِينِ * وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ * وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ**.[4]

١ـ الآية ٣٣ ، من السورة ٤٧ : محمّد .

٢ـ الآية ٣١ ، من السورة ٣ : آل عمران .

٣ـ الآية ١٥٧ ، من السورة ٧ : الأعراف .

٤ـ الآيات ٧٧ إلى ٨٢ ، من السورة ٢٦ : الشعراء .

حيث نُسبت الصحّة والشفاء في هذه الآية المباركة، وبصراحة، إلى الخالق عزّوجلّ.

أمّا في السُّنّة فقد جاء بأنّ الله تعالى قد جعل لكلّ داءٍ دواء، وأنّ على الإنسان أن يرجع إلى الطبيب إذا مرض.

أمّا بالنسبة إلى هبوب الرياح وتفرّق السحاب، فإنّ الأمر على العكس من ذلك، فقد عزا القرآن أمر تفرّق السحاب إلى الرياح، بينما عزته السُّنّة إلى الملائكة السماويّين. ولدينا آيتان في هذا الخصوص.

الأُولى: **ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ**.[1]

و الثانية: **وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ**.[2]

١ـ الآية ٤٨، من السورة ٣٠: الروم.

٢ـ الآية ٩، من السورة ٣٥: فاطر.

وكذلك الأمر في آيات سورة الواقعة التي تنسب فعل الفاعل إلى الله تعالى، وتنسب الإعداد إلى الموجودات، وهو أمر جديرٌ بالتأمّل: **أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ** (الآيتان ٥٨ و٥٩، من السورة ٥٦: الواقعة)، حيث إنّ الأب صاحب المنيّ وفاعل الفعل هو المعدّ، أمّا الخالق فالله تعالى.

أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ (الآيتان ٦٣ و٦٤، من السورة ٥٦: الواقعة)؛ حيث إنّ الزارع والفلّاح هو المعدّ، أمّا خالق البذور فهو الله سبحانه.

أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ * ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ. (الآيتان ٧١ و٧٢، من السورة ٥٦: الواقعة). والآية تعدّ الإنسان بعنوان العلّة المعدّة لاشتعال الخشب؛ أمّا موجِد الخشب وخالق الشجرة فهو الله تعالى، الذي هو العلّة الفاعلة.

وبالنسبة إلى العلوم التي يتعلّمها البشر، فإنّ تهيئة مقدّمات النتيجة، من تعليم ⇐

ونلاحظ في هاتين الآيتين أنّ الله سبحانه قد عزا تفرّق السحاب في السماء إلى الرياح ، بينها نرى في السنّة أنّ الملائكة هم الذين يسوقون السحاب ؛ فقد جاء في دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام :

وَقَبَائِلِ المَلَائكَةِ الَّذِينَ اخْتَصَصْتَهُمْ لِنَفْسِكَ ، وَأَغْنَيْتَهُمْ عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ بِتَقْدِيسِكَ ، وَأَسْكَنْتَهُمْ بُطُونَ أَطْبَاقِ سَمَاوَاتِكَ ، وَالَّذِينَ عَلَى أَرْجَائِهَا إِذَا نَزَلَ الأَمْرُ بِتَمَامِ وَعْدِكَ ، وَخُزَّانِ المَطَرِ وَزَوَاجِرِ السَّحَابِ ، وَالَّذِي بِصَوْتِ زَجْرِهِ يُسْمَعُ زَجَلُ الرُّعُودِ ، وَإِذَا سَبَّحَتْ بِهِ خَفِيفَةُ السَّحَابِ التَمَعَتْ صَوَاعِقُ البُرُوقِ ؛ وَمُشَيِّعِي الثَّلْجِ وَالبَرَدِ ، وَالْهَابِطِينَ مَعَ قَطْرِ المَطَرِ إِذَا نَزَلَ ، وَالقُوَّامِ عَلَى خَزَائِنِ الرِّيَاحِ ، وَالمُوَكَّلِينَ بِالجِبَالِ فَلَا تَزُولُ ، وَالَّذِينَ عَرَّفْتَهُمْ مَثَاقِيلَ المِيَاهِ ، وَكَيْلَ مَا تَحْوِيهِ لَوَاعِجُ الأَمْطَارِ وَعَوَالِجُهَا.[1]

إنّ المَلَك هو أمر ملكوتيّ وقوّة إلهيّة عارية عن لباس المادّة ، وهو الذي يسوق السحاب ، أمّا سوطه فقدرته ووسيلته للقيام بذلك الفعل .

ولذلك فإنّ ما جاء في هذا الدعاء المبارك من أنّ هناك ملائكة مأمورة بالسحاب والثلج والبَرَد والمطر هو أمر صحيح لا يتنافى مع الأسباب المادّيّة من بُخار الماء واختلاف درجات الجوّ وسائر الأُمور الطبيعيّة التي تُذكر باعتبارها دخيلة في حصول هذا النوع من الحوادث .

ولقد أثبتنا في أبحاثنا في كتاب «معرفة المعاد» ، وفي الجزء الثاني من هذا الكتاب «نور ملكوت القرآن» أنّ الأُمور الملكوتيّة هي العلل العُليا ،

⇦ الأُستاذ ومطالعة الكتاب والتمرّن على الحرفة والفنّ ، هي الأسباب المعدّة . أمّا العلم بالنتيجة فيحصل بواسطة إلهام الملائكة . **وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌ** (الآية ٢٠ ، من السورة ٨٥: البروج).

١ـ «الصحيفة الكاملة السجّاديّة» ، الدعاء الثالث : في الصلاة على حَمَلة العرش وكلّ مَلَك مقرّب.

وأنّ الأُمور المُلكيّة هي العلل السفلى، وأنّ هناك، ضمن العلل والأسباب، عللاً طوليّة يعلو بعضها بعضاً، من المادّة والصورة والعقل، وصولاً إلى الأسماء والصفات الكلّيّة، وفي ذروتها وقمّتها الذات القدسيّة للحقّ تعالى، الذي هو علّة العلل.

وفي حقيقة الأمر، فإنّ العلّة الحقيقيّة الفاعلة هي الله تعالى؛ أمّا الباقي فهي أسباب ومعدّات تهيّئ ـ بإرادة الله تعالى ـ الإمكانات والأُمور اللازمة لحصول شيءٍ ما في العالم الخارجيّ.

وينبغي العلم بأنّ كثيراً من الناس لم يخطوا في مسيرة الأُمور المتعقَّلة والحكمة المتعالية، وأنّ هؤلاء، بأذهانهم الساذجة التي لم تتجاوز إطار الحسّ والمادّة، لا يفرّقون بين العلّة الموجدة الفاعلة وبين المعدّات، فصاروا يعدّون أمثال المطر والثلج وأشعّة الشمس ونور القمر وحرارة الأرض والفصول الأربعة وغيرها مؤثّرات حقيقيّة في نشوء الأشياء، وهو تصوّر خاطئ قاصر، لأنّ جميع تلك الأُمور هي علل مُعِدّة وليست عللاً موجدة. فالعلّة هي التي يبقى المعلول ببقائها ويفنى بفنائها وذهابها؛ كالمصباح الذي هو علّة الإنارة، فإن نحنُ جئنا بالمصباح، فقد جئنا بالنور؛ وإن نحنُ ذهبنا بالمصباح، فقد ذهبنا بالنور.

أمّا السحاب والمطر والشمس وغيرها، فليس أيّاً منها علّة لنموّ النبات، لأنّ السحاب إذا تفرّق، والمطر إذا انقطع، والشمس إذا غربت، بقي النبات موجوداً. ولذلك فليس أيّاً من هذه الأُمور علّة، بل هي أُمور تعدّ البذر وتهيّئه ليجعله الله تعالى بإرادته الفاعلة في هيئة النبات وخاصّيّته.

وجميع الأجسام التي نشاهدها هي إشعاع من موجودات مجرّدة لا نراها، وبقاء الأجسام ببقاء إشعاعها. كما أنّ السحاب والبرق والمطر

والثلج هي آيات وعلامات من ذلك العالم اللامرئيّ ، أشبه بالفجر الذي يسطع في المشرق ، فيبشّر بالشمس اللامرئيّة وراء الأُفق ، ويحكي عن نورها وضيائها وحرارتها .

جهان جمله فروغ نور حقّ دان حق اندر وى زپيدائى پنهان[1]

يقول آية الله الشعرانيّ بعد شرح موجز في هذا المجال : «وأعجبُ من أحد العلماء الأجلّاء ، وهو **السيّد مرتضى الداعي الرازيّ** عليه الرحمة الذي أنكر هذا المعنى بشدّة في كتاب «تبصرة العوامّ» ، ونسبه إلى طائفة الحشويّة وقال : لقد عزا القرآن الكريم سَوْق السحاب إلى الرياح لا إلى الملائكة ، ولو كان المَلَك هو الذي يسوق السحاب ، لما احتاج إلى سوط في سَوْقها» .[2]

كان هذا حاصل الكلام في أمر الكتاب والسنّة في المسائل الاعتقاديّة ؛ وأمّا في شأن المسائل العمليّة ، كحكم الزنا ، فقد ورد في القرآن الكريم :

ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ.[3]

أمّا حكم الرجْم في بعض مسائل الزنا ، كزنا المحصنة ، والزنا بالمحارم ، والإكراه على الزنا ، وغير ذلك ، فقد ورد الأمر بالرجم في

١ـ للشيخ محمّد الشبستريّ في «گلشن راز» .

يقول : «اعلم أنّ العالم بأجمعه هو ضياء نور الحقّ ، وأنّ الحقّ مُختفٍ فيه من فَرْط ظهوره» .

٢ـ «شرح الصحيفة السجّاديّة» ترجمة آية الله الشعرانيّ ، ص ١٢٤ و ١٢٥ (بالفارسيّة) .

٣ـ الآية ٢ ، من السورة ٢٤ : النور .

خصوص هذه الموارد في السُّنّة القطعيّة لرسول الله صلّى الله عليه وآله .

ولذلك ، فإنّ مجموع مسائل الزنا وأحكامه يجب أن يؤخذ من مجموع الكتاب والسنّة .

ومثل حرمة اللحوم وحلّيّتها ، فقد ورد في القرآن الكريم تحريم لحم الخنزير ، وورد في السنّة تحريم ونجاسة لحم الكلب ، وتحريم لحم الأرنب والثعلب وسائر الوحوش .

ومثل أصل الصلاة ، وخصوصيّاتها من الركعات ، حيث ورد الأوّل في القرآن الكريم ، بينما ورد الثاني في السنّة .

ونظير هذا الارتباط القويم بين الكتاب والسنّة قائم وموجود في جميع المسائل الاعتقاديّة الأُصوليّة والعلميّة الفروعيّة .

ولقد كان أمير المؤمنين عليه أفضل صلوات المصلّين يؤكّد كثيراً على التمسّك بالقرآن الكريم وبسُنّة النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم ، وقد وردت له في «نهج البلاغة» خطب كثيرة تتحدّث عن عظمة القرآن والرسول الأكرم والارتباط الوثيق بينهما ، يقول في أحدها :

فَالقُرْآنُ آمِرٌ زَاجِرٌ ، وَصَامِتٌ نَاطِقٌ . حُجَّة اللهِ عَلَى خَلْقِهِ ، أَخَذَ عَلَيْهِ مِيثَاقَهُمْ ، وَارْتَهَنَ عَلَيْهِ أَنفُسَهُمْ . أَتَمَّ نُورَهُ ، وَأَكْرَمَ بِهِ دِينَهُ ، وَقَبَضَ نَبِيَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ [وآلِهِ] وَسَلَّمَ وَقَدْ فَرَغَ إلَى الخَلْقِ مِنْ أَحْكَامِ الهُدَى بِهِ . فَعَظِّمُوا مِنْهُ سُبْحَانَهُ مَا عَظَّمَ مِنْ نَفْسِهِ ، فَإنَّهُ لَمْ يُخْفِ عَنْكُمْ شَيْئاً مِنْ دِينِهِ ، وَلَمْ يَتْرُكْ شَيْئاً رَضِيَهُ أَوْ كَرِهَهُ إلَّا وَجَعَلَ لَهُ عَلَماً بَادِياً وَآيَةً مُحْكَمَةً ، تَزْجُرُ عَنْهُ أَوْ تَدْعُو إلَيْهِ . فَرِضَاهُ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ ، وَسَخَطُهُ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ. [١]

١ـ «نهج البلاغة» الخطبة ١٨١ ، وفي طبعة مصر ، تعليق الشيخ محمّد عبده ج ١ ، ص ٣٤٦ ؛ وفي «شرح نهج البلاغة» لابن أبي الحديد ، طبعة دار إحياء الكتب العربيّة ، ⇦

يقول ابن أبي الحديد في شرح هذه الفقرات : **أَخَذَ سُبْحَانَهُ عَلَى الخَلاَئِقِ مِيثَاقَهُ وَارْتَهَنَ عَلَيْهِ أَنفُسَهُمْ** ؛ لمّا كان سبحانه قد قرّر في عقول المكلّفين أدلّة التوحيد والعدل ، ومن جملة مسائل العدل النبوّة ، ويثبت نبوّة محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم عقلاً ، كان سبحانه بذلك كالآخذ ميثاق المكلّفين بتصديق دعوته وقبول القرآن الذي جاء ، وجعل به أنفسهم رهناً على الوفاء بذلك ، فمن خالف خسر وهلك هلاك الأبد .

هذا تفسير المحقّقين ؛ ومن الناس من يقول : المراد بذلك قصّة الذرّيّة قبل خلق آدم عليه السلام كما ورد في الأخبار ، وكما فسّر قومٌ عليه الآية ...» .

وأمّا قوله : **لَمْ يَتْرُكْ شَيْئاً رَضِيَهُ أَوْ كَرِهَهُ إلَّا وجَعَلَ لَهُ عَلَماً بَادِياً وَآيَةً مُحْكَمَةً** فقد قال : أي أمّا منصوص عليه صريحاً ، أو يمكن أن يُستنبَط حُكمه من القرآن إمّا بذكره أو بتركه فيبقى على البراءة الأصليّة وحكم العقل .

قوله : **فَرِضَاهُ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ ، وَسَخَطُهُ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ** ؛ معناه : أنّ ما لم ينصّ عليه صريحاً هو في محلّ النظر ، ليس يجوز للعلماء أن يجتهدوا فيه فيحلّه بعضُهم ويحرّمه بعضُهم ، بل رضا الله سبحانه أمرٌ واحد وكذلك سخطه ، فليس يجوز أن يكون شيء من الأشياء يفتي فيه قومٌ بالحلّ وقومٌ بالحرمة . وهذا قول منه عليه السلام بتحريم الاجتهاد ، وقد سبق منه عليه السلام مثل هذا الكلام مراراً» .[1]

⇦ ج ١٠، ص ١١٥.

١ـ «شرح نهج البلاغة» لابن أبي الحديد ، ج ١٠ ، ص ١١٧ و١١٨ ، طبعة دار إحياء الكتب العربيّة.

وقد كتب أمير المؤمنين عليه السلام في **حاضرين** [1] عند عودته من حرب صفّين وصيّةً مفصّلة ذات مضامين جليلة، بحيث يمكن القول عنها حقّاً بأنّها تالي تِلو القرآن في رقيّ عباراتها وعلوّ معانيها ورشاقة مضامينها وعظمة أدبها، يقول فيها:

أيْ بُنَيَّ! إنِّي وَإنْ لَمْ أَكُنْ عُمِّرْتُ عُمْرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي، فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَفَكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ، وَسِرْتُ فِي آثَارِهِمْ حَتَّى عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ. بَلْ كَأَنِّي بِمَا انْتَهَى إلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ قَدْ عُمِّرْتُ مَعَ أَوَّلِهِمْ إلَى آخِرِهِمْ.

فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذَلِكَ مِنْ كَدَرِهِ، وَنَفْعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ، فَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ نَخِيلَهُ، وَتَوَخَّيْتُ لَكَ جَمِيلَهُ، وَصَرَفْتُ عَنْكَ مَجْهُولَهُ، وَرَأَيْتُ حَيْثُ عَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِي الوَالِدَ الشَّفِيقَ. وَأَجْمَعْتُ عَلَيْهِ مِنْ أَدَبِكَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ، وَأَنْتَ مُقْبِلُ العُمْرِ وَمُقْبِلُ الدَّهْرِ، ذُو نِيَّةٍ سَلِيمَةٍ وَنَفْسٍ صَافِيَةٍ. وَأَنْ أَبْتَدِئَكَ بِتَعْلِيمِ كِتَابِ اللَهِ وَتَأْوِيلِهِ، [2] **وَشَرَائِعِ الإسْلَامِ وَأَحْكَامِهِ،**

١ـ حاضرين، بلدة من نواحي صفّين.

٢ـ روى المجلسيّ في «بحار الأنوار» ج ٩٢، ص ١٠٦ و١٠٧، الطبعة الحروفيّة، باب فضل التدبّر في القرآن، عن «مُنية المريد» عن عبد الرحمن السلميّ، قال: **حَدَّثَنا مَنْ كَانَ يُقْرِئُنَا مِنَ الصَّحَابَةِ: أَنَّهُمْ كَانُوا يَأْخُذُونَ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَشَرَ آيَاتٍ، فَلَا يَأْخُذُونَ فِي العَشَرِ الأُخَرِ حَتَّى يَعْلَمُوا مَا فِي هَذِهِ مِنَ العِلْمِ وَالعَمَلِ.**

وعن ابن عبّاس قال: الذي يقرأ القرآن ولا يُحسن تفسيره، كالأعرابيّ الذي يُهذّ الشعر هذّاً.

وعن «أسرار الصلاة» للشهيد الثاني: رُوي أنّ رجلاً جاء إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ليعلّمه القرآن، فانتهى إلى قوله تعالى: **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ**، فقال: يكفيني هذا، وانصرف. فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: **انْصَرَفَ الرَّجُلُ وَهُوَ فَقِيهٌ.**

وَحَلاَلِهِ وَحَرَامِهِ ، لاَ أُجَاوِزُ ذَلِكَ بِكَ إلَى غَيْرِهِ.

ثُمَّ أَشْفَقْتُ أَنْ يَلْتَبِسَ عَلَيْكَ مَا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ مِنْ أَهْوَائِهِمْ وَآرَائِهِمْ مِثْلَ الَّذِى الْتَبَسَ عَلَيْهِمْ ، فَكَانَ إحْكَامَ ذَلِكَ عَلَى مَا كَرِهْتُ مِنْ تَنْبِيهِكَ لَهُ أَحَبَّ إلَيَّ مِنْ إسْلاَمِكَ إلَى أَمْرٍ لاَ آمَنُ عَلَيْكَ بِهِ الهَلَكَةَ ، وَرَجَوْتُ أَنْ يُوَفِّقَكَ اللَهُ فِيهِ لِرُشْدِكَ ، وَأَنْ يَهْدِيَكَ لِقَصْدِكَ ، فَعَهِدْتُ إلَيْكَ وَصِيَّتِي هَذِهِ ![1]

ثمّ يشرع أمير المؤمنين عليه السلام بتفصيل مطالب وصيّته ، فيذكر بيانات في كيفيّة الآداب والأعمال وانهدام الآمال الدنيويّة وكرم النفس وغير ذلك ، مستنداً في ذلك كلّه إلى القرآن الكريم والسُّنّة .

ويقول سيّد الساجدين ، زين العابدين عليه السلام في صحيفته ضمن الدعاء بعد ختم القرآن ، متضرّعاً إلى ساحة الربّ ذي الجلال :

اللَهُمَّ إنَّكَ أَنْزَلْتَهُ عَلَى نَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مُجْمَلاً ، وَأَلْهَمْتَهُ عِلْمَ عَجَائِبِهِ مُكَمَّلاً ، وَوَرَّثْتَنَا عِلْمَهُ مُفَسَّراً ، وَفَضَّلْتَنَا عَلَى مَن جَهِلَ عِلْمَهُ ، وَقَوَّيْتَنَا عَلَيْهِ لِتَرْفَعَنَا فَوْقَ مَنْ لَمْ يُطِقْ حَمْلَهُ.

اللَهُمَّ فَكَمَا جَعَلْتَ قُلُوبَنَا لَهُ حَمَلَةً ، وَعَرَّفْتَنَا بِرَحْمَتِكَ شَرَفَهُ وَفَضْلَهُ ، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ الخَطِيبِ بِهِ ، وَعَلَى آلِهِ الخُزَّانِ لَهُ ؛ واجْعَلْنَا مِمَّنْ يَعْتَرِفُ بِأَنَّهُ مِنْ عِنْدِكَ حَتَّى لاَ يُعَارِضَنَا الشَّكُ فِي تَصْدِيقِهِ ، وَلاَ يَخْتَلِجَنَا الزَّيْغُ عَنْ قَصْدِ طَرِيقِهِ.

اللَهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ ، وَاجْعَلْنَا مِمَّنْ يَعْتَصِمُ بِحَبْلِهِ ، وَيَأْوِي مِنَ المُتَشَابِهَاتِ إلَى حِرْزِ مَعْقَلِهِ ، وَيَسْكُنُ فِي ظِلِّ جَنَاحِهِ ، وَيَهْتَدِي بِضَوْءِ

١ـ «نهج البلاغة» ج ٢ ، باب الرسائل ، الرسالة ٣١ ؛ وفي طبعة مصر ، تعليق الشيخ محمّد عبده ، ج ٢ ، ص ٤١ و٤٢.

مِصْبَاحِهِ، وَيَقْتَدِي بِتَبَلُّجِ إسْفَارِهِ، وَيَسْتَصْبِحُ بِمِصْبَاحِهِ، وَلَا يَلْتَمِسُ الهُدَى فِي غَيْرِهِ.

حتّى يصل إلى قوله: **اللَهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَاحْطُطْ بِالقُرآنِ عَنَّا ثِقْلَ الأَوْزَارِ، وَهَبْ لَنَا حُسْنَ شَمَائِلِ الأَبْرَارِ، وَاقْفُ بِنَا آثَارَ الَّذِينَ قَامُوا لَكَ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَأطْرَافَ النَّهَارِ؛ حَتَّى تُطَهِّرَنَا مِنْ كُلِّ دَنَسٍ بِتَطْهِيرِهِ، وَتَقْفُو بِنَا آثَارَ الَّذِينَ اسْتَضَاءُوا بِنُورِهِ، وَلَمْ يُلْهِهِمُ الأَمَلُ عَنِ العَمَلِ فَيَقْطَعَهُمْ بِخُدَعِ غُرُورِهِ.**

اللَهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَاجْعَلِ القُرْآنَ لَنَا فِي ظُلَمِ اللَّيَالِي مُؤْنِساً، وَمِنْ نَزَعَاتِ الشَّيْطَانِ وَخَطَرَاتِ الوَسَاوِسِ حَارِساً، وَلِأَقْدَامِنَا عَنْ نَقْلِهَا إلَى المَعَاصِي حَابِساً، وَلِألْسِنَتِنَا عَنِ الخَوْضِ فِي البَاطِلِ مِنْ غَيْرِ مَا آفَةٍ مُخْرِساً، وَلِجَوَارِحِنَا عَنِ اقْتِرَافِ الآثَامِ زَاجِراً، وَلِمَا طَوَتِ الغَفْلَةُ عَنَّا مِنْ تَصَفُّحِ الاعْتِبَارِ نَاشِراً؛ حَتَّى تُوصِلَ إلَى قُلُوبِنَا فَهْمَ عَجَائِبِهِ، وَزَوَاجِرَ أمْثَالِهِ الَّتِي ضَعُفَتِ الجِبَالُ الرَّوَاسِي عَلَى صَلَابَتِهَا عَنِ احْتِمَالِهِ.[1]

وقد كان الخواجة شمس الدين محمّد حافظ الشيرازيّ قدّس الله تربته الزكيّة حافظاً للقرآن الكريم، وقد اشتهر باسم **حافظ** مع أنّه أُستاذ كامل، ومتكلّم بصير، وفقيه قدير، وعارف منقطع النظير، لأنّه كان حافظاً للقرآن الكريم. وقد قال بنفسه:

عشقت رسد به فرياد ار خود بسان حافظ
قرآن ز بر بخواني در چارده روايت[2]

١ـ «الصحيفة السجّاديّة» الدعاء الثاني والأربعون، فقرات مقتطفة من الدعاء؛ وقد أوردنا فقرات أُخرى من هذا الدعاء الشريف في الجزء الثاني من هذا الكتاب «نور ملكوت القرآن» البحث السادس.

٢ـ يقول: «حتّى لو تلوتَ القرآن بأربع عشرة رواية (وهي الروايات للقرّاء ⇦

وقال :

حافظ می خور و رندی کن و خوش باش ولی
دام تـزویر مکـن چـون دگـران **قـرآن را**[1]

وقال :

ای چـنگ فـرو بـرده بـخون دل حـافظ
فکرت مگر از غیرت **قرآن** و خدا نیست[2]

وقال:

حافظ به حقّ **قرآن** کـز شـید و زرق بـاز آی
باشد که گوی عیشی در این جهان توان زد[3]

وقال أيضاً :

زاهد ار رندی حافظ نکند فهم چه شد
دیو بگریزد از آن قوم که **قرآن** خوانند[4]

وقال :

حافظا در کنج فقر و خـلوت شـبهای تـار
تا بود وردت دعا و درس **قرآن** غم مخور[5]

⇦ المعروفين) كما يفعل حافظ ، فإنّ على العشق أن يُغيثك (لبلوغ الكمال)».

١ـ يقول : «اشرب الخمرة يا حافظ وتدروش واسعد ، لكن لا تجعل القرآن ـكما يفعل الآخرون ـ أحبولة تزوير وخداع».

٢ـ يقول : «يا من أنشبتَ مخالبك في قلب حافظ ، فتلطّختْ بدمه ، ألا تخشى غضب الله وغيرة القرآن (بقتلك حافظ القرآن)؟».

٣ـ يقول : «يا حافظ ! بحقّ القرآن عليك ، اترك المكر والرياء ، فعلّك تكسب عصا السبق في هذا العالم!».

٤ـ يقول : «ماذا يضير إذا لم يفهم الزاهد (المُرائيّ) دروشة حافظ ، فالشيطان يهرب من قارئي القرآن!».

٥ـ يقول : «لا تغتمّ يا حافظ في عُزلة الفقر وخلوة الليل البهيم مادام وِردك الدعاء ⇦

وقال :

گـفتمش زلف بـه خـون كـه شكستى گـفتا
حافظ اين قصّه دراز است به **قرآن** كه مپرس[١]

وقال :

هيچ حافظ نكند در خم محراب فلك
اين تنعّم كه من از دولت **قرآن** كردم[٢]

وقد أورد حافظ في ديوانه اسم القرآن في تسعة مواضع ، ذكرنا منها ثمانية مواضع ، ونرى أنّ من اللائق ، بمناسبة اختتام هذا البحث ، أن نذكر الغزل المبارك التاسع بتمامه :

بـيا بـا مـا مـورز ايـن كـينه دارى
كـه حـقّ صـحبت ديـرينه دارى
نصيحت گوش كـن كـاين دُر بسـى بـه
از آن گـوهر كـه در گـنجينه دارى
بـه فـرياد خُـمار مـفلسان رس
خـدا را گـر مـيِ دوشـينه دارى[٣]

⇦ ودرسك القرآن!».

١ـ يقول : «سألتُه : مِن أجل إراقةِ دم مَن عقفتَ ذؤابتك ؟ قال : القصّة طويلة ، فلا تَسلْ يا حافظ بحقّ القرآن!».

٢ـ يقول : «إنّ أيّ حافظ للقرآن تحت استدارة محراب الفَلَك ، لم يتنعّم مثلي ببركة القرآن وسُلطانه».

٣ـ يقول : «هلمّ معنا ولا تُعادِنا كلّ هذا العِداء ، لأنّ لنا حقّ الصُّحبة القديمة معك.
واستمع النُّصح ، فهذه الدرّة التي معنا أغلى بكثير من الجوهرة التي في خزانتك.
وباللهِ عليك أنجِد الثمالى المفلسينَ إن كان لديْكَ ثمّة بقيّة من خمر البارحة».

ولیکـــن کــی نــمائی رخ بـــه رنـــدان
تــو کــز خــورشید و مــه آئینه داری
بــدِ رنــدان مگــو ای شـیخ و هشـدار
کــــه بــا مــهر خــدائــی کـینه داری
نـــــــمی‌ترسی ز آه آتشـــــــینم
تـــو دانـــی خـــرقهٔ پشـمینه داری
نــدیدم خــوشتر از شــعر تــو حــافظ
بــه **قــرآنــی** کــه انــدر سینه داری[1]

١ـ يقول : «ولكن أنّى أن تُسفر للدراويش عن مُحيّاك ، إذ الشمس والقمر مرآتك (التي تعكس جمالك).

فحذارِ لا تطعن في الدراويش أيـّها الشيخ ، لأنّك بذلك ستُعادي حُكم الله وتقديره.

(و يا عجباً) ألا تخشى من آهي المحرقة وأنت تعلم أنّ خرقتك من الصوف (الذي يشتعل بسرعة)؟

لم أرَ أروع من شعرك يا حافظ ولا أبدع ، إلّا القرآن الذي تحفظه في صدرك!».

والأشعار التي أوردناها لحافظ هي على الترتيب الأشعار الغزليّة رقم ٩٩، ٦٠، ٦٩، ١٥٩، ٢٠٠، ٢٦٤، ٢٨٠، ٣٣٢ و ٤٦٢ من «ديوان حافظ» طبعة مؤسّسة انتشارات أمير كبير، طهران، ١٣٦٣ هـ.ش، حيث تتطابق في هذا الديوان أرقام الصفحات مع أرقام الأشعار الغزليّة.

وقد ذُكر في ترجمة حافظ أنّه كان يحضر كلّ صباح درس الحكيم والمتكلّم في ذلك العصر؛ مير سيّد شريف الجُرجانيّ ، فكان الأُستاذ يسأله : ما الذي جئتنا به هديّة من حالاتك البارحة؟ يقصد بذلك الشعر الغزليّ الذي أنشده حافظ . وكان حافظ يدرّس تفسير «الكشّاف» عادةً ، وكان مفسِّراً رفيع القدر ، وكانت لغة شعره لغةً رمزيّة ، وكان لذلك يفهم دقائق القرآن ولطائفه ويدركها جيّداً ، وكان يملأ لغته الرمزيّة بمنعطفات الكنايات والاستعارات حتّى كأنّه كان يستمدّ الإلهام من الغَيب . وقد سُمّي ديوانه لهذا السبب بـ «لسان الغيب».

انظروا إلى الآية المباركة في سورة المزمّل : **إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ** ⇦

....

....

....

⇦ **قِيلًا * إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا** التي تبيّن بأنّ الليل هو وقت الخلوة والعبادة ، وأنّ النهار وقت العمل والسعي والجدّ في أُمور المعيشة ، كيف أنّ حافظ يضمّن هذه المعاني ببيان بديع وجميل في هذين البيتين:

روز در كسب هنر كوش كه مى خوردن روز
دلِ چون آينه در زنگ ظلام اندازد
آن زمان وقتِ مِى صبح فروغ است كه شب
گِرد خرگاه افق پردهٔ شام اندازد

يقول : «اسعَ في النهار لكسب الحرفة والفنّ ، إذ إنّ شرب الخمرة نهاراً يُظلم القلب كما يُظلم الصدأ المرآة.

أمّا وقت الخمرة المشعّة كبلج الصُّبح ، فحين يلقي الليل بستار ظُلمته حول خيمة الأُفق».

البحث الثاني عشر

شمول القرآن الكريم وكونه غير قابل للتبديل

وتفسير آية

﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ
أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ
وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾

أعُوذُ باللهِ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجِيمِ

بِسْــمِ اللهِ الـرَّحْمَنِ الـرَّحِيم

وصلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ وآلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ

ولَعْنَةُ اللهِ عَلَى أعْدائِهِمْ أجْمَعِينَ مِنَ الآنَ إلى قِيامِ يَوْمِ الدِّينِ

ولَا حَولَ ولَا قُوَّةَ إلَّا باللهِ العَلِيِّ العَظِيمِ

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :

قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَـٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ.[1]

ذكرنا في المباحث السابقة أنّ القرآن قد أُوحي إلى النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم بخصوصيّة عباراته وألفاظه وهيئة كلماته وإعرابه ، وأنّ معانيه لم تُوحَ إلى النبيّ فقام بصبّها في قالب الألفاظ والعبارات . وهذا الأمر من مختصّات القرآن الكريم ، وهو ممّا لا يوجد في كتاب من جميع الكتب السماويّة ، ولقد أنزل جبرائيل الأمين تلك المعاني العالية الرشيقة من مقام قدس ربّ العزّة في قالب خصوص هذه العبارات الفصيحة البليغة على القلب المبارك لرسول الله .

ولهذا فإنّ ترجمة القرآن لا تُدعى قرآناً ؛ ومطالعته دون تلفّظ عباراته لا تُسمّى تلاوةً ، ولو استلزمت الأجر والثواب .

ولقد أخطأ من تصوّر أنّ معاني القرآن لوحدها قد أُنزلت على النبيّ

١ـ الآية ١٩ ، من السورة ٦ : الأنعام .

الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم ، فهذا مخالف لعقيدة المسلمين . والمسلمون منذ زمن رسول الله وإلى يومنا هذا يعتقدون بأنّ عين ألفاظ القرآن هي كلام الله تعالى الذي أُنزل على النبيّ ؛ وهذا هو **القرآن الكريم**.

أمّا **السُّنّة** فعبارة عن المعاني التي كانت تُلقى على قلب النبيّ ، فكان يصبّها في قالب العبارات ، لأنّ جميع كلام النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم من الربّ الجليل . أمّا إذا صرّح النبيّ بأنّ الله تعالى قال كذا ، فإنّه يدعى **بالحديث القُدسيّ**.

ولا تمثّل مطالعة القرآن قراءةً للقرآن ؛ ففي الصلاة ـ مثلاً ـ ينبغي أن تجري هذه الألفاظ بخصوصها على لسان المصلّي ، وإلّا لم يُعدّ قد قرأ قرآناً ، ولكان في النتيجة لم يُقِم الصلاة . وإذا ما عجز امرؤ عن التلفّظ بهذه العبارات بصيغتها الخاصّة ، ولو كان ذلك مسبّباً عن نقصٍ في لسانه أو وجود لكنةٍ لديه ، فإنّه لن يكون قد قرأ القرآن ، وسيكون الاقتداء به في صلاة الجماعة باطلاً . والحكمة الجليلة في هذا الحُكم هي حِفظ خصوص ألفاظ القرآن وعباراته ، لئلّا يسري فيها نقص أو خلل أو زيادة خلال الدهور والأعوام المتمادية .

أمّا طريق ثبوت القرآن لنا فهو طريق التواتر . أي أنّ الأفراد الذين نقلوا لنا القرآن بألفاظه وعباراته وحركاته هم من الكثرة بحيث لا يتصوَّر احتمال تواطؤهم على الكذب في ذلك . ومثل ذلك كمثل وجود مدينتَي مكّة والمدينة ، والوجود المقدّس للرسول الأكرم وأمير المؤمنين عليهما السلام الذي ثبت لدينا بالتواتر .

وعلماء العامّة وأساطين الشيعة متّفقون على أنّ طريق ثبوت القرآن منحصر في التواتر . أمّا ما ورد في آحاد الأخبار ، فإنّه ليس قرآناً ، مهما كان في أعلى درجة من درجات الصحّة . ولهذا السبب فإنّ جميع الروايات

التي وردت في زيادة أو نقص آية أو عبارة من القرآن الكريم، مرفوضة بأجمعها وساقطة الاعتبار.

وقد أورد هذا المطلب **العلّامة الحلّيّ** رضوان الله عليه ـ وهو من أعاظم الفقهاء ـ في كتابه «التذكرة»، باب القراءة، وفي كتاب «نهاية الأحكام» وسائر كتبه الأُخرى.

كما أنّه ـ مضافاً إلى ذلك ـ أورد دليلاً على أنّ القرآن هو معجزة النبوّة، وأنّ اليقين لازم في الأُمور الاعتقاديّة، لذا يجب أن يثبت باليقين أمر صحّة القرآن وهو ما ينحصر بالتواتر. وإذا ما كان القرآن يقينيّاً، فإنّ اليقين سيحصل بالنبوّة بناءً على ذلك. أمّا إذا كان القرآن ظنّيّاً، فإنّ معجزة النبوّة ستكون ظنّيّةً، وسيكون أصل النبوّة أمراً ظنّيّاً.

يقول سماحة أُستاذنا الأكرم آية الله العظمى الحاجّ السيّد أبو القاسم الخوئيّ دامت بركاته [1] في مقدّمة كتابه في التفسير «البيان»:

أَطْبَقَ المُسْلِمُونَ بِجَمِيعِ نِحَلِهِمْ وَمَذَاهِبِهِمْ عَلَى أَنَّ ثُبُوتَ القُرْآنِ يَنْحَصِرُ طَرِيقُهُ بِالتَّوَاتُرِ. وَاسْتَدَلَّ كَثِيرٌ مِنْ عُلَمَاءِ السُّنَّةِ وَالشِّيعَةِ عَلَى ذَلِكَ بِأَنَّ القُرْآنَ تَتَوَفَّرُ الدَّوَاعِي لِنَقْلِهِ، لِأَنَّهُ الأَسَاسُ لِلدِّينِ الإسْلَامِيّ، وَالمُعْجِزُ الإلَهِيُّ لِدَعْوَةِ نَبِيِّ المُسْلِمِينَ. وَكُلُّ شَيْءٍ تَتَوَفَّرُ الدَّوَاعِي لِنَقْلِهِ لَابُدَّ وَأَنْ يَكُونَ مُتَوَاتِراً.

وعَلَى ذَلِك فَمَا كَانَ نَقْلُهُ بِطَرِيقِ الآحَادِ لَا يَكُونُ مِنَ القُرْآنِ قَطْعاً. [2]

١ـ الكتاب مؤلّف زمن حياته قُدّس سرّه. وقد حافظنا على تعبير المصنّف قدّس سرّه. (م)

٢ـ «البيان في تفسير القرآن» ص ٩٢: نظرةٌ في القراءآت، الطبعة الأُولى، النجف الأشرف.

ويتّضح من كلامه أنّ كلّ من يقرأ القرآن ، من زمن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم إلى يومنا هذا ، يلزمه أن يكون قد سمع نفس الكلمات والحروف التي يتعلّمها من النبيّ الأكرم نفسه ، أو أن يسعى ـ إذا سمعه بواسطةٍ منه ـ أن يتيقّن بصدورها منه ؛ وأنّ من يقرأ بقراءة شاذّة ، في أيّ زمن كان ، سيتعرّض للانتقاد والطعن .

وقد كان هناك جماعة في عصر الرسول الأكرم يأخذون القرآن عن النبيّ فيعلّمونه للناس ؛ ومن أشهرهم **أُبيّ بن كعب** [1] **وعبد الله بن مسعود**،

١ـ يقول السيوطيّ في «الإتقان» ج ١ ، ص ٩٠ ، الطبعة الأُولى:

«وأخرج ابن أبي داود بسند حسن عن محمّد بن كعب القرظيّ قال : جَمع القرآن على عهد رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم خمسةٌ من الأنصار : مَعاذ بن جَبَل ، وعبادة بن الصامت، وأُبيّ بن كعب ، وأبو الدرداء ، وأبو أيّوب الأنصاريّ».

وقال آية الله السيّد حسن الصدر في كتاب «تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام» ص ٣٢٣ و ٣٢٤ ضمن بيان مفسّري الشيعة من الطبقة الأُولى:

«ومنهم أُبيّ بن كعب سيّد القرّاء الصحابيّ ، عدّه أبو الخير في الطبقة الأُولى من المفسّرين، وكذلك الجلال السيوطيّ وغيره عدّوه في المفسّرين من الصحابة . وهو من الشيعة كما في «الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة» للسيّد علي بن صدر الدين المدنيّ طاب ثراه، وأكثر من الدلالات والشواهد على تشيّعه . قال : وهو أحد الأثني عشر الذين أنكروا على أبي بكر تقدّمه على عليّ بن أبي طالب ؛ وذكر القصّة . وذكره ابن شحنة في تأريخه فيمن تخلّف عن البيعة مع عليّ عليه السلام . ويكفي في جلالته قول مولانا وسيّدنا أبي عبدالله جعفر بن محمّد الصادق عليهما السلام : **أَمَّا نَحْنُ فَنَقْرَأُ عَلَى قِرَاءَةِ أُبَيٍّ** ؛ رواه ثقة الإسلام أبو جعفر الكلينيّ قدّس سره وفي «الأمالي» للشيخ أبي جعفر محمّد بن عليّ بن بابويه و«الخلاصة» للعلاّمة ، ما يدلّ على جلالته وإخلاصه لأهل البيت . وعدّه السيّد في «الدرجات الرفيعة» من الطبقة الأُولى من الشيعة ، وعدّه السيّد المحقّق المحسن بن الحسن الأعرجيّ في «عدّة الرجال» عند سرده للصحابة الشيعة في المرضيّين منهم» . إلى آخر ما أفاده.

وكان لكلّ منهم مصحف خاصّ ، وكانت قراءاتهم تختلف عن بعضها . وكان رسول الله يعلم باختلاف القرّاء ، وكان يمنعهم في بعض الأحيان ، ويقرّهم في البعض الآخر ، أي يجيز تلك القراءة ويُقرّها .[1]

وكانت قراءة أُبيّ بن كعب وقراءة عبد الله بن مسعود من القراءات التي كان رسول الله يُقرّها ، ولذلك فحين أراد عثمان إلغاء جميع القراءات وإبقاء قراءة واحدة فقط يجمع الناس عليها ، فقد اعترض عليه عبد الله بن مسعود وقال : لقد كنتُ أقرأ القرآن بقراءتي في عصر رسول الله ، وكان يسمع قراءتي ويُقرّها ، فلا معنى لسعيك حصر قراءة القرآن في قراءة واحد وإلغاء باقي القراءات ، ولو كان هذا العمل صحيحاً ، لعمله رسول الله بنفسه ، ويجب أن لا تُلغى القراءات المشهورة المعروفة . أجل ، فالقراءات الشاذّة التي لم تثبت بالتواتر ينبغي ألّا توضع في النسخ التي في أيدي الناس .

وبيان ذلك أنّ عبد الله كان في أحد أسفاره ، فكتب إلى عثمان : لقد راجت القراءات الكثيرة بين الناس ، فأدرك القرآن ! فقام عثمان بتشكيل جماعة من خمسين نفر من قرّاء الصحابة : خمسة وعشرون منهم من

١ـ قال سماحة الأُستاذ : آية الله العلّامة الطباطبائيّ قدّس الله سرّه في كتاب «قرآن در اسلام» (=القرآن في الإسلام) ص ١٢١ : «الطبقة الأُولى من طبقات القرّاء هم الصحابة الذين اشتغلوا بتعلّم القرآن وتعليمه في عهد النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم ، وكان جماعة منهم قد جمعوا القرآن كلّه ، ومن بينهم امرأة تُسمّى **أُمّ ورقة** بنت عبد الله بن الحارث («الإتقان» ج ١ ، ص ٧٤).

والمراد بجمع القرآن الذي نُسب في بعض الأحاديث إلى أربعة من الأنصار ، وإلى خمسة، وإلى ستّة ، وإلى أكثر من ذلك ، هو تعلّم وحفظ جميع القرآن ، وليس تأليف سوره وآياته وترتيبها ، وإلّا لما كان هناك مدعاة لجمع المصحف في عهدَي الخليفة الأوّل والخليفة الثالث. كما ورد في بعض الروايات أنّ الرسول الأكرم كان يعيّن بنفسه موضع كلّ سورة وكلّ آية من آيات القرآن الكريم ، وهو مطلب تكذّبه باقي الروايات عموماً».

المهاجرين، وخمسة وعشرون من الأنصار، يرأسهم ويُشرف عليهم **زيد ابن ثابت**. فكان كلّ من كان معه آية من القرآن يأتي بها فيعرضها على هؤلاء القرّاء ويشهد له شاهدا عدل، فتدوّن آيته في المصحف، وكان ذلك بطبيعة الحال احتياطاً منهم لئلّا تبقى آية من القرآن الكريم عند أحد دون أن تُجمع في التدوين الأوّل.

وكان **التدوين الأوّل** للقرآن قد حصل على يد زيد بن ثابت في زمن أبي بكر بأمرٍ منه، فقد كان القرآن حتّى ذلك الحين لم يُجمع ولم يدوّن بين الدفّتين. وكان الناس يحفظون سور القرآن في صدورهم، وكان بعضهم يحفظ أكثر من سواه، وكان الأفراد الذين يحفظون سوراً كثيرة يُدعون **بالقرّاء**، وكان عددهم في زمن رسول الله يقرب من سبعين أو ثمانين قارئاً. وكانوا يعلّمون الناس القرآن الكريم.

ثمّ إنّ عدداً من هؤلاء القرّاء استشهد في وقعة **بئر معونة** في عصر رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، ثمّ استشهد سبعون منهم ـ وبرواية أُخرى أربعمائة نفر منهم ـ في عصر أبي بكر خلال محاربة المسلمين **لمُسيلمة** الكذّاب في **اليمامة**،[1] فخُشي على القرآن من الضياع بهلاك قرّائه، فجاء عمر إلى أبي بكر واصرّ على ضرورة جمع القرآن الذي في أيدي الناس وفي صدورهم وتدوينه مجموعاً، وإلّا خُشي على القرآن من الضياع باستشهاد باقي القرّاء في الحروب التي قد تحدث، فعُهد إلى **زيد بن ثابت** ـ وكان من قرّاء القرآن من الأنصار، وكان شابّاً عاقلاً ـ بجمع القرآن

١ـ يقول السيوطيّ في «الإتقان» ج ١، ص ٨٩، الطبعة الأُولى: «قال القرطبيّ: قد قُتل يوم اليمامة سبعون من القرّاء، وقُتل في عهد النبيّ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم ببئر معونة مثل هذا العدد».

وتدوينه ، فقام بذلك ، وجمع سور القرآن وآياته المتفرّقة حتّى لم تُترك آية إلّا ودُوّنت في هذا التدوين . وقد دُعي هذا التدوين بهذه الكيفيّة بالتدوين الأوّل للقرآن .[1]

أمّا **التدوين الثاني** الذي حصل في عهد عثمان ، فلم يتعرّض لأصل القرآن ، بل بكيفيّة قراءته . فقدكان قارئو القرآن الذين يتعلّمون القرآن في عصر رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ثمّ يعلّمونه للناس ،[2] يقرأون القرآن بقراءات مختلفة ، وكان رسول الله يسمع تلك القراءات الرائجة فلا يمنع عنها إلّا في بعض مواقع الضرورة ، فقدكان ينبّه على القراءات المغلوطة .

وكانت القراءات كثيرة يتجاوز عددها المائة قراءة ، ثمّ اشتدّ الاختلاف شيئاً فشيئاً ، حتّى بلغ الاختلاف في عهد عثمان بواسطة كثرة القرّاء ومرور الزمان حدّاً جعل **عبد الله بن مسعود** يكتب إلى عثمان : أدرك هذه الأُمّة ، فقدكثرت القراءات وأشرف القرآن على الضياع . وشاركه حذيفة اليمانيّ وبعض الصحابة الآخرين في التأكيد على هذا الأمر ،

١ـ يقول السيوطيّ في «الإتقان» ص ٩٠ ، الطبعة الأُولى : «أخرج ابن أشتة في «المصاحف» بسند صحيح عن محمّد بن سيرين قال : مات أبو بكر ولم يُجمع القرآن، وقُتل عمر ولم يُجمع القرآن . قال ابن أشتة : قال بعضهم : يعني (ابن سيرين) : لم يقرأ جميع القرآن حفظاً. وقال بعضهم : هو جمع المصاحف».

٢ـ يقول ابن خلدون في مقدّمته : «ثمّ إنّ الصحابة كلّهم لم يكونوا أهل فتيا، ولاكان الدين يؤخذ عن جميعهم ، وإنّما كان ذلك مختصّاً بالحاملين للقرآن العارفين بناسخه ومنسوخه ومتشابهه ومحكمه وسائر دلالاته بما تلقّوه من النبيّ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم، أو ممّن سمعه منهم من علّيتهم ، وكان يسمّون لذلك : **القرّاء** ، أي الذين يقرأون الكتاب، لأنّ العرب كانت أُمّة أُميّة ؛ فاختصّ من كان منهم قارئاً للكتاب بذلك الاسم لغرابته، وبقي الأمر كذلك صدر الملّة» . («مقدّمة ابن خلدون» ص ٤٤٦ ، طبعة بيروت).

فاستجاب عثمان لطلب ابن مسعود ، فأمر بجلب جميع المصاحف إلى المدينة ، سواء في ذلك مصاحف المدينة ، ومصاحف مكّة ، ومصاحف سائر البلاد الأُخرى ، فجُمعت المصاحف ، وكانت في ذلك العصر مدوّنة على ألواح الخشب والأكتاف وعُسب النخل وقطع أديم الغزال والرقاع ، فكدّست على بعضها فكانت تلاًّ كبيراً ، فأحرقها بأجمعها .

هذا ما جاء في روايات الشيعة ، أمّا ما جاء في روايات العامّة فهو أنّ عثمان أمر بإلقاء هذه المصاحف في قدر ماء مغليّ فسُلقتْ حتّى زالت عنها آيات القرآن . ثمّ إنّ عثمان أمر زيد بن ثابت بتدوين المصحف على قراءة واحدة ، فدُعي هذا التدوين بالتدوين الثاني .

ثمّ إنّ عثمان أعدّ خمس نُسخ من هذا المصحف ، فأبقى أحدهما في المدينة بعنوان **إمام** ، وأرسل مصحفاً إلى **مكّة** ، ومصحفاً إلى **الشام**، ومصحفاً إلى **البصرة** ، ومصحفاً إلى **الكوفة** . ودُعيت تلك المصاحف **بالمصحف الإمام** ، لأنّها صارت مرجعاً يرجع إليه جميع أهالي تلك الديار .كما جاء في بعض الروايات أنّ عثمان أرسل أيضاً مصحفاً إلى **اليمن** ، ومصحفاً إلى **البحرين**.[1]

وفي خضمّ انشغال عثمان بجمع المصاحف ، عاد **عبد الله بن مسعود** من سفره ، فرأى عثمان وهو يريد إحراق المصاحف ، فانتقده في عدّة مجالس ، وعيّره بذلك وقال : لقد كتبتُ إليه أنّ القراءات قد زادت بحيث إنّ أصل القرآن صار في معرض الزوال ، ولم أقل له أن يُلغي جميع القراءات ، لأنّ كثيراً من تلك القراءات كان موجوداً في عهد رسول الله ،

١ـ «قرآن در اسلام» (= القرآن في الإسلام) للعلّامة الطباطبائيّ ، ص ١٢٧ ، طبعة دار الكتب الإسلاميّة ، ١٣٩١ هجريّة قمريّة.

وكان رسول الله يقرّها ، ومن جملتها هذا المصحف الذي معي ، فقد قرأته على النبيّ ، وقرأه النبيّ عَلَيّ هكذا . وليس هناك معنى لإتلاف جميع المصاحف ، مضافاً إلى أنّ إحراق القرآن بهذه الكيفيّة هو هتك للكتاب الإلهيّ وعمل قبيح ينبغي اجتنابه . لقد كنتُ أوّل مَنِ اقترح هذا الأمر وسبق إليه ، فقد أردتُ تجليل كلام الله ، فإن شئت (يا عثمان) أن تسبّب هتك حرمة القرآن بهذه الكيفيّة ، فإنّي أخالفك بذلك .

فلم يستمع عثمان إليه ، وطلب من ابن مسعود تسليمه قرآنه ليحرقه مع سائر المصاحف ، فامتنع ابن مسعود أشدّ الامتناع . ثمّ إنّ عثمان كان يخطب يوماً على المنبر ، فقام إليه ابن مسعود ووبّخه على مسمع من الناس ، واعترض على فعله ، فغضب عثمان وأمر غلمانه فسحبوه على وجهه من المسجد وألقوه خارجه ، لكنّه لم يسلّم المصحف الذي لديه ، وقد كُسر له إثر ذلك أحد أضلاعه ، وسقط مريضاً في الفراش حتّى فارق الحياة .[1]

ولمّا مرض ابن مسعود ، عاده عثمان وأراد أن يدفع إليه عطاءه من بيت المال ، فلم يقبل وقال : منعتَنيه وأنا أحوج إليه ، وتُعطينيه وأنا مُستغنٍ عنه ، مُشرف على موتي ![2]

١ـ نقل في «الميزان» ج ١٢ ، ص ١٢٥ ، الفصل الخامس ، عن «تاريخ اليعقوبيّ»: «وكان ابن مسعود بالكوفة ، فامتنع أن يدفع بمصحفه إلى عبد الله بن عامر ، وكتب [إليه] عثمان أن أشخصه إن لم يكن هذا الدين خبالاً وهذه الأُمّة فساداً ؛ فدخل المسجد وعثمان يخطب، فقال عثمان : إنّه قد قدمتْ عليكم دابّة سوء ! فكلّم ابن مسعود [عثمان] بكلام غليظ، فأمر به عثمان فجُرّ برجله حتّى كُسر له ضلعان ، فتكلّمت عائشة وقالت قولاً كثيراً».

٢ـ أورد ابن كثير الدمشقيّ في «البداية والنهاية» ج ٧ ، ص ١٦٣ ، في ترجمة ابن مسعود: فجاءه عثمان بن عفّان عائداً ، فيُرى أنّه قال له : ما تشتكي ؟ قال : ذنوبي ، قال: ⇦

وقد بقي الاختلاف في القراءة بعد عصر عثمان، إلّا أنّه صار محدوداً في رسم الخطّ الموجود في مصحف زيد ولم يتعدّاه إلى غيره. أمّا في القراءات السابقة، فقد كان الاختلاف يتعدّى أحياناً رسم الخطّ، وهذا الأمر لا يخفى على المتتبّعين من أهل التفسير والقراءات.

فقد كانت قراءة عمر بن الخطّاب ـ مثلاً ـ **صِرَاطَ مَنْ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَغَيْرِ ٱلضَّآلِّينَ**، خلافاً لرسم الخطّ في المصحف المشهور.

وجاء في قراءة ابن مسعود: **مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَثُومِهَا**، بدل: **وَفُومِهَا** وفي قراءته: **وَأَقِيمُوا ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ**، بدلاً من: **وَأَتِمُّوا ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ**. وفي مصحف أُبيّ بن كعب: **فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَلَّا يَطَّوَّفَ بِهِمَا**، بدلاً من: **أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا**.

لكنّ أيّاً من هذه القراءات ليس معتبراً عندنا، لأنّها آخبار آحاد نحتمل صدقها كما نحتمل كذبها. ومع أنّنا نقوم بإثباتها بأدلّة حجّيّة خبر الواحد بواسطة كون سلسلة رواتها من الثقات، إلّا أنّ أدلّة الحجّيّة لا تولّد اليقين لدينا، ولا تنفع في الأُمور اليقينيّة. أجل، فقد كانت تلك القراءات

⇦ فما تشتهي؟ قال: رحمة ربّي. قال: ألا آمر لك بطبيب؟ فقال: الطبيب أمرضني. قال: ألا آمر لك بعطائك؟ ـ وكان قد تركه سنتَين ـ فقال: لاحاجةَ لي فيه. فقال: يكون لبناتك من بعدك. فقال: أتخشى على بناتي الفقر؟ إنّي أمرتُ بناتي أن يقرأن كلّ ليلة سورة الواقعة، وإنّي سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول: «مَن قرأ الواقعة كلّ ليلة لم تصبه فاقة أبداً». وأوصى عبد الله بن مسعود إلى الزبير بن العوّام، فيُقال إنّه هو الذي صلّى عليه ليلاً. ثمّ عاتب عثمانُ الزبير على ذلك». انتهى.

أقول: يتّضح من هذه الرواية أنّ ابن مسعود أوصى أن يُصلّى على جنازته ليلاً، وأن لا يُعلم عثمان بذلك بسبب ما أصابه من الضرب على يد عثمان.

معتبرة لأهل ذلك العصر ، لأنّها كانت تعدّ متواترة لديهم .

وبصورة عامّة ، فإنّ جميع القراءات التي تنقل اليوم لا تمثّل أكثر من أخبار آحاد ، ولذلك فهي ليست حجّة . ولو أنّنا قرأنا القرآن بتلك القراءات لارتكبنا معصية فضلاً عن حرماننا من الأجر والثواب ، لأنّنا سنكون قد قرأنا شيئاً لاتزال قرآنيّته مشكوكة لدينا ، بعنوان قرآن .

أمّا القراءة المتواترة لدينا اليوم ، فهي منحصرة في مصحف زيد بن ثابت . وقد قال العلّامة في «التذكرة» في باب القراءة بأنّ هذه القراءة من مصحف أمير المؤمنين عليه السلام الذي أبقاه عثمان وأحرق ما سواه . وهذا القول لا يُنافي القول بأن **زيد بن ثابت** قد أُمر بجمع القرآن ، لأنّ ما كتبه زيد كان موافقاً لقرآن الإمام .[1]

أقول : وكذلك لايتنافى مع ما رواه الشيعة والعامّة من أنّ أمير المؤمنين عليه السلام عرض مصحفه عليهم فلم يقبلوا به ، لأنّ عدم قبولهم للمصحف ، هو غير مطابقة مصحف زيد بن ثابت في هذا الجمع للقرآن مع مصحف الإمام ، فقد بقي مصحف الإمام عنده ، لكنّ القراءة (التي أثبتها زيد) كانت مطابقة لقراءة الإمام .

وقد أوردنا في هذا الشأن كلاماً للعلّامة الأُستاذ قدّس الله سرّه

١ـ يقول ابن أبي الحديد في «شرح نهج البلاغة» ج ٣ ، ص ٢٥٥ ، طبعة الأُوفسيت البيروتيّة ذات الأربعة مجلّدات ، و: ج ١٣ ، ص ٢٣٣ ، طبعة دار إحياء الكتب العربيّة ، مصر ، ذات العشرين جزءاً ، بعد نقله كلام أبي جعفر الإسكافيّ : «... كنحو ما أخذ الناس الحَجّاج بن يوسف بقراءة عثمان وترك قراءة ابن مسعود وأُبيّ بن كعب ، وتوعّد على ذلك ... فما مات الحَجّاج حتّى اجتمع أهل العراق على قراءة عثمان ، ونشأ أبناؤهم ولا يعرفون غيرها لإمساك الآباء عنها وكفّ المعلّمين عن تعليمها ، حتّى لو قرأتَ عليهم قراءة عبد الله وأُبيّ ما عرفوها ولظنّوا بتأليفها الاستكراه والاستهجان».

الشريف في كتابنا «الشمس الساطعة» جاء فيه :

«وقد ورد في أحد التواريخ ، ولعلّه «تاريخ اليعقوبيّ» (لا يحضرني ذلك تماماً) أنّ أمير المؤمنين سلام الله عليه لم يخرج من منزله بعد ارتحال الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم ، فذهب إليه عدّة من وجوه الصحابة واستفسروا منه عن علّة عدم خروجه وعدم ذهابه إلى المسجد للالتحاق بجماعة المسلمين ، فقال بأنّه أقسم ألّا يضع رداءه على عاتقه إلّا بعد أن يتمّ تنظيم القرآن وينظّم تفسيره وتأويله . ثمّ إنّه عليه السلام نظّم القرآن ورتّبه حسب ترتيب نزوله في مدّة ستّة أشهر .

فكانت أوّل سورة ـ حسب ترتيب الإمام ـ هي سورة **ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ** ، وجعل خاتمته آخر سورة نزلت على رسول الله ، مثل سورة **المائدة** . فتكون سورة البقرة التي نزلت في المدينة في آخر القرآن . أمّا السور القصار في آخر القرآن ، والتي نزلت أغلبها في مكّة ، فإنّ موضعها كان في أوّل القرآن .

ومن خصائص هذا المصحف ، مضافاً إلى ترتيب السور والآيات حسب ترتيب نزولها ، أنّ شأن الآيات والسور قد ذُكر فيه .[1] وبذلك فقد كان سبب نزول كلّ آية أو سورة نزلت في وقت معيّن ، قد شُخصّ في ذلك القرآن ، فكانت السورة تمتاز عن السور التي سبقتها في النزول وعن التي أعقبتها في ذلك . وتقع هذه السور في وسط القرآن .

أجل ، فقد نظّم أمير المؤمنين عليه السلام المصحف بهذه الكيفيّة ،

١ـ يقول السيوطيّ في «الإتقان» ج ١ ، ص ٩٠ ، الطبعة الأُولى : «قال ابن حجر : وقد ورد عن عليّ ، أنّه جمع القرآن على ترتيب النزول عقب موت النبيّ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم . أخرجه ابن داود» .

حتّى بلغ به الأمر إلى تشخيص بعض النواحي التفسيريّة والتأويليّة ، حتّى أتمّه بعد ستّة أشهر ، فحمله على بعير وجاء به إلى باب المسجد ـ وكان فيه جمعٌ من الصحابة ـ فقال : **هَذَا هُوَ قُرْآنُكُمْ !** قد جمعتُه وجئتُ به فلم يلتفتوا إلى كلامه ، فأعاده إلى منزله ، ولم يرد بعد ذلك له خبر .

وهذا هو محصّل ما جاء في روايات العامّة .[1] أمّا روايات الخاصّة فقد جاء فيها أنّه عليه السلام حمل القرآن على بعير وجاء به إلى المسجد فقال : هذا هو قرآنكم ! فقالوا له : لا حاجةَ لنا بقرآنك ! ولم يلتفتوا إليه ، فعطف الإمام زمام بعيره وعاد إلى المنزل وقال : **أَمَا إِنَّكُمْ لَنْ تَرُونَهُ إلَى يَوْمِ القِيَامَةِ !**[2]

١ـ يقول المستشار عبد الحليم الجنديّ في كتاب «الإمام جعفر الصادق» ص ١٩٩ :

«آلى أمير المؤمنين على نفسه بعد الفراغ من تجهيز الرسول صلّى الله عليه وآله، ألّا يرتدي إلّا للصلاة أو يجمع القرآن . فجمعه مرتّباً على حسب النزول . وأشار إلى عامّه وخاصّه. ومطلقه ومقيّده . ومحكمه ومتشابهه . وناسخه ومنسوخه ، وعزائمه ورخصه. وسننه وآدابه. ونبّه على أسباب النزول فيه.

ومن جلال شأن هذا الكتاب ، قال فيه محمّد بن سيرين : **لَوْ أَصَبْتَ هَذَا الكِتَابَ كَانَ فِيهِ العِلْمُ**» . فهو كما يظهر من محتوياته مصحف خاصّ وكتاب أُصول من صنع عليّ».

٢ـ أورد السيّد البحرانيّ في كتابه «غاية المرام» القسم الأوّل ، ص ٢٢٥ و٢٢٦ ، الحديث ٢٨ ، الطبعة الحجريّة ، عن الخاصّة ، عن سُليم بن قيسم الهلاليّ في كتابه ، أنّه روى عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال : «... وكنتُ أدخل على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم كلّ يوم دخلةً ، وكلّ ليلة دخلة ، فيخليني فيها أدور معه حيث دار ، وقد علم أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه لم يكن يصنع ذلك بأحد غيري ، وربّما كان ذلك في منزلي ؛ فإذا دخلتُ عليه في بعض منازله خلا بي وأقام نساءه فلم يبقَ غيري وغيره ، وإذا أتاني للخلوة في بيتي لم تقم من عندنا فاطمة ولاأحد من ابنَيَّ ، إذا أسأله أجابني ، وإذا سكتُّ أو نفدت مسائلي ابتدأني ؛ فما نزلت عليه آية من القرآن إلّا أقرأنيها وأملاها عَلَيَّ فكتبتها بخطّي ودعا الله أن يفهمني إيّاها ويحفظني ، فما نسيتُ آية من كتاب الله منذ حفظتُها ⇦

أجل ، فقد كان شأن النزول في ذلك المصحف قد بُيّن إلى حدٍّ ما ، وكان يظهر موقع كلّ آية ، وموقع الآيات التي تسبقها والتي تليها في النزول ، ويبدو أنّ هذه الأُمور كانت مبيّنة فيه .

كما يبدو أنّ في مكّة والمدينة في الوقت الحاضر أشخاص منهمكون في تأليف تفسيرين للقرآن حسب ترتيب النزول ، وقد شاهدت قدراً من

⇦ وعلّمني تأويلها فحفظته وأملاه عَلَيَّ فكتبتُه ، وما ترك شيئاً علّمه الله من حلال وحرام، أو أمر ونهي ، أو طاعة ومعصية كان أو يكون إلى يوم القيامة إلّا وقد علّمنيه وحفظتُه ولم أنسَ منه حرفاً واحداً ، ثمّ وضع يده على صدري ودعا الله أن يملأ قلبي علماً وفهماً وفقهاً وحكماً ونوراً ، وأن يعلّمني فلا أجهل ، وأن يحفظني فلا أنسى . فقلتُ له ذات يوم: **يا نَبِيَّ اللهِ !** إنّك منذ يوم دعوتَ الله لي بما دعوت لم أنسَ شيئاً ممّا علّمتني ، فلِمَ تُمليه عَلَيَّ وتأمرني بكتابته ؟ أتتخوّف عَلَيَّ النسيان؟

فقال : يا أخي لستُ أتخوّف عليك النسيان ولا الجهل ، وقد أخبرني الله أنّه قد استجاب لي فيك وفي شركائك الذين يكونون من بعدك . قلتُ : يا نبيّ الله ، ومَن شركائي ؟

قال: الذين قرنهم الله بنفسه وبي معه ، الذين قال في حقّهم : **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُولِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ**.

قلتُ : يا نبيّ الله ! ومن هم ؟ قال : الأوصياء إلى أن يردوا عَلَيّ حوضي ، كلّهم هادٍ مهتدٍ ، لا يضرّهم كيد من كادهم ، ولا خذلان من خذلهم ، **هُمْ مَعَ الْقُرْآنِ وَالقُرْآنُ مَعَهُمْ** لا يفارقونه ولا يفارقهم ، بهم ينصر الله أمّتي ، وبهم يمطرون ، ويدفع عنهم بمستجاب دعوتهم، فقلتُ : يا رسول الله سمّهم لي .

فَقَالَ : ابْنِي هَذَا ـ ووضع يده على رأس الحسن ـ ثمّ ابني هذا ـ ووضع يده على رأس الحسين ـ».

ثمّ يذكر سُليم الأئمّة إلى الحجّة عليهم السلام ، ويقول:

ثمّ لقيتُ الحسن والحسين صلوات الله عليهما بالمدينة بعد ما قُتل أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، فحدّثتهما بهذا الحديث عن أبيهما فقالا : صدقتَ ... ثمّ لقيتُ عليّ بن الحسين عليه السلام ... فقال : قد أقرأني أمير المؤمنين عليه السلام عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ....

ذلك العمل ، إلّا أنّ هناك إشكالاً في نفس الروايات الموجودة في أيدي العامّة والتي ورد فيها شأن النزول ، لأنّ هناك ثلاث روايات وردت عن العامّة في شأن النزول تختلف فيما بينها ولكلٍّ من هذه الروايات أُسلوب خاصّ بها .

أجل ، فهناك مطالب عن كيفيّة التنظيم والقراءة وشأن النزول في مصحف أمير المؤمنين عليه السلام مدوّنة في تفسير ... (لأحد المفسّرين ، وتفسيره يقع في مجلّد واحد ، وقد ذكر فيه قدراً من مطاعن عثمان ومعاوية وغيرهما) .[1]

بَيدَ أنّ الأئمّة الطاهرين سلام الله عليهم لمّا أقرّوا المصحف الذي جمعه عثمان على يد زيد بن ثابت وفقاً لقراءة أمير المؤمنين عليه السلام ، وأمروا بقراءته ، فإنّنا موظّفون بقراءته . ولا يختلف القرآن الفعليّ الذي في أيدينا ، والذي جُمع على يد عثمان ، عن مصحف أمير المؤمنين عليه السلام أيّ اختلاف في عدد السور والآيات . وعلماء الشيعة والعامّة مُجمعون ومتّفقون على أنّ القرآن كامل لم تسقط منه ولم يُزاد فيه آية أو كلمة . أمّا عدم وجود مصحف أمير المؤمنين عليه السلام في متناول اليد ، فمع أنّه سيُلحق ضرراً من جهة عدم الاطّلاع على شأن النزول والموارد النازلة في القرآن ، وعدم الاطّلاع على التأويل والتفسير ، وعلى ترتيب النزول وتقدّم الآيات والسور وتأخّرها ، وهو أمر يؤدّي في النتيجة على عدم الاطّلاع على العلوم القرآنيّة ويصعّب أمر اتّساعها ، إلّا أنّه ليس فيه أيّ تفاوت ، بلحاظ فنّ أهل البيت عليهم السلام ومنهجهم في التفسير ، وهو

١ـ «الشمس الساطعة ، رسالة في ذكر العلّامة ، ومحاورات التلميذ والعلّامة» القسم الثاني ، ضمن الأبحاث التأريخيّة.

تفسير الآية بالآية ، إذ بناءً على هذه الطريقة ، فإنّ كلّ آية يجب أن تُفهم من الآيات الأُخرى ومن خلال المقارنة بين تلك الآيات . وعلى من يحاول الحصول على علم بمغزى القرآن وتفسيره أن ينظر إلى جميع الآيات الواردة في ذلك الخصوص ، فلا يختلف الأمر ـ بناءً على ذلك ـ سواء علم بشأن النزول أم لم يعلم .

وقد كان هذا الأمر المهمّ مورد نظر والتفات أئمّة أهل البيت عليهم السلام ، وعلى هذا الأساس فقد أقرّوا هذه القراءة ، وأمروا باتّباعها ، وكانوا خلال احتجاجاتهم واستشهاداتهم يستدلّون بهذه الآيات وبهذه القراءة .[1]

١ـ إنّ الأخبار الواردة في تحريف الكتاب ، التي تمسّك بها الشيخ النوريّ في «فصل الخطاب» ساقطة بأجمعها من الاعتبار ، وكلّما ازدادت كثرةً وصحّةً ازدادت وهناً ، طبقاً للقاعدة العقليّة : ما يلزمُ من وجوده عدمُه . ولبيان هذا المطلب نقول : إنّ حجّيّة تلك الأخبار تتوقّف على حجّيّة قول الإمام الذي نقل تلك الأخبار . وحجّيّة قول الإمام متوقّفة على حجّيّة قول رسول‌الله الذي عيّن الإمام وصيّاً وخليفة ومعصوماً . وحجّيّة قول رسول الله متوقّفة على حجّيّة القرآن الذي وصف النبيّ بأنّه نبيّ ووليّ ومعصوم . ولو قلنا بزيادة أو نقص حرف واحد في القرآن الكريم ، لسقط جميع القرآن عن حجّيّته ، وسقوط هذه الحجّيّة تستلزم سقوط جميع الأخبار ، ومنها الأخبار الواردة في أمر التحريف . والقرآن الكريم حجّة بالإجماع، وحجّيّته تستتبع حجّيّة قول رسول الله وقول الإمام تبعاً لذلك ، وهذه الحجّيّة تستلزم سقوط الأخبار الواردة في التحريف أيّاً كانت وحيثما بلغت ، لأنّ ثبوت هذه الأخبار يستلزم عدمها ، وكلّ ما استلزم ثبوتُه عدمه كان مستحيلاً ، ولذلك فإنّ نفس هذه الأخبار ومفادها مستحيل بالمرّة.

وقد قال أكثر علماء الأُصول : إنّ القرآن هو المصحف الذي في أيدينا ، فمن قرأه خَتَمَ القرآن. وقالت طائفة من الإخباريّين : إنّ القرآن قد أُنقِص منه . وكلام هؤلاء باطل، وقد أبطله العلماء، وخاصّة الطبرسيّ صاحب «مجمع البيان» والسيّد المرتضى . ويقول العلاّمة الحلّيّ في «التذكرة»: إنّ القرآن يجب أن يقرأ على مصحف عليّ عليه السلام وليس على سائر المصاحف. وذلك هو هذا القرآن الذي في أيدينا حاليّاً ، والذي يُجمع عليه الصحابة.

أجل ، فمن جهة الحجّة الشرعيّة ، فإنّ جميع القراءات المتواترة والرائجة في زمن الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم لو بلغتنا اليوم بالتواتر ، لأصبحنا مختارين في قراءة القرآن الكريم بأيّة واحدة من تلك القراءات ، سواء كانت قراءة ابن مسعود أم أُبيّ بن كعب أو غيرهما . أمّا أنّ تلك القراءات عدا القراءة المشهورة لمّا سقطت عن حدّ التواتر ، فقد أضحت تلك القراءات مشكوكة لدينا ولا تمثّل إلّا أخبار آحاد .

يقول العلّامة الحلّيّ في «التذكرة» بأنّ قراءة عبد الله بن مسعود وأُبيّ ابن كعب وأمثالهما غير جائزة لنا بسبب عدم تواترها .

ولقد كان سعيد بن جُبير يتلو القرآن بجميع القراءات ، ولم يكن يتبنّى قراءة معيّنة ، لأنّ جميع تلك القراءات كانت متواترة لديه . وقد ورد في قراءة ابن عبّاس وأُبيّ بن كعب وابن مسعود في الآية **٢٤** من سورة النساء : «فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ **إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى** فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ» ،[١] وهي قراءة غير جائزة لنا .

وقد ذكر **آية الله الشعرانيّ** رحمة الله عليه مطالب حول القرآن المشهور الذي يُقرأ فعلاً ، ومطابقته لقراءة أمير المؤمنين عليه السلام ، وعن عدم وجود نقص أو تحريف في القرآن ، نبادر إلى ذكرها لمطابقتها نظر الحقير ؛ حيث يقول :

«لقد نشأ التوهّم بوجود نقص أو تحريف في القرآن منذ زمن عثمان ، فقد أراد جمع الناس على قراءة واحدة ، فأحرق المصاحف الأُخرى ، فحصل التوهّم بأنّ قدراً من القرآن قد ضاع خلال إحراق المصاحف ، بَيدَ أنّ سنخ تلك القراءات المحروقة موجود فعلاً . ونحن نعلم

١ـ حيث إنّ قيد الزمان المعيّن هنا هو نصّ في المتعة والزواج المؤقّت.

الحدّ الذي كانت المصاحف تختلف فيه في القراءة. وعلى أيّة حال، فإنّ احتمال وجود نقص أو تحريف في القرآن هو احتمال سخيف، وقال به البعض سَفَهاً.

وقد أبطل **السيّد المرتضى** هذا القول بالبرهان، وقد ذُكر ذلك في «مجمع البيان» و«التبيان» وسائر الكتب. بل إنّ هذا القول لم يوجد أساساً لدى الطبقة الوسطى من علمائنا، مثل العلّامة والشهيد والمحقّق. ويقول الشيخ الصدوق: إنّ من ينسب إلينا القول بنقصان القرآن كاذب مفترٍ، ونحن لا نقول بهذا أبداً.

وحسب قول **العلّامة** رحمه الله في «التذكرة»، فإنّ مصحف أمير المؤمنين عليه السلام الذي جمعه بعد ارتحال النبيّ، هو المصحف المتداول حاليّاً بيننا، وأمّا المصاحف الأُخرى فقد أحرقها عثمان.

وينقل الطبرسيّ في «مجمع البيان» في سورة التحريم عن أبي بكر ابن عيّاش قوله: «إنّي أدخلتها (أي الحروف العشر) في قراءة عاصم من قراءة **عليّ بن أبي طالب** عليه السلام حتّى استخلصتُ قراءته، يعني قراءة عليّ عليه السلام».[1]

١ـ عدّ آية الله السيّد حسن الصدر في كتابه «تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام» ص ٣٤٦ و٣٤٧ عاصم الكوفيّ من الشيعة، وذلك ضمن عدّة أئمّة قراءة القرآن، فقال «ومنهم (أي من القرّاء الشيعة) عاصم الكوفيّ ابن أبي النجود بَهْدَلة أحد الشيعة من (القرّاء) السبعة، قرأ على أبي عبدالرحمن السلميّ صاحب أمير المؤمنين المتقدّم ذكره وتشيّعه آنفاً، وهو قرأ على أميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب. وقد نصّ الشيخ الجليل عبد الجليل الرازيّ المتوفّى بعد سنة ٥٥٦، وكان الشيخ ابن شهر آشوب والشيخ أبي الفتوح الرازيّ المفسّر في كتابه «نقض الفضائح» على تشيّع عاصم وأنّه كان مُقتدى الشيعة فقال ما معناه باللسان العربيّ إنّ التشيّع كان مذهباً لأكثر أئمّة القراءة، كالمكّيّ والمدنيّ والكوفيّ والبصريّ وغيرهم كانوا عدليّة ⇦

وإحدى موارد الاختلاف هي كلمة **عَرَّفَ** في الآية الثالثة من سورة التحريم ، حيث القراءة المشهورة بالتشديد ، أمّا أبو بكر بن عيّاش فقد قرأها بالتخفيف .

ويقول **ابن النديم** في «الفهرست» في قراءة حفص : **وَكَانَتِ القِرَاءَةُ الَّتِي أَخَذَهَا عَنْ عَاصِمٍ مُرْتَفِعَةً إِلَى عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلْمِيِّ** ـ انتهى .

وقراءة حفص هي القراءة المشهورة المتداولة حاليّاً ، والتي تكتب المصاحف وفقاً لها .

فالقول الصحيح إنّ القراءة المعروفة الموجودة في أيدينا ، والتي نقلت عن عاصم ، هي قراءة أمير المؤمنين عليه السلام» .

حتّى يصل إلى قوله : «و أمّا قولهم بأنّ أمير المؤمنين أراد جمع القرآن ، فإنّهم يقصدون جمعه للسور في مجلّد واحد ، وليس جمع الآيات المتفرّقة وتشكيل سورة منها . وكذلك الحال في شأن زيد بن ثابت وغيره ، فقد كان ترتيب السور قد أنجز في زمن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ،

⇦ لامشبِّهة ولاخوارج ولا جبريّة . رووا عن عليّ أمير المؤمنين عليه السلام . ومثل عاصم وأمثاله كانوا مقتدى الشيعة والباقين عدليّة غير أشعريّة ـ انتهى.

وقال السيّد في «الروضات» عند ترجمته : «وكان أتقى أهل هذه الصناعة على كون هذا الرجل أصوب كلّ أُولئك المذكورين رأياً وأجملهم سعياً ورعياً» إلى أن قال : «وقال إ مامنا العلّامة أعلى الله مقامه فيما نقل عن كتابه «المنتهى» : وأحَبُّ القراءات إلَيَّ قراءة عاصم، المذكور من طريق أبي بكر بن عيّاش» ـ انتهى.

قرأ أبان بن تغلب شيخ الشيعة على عاصم ، كما قرأ هو على أبي عبد الرحمن السلميّ. ولعاصم روايتان : رواية حفص بن سليمان البزّاز ، كان ربيبه وابن زوجته ، ورواية أبي بكر بن عيّاش. وذكره القاضي نور الله المرعشيّ في «مجالس المؤمنين» ونصّ أيضاً على تشيّعه.

وقد جاء في القرآن :

فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ؛[١] فأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَـٰتٍ؛[٢] سُورَةٌ أَنزَلْنَـٰهَا.[٣]

كما تكرّر كثيراً في أخبار الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم الشبيهة بالدرر ذكر أسماء سور للقرآن الكريم ، وذكر فضائل قراءتها ، مثل سورة **يس** وسورة **البقرة** وغير ذلك .[٤]

وينبغي أن نرى الآن هل نحن موظّفون اليوم أن نقرأ القرآن من المصحف الفعليّ حسب قراءة حفص عن عاصم بن أبي عبد الرحمن السلميّ عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام ؛ أم أنّنا مختارون في القراءة ، مخيّرون بين هذه القراءة وبين إحدى القراءات الستّ الأُخرى التي يقال لمجموعها القراءات السبع المتواترة ؟ أو مخيّرون بين هذه القراءة وبين تسع قراءات أُخرى يعدّ مجموعها القراءات العشر المتواترة والشاذّة المقبولة المعروفة ؟ تلك مسألة مهمّة قد جرى بحث جوانبها المختلفة واختلفت الآراء في شأنها .

قال **السيوطيّ** في «الإتقان» : «المشتهرون بإقراء القرآن من الصحابة سبعة : **عُثمان** ، و**عليّ** ، و**أُبيّ** ، و**زيد بن ثابت** ، و**ابن مسعود** ، و**أبو الدرداء وأبو موسى الأشعريّ** ،كذا ذكرهم الذهبيّ في «طبقات القرّاء» .

ثمّ ذكر مَن أخذ عنهم من المدينة ومكّة والكوفة والبصرة والشام

١ـ مقطع من الآية ٢٣ ، من السورة ٢ : البقرة .

٢ـ مقطع من الآية ١٣ ، من السورة ١١ : هود .

٣ـ صدر الآية ١ ، من السورة ٢٤ : النور .

٤ـ تفسير «منهج الصادقين» ج ١ ، المقدّمة ، ص ١٤ و١٥ ، الطبعة الثانية.

الذين صاروا أئمّة يُقتدى بهم ، ثمّ ذكر أسماءهم واحداً فواحداً ثمّ قال : «واشتهر من هؤلاء في الآفاق الأئمّة السبعة :

نافع ، وقد أخذ عن سبعين من التابعين ، منهم أبو جعفر .

وا**بن كثير** ، وأخذ عن عبد الله بن السائب الصحابيّ .

وأ**بو عمرو** ، وأخذ عن التابعين .

وا**بن عامر** ، وأخذ عن أبي الدرداء ، وأصحاب عثمان .

و**عاصم** ، وأخذ عن التابعين .

وا**لكسائيّ** ، وأخذ عن حمزة وأبي بكر بن عيّاش .

و**حمزة** ؛[1] وأخذ عن **عاصم والأعمش والسَّبيعيّ ومنصور بن**

١ـ حمزة بن حبيب ، من شيعة الإمام الصادق عليه السلام ومن أوّل من صنّف في علم القراءات . يقول آية الله المحقّق السيّد حسن الصدر في كتاب «الشيعة وفنون الإسلام» ص ٥١ إلى ٥٣.

«وأوّل من صنّف في القراءة ودوّن علمها هو أبان بن تغلب (الكوفيّ) ... وقد ذكر تصنيفه في القراءة ابنُ النديم في «الفهرست» قال : أبان بن تغلب ، وله من الكتب كتاب «معاني القرآن» لطيف ، كتاب «القراءات» ، كتاب من الأُصول في الرواية على مذهب الشيعة، وذكر النجاشيّ كتاب القراءة لأبان في ترجمته وأوصل إسناده إليه في روايته ـ انتهى.

ثمّ بعده حمزة بن حبيب أحد (القرّاء) السبعة ؛ قال ابن النديم في «الفهرست» : كتاب القراءة لحمزة بن حبيب وهو أحد السبعة ، من أصحاب الصادق ـ انتهى.

وعدّه الشيخ أبوجعفر الطوسيّ في كتاب الرجال من أصحاب الصادق ، وجاء بخطّ الشيخ الشهيد محمّد بن مكّيّ عن الشيخ جمال الدين أحمد بن محمّد بن الحدّاد الحلّيّ : قرأ الكسائيّ القرآن على حمزة ، وقرأ حمزة على أبي عبد الله (الصادق) ، وقرأ (الصادق) على أبيه، وقرأ (أبوه) على أبيه ، وقرأ (أبوه) على أبيه ، وقرأ (أبوه) على أمير المؤمنين.

ثمّ يقول المرحوم الصدر هنا : أقول : قرأ (حمزة) على مولانا الصادق ، وعلى الأعمش، وعلى حمران بن أعين أخو زرارة ، والكلّ من مشايخ الشيعة . ولم يُسمع في المسلمين أنّ أحداً دوّن كتاباً في القراءة قبل أبان وحمزة... ⇦

المعتمر وغيره.

ثمّ انتشرت القراءات في الأقطار، وتفرّقوا أُمماً بعد أُمم، واشتهر من رواة كلّ طريق من طرق السبعة راويان:

فعن **نافع**: **قالون وورش**، عنه.

وعن **ابن كثير**: **قَنْبل والبزّيّ**، عن أصحابه، عنه.

وعن **أبي عمرو**: **الدوريّ والسوسيّ**، عن **اليزيديّ**، عنه.

وعن **ابن عامر**: **هشام وابن ذكوان** عن أصحابه، عنه.

وعن **عاصم**: **أبو بكر بن عيّاش**، **وحفص**، عنه.

وعن **حمزة**:[1] **خَلَفَ وخَلّاد**، عن **سليم**، عنه.

⇦ ومنهم أبو جعفر محمّد بن الحسن بن أبي سارة الرواسيّ، وهو أُستاذ الكسائيّ والقرّاء، ومن خواصّ الإمام محمّد الباقر عليه السلام. وذكره أبو عمرو الدانيّ في «طبقات القرّاء» وقال:... وهو من جملة الكوفيّين، وله اختيار في القراءة تروى عنه. روى الحروف عن أبي عمرو... سمع الأعمش....

ومنهم زيد الشهيد ... له قراءة جدّه أمير المؤمنين، رواها عنه عمر بن موسى الرجهيّ. قال في أوّل كتاب قراءة زيد: هذه القراءة سمعتُها من زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب، وما رأيتُ أعلم بكتاب الله وناسخه ومنسوخه ومشكله وإعرابه منه... وكانت شهادة زيد بالكوفة، أيّام هشام بن عبد الملك الأموي سنة اثنتين وعشرين ومائة، وكان عمره يوم قُتل اثنتين وأربعين سنة، لأنّه كان تولّد سنة ثمانين.

فيكون جميع هؤلاء الذين صنّفوا في القراءة مقدّمين على أبي عبيدة القاسم بن سلّام الذي عدّه السيوطيّ والذهبيّ مقدّماً في التصنيف».

١ـ قال آية الله السيّد حسن الصدر في كتاب «تأسيس الشيعة» ص ٣٤٧: «ومنهم (أي من قرّاء الشيعة): حمزة الكوفيّ بن حبيب الزيّات أحد الشيعة من (القرّاء) السبعة، قرأ على مولانا الصادق عليه السلام، وعلى الأعمش، وعلى حمران بن أعين أخو زرارة، والكلّ من شيوخ الشيعة. وعدّهُ الشيخ أبو جعفر الطوسيّ في كتاب الرجال من أصحاب الصادق عليه السلام، وكذلك ابن النديم في «الفهرست». قال: وكتاب القراءة لحمزة بن حبيب، وهو ⇦

وعن الكسائيّ:[1] الدوريّ، وأبو الحارث.[2]

ويقول السيوطيّ: «اعلم أنّ القاضي جلال الدين البُلقينيّ قال: القراءة

⇦ أحد السبعة من أصحاب الصادق عليه السلام ـ انتهى بحروفه.

مات حمزة سنة ستّ أو ثمان وخمسين بعد المائة بحلوان، وكان مولده سنة ثمانين، وله سبع روايات، وصنّف كتاب القراءة، وكتاب في «مقطوع القرآن وموصوله»، كتاب «متشابه القرآن»، كتاب «أسباع القرآن»، كتاب «حدود آي القرآن» ذكر هذه الكتب له محمّد بن إسحاق النديم في «الفهرست» كلّ في موضعه، وقد جمعتُها أنا في ترجمته رضي الله عنه ـ انتهى كلام آية الله الصدر رحمة الله عليه.

يقول المستشار عبد الحليم الجنديّ، من أركان المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة في مصر، في كتاب «الإمام جعفر الصادق» ص ١٧٦: ومِن علم الإمام جعفر (الصادق) بالقرآن، أخذ القراءات عليه حمزة بن حبيب التيميّ، وفيها مدّ وإطالة وسكتٌ على الساكن قبل الهمز.

١ـ عدّ آية الله السيّد حسن الصدر في كتاب «تأسيس الشيعة» ص ٣٤٧ الكسائيّ من الشيعة، حيث يقول: «ومنهم: الكسائيّ أبوالحسن عليّ بن حمزة بن عبد الله بن بهمن بن فزار الأسديّ بالولاء، الكوفيّ المكنّى أبا عبد الله، وهو من القرّاء السبعة المشهورة. وكان يذكر أنّه ربيب المفضّل الضبّي، وكانت أُمّه تحته. نصّ على تشيّعه في «رياض العلماء» في الألقاب. قرأ على شيوخ الشيعة كحمزة وأبان بن تغلب؛ وأخذ النحو عن أبي جعفر الرواسيّ ومُعاذ الهرّاء، والكلّ من أئمّة علماء الشيعة كما عرفتَ. قرأ الكسائيّ القرآن على حمزة، وقرأ حمزة على أبي عبد الله (الصادق) عليه السلام، وقرأ على أبيه، وقرأ على أبيه، وقرأ على أبيه، وقرأ على أمير المؤمنين عليه السلام، كذا وجد بخطّ شيخنا الشهيد ابن مكّيّ نقلاً عن الشيخ جمال الدين أحمد بن محمّد بن الحدّاد الحلّيّ. ونصّ على تشيّع الكسائيّ جماعة، وهو مذهب أكثر أهل الكوفة في ذلك العصر. وقد أكثر الشيخ حسن بن عليّ الطَّبْرِسيّ في كتاب «أسرار الإمامة» من النقل عن كتاب «قصص الأنبياء» للكسائيّ. توفّي سنة تسع وثمانين ومائة بالري. وقيل مات بطوس.

٢ـ «الإتقان في علوم القرآن» ج ١، ص ٩١ و٩٢، الطبعة الأولى، المطبعة الموسويّة بالديار المصريّة، سنة ١٢٧٨ هـ. ق؛ و: ج ١، ص ٧٢ و٧٣، الطبعة الثالثة، مصطفى الحلبيّ بمصر، سنة ١٣٧٠ هـ. ق.

تنقسم إلى **متواتر وآحاد وشاذّ**.

فالمتواتر: القراءات السبعة المشهورة.

والآحاد: قراءات الثلاثة التي هي تمام العشر، ويلحق بها **قراءة الصحابة**.

والشاذّ: قراءات التابعين **كالأعمش ويحيى بن وثّاب وابن جُبير** ونحوهم.

وهذا الكلام فيه نظرٌ يُعرَف ممّا سنذكره. وأحسن من تكلّم في هذا النوع إمام القرّاء في زمانه، شيخ شيوخنا **أبو الخير بن الجزريّ**. قال في أوّل كتابه «**النَّشْر**»: كلّ قراءةٍ وافقت العربيّة ولو بوجهٍ، ووافقتْ أحد المصاحف العثمانيّة ولو احتمالاً، وصحّ سندها، فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردّها ولا يحلُّ إنكارها، بل هي من **الأحرف السبعة** التي نزل بها القرآن، ووجب على الناس قبولها، سواء كانت عن الأئمّة السبعة، أم عن العشرة، أم عن غيرهم من الأئمّة المقبولين. ومتى اختلّ ركنٌ من هذه الأركان الثلاثة، أُطلِق عليها ضعيفة أو شاذّة أو باطلة، سواء كانت عن السبعة أو عمّن هو أكبر منهم. هذا هو الصحيح عند أئمّة التحقيق من السَّلف والخلف، صرّح بذلك **الدانيّ**، **ومكّيّ**، **والمهدويّ**، **وأبو شامة**، وهو مذهب السلف الذي لا يُعرف عن أحدٍ منهم خلافه».[1]

وقد أنكر صاحب «الجواهر» رحمة الله عليه تواتر القراءات السبعة وقال بأنّ القرآن إنّما نزل بحرفٍ واحد على النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم، وذلك هو القرآن فحسب. أمّا باقي القراءات فهي اجتهاد القرّاء وأساتيد العربيّة في القرآن. ويقول في كتاب الصلاة من «الجواهر»:

١ـ «الإتقان» ج ١، ص ٩٤، الطبعة الأُولى؛ وج ١، ص ٧٥، الطبعة الثالثة.

لا يُقال (في الاعتراض على نظرنا) : إنّه بعد أن كلّف بقراءة القرآن مثلاً في الصلاة ، فلا يجزيه إلّا قراءة ما هو معلومٌ أنّه قرآن أو كالمعلوم ، وهو لا يحصل إلّا بالقراءات السبع ، للإجماع في «جامع المقاصد» وعن «**الغَرِيَّة**» و«**الروض**» على تواترها . كما عن «مجمع البرهان» نفي الخلاف فيه المؤيّد بالتتبّع ، ضرورة مشهوريّة وصفها به في الكتب الأُصوليّة والفقهيّة . بل في «المدارك» عن جدّه [1] أنّه أفرد بعض محقّقي القرّاء كتاباً في أسماء الرجال الذين نقلوا هذه القراءات في كلّ طبقة ، وهم يزيدون عمّا يعتبر في التواتر ، مضافاً إلى قضاء العادة بالتواتر في مثله لجميع كيفيّاته ، فتوفّر الدواعي على نقله من المقرّ والمنكِر ، وإلى معروفيّة تشاغلهم به في السلف الأوّل ، حتّى أنّهم كما قيل ضبطوه حرفاً حرفاً ، بل لعلّ هذه السبعة هي المرادة من قوله صلّى الله عليه وآله : **نَزَلَ القُرْآنُ عَلَى سَبْعَةِ أحْرُفٍ** ، كما يوفي إليه (الحديثُ) المرويّ عن «خصال الصدوق» .

و(السبب الآخر) لأنّ الهيئة (في كلّ كلمة) جزء اللفظ المركّب منها ومن المادّة ، فعدم تواترها يقضي بعدم تواتر بعض القرآن .

أو (أن يقول أحد بوجوب القراءة في الصلاة بإحدى القراءات) العشر ، لدعوى الشهيد في «الذكرى» تواترها أيضاً ، وهو لا يقصر عن نقل الإجماع بخبر الواحد كما اعترف به في «جامع المقاصد» ، وإن ناقشه بعضُهم بأنّ شهادته غير كافية ، لاشتراط التواتر في القرآن الذي يجب ثبوته بالعلم ، ولا يكفي الظنّ ، فلا يُقاس على الإجماع .

نعم ، يجوز ذلك له ، لَإن كان التواتر ثابتاً عنده ، ولو سُلّم عدم تواتر

١ـ كتاب «مدارك الأحكام» للسيّد محمّد حفيد الشهيد الثاني لابنته ، ولهذا عبّر عنه بالجدّ .

الجميع ، فقد أجمع قدماء العامّة ومن تكلّم في المقام من الشيعة ـ كما عن **الفاضل التونيّ** في «وافية الأُصول» ـ على عدم جواز القراءة بغيرها وإن لم يخرج عن قانون اللغة العربيّة . وفي «مفتاح الكرامة» : أنّ أصحابنا متّفقون على عدم جواز العمل بغير السبع أو العشر إلّا شاذّ منهم . والأكثر على عدم العمل بغير السبع .

ثمّ يشرع صاحب «الجواهر» بذكر أدلّة المطالب السالفة الذكر ، ثمّ يبدأ بالإجابة على هذا الإشكال بأربعة أجوبة مفصّلة ، حتّى يصل إلى قوله :

بل لعلّ المعلوم عندنا خلافه ، ضرورة معروفيّة مذهبنا **بِأَنَّ القُرْآنَ نَزَلَ بِحَرْفٍ وَاحِدٍ عَلَى نَبِيٍّ وَاحِدٍ** ، والاختلاف فيه من الرواة ، كما اعترف به غير واحدٍ من الأساطين . قال الشيخ (الطوسيّ) فيما حكي من «تبيانه» : إنّ المعروف من مذهب الإماميّة والتطلّع في أخبارهم ورواياتهم أنّ القرآن نزل بحرفٍ واحد على نبيٍّ واحد ، غير أنّهم أجمعوا على جواز القراءة ، فإنّ الإنسان مخيّر بأيّ قراءة شاء ، وكرهوا تجويد قراءةٍ بعينها .

وقال **الطبرسيّ** فيما حكي عن «مجمعه» : الظاهر من مذهب الإماميّة أنّهم أجمعوا على القراءة المتداولة ، وكرهوا تجريد قراءة مفردة ، والشائع في أخبارهم أنّ القرآن نزل بحرفٍ واحد .

وقال **الأُستاذ الأكبر** [١] في حاشية «المدارك» : ولا يخفى أنّ القراءة عندنا نزلت بحرفٍ واحد ، والاختلاف جاء من قبل الرواية ، فالمتواتر ... إلى آخر ما نقلناه عنه سابقاً .

وقال الباقر عليه السلام في خبر زُرارة :

إنَّ القُرْآنَ وَاحِدٌ نَزَلَ مِنْ عِنْدِ الوَاحِدِ ، وَلَكِنَّ الاخْتِلَافَ يَجِيءُ مِنْ

١ـ يعني آية الله أقا محمّد باقر البهبهانيّ أعلى الله مقامه.

قِبَلِ الرُّوَاةِ.

وقال الصادق عليه السلام في صحيح **الفُضَيل** لمّا قال له : إنّ الناس يقولون **إنَّ القُرْآنَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ** ، [قال :] **كَذِبَ أَعْدَاءُ اللهِ ، وَلَكِنَّهُ نَزَلَ عَلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ مِنْ عِنْدِ الوَاحِدِ**. ومثله خبر زرارة .

وقال أيضاً في صحيح **المُعلّى بن خُنَيس لربيعة الرأي : إنْ كَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ لَا يَقْرَأُ عَلَى قِرَاءَتِنَا فَهُوَ ضَالٌّ.**

فقال ربيعة الرأي : **ضَالٌّ** ؟

فقال : نعم . ثمّ قال أبو عبد الله عليه السلام : **أَمَّا نَحْنُ فَنَقْرَأُ عَلَى قِرَاءَةِ أُبَيٍّ.**

ثمّ يستمرّ الشيخ صاحب «الجواهر» في كلامه ، فيبحث في أمر عدم تواتر القراءات بالتفصيل ، حتّى يصل إلى قوله :

«فإنّ مَن مارس كلماتهم عَلِمَ أن ليس قراءتهم إلّا باجتهادهم وما يستحسنوه بأنظارهم ، كما يومي إليه ما في كتب القراءة مِن عدّهم قراءة النبيّ صلّى الله عليه وآله وعليّ وأهل البيت عليهم السلام في مقابلة قراءاتهم ، ومن هنا سمّوهم المتبحّرين ، وما ذاك إلّا لأنّ أحدهم كان إذا برع وتمهّر ، شرع للناس طريقاً في القراءة لا يُعرَف إلّا من قِبَله ، ولم يرد على طريقةٍ مسلوكة ومذهبٍ متواتر محدود ، وإلّا لم يختصّ به ، بل كان من الواجب بمقتضى العادة أن يعلم المعاصر له بما تواتر إليه ، لاتّحاد الفنّ وعدم البعد عن المأخذ ، ومن المستبعد جدّاً أنّا نطّلع على التواتر وبعضهم لا يطّلع على ما تواتر إلى الآخر» ـ الكلام .[1]

١ـ «جواهر الكلام» كتاب الصلاة ، ص ٢٥٧ و٢٥٨ ، طبعة الحاجّ موسى الملفّق؛ وج ٩ ، ص ٢٩١ إلى ٢٩٦ ، من طبعة النجف الأشرف الحروفيّة.

ثمّ يختتم صاحب «الجواهر» كلامه بعد تفصيلٍ ما ، وهو ـ كما نلاحظ ـ مصرّ على عدم التواتر .

وقد اقتفى **آية الله الخوئيّ** مدّ ظلّه ، أُستاذنا المكرّم في علم أُصول الفقه ، في كتابه تفسير «البيان» أثر المرحوم صاحب «الجواهر» ، فأورد بحثاً مفصّلاً تحت عنوان **نظرةٌ في القراءات** ، وأورد ترجمة كلّ واحدٍ من القرّاء العشرة ، ثمّ أبطل تواتر هذه القراءات بخمسة أدلّة :

الأوّل : عدم تواترها لنا من زمن القرّاء .

الثاني : عدم التواتر في الطريق الذي أخذوا تلك القراءات بواسطته عن رسول الله .

الثالث : انقطاع أسانيد التواتر في أشخاص القرّاء ، إذ على فرض تحقّق التواتر قبلاً وبعداً ، فإنّ راوي القراءة ينحصر بهم في طبقتهم ، فتكون خبر آحاد .

الرابع : احتجاج كلّ قارئ بصحّة قراءته ، وإعراضه عن قراءة غيره .

والخامس : إنكار جملة من المحقّقين أمر تواتر القراءات .

ثمّ إنّه يتصدّى بعد بيان مفصّل وكلام مبسوط لبيان أدلّة مَن يدّعي تواتر القراءات فيقوم بالردّ على تلك الأدلّة ، فيقول :

«(الدليل) الرابع (من أدلّة هذه الجماعة) أنّ القراءات لو لم تكن متواترة ، لكان بعض القرآن غير متواتر ، مثل **مَلِكِ** و**مَـٰلِكِ** ونحوهما ، فإنّ تخصيص أحدهما تحكّم باطل» .

ثمّ يقوم بالردّ على هذا الدليل بعدّة وجوه ، فيقول في الوجه الثاني :

«إنّ الاختلاف في القراءة إنّما يكون سبباً لالتباس ما هو القرآن بغيره ، وعدم تميّزه من حيث المادّة أو من حيث الإعراب ، وهذا لا يُنافي تواتر أصل القرآن ؛ **فَالمَادَّةُ مُتَوَاتِرَةٌ وَإنِ اخْتُلِفَ فِي هَيْئَتِهَا أَو فِي إعْرَابِهَا**.

وَإحْدَى الكَيْفِيَّتَيْن أَوْ الكَيْفِيَّاتِ ، مِنَ القُرْآنِ قَطْعاً وَإن لَمْ تُعْلَمْ بِخُصُوصِهَا . وعَلَى الجُمْلَةِ تَوَاتُرُ القُرْآنِ لَا يَسْتَلْزِمُ تَوَاتُرَ القِرَاءَاتِ» .[1]

وسنقوم في هذا المجال بحول الله وقوّته بإثبات تواتر القراءات السبع أو العشر ، وبأنّ ما ورد في «الجواهر» وتفسير «البيان» من اتّجاه لم يكن منحىً كاملاً . إذ إنّ الإحاطة والعلم بتواتر القراءات ، يستلزم تتبّع كتب السير والتواريخ والقراءة والرجال ، وإنّ هذه المسألة ليست مسألة فقهيّة محضة ، ليُحكم بعدم التواتر بصورة جازمة استناداً على روايةٍ معيّنة .

وسنذكر في هذا الشأن من القرائن والشواهد المسلّمة ما يبيّن أنّ القراءات السبع ليست استنباطاً أو اجتهاداً للقرّاء ، بل هي ناشئة من السماع والرواية ، وإنّ فقهاءنا رضوان الله عليهم مُجمعون على تواتر قراءة القرّاء السبعة وسماعهم بواسطة عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم .

إنّ **حفص** الذي يروي عن **عاصم** ، يقرأ في سورة الفرقان : **يَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا**[2] بإشباع كسرة الهاء في **فِيهِ** ، مع أنّه يعلم أنّ عدم الإشباع هو الصحيح لموافقته لقواعد العربيّة ، وأنّه لو قرأ **يَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا** لما كان قد خالف القواعد ، بَيدَ أنّه لم يقرأ على هذا النحو ، لأنّ سماعه كان مع الإشباع .

كما أنّه قرأ هاء الضمير في سورة الفتح : **بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ** ؛[3] وفي سورة الكهف : **وَمَآ أَنسَـٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ** ،[4] بالضمّة ، مع أنّه يعلم جيّداً أنّ كسرة الهاء في **عَلَيْهُ** **وأَنسَـٰنِيهُ** جائزة ، لكنّه لم يقرأ على النحو الأخير ، لأنّ

ـــــــــــــــــــ

١ـ «البيان في تفسير القرآن» ص ١٠٥ إلى ١١١ ، الطبعة الأُولى .

٢ـ ذيل الآية ٦٩ ، من السورة ٢٥ : الفرقان .

٣ـ مقطع من الآية ١٠ ، من السورة ٤٨ : الفتح .

٤ـ مقطع من الآية ٦٣ ، من السورة ١٨ : الكهف .

سماعه وروايته كانت على النحو الأوّل .

أمّا في سائر مواضع القرآن فقد قرأ **فِيهِ** بلا أشباع ، وقرأ **عَلَيْهِ** و**أَنسَـٰنِيهِ** بكسر الهاء ، مع كثرة الموارد التي وردت فيها ، أمّا هذه المواضع الثلاثة فقط فقد قرأها على النحو السالف . ولو لم يكن اجتهاده هكذا ، لكان ينبغي أن يقرأ على نحوٍ واحد في جميع المواضع ، ولا يقتصر على هذه المواضع فقط .

ونظير هذه الموارد ـ كما سيأتي بيانه ـ من الكثرة بحيث يستعصي على الإحصاء والحصر . فكيف يُتصوّر ـ والأمر كذلك ـ القول بأنّ الاختلاف قد نشأ من آراء ونظريّات القرّاء أنفسهم ؟!

لقد طرح الحقير خلال محاوراتي مع أُستاذي سماحة آية الله العلّامة الطباطبائيّ رضوان الله عليه أسئلة في خصوص تواتر قراءة القرّاء السبعة ، وقد أجاب العلّامة على تلك الأسئلة . وقد سجّلت تلك المحاورات على شريط مسجّل ، ثمّ نشرت بعد ارتحاله ضمن عدّة أبحاث بمناسبة ذكرى ارتحاله ، باسم «الشمس الساطعة» ، وإجمال تلك الأجوبة كالتالي :

يُعزى اختلاف القراءات إلى الرواية ، أي أنّ القرّاء قد رووا ذلك النحو من القراءة عن رسول الله . وهكذا بالنسبة إلى قراءة عاصم التي هي القراءة الدائرة في القرآن ، حيث يروي عاصم عن أمير المؤمنين بواسطة واحدة . وقضيّة اختلاف القراءات من الأُمور المهمّة في تأريخ القرآن ، ويستنتج من ذلك أنّ الأمر لم يكن بحيث إنّ القرّاء كانوا يسمعون القراءة من رسول الله بذاته ، ثمّ يروونها ، بل إنّ عدداً كبيراً (في حدود سبعين أو ثمانين نفراً أو أكثر) قد وجد في زمن رسول الله من حاملي القرآن الذين كانوا يتلون القرآن ويتعلّمونه ثمّ يعلّمونه للناس وينشرونه بينهم . فإن صادفهم إشكال في أمرٍ ما ، استفسروا عنه من النبيّ الأكرم صلّى الله عليه

وآله فيجيبهم عليه .

والخلاصة ، فإنّ قراءات القرّاء لم تكن قراءات سمعها القرّاء من رسول الله فقرأوا بها ، كما أنّها لم تكن قراءات أبتدعها القرّاء من عند أنفسهم ، بل إنّ المسلمين رأوا حملة القرآن ينحون في قراءاتهم هذا النحو ، وإنّ أُولئك الحملة قد أخذوا عن النبيّ الأكرم ، فاستقرّ في نفوسهم أنّ هذه القراءة من القارئ الفلانيّ أو الصحابيّ الفلانيّ هي قراءة مسندة إلى النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم .

وحسب قول المؤرّخين ، فإنّ الرسول الأكرم كان يقرأ القرآن بحرفَين أو أكثر ، ولذلك فإنّ اختلاف القراءات عائد إلى اختلاف قراءة رسول الله ذاته .

ولقد كان جبرائيل يأتي إلى رسول الله مرّة كلّ عام ، فيعارضه بما نزل من القرآن منذ أوّل الوحي إلى ذلك الوقت ، ويجدّد له الوحي ، وكان النبيّ يُعارض كتّاب الوحي بنفس الطريقة التي قرأ بها جبرئيل مؤخّراً ، وكان كتّاب الوحي ينشرون ذلك بين الناس . وكان هذا الوحي يختلف في نتيجة الأمر عن الوحي السابق . وبذلك فإنّ العلّة في اختلاف القراءات تستند إلى أصل اختلاف قراءة جبرئيل خلال السنوات العديدة .

وكان يمكن أن يقرأ الرسول الأكرم القرآن لفردٍ معيّن ، **كأُبيّ بن كعب** على نحوٍ في سنة ، ثمّ يقرأه عليه على نحوٍ آخر في السنة التي تليها ، وهكذا . والأمر كذلك فعلاً ، إذ نُقلت عدّة أنواع من القراءة عن كلّ واحد من القرّاء . وعلى سبيل المثال ، فإنّ **أُبيّ** كان يقرأ في هذه السنة على نحوٍ معين ، ويقرأ في السنة التي تليها على نحوٍ آخر .

والبعض يقولون أنّ ذلك الأمر هو العلّة في اختلاف القراءات .

إنّ **أُبيّ** مضافاً إلى اختلافه في القراءة مع باقي القرّاء ، فإنّ هناك

اختلافاً بين قراءاته نفسه. **ولعاصم** تلميذان ينقل كلٌّ منهما عنه القرآن من أوّله إلى آخره، وهما مختلفان بينهما في القراءة. فالتلميذ الأوّل يروي عن عاصم قراءة معيّنة، والتلميذ الثاني يروي عنه أيضاً قراءة أُخرى مختلفة. والأمر ينطبق كذلك على **أُبيّ وعبد الله بن مسعود وابن عبّاس**.

ولا يمكن أبداً القول بأنّ مثل القرّاء السبعة مثل النحويّين من أمثال **سيبويه والكسائيّ** وغيرهما الذين يختلفون في القواعد التي في أيديهم، فيقرأ أحدهم بيتاً من الشعر على نحوٍ ما، ويقرأه الآخر على نحوٍ آخر، فإنّ **أُبيّ بن كعب وزيد بن ثابت** وسائر القرّاء كانوا عرباً من أهل اللغة ومن المطّلعين على علم النحو والأدب والعربيّة، فهم يقرأون حسب لغتهم الأُمّ والقواعد التي ينتهجونها.

كلّا، لا يمكن الصيرورة إلى هذا القول، لأنّ اختلاف القراءات لم يكن نابعاً من اختلاف الاجتهاد ووجهات النظر.

بل كان اختلاف أُولئك القرّاء في الرواية، أي الرواية التي يسندونها إلى رسول الله. ولدينا روايات مثلاً في **مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ** تقول بأنّ رسول الله كان يقرأ **مَلِكِ**، كما كان يقرأ **مَـٰلِكِ**. وهو أمر يستند إلى كون كلتا الروايتين متواترةً. إذ لو لم تكن كلتا كيفيَّتَي القراءة للكلمة متواترتَين ـ كأن تكون رواية **مَـٰلِكِ** غير متواترة ـ فإنّ رواية **مَلَكِ** ستكون غير متواترة أيضاً. فمن أين سنحصل على اليقين بأنّ إحدى هاتين القراءتَين هي من القرآن حتماً؟ إذ سيُحتمل أنّ القرآن قد نزل على كيفيّة أُخرى لم تصلنا.

وينبغي العلم بأنّ القراءات المتواترة هي القراءات السبع التي تُعزى إلى **القرّاء السبعة**، مثل عاصم الذي يروي عن أمير المؤمنين عليه السلام بواسطةٍ واحدة، وابن كثير الذي أخذ عن الصحابيّ عبد الله بن السائب

ونافع الذي روى القرآن عن التابعين أمثال أبي جعفر ؛ وهي قراءات تصل إلى رسول الله بوسائط قليلة .

أمّا **القراءات الشاذّة** فهي القراءات التي أخذها الأساتيذ عن القرّاء ، فاتّخذوها قراءة لأنفسهم . والقراءات الشاذّة كثيرة ، ومنها ثلاث قراءات معروفة هي : قراءة **أبي جعفر** ، وقراءة **يعقوب** ، وقراءة **خَلف** ، تصبح مع القراءات السبع المتواترة : القراءات العشر ، وهي القراءات المعروفة . إلّا أنّ هناك ـ غير هذه القراءات الثلاث الشاذّة ـ روايات أُخرى تنقل أنواعاً أُخرى من القراءات ، وهي تدعى بالقراءات الشاذّة غير المعروفة .

وهناك طبعاً مَن يعتبر هذه الروايات الثلاث الشاذّة ، أو بعضاً منها ، روايات متواترة ، وعلى هذا القول يكون مجموع روايات القراءات المتواترة أكثر من سبع روايات .[1]

هذا هو محصل المطالب التي ذكرها سماحة الأُستاذ العلّامة رضوان الله تعالى عليه ؛ أمّا قول سماحة آية الله الخوئيّ في التفسير بأنّ القرآن عبارة عن مادّة ، وأنّ الهيئة والإعراب هي كيفيّة تلك المادّة ، وأنّ عدم تواتر الهيئة لايُلحق ضرراً بتواتر القرآن ، فينطوي على إشكال واضح ، وهو أنّ القرآن عبارة عن مجموع المادّة والهيئة ، أي ما يُسمع عند التكلّم . وأنّ الهيئة والمادّة يشكّلان أمراً واحداً يستحيل تجزئته .

أمّا ما ينفصل عن بعضه ، ففي الكتابة ، حيث يُكتب الإعراب في اللغة العربيّة منفصلاً ، مثل لفظ **ملك** التي إن تُرك بلا إعراب ، لأمكن أن يدّعي أحد بأنّ المادّة متواترة وأنّ إعرابها الذي يجعلها في هيئة **مَلِكِ** أو

ـــــــــــــــ

١ـ «الشمس الساطعة في ذكرى العلّامة الطباطبائيّ» ، القسم الثاني ، الأبحاث التأريخيّة .

مَـٰلِكِ ليس متواتراً .

أمّا عند التلفّظ ، فإنّ فصل هذين الاثنين عن بعضهما محال ؛ وأنّ المادّة كما يُحكى عنها بالتواتر أو بخبر الآحاد ، فإنّ الإعراب والكيفيّة سيُحكى عنهما لزوماً ومُقارناً مع المادّة بالتواتر أو بخبر الآحاد .

وسنقوم هنا ، بحول الله وقوّته ، بإثبات تواتر القراءات السبعة ورواية قرّائها عن طريق السماع والرواية فقط ، بدون الاجتهاد والاستنباط ، وذلك بعدّة أدلّة ، ونذكر حقيقة مصادر القرّاء ، لتتّضح حقيقة تواتر القرآن **بما هو قرآن** بلحاظ الهيئة والمادّة .

الدليل الأوّل : كلام أساطين وأعاظم علماء فنّ القراءة والمجتهدين ذوي الخبرة :

يقول **العلّامة الحلّيّ** رضوان الله عليه ، وهو أعظم علماء الشيعة ، بل أعلم علماء الإسلام ، في كتاب «تذكرة الفقهاء» :

يَجِبُ أَنْ يُقْرَأَ بِالْمُتَوَاتِرِ مِنَ الْقِرَاءَاتِ ؛ وَهِيَ السَّبْعَةُ . وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقْرَأَ بِالشَّوَاذِّ ؛ إلى أن يصل إلى قوله :

وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقْرَأَ مُصْحَفُ ابْنِ مَسْعُودٍ وَلَا أُبَيٍّ وَلاَ غَيْرِهِمَا. وَعَنْ أَحْمَدَ رِوَايَةٌ بِالْجَوَازِ إذَا اتَّصَلَتْ بِهِ الرِّوَايَةُ . وَهُوَ غَلَطٌ ؛ لِأَنَّ غَيْرَ الْمُتَوَاتِرِ لَيْسَ بِقُرْآنٍ ـ انتهى .[1]

ومع كلام هذا الرجل الجليل ، فإنّ أمثال **الجَزَريّ** الذين يحاولون إسقاط القراءات السبع عن تواترها إنّما يحاولون محالاً .

١ـ «التذكرة» ج ١ ، كتاب الصلاة ، البحث الرابع في القراءة ، الطبعة الحجريّة. ويقول العلّامة في نفس الموضع : «و يجبُ أن يقرأ بالمتواتر من الآيات ، وهو ما تضمّنه مُصحفُ عليّ عليه السلام ؛ لأنّ أكثر الصحابة اتّفقوا عليه ، وحَرقَ عثمان ما عداهُ».

يقول السيوطيّ في «الإتقان» :

وَقَالَ [ابْنُ الشَّيْخ تَقِيِّ الدِّينِ السُّبْكيّ] فِي جَوَابِ سُؤَالٍ سَأَلَهُ ابْنُ الجَزَرِيِّ : القِرَاءَاتُ السَّبْعُ الَّتِي اقْتَصَرَ عَلَيْهَا الشَّاطِبِيُّ وَالثَّلَاثُ الَّتِي هِيَ قِرَاءَةُ أَبِي جَعْفَرٍ وَيَعْقُوبَ وَخَلْفٍ ، مُتَوَاتِرَةٌ مَعْلُومَةٌ مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ. وَكُلُّ حَرْفٍ انْفَرَدَ بِهِ واحِدٌ مِنَ العَشْرَةِ مَعْلُومٌ مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ [وَ آلِهِ] وَسَلَّمَ. لَا يُكَابِرُ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا جَاهِلٌ.[1]

الدليل الثاني : إنّ العلماء قالوا : إنّ القراءة سُنّة واجبة الاتّباع ، ينحصر دليلها في السماع والرواية ، وليس للنظر والاجتهاد دخل في ذلك. وقد جاء في مقدّمة «مجمع البيان» أنّه كان جائزاً في صدر الإسلام أن يُقرأ المعنى الواحد بعدّة ألفاظ مترادفة ، مثل **هَلُمَّ وأَقْبِلْ وتَعَالَ** ، بَيدَ أنّهم كانوا مقيّدين بالسماع ، ولم يكن مجازاً لأحد منهم أن يغيّر اللفظ بمشيئته ويستعمل اللفظ المرادف ، بل كانوا يسعون إلى جعل قراءتهم مطابقةً لما يصلهم عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، وكانوا يسمعون أحياناً لفظين مختلفين ، فيعتمدون عليهما معاً. وكان باقي القرّاء يعتمدون على السماع أيضاً.

ومن جملة الشواهد على هذا الأمر ، أنّ قواعد العربيّة تجيز في بعض الموارد كلا اللفظين ، بَيدَ أنّهم لم يكونوا يختارون القراءة التي تعجبهم ، بل كانوا ينظرون إلى الرواية والنقل عن رسول الله فيتبعونهما.

وفي قواعد العربيّة أنّ ياء آخر الكلمة إذا وقعت بعد حرف ساكن ، يجب أن تفتح ،كما في :

١ـ «الإتقان في علوم القرآن» ج ١ ، ص ١٠٢ ، الطبعة الأُولى.

قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ،[1]

حيث إنّ الياء في **مَحْيَاىَ** تُقرأ مفتوحةً لوقوعها بعد الألف الساكنة. أمّا لو لم تعقب حرفاً ساكناً، جاز قراءتها بالسكون أو الفتحة، مثل ياء لفظ **مَمَاتِى** التي يجوز قراءتها بالسكون أو بالفتحة.

بَيدَ أنّ القرّاء ـ مع وجود هذا الاختيار ـ لم يختاروا السكون أو الفتحة، بل تقيّدوا بالسماع، فقرأوا بأجمعهم بالسكون في كلماتٍ مثل: **لِى**، و**مَسَّنِى**، و**عَهْدِى** وأمثالها التي تبلغ مواردها ٥٦٦ مورداً، وقرأوا بالاتّفاق بالفتح في ١٨ مورداً، وفي الموارد الأُخرى التي يبلغ عددها ٢١٢ مورداً، فقد قرأ بعضهم بالسكون ورَفَضَ الفتح، وقرأ البعض بالفتح ورفض السكون، ولم يقرأ أيّ قارئ بكلا الوجهين، لأنّ سماعه كان على نحوٍ واحد.

أمّا بالنسبة لنا، فيجوز أن نتابع أحد القرّاء في قراءته بأحد هذين النحوين فيما يتعلّق بالموارد البالغة ٢١٢ مورداً. أمّا في الموارد الأُخرى التي قرأ فيها جميع القرّاء بالسكون، فإنّ علينا القراءة بالسكون، ولا يجوز لنا القراءة بالفتح.

ولا يمكننا ـ على سبيل المثال ـ أن نقرأ الآية المباركة: **إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً**.[2] بفتح ياء **إِنِّى**، لأنّ القرّاء لم يقرأوها على هذا النحو، على الرغم من أنّ قواعد العربيّة تجيز قراءة الياء الواقعة بعد حرف متحرّك على وجهين.

ومن جملة الشواهد الحيّة على كلامنا، الياء الزائدة في نظائر **يَوْمَ يَدْعُ**

١ـ الآية ١٦٢، من السورة ٦: الأنعام.

٢ـ مقطع من الآية ٣٠، من السورة ٢: البقرة.

ٱلدَّاعِ؛[1] **وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ**؛[2] **وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ**؛[3] حيث لا يجوز وفقاً لقراءة عاصم (في القراءة المتداولة المشهورة) قراءة الياء غير المكتوبة، سواء في الوقف أو الوصل. وينبغي في آية **لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ** [4] أن يُقرأ لفظ **دِينِ** بكسر النون عند الوصل، و**دِينِى** بإظهار الياء عند الوقف.

أمّا الآخرون (غير عاصم) من أمثال **نافع**، و**ابن كثير** و**أبي عمرو** فقد قرأوا في سورة القمر **إِلَى ٱلدَّاعِى** بدلاً من **إِلَى ٱلدَّاعِ**؛[5] وقرأوا في نفس السورة **يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ** بلا ياء. وهم بالتأكيد لم ينسوا، وليس هناك سبب يحدوهم إلى ذلك إلّا أن يكونوا قد سمعوا في المورد الأوّل تلك القراءة، وفي المورد الثاني هذه، فكانوا مقيّدين بالسماع.

الدليل الثالث: إنّ جميع النحويّين والأُدباء متّفقون فيما يتعلّق ببعض الكلمات، بإمكان قراءتها في الجمل التي وردت فيها بقراءتين، أمّا القرّاء فقد قرأوها على نحوٍ واحد.

فمثلاً كلمة **مُصَدِّقٌ** في الآية المباركة: **وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ**،[6] يقرأها القرّاء مرفوعة على أنّها صفة إلى رسول، بينما يقول في «مجمع البيان» بأنّه يحسن نصب مصدّق على الحال، إلّا أنّه لا يجوز في القراءة إلّا الرفع، لأنّ القراءة **سُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ**.

كما أنّ رفع كلمة **مُصَدِّقٌ** فى القراءة ليس بسبب مراعاة رسم الخطّ،

١ـ مقطع من الآية ٦، من السورة ٥٤: القمر.

٢ـ الآية ٤، من السورة ٨٩: الفجر.

٣ـ ذيل الآية ٤١، من السورة ٢: البقرة.

٤ـ الآية ٦، من السورة ١٠٩: الكافرون.

٥ـ مقطع من الآية ٨، من السورة ٥٤: القمر.

٦ـ صدر الآية ١٠١، من السورة ٢: البقرة.

إذ إنّ القرّاء قرأوا على نحوٍ واحد في كلماتٍ لا يتفاوت رسم الخطّ فيها في حالَتي النصب والرفع، مثل: **فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً**[1] التي قرأها جميع القرّاء بالنصب على الحال، مع أنّ بإمكانهم قراءتها بالرفع على أنّها خبر ثانٍ لـ **تِلْكَ**.

الدليل الرابع: يُجمع علماء العربيّة على أنّ القرآن الكريم هو الركيزة الأساسيّة لقواعد اللغة العربيّة، وأنّها الركن الأساس الذي يقوم عليه النحو والصرف والمعاني والبيان والاشتقاق وسائر فنون العربيّة. ويمكن الاستشهاد بعبارة من القرآنٍ لتأييد مطلب ما، في حال كون تلك العبارة قد نُقلت عن النبيّ بالرواية والسماع، وليس اعتماداً على القياس والقاعدة، وإلّا لزم الدور، إذ سيكون الاستشهاد بالقرآن متوقّفاً على قاعدة وقانون أهل اللغة، وهذه القاعدة وهذا القانون متوقّفان بدورهما على أصالة القرآن، وهو دور صريح.

وبناءً على ذلك، فإنّ الأدلّة والشواهد التي ذكرها القرّاء وتلامذتهم وأتباعهم لإثبات إدّعاءاتهم ودحض وإضعاف ما يدّعيه خصومهم، من الأدلّة الواردة في كتب القراءات والكتب التفسيريّة، قد جاءت تأييداً للمسموعات ودعماً للعلّة بعد الوقوع، وليس دعماً للآيات وتصحيحاً للإعراب وهيئات القراءة وكيفيّاتها.

إنّ علم النحو والعربيّة هو المُعين على حفظ القرآن من خطر زوال العربيّة، وتصحيحاً لقواعد العربيّة الكاشفة عن أصالة القرآن ومتانته، حيث إنّنا حين نعلم كيفيّة الأداء الصحيح لكلمةٍ ما في العربيّة، وحين نعلم أنّ القرآن قد نزل بالعربيّة الصحيحة، فإنّنا سنميّز الصحيح من السقيم.

١ـ صدر الآية ٥٢، من السورة ٢٧: النمل.

أمّا لو كانت الكلمة العربيّة الصحيحة الخالصة تُقرأ على نحوين ، فإنّ علينا في إثبات قرآنيّتها أن نتمسّك بالنقل والسماع ، وليس بالاجتهاد والنظر .

فمثلاً بالنسبة إلى لفظ **قَدَر** ، قال اللغويّون بأنّه يجيء على نحوين ؛ بفتح الدال وسكونها . بَيدَ أنّه مع كون كِلا النحوين صحيحاً في اللغة والأدب ، فإنّ بعض القرّاء قرأ آية **عَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُ** [1] بفتح **(قَدَر)** ، بينما قرأها البعض الآخر **(قَدْر)** بسكون الدال .

أمّا آية **جِئتَ عَلَىٰ قَدَرٍ** ، وآية **إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ** ،[2] وآية : **وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ** ،[3] فقد قرأ فيها جميع القرّاء بالفتح ، بينما قرأوا بأجمعهم في آية : **قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا** [4] بالسكون .

ومع فرض كون القرّاء مختارين في قراءة القرآن وفي انتخاب واحدٍ من هذين الوجهَين ، فكيف يُتصوّر أنّ جميع القرّاء يختارون وجهاً واحداً دون غيره ؟ إنّ هذا ليس إلّا التقيّد عند القراءة بالسماع والنقل .

الدليل الخامس : من الشواهد والأدلّة التي يمكن إقامتها على انحصار طريق القراءة في الرواية ، هو أنّنا نشاهد أنّ القرّاء قد عملوا وفق القاعدة والميزان المشهور المتعارف في قراءة جميع الكلمات ، لكنّهم تخلّفوا عن القاعدة المشهورة في خصوص بعض الكلمات ، وعملوا ـ دونما سبب وعلّة ـ خلاف المشهور في العربيّة ، مع علمهم جيّداً بذلك المشهور .

١ـ مقطع من الآية ٢٣٦ ، من السورة ٢ : البقرة .

٢ـ ذيل الآية ٢١ ، من السورة ١٥ : الحجر .

٣ـ صدر الآية ١٨ ، من السورة ٢٣ : المؤمنون .

٤ـ ذيل الآية ٣ ، من السورة ٦٥ : الطلاق .

فعلى سبيل المثال، جاء في سورة يوسف أنّ إخوته قالوا لأبيهم:
قَالُوا يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ.[1]

فالنونَين في كلمة **لَا تَأْمَنَّا** ينبغي ألّا تُدغمان وفقاً للقاعدة العربيّة، وأن تُقرأ الكلمة بفكّ الإدغام، أي أن تُقرأ **لَا تَأْمَنُنَا**، وذلك لأنّها ستُفسّر اشتباهاً بمعنى **لَا تَأْمَنَّا** التي هي صيغة نهي، أي يجب ألّا تأتمننا.

بَيدَ أنّ حفص الذي يروي عن عاصم، قد رواها بالإدغام، وقرأها **بالإشمام** رفعاً للاشتباه والخطأ. والإشمام عبارة عن ضمّ الشفتين كمن يريد التلفّظ بالضمّة ـ وهو إشارة إلى أنّ الحركة المحذوفة من النون هي الضمّة ـ دون أن يُظهِر أثر لهذه الضمّة في التلفّظ.

ولهذا، صاروا يضعون على الميم (بما يقترب بعض الشيء من النون) علامةً للإشمام هي مضلّع لوزيّ الشكل أجوف، وذلك في المصاحف التي طُبعت مؤخّراً، وهي أفضل المصاحف التي طُبعت حتّى الآن بلحاظ رسم الخطّ، فتصبح الكلمة: **(لَا تَأْمَنَّا)**.

أيمكن أن يُعزى عمل حفص هنا إلى شيء غير التعبّد الصرف مقابل السماع؟

وكمثل قول قوم فرعون له في إمهال موسى وأخيه: **قَالُوٓا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ**،[2] التي وردت في سورتَي الأعراف والشعراء، حيث قرأ حفص **أرْجِهْ** بسكون الهاء، بينما ينبغي في جميع القرآن، وفقاً للمشهور، أن يكسر الضمير وتشبع الكسرة لتُلفظ **أَرْجِهِى**، لكنّه لم يفعل. ونظير **أَرْجِهْ**،

١ـ الآية ١١، من السورة ١٢: يوسف.

٢ـ صدر الآية ١١١، من السورة ٧: الأعراف؛ وصدر الآية ٣٦: من السورة ٢٦: الشعراء.

خطاب النبيّ سليمان للهدهد بأنّه سيكتب رسالة لملكة سبأ ، وأنّ على الهدهد أن يُلقها إليهم ثمّ يتولّى فينظر ردّ فعلهم .

ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ.[1]

حيث قرأ حفص في هذه الآية أيضاً لفظ **فَأَلْقِهْ** بسكون الهاء ، مع أنّ عليه ـ وفقاً للمشهور ـ أن يقرأه **أَلْقِهِى**.

وحفص هذا ، قد قرأ نظائر هذين الموردين في جميع القرآن بإشباع كسرة الهاء متابعةً للمشهور . فهل يمكن حمل عمله على شيء غير التمسّك بالسماع ؟

ولقد قرأ حفص آية : **وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ**،[2] فلم يُشبع الضمّة على هاء الضمير في **يَرْضَهُ** بحيث تُسمع الكلمة عند التلفّظ **يَرْضَهُو** ؛ إلّا أنّ عدم إشباع ضمّة الضمير ينحصر في هذا المورد دون سواه .

وقد ذكرنا مؤخّراً أنّ حفص أشبع كسرة هاء الضمير في : **يَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا**[3] بحيث صار يُسمع عند التلفّظ **فِيهِى** ،كما أنّه ضمّ هاء الضمير في **عَلَيْهُ** في الآية : **وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا**،[4]

أجل ، يتّضح ممّا قلناه أنّ أحداً إذا شاء أن يقرأ في هذه الموارد وفقاً للقراءة المشهورة ،كأن يقرأ **بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ** بكسر الهاء ، أو **يَخْلُدْ فِيهِ** بدون إشباع للكسرة ، أو **يَرْضَهُ** بإشباع ضمّة الضمير ، وأمثال ذلك من القراءات ، بنيّة قراءة القرآن تبعاً لقراءة حفص ، فإنّه سيكون قد أخطأ في قراءته ،

١ـ الآية ٢٨ ، من السورة ٢٧ : النمل .

٢ـ مقطع من الآية ٧ ، من السورة ٣٩ : الزمر .

٣ـ ذيل الآية ٦٩ ، من السورة ٢٥ : الفرقان .

٤ـ ذيل الآية ١٠ ، من السورة ٤٨ : الفتح .

وهذا فقط تابع إلى التعبّد بالسماع .

ويمكن من خلال ذلك إدراك أنّ ما أفتى به بعض الفقهاء الأعلام في العصر الأخير في قوله : «الأقوى عدم وجوب متابعة القراءات السبع ، بل يكفي في ذلك القراءة حسب قانون العربيّة ، ولو خالف في الحركات والإعراب للقرّاء السبعة» يمثّل قولاً غير صائب ، إذ سيمكننا في هذه الحال أن نقرأ وفق ما نشاء ، كأن نقرأ : **إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً** بفتح ياء **إِنِّى** لتصبح **إِنِّيَ** ؛ أو أن نقرأ بقراءة : **تِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ** أو بقراءة : **وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِنَ ٱللَهِ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ**.

فهل سيبقى من القرآن شيء في مثل هذه الحالة ، أم أنّ قراءتنا ستكون قرآناً جديداً ؟!

وعلى هذا الأساس ، فإنّ مَن قالوا : «يجوز قراءة القرآن وفقاً للروايات والقراءات الشاذّة غير المتواترة» قد اشترطوا أن تكون القراءة تبعا لقراءة أحد القرّاء المعروفين ، وأن تثبت تلك القراءة بسند صحيح .

وبغضّ النظر عن ذلك ، فإنّ هذه القراءة ـ أساساً ـ قراءةٌ غير صحيحة ، لأنّها ليست قرآناً ، إذ القرآن عبارة عمّا أوحاه جبرائيل إلى النبيّ الأكرم ، وهو عبارة عن مادّة وهيئة . فإن نحن غيّرنا القرآن بمشيئتنا وفقاً للقواعد العربيّة ، فإنّنا لن نكون قد قرأنا قرآناً .

فمن الممكن أن يُفتي فقيهٌ ما بكفاية القراءة المغلوطة في الصلاة ، كأن يقول بأنّ ترك القراءة في الصلاة سهواً لا يُبطلها . ولكن هل بإمكانه أن يُفتي بأنّ القراءة المغلوطة هي قراءة للقرآن ؟

أجل ، فقد اتّضح ممّا أوردنا في هذا المجال عدم صحّة كلام «جواهر الكلام» وتفسير «البيان» في إصرارهما على عدم تواتر القراءات . وقد استفدنا كثيراً من هذه المطالب من كلام المرحوم آية الله الشعرانيّ

رضوان الله عليه ؛[1] كما أنّنا سنورد فيما يلي مطالباً منه مع توضيحات لنا حول عدم تماميّة التواتر بين القرّاء وبين رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم من جهة ، وبيننا وبين القرّاء من جهة أُخرى ؛ وفي شخص القرّاء من جهة ثالثة ، حيث يصبح آنذاك من أخبار الآحاد ـ الذي جرى الاستدلال به في تفسير «البيان» ـ فنقول :

إنّ التواتر قد يختصّ أحياناً بطائفة معيّنة أو بأهل مدينة خاصّة ، أو يختصّ بمحلّةٍ واحدة أو بفردٍ واحد دون أن يعلم عنه الآخرون شيئاً . وعلى سبيل المثال ، فإنّ الشيخ الطوسيّ كان متأخّراً عن الشيخ التلعكبريّ مسلّماً بالتواتر ، وهو أمر يعلمه علماء الرجال فقط ؛ كما أنّ الإسكندر المقدونيّ قد عاش قبل النبيّ عيسى على نبيّنا وآله وعليه السلام ، وهذا التواتر ثابت عند المؤرّخين .

وأنّ مقبرة البقيع تقع في شرق المدينة المنوّرة ، ويقع قبر مالك بن أنس في مدخلها ، وهو أمر مشهور بالتواتر لدى أهل المدينة ، وقبور علماء وأعلام كلّ مدينة هي أمر ثابت بالتواتر لسكنة المدينة ، كما أنّ نسب أفراد كلّ عائلة معلوم بالتواتر لديهم .

ولقد سمعتُ في طهران من بعض أساتذتي ـ الذين لا يُعلم عنهم التواطؤ على الكذب ، ولا يمكنهم ذلك ـ بأنّ أُستاذ الحكماء الميرزا أبا الحسن جِلوه قُدّس سرّه كان يرجّح حكمة ابن سينا على الملّا صدرا ؛ وأنّ المرحوم الحكيم المحقّق آقا محمّد رضا القمشئيّ كان يرجّح فلسفة الملّا صدرا ، وهذا الأمر متواتر لدينا ، وليس لدى عامّة الناس .

إنّ التواتر ليس أمراً مشهوراً للعامّة ، وليس أمراً يعلمه الجميع . وإنّ

١ـ تفسير «منهج الصادقين» ج ١ ، ص ٨ إلى ١٠ ، المقدّمة ، الطبعة الحروفيّة.

كلّ واحد من **القرّاء السبعة** كانت قراءته عن النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم وأصحابه متواترة لديه ، وإنّه تعلّم القرآن حسب نقل كلّ واحد من مشايخه وأساتذته المتعدّدين الذين لا يحتمل تواطؤهم على الكذب ، وكانت قراءته موافقة لمصحف مدينته أو لمصحف مدينة أُخرى ، والذي كان متواتراً بدوره .

وبعد بيان هذه المقدّمة ، نقول : إنّ تواتر قراءة القرّاء السبعة قد تحقّق في الجانبين : من جانب القرّاء وصولاً إلى رسول الله ؛ ومن جانبنا وصولاً إلى القرّاء .

أمّا من الجانب الأوّل الذي اعتمد فيه القرّاء السبعة على التواتر ، فيثبت بعدّة أدلّة :

الدليل الأوّل : أنّ كلّ واحد من القرّاء كان قد اختار قراءته التي كانت متواترة لديه ، ولم يختر أحدٌ منهم قراءة الآخر . ولو أنّهم عملوا وفقاً لروايات الآحاد واكتفوا بها ، للزم أن يقبلوا بجميع تلك القراءات .

ولو قال أحد : إنّ عدم قبولهم بقراءات بعضهم نابع من عدم ثقتهم ببعضهم ، لكان كلاماً جزافاً لا يُعقل .

الدليل الثاني : أنّ أحداً لو قرأ على مدى القرون التأريخيّة الإسلاميّة قراءةً مخالفة للقراءة المشهورة ، لطُعن عليه ولتعرّض للّوم والهجوم ، فإنّ حدث ذلك في زمن الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم ، فإنّهم كانوا يستفسرون منه ، فإن أقرّ ذلك زال الطعن واللوم ، وإلّا فإنّهم كانوا يُرجِعُونه إلى القراءة المشهورة ، حتّى لو كان من القرّاء المشهورين من أمثال **أُبيّ بن كعب** .

وعليه ، فالقراءة الشاذّة التي لا يعدّها الناس ، كانت مرفوضةً حتّى لو قرأ بها أحد القرّاء المشهورين . ولم يكن يُكتفى بقول القارئ وحده بأنّه

سمع من النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم .[1]

الدليل الثالث : أنّ عبد الله بن مسعود وحُذيفة وبعض الصحابة الآخرين قد طلبوا من عثمان إزالة القراءات الشاذّة ، وسوق الأمّة إلى القراءات المشهورة ، فاستجاب عثمان لطلبهم ، فأحرق جميع المصاحف الأُخرى . وهذا العمل دليل على أنّ القراءات الشاذّة المنقولة بخبر واحد كانت تبدو في النظر شنيعة وقبيحة ، أمّا القراءات المتواترة المشهورة فمطلوبة مستحسنة .

غاية الأمر ، أنّ اعتراضهم على عثمان لأنّه ، أولاً : أحرق المصاحف ، وهو هتك لحرمة القرآن ، وثانياً : أضاع بهذا العمل مع القراءات الشاذّة كثيراً من القراءات المتواترة ، كقراءة **ابن مسعود**، وقراءة **أُبيّ بن كعب** ، وهو خسارة عظيمة .

الدليل الرابع : أنّ قراءة السبعة تنتهي إلى أحد صحابة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وقرّاء زمن النبيّ ، من أمثال **أُبيّ وابن عبّاس وابن مسعود** وأمثالهم . ونحن نرى في نفس الوقت من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم هؤلاء قراءات أُخرى منقولة برواية واحدة ؛ وقد ذكرت هذه القراءات في التفاسير وقيل عنها بأنّها لم تكن من القرّاء وإنّ أحداً لم يقبل بها .

١ـ إنّ القراءات التي لم تثبت بالتواتر ليست مقبولة حتّى لو كانت لأحد القرّاء السبعة، لأنّ جميع قراءات القرّاء السبعة ليست متواترة . بمعنى أنّها لم تصلنا عن طريق التواتر. وأحد أمثلة شواذّ قراءات القرّاء السبعة ، قراءة أبي عمرو بن العلاء للآية ٨٧، من السورة ٢ : البقرة على النحو التالي : **وَءَايَدْنَاهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُوسِ** ، بدلاً من : **أَيَّدْنَـٰهُ** ؛ وعلى الرغم من كون أبي عمرو من القرّاء السبعة ، فإنّ قراءته عدّت من الشواذّ التي لا يجوز قراءتها، لأنّها لم تُنقل بالتواتر.

ونستخلص من ذلك أنّ القراءات التي نقلت بالتواتر عن **أُبيّ وابن عبّاس وابن مسعود** كانت قراءات مقبولة، وأنّ القراءات التي نقلت بأخبار الآحاد لم تُقبل.

فإن كان عمل القرّاء قائماً على قبول كلّ قراءة ولو نقلت بأخبار الآحاد، للزم من ذلك أن تُقبل جميع تلك القراءات، وتصبح قراءات رسميّة.

وأمّا من الجانب الثاني، وهو وصول قراءة القرّاء إلينا بالتواتر، فنقول: لقد كانت قراءات القرّاء السبعة هي القراءات المشهورة والمتداولة منذ زمن القرّاء السبعة وإلى عصرنا هذا. وجميع المسلمين، من الشيعة والعامّة والخوارج، في شرق العالم وغربه يقرأون القرآن ويحفظونه تبعاً لإحدى هذه القراءات.

وقد تخصّص جمع من العلماء في فنّ حفظ القراءات؛ ومن المحال، مع حضور واطّلاع الناس في أرجاء العالم، أن تكون القراءات المنسوبة إلى أُولئك القرّاء في الكتب المتداولة مُفتراةً ومختلَقة.

فقد ذكر **الدانيّ والشاطبيّ والجزريّ** كلّاً في كتابه[1] قراءة كلّ واحد من القرّاء السبعة وغيرهم.

ومع أنّ مؤلِّف الكتاب شخص واحد، إلّا أنّ شاهد صدقه أنّ آلافاً من العلماء بالقراءات قد عدّوا هذه الكتب كتباً معتبرة. والتواتر يتحقّق بلحاظ كثرة الشهود، من غير ضرورة لكثرة المؤلِّفين.

وقد رُويتْ في هذه الكتب قراءات عن **الحسن البصريّ وابن**

١ـ وهي على التوالي: «التيسير»؛ «حرز الأماني في القراءات السبع» (=الشاطبيّة)؛ و«النَّشر في القراءات العشر». (م)

مُحيصِن وأمثالهما ، لكنّ هذه القراءات تفتقر إلى آلاف الشهود الذين شهدوا لصالح القراءات السبع ولمن يشهدوا على هذه القراءات ، لأنّها لم تكن قراءات متداولة .

ولذلك ، فإنّ القراءات السبع متواترة بالنسبة لنا ، وقراءاتهم أخبار آحاد . ولو نقل امرؤ في زمننا هذا ، في حضور جمع من العلماء المطّلعين على أقوال الشيخ الأنصاريّ مطلباً عن كتاب تقريرات الشيخ ، فكان هذا النقل في حضور هؤلاء متواتراً . أمّا لو نقل أحد مطلباً عن عالم غير مشهور في حضور هؤلاء العلماء ، ولم يكن لهم علم بأقواله ، لكان هذا النقل من أخبار الآحاد .

ولو قيل بأنّ طرق قراءات القرّاء السبعة المذكورة في كتب القراءة ، كانت بأجمعها بطريق الآحاد ؛ فنقول في إجابته : إنّ إسناد القراءة هو للتبرّك ، شأنه شأن الإسناد الذي يذكره علماء عصرنا للكتب المتواترة من أمثال «الكافي» و«التهذيب» .

وأحد القرّاء الذين لم يشترطوا التواتر هو الجزريّ ، وقد تعرّض للانتقاد على هذا الرأي ، ومن جملة من اعترض عليه تلميذه : **أبو القاسم النُوَيريّ** في شرح «طيّبة النشر» ، حيث قال بأنّ عدم اشتراط التواتر هو قول مُبتكر يخالف إجماع الفقهاء والمحدِّثين وغيرهم ، لأنّ القرآن لدى جمهور أئمّة المذاهب الأربعة عبارة عمّا بين الدفّتين الذي ثبت لنا بالنقل المتواتر .

وقد صرّح بهذا المطلب طائفة من الأعلام من أمثال : **ابن عبد البرّ** ، وا**بن عطيّة والنوويّ والزَّركَشيّ والسُّبْكيّ والإسنَويّ والأذرِعيّ** ، كما أجمع عليه القرّاء ، ولم يخالفه من المتأخّرين سوى **المكّيّ** .

كما قال مؤلّف كتاب «إتحافُ فضلاء البشر» : وحاصل الأمر أنّ قراءة

القرّاء السبعة أمرٌ متّفق عليه ، وهكذا بالنسبة للثلاثة الآخرين : **أبي جعفر ويعقوب وخلف** على الأصحّ . وكتاب «الإتحاف» هو أفضل الكتب المتأخّرة وأجمعها ، وقد ذكر ذلك فقهاؤنا وعلماؤنا في الأُصول ، ونقل كلماتهم في المقام يجرّنا إلى الإطالة .[١]

١ـ تفسير «منهج الصادقين» (بالفارسيّة) ج ١ ، مقتطفات من الصفحات ١١ و١٢ و١٣ ، المقدّمة.

يقول العالم الجليل والمنصف الخبير الشيخ محمود أبو ريّة المصريّ في كتابه النفيس القيّم: «أضواء على السنّة المحمّديّة» ص **٢٥٣** إلى **٢٥٦** ، الطبعة الثانية ، تحت عنوان **تعقيبٌ لابدّ منه:**

وإذا كانوا ـ كما قلنا ـ قد أوفوا على الغاية من التحقيق في كتابة القرآن الكريم وحفظه حتّى لايستطيع أحد أن يُماري في ذلك . أو يحيك بصدره شيء من الريب فيه ، فقد قامت حول هذا الأمر الخطير أُمور سمّوها **مشكلات** ، نرى من الواجب أن نشير إلى بعضها حتّى لايأخذ علينا أحد أنّنا قد أغفلنا شيئاً ممّا يجب أن يعلمه قرّاء كتابنا عن الرواية وما جنت، وهو ما يتّصل بموضوعنا **وَفِي كُلِّ وَادٍ أَثَرٌ مِنْ ثَعْلَبَة !**

قال العلّامة طاهر الجزائريّ في كتابه «التبيان» وهو يتكلّم عن وجوب تواتر القرآن وما ورد على ذلك من مشكلات:

وهنا مشكلات ترد على أصل وجوب تواتر القرآن نذكرها مع الجواب عنها:

المشكل الأوّل : نقل عن ابن مسعود أنّه كان ينكر سورة الفاتحة والمعوّذتين من القرآن، وقد أنكر صحة النقل عنه كثير من العلماء . قال **النوويّ** في «شرح المهذّب» : أجمع المسلمون على أنّ المعوّذتين والفاتحة من القرآن وأنّ من جحد شيئاً منها كافر . وما نقل عن ابن مسعود باطل ليس بصحيح . وقال ابن حزم في كتاب «القدح المعلّى تتميم المحلّى» هذا كذب على ابن مسعود وموضوع ، وإنّما صحّ عنه قراءة عاصم عن زرّ عنه . وفيها المعوّذتان والفاتحة.

وقال ابن حجر في «شرح البخاريّ» قد صحّ عن ابن مسعود إنكار ذلك فأخرج أحمد وابن حيّان عنه أنّه كان لا يكتب المعوّذتين في مصحفه ـ وبعد أن أورد كلّ الروايات التي جاءت في أنّ ابن مسعود كان يحكّ المعوّذتين من مصاحفه قال (ابن حجر) : فقول من ⇦

....

⇦ قال إنّه كذب عليه مردود ، والطعن في الروايات الصحيحة بغير مستند لا يقبل !!

وقال **ابن قتيبة** في «مشكل القرآن» : ظنّ ابن مسعود أنّ المعوّذتين ليستا من القرآن، لأنّه رأى النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم يعوّذ بهما الحسن والحسين فأقام على ظنّه، ولانقول إنّه أصاب في ذلك وأخطأ المهاجرون والأنصار . وأمّا إسقاطه الفاتحة من مصحفه فليس لظنّه أنّها ليست من القرآن ؛ معاذ الله ! ولكنّه ذهب إلى أنّ القرآن إنّما كتب وجمع بين اللوحين مخافة الشكّ والنسيان ، والزيادة والنقصان ، ورأى أنّ ذلك مأمون في سورة الحمد لقصرها ووجوب تعلّمها على كلّ أحد...

المشكل الثاني : نقل عن زيد بن ثابت أنّه قال في أثناء ذكره لحديث جمع القرآن في المصحف ـ وهو الجمع الأوّل ـ وكان ذلك في عهد أبي بكر الصدّيق : فقمتُ فتتبّعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب وصدور الرجال حتّى وجدت من سورة التوبة آيتين مع أبي خزيمة الأنصاريّ ، لم أجدهما مع أحد غيره : **لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم** ... إلى آخرها (الآية ١٢٨ ، من السورة ٩ : التوبة) ونقل عنه أنّه قال: لمّا نسخنا المصحف في المصاحف فقدت آية من سورة الأحزاب ، كنت أسمع رسول الله صلّى الله عليه وآله يقرؤها لم أجدها مع أحد إلّا مع خزيمة الأنصاريّ الذي جعل رسول الله صلّى الله عليه وآله شهادته شهادة رجلين : **مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَـٰهَدُوا ٱللَّهَ عَلَيْهِ** (الآية ٢٣ ، من السورة ٣٣ : الأحزاب) ؛ وقد وقع هذا في الجمع الثاني ، وكان ذلك في عهد عثمان.

وقد اختلف المتكلّمون في ذلك ، فقال بعضهم : إنّ هذا الخبر ، وإن كان مخرجاً في الصحيحين (البخاريّ ومسلم) غير صحيح ، لاقتضائه أنّ الآيات الثلاث المذكورة قد ثبتت بغير طريق التواتر ، وهو خلاف ما يقتضيه الدليل المذكور ، وقال بعضهم : ليس في الخبر المذكور ما يقتضى ثبوت الآيات المذكورة بغير طريق التواتر ، لاحتمال أن يكون زيد قد أراد بقوله: لم أجدها مع غير فلان : لم أجدها مكتوبة عند غيره ، وهو لا يقتضي أنّه لم يجدها محفوظة عند غيره . وقال بعضهم : إنّ الدليل المذكور إنّما يقتضي كون القرآن قد نقل على وجه يفيد العلم ـ وإفادة العلم قد تكون بغير طريق التواتر ، فإنّ في أخبار الآحاد ما يفيد العلم، وهي الأخبار التي احتفّت بها قرائن توجب ذلك ـ وعلى هذا فنحن لا نستبعد أن يكون في القرآن ما نقل على هذا الوجه ، وذلك كالآيات الثلاث المذكورة ، إذ المطلوب ⇦

....

⇦ حصول العلم على أيّ وجه كان ، وقد حصل بهذا الوجه.

وهذا القول في غاية القوّة والمتانة ، ولا يرد عليه شيء ممّا يرد على مَن أفرط في هذا الأمر أو فرّط عليه.

المشكل الثالث : روى البخاريّ عن قتادة أنّه قال : سألت أنس بن مالك ، مَن جمع القرآن على عهد رسول الله صلّى الله عليه وآله ؟ فقال : أربعة كلّهم من الأنصار ، **أُبيّ بن كعب** ، و**معاذ بن جبل** ، و**زيد بن ثابت** ، و**أبو زيد** . قلت : مَن أبو زيد ؟ قال : أحد عمومتي ، وروى من طريق ثابت عن أنس أنّه قال : مات النبيّ صلّى الله عليه وآله ولم يجمع القرآن غير أربعة، **أبو الدرداء** ، و**معاذ بن جبل** ، و**زيد بن ثابت** ، و**أبو زيد** . وفيه مخالفة لحديث قتادة من وجهين : التصريح بصيغة الحصر في الأربعة ، والآخر ذكر **أبا الدرداء** بدل أُبيّ بن كعب.

وقد استنكر جماعة من الأئمّة الحصر في الأربعة . وقال **المازريّ** : لا يلزم من قول أنس لم يجمعه غيرهم ، أن يكون الواقع في نفس الأمر كذلك ، لأنّ التقدير أنّه لا يعلم أنّ سواهم جمعه، وإلّا فكيف الإحاطة بذلك مع كثرة الصحابة وتفرّقهم في البلاد ، وهذا لا يتمّ إلّا إن كان لقى كلّ واحد منهم على انفراده ، وأخبره عن نفسه أنّه لم يكمل له جمع القرآن في عهد النبي صلّى الله عليه وآله ، وهذا في غاية البعد في العادة ، وإذا كان المرجع إلى ما في علمه، لم يلزم أن يكون الواقع كذلك....

وأخرج النسائيّ بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو أنّه قال : جمعتُ القرآن فقرأت به كلّ ليلة فبلغ النبيّ صلّى الله عليه وآله فقال : اقرأه في شهر ـ الحديث.

وأخرج ابن أبي داود بسند حسن عن محمّد بن كعب القرظيّ قال : جَمع القرآن على عهد رسول الله صلّى الله عليه وآله خمسة من الأنصار ، **معاذ بن جبل** ، و**عبادة بن الصامت** ، و**أُبيّ بن كعب** ، و**أبو الدرداء** ، و**أبو أيّوب الأنصاريّ** .

وقد اعترض الإسماعيليّ على إخراج حديثَي أنس معاً في الصحيح مع اختلافهما فقال: هذان الحديثان مختلفان ، ولا يجوز أن يكونا في الصحيح مع تباينهما ، بل الصحيح أحدهما. وجزم البيهقيّ بأنّ ذكر أبي الدرداء وَهْم والصواب أُبيّ بن كعب . وقال الداوديّ : لا أرى ذكر أبي الدرداء محفوظاً ، والصحيح هو الرواية الأُولى.

وأمّا الرواية الثانية فالظاهر أنّ بعض الرواة «رواها بالمعنى» فزاد فيها الحصر لتوهّمه ⇦

ويجب أن نبحث في هذا المجال في حديثين مشهورَين :

أوّلهما : ما ورد في الحديث النبويّ : **إنَّ هَذَا القُرآنَ أُنزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ** .

وثانيهما : ما ورد عن الأئمّة عليهم السلام : **اقْرَأْ كَمَا يَقْرَأُ النَّاسُ** .

لقد بحث سماحة الأُستاذ الأكرم آية الله الخوئيّ مدّ ظلّه الشريف في تفسير «البيان» حول سند ومضمون الحديث الأوّل بالتفصيل .

وقد قام أوّلاً ببحث ما تصوّره البعض خطأً من أنّ الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن هي القراءات السبع ، ثمّ تعرّض لبحث أمر عدم صحّة روايات الأحرف السبعة .

أمّا في شأن الأمر الأوّل فيقول : إنّ ذلك شيء لم يتوهّمه أحدٌ من العلماء المحقّقين ... والأولى أن نذكر كلام الجزائريّ في هذا الموضع : قال : لم تكن القراءات السبع متميّزة عن بعضها ، حتّى قام الإمام **أبو بكر أحمد ابن موسى بن العبّاس بن مجاهد** ـ وكان على رأس الثلاثمائة ببغداد ـ فجمع قراءات سبعة من مشهوري أئمّة الحرمين (مكّة والمدينة) والعراقين (البصرة والكوفة) والشام ، وهم : **نافع** ، **وعبد الله بن كثير** ، **وأبو عمرو بن العلاء** ، **وعبد الله بن عامر** ، **وعاصم** ، **وحمزة** ، **وعليّ الكسائيّ** .

وقد توهّم بعض الناس أنّ القراءات السبع هي الأحرف السبعة ، وليس الأمر كذلك ... وقد لام كثيرٌ من العلماء **ابن مجاهد** على اختياره عدد السبعة ، لما فيه من الإيهام ... .

قال **أحمد بن عمّار المهدويّ** : لقد فعل مُسبّع هذه السبعة ما لا ينبغي

⇐ أنّه مراد وذهل في ذكر الأسماء ، فأبدل اسم أُبيّ بن كعب باسم أبي الدرداء ! ومَن أمعن النظر في أمر الرواية بالمعنى ـ لم يستبعد ذلك ـ انتهى ما نقلناه من كتاب التبيان.

له ، وأشكل الأمر على العامّة بإيهامه كلّ من قلّ نظره أنّ هذه القراءات هي المذكورة في الخبر ، وليته إذ اقتصر نقص عن السبعة أو زاد ليُزيل الشبهة ... .

وقال الأُستاذ **إسماعيل بن إبراهيم بن محمّد القرّاب** في «الشافي» :

التمسّك بقراءة سبعة من القرّاء دون غيرهم ليس فيه أثر ولا سُنّة ، وإنّما هو من جمع بعض المتأخّرين ، لم يكن قرأ بأكثر من السبع ، فصنّف كتاباً وسمّاه كتاب السبعة ، فانتشر ذلك في العامّة ... .

وقال الإمام **أبو محمّد مكّي** : قد ذكر الناس من الأئمّة في كتبهم أكثر من سبعين ممّن هو أعلى رتبةً وأجلّ قدراً من هؤلاء السبعة ... فكيف يجوز أن يظنّ ظانٌّ أنّ هؤلاء السبعة المتأخّرين ، قراءة كلّ واحد منهم أحد الأحرف السبعة المنصوص عليها ـ هذا تخلّف عظيم ـ أكان ذلك بنصّ من النبيّ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم أم كيف ذلك !! وكيف يكون ذلك ؟[1]

١ـ أورد سماحة الأُستاذ آية الله العلّامة الطباطبائيّ قدّس الله سرّه في كتاب «قرآن در اسلام» (= القرآن في الإسلام) ص ١٢٦ و١٢٧ بعد هذه الفقرة تتمّة كلام مكّي وهو:

«إنّ الذين صنّفوا القراءات من الأئمّة المتقدّمين كأبي عبيد بن سلّام ، وأبي حاتم السجستانيّ وأبي جعفر الطبريّ وإسماعيل الطبريّ ، قد ذكروا أضعاف هؤلاء.

وكان الناس على رأس المائتين بالبصرة على قراءة أبي عمرو ويعقوب ، وبمكّة على قراءة ابن كثير ، وبالمدينة على قراءة نافع ؛ واستمرّوا على ذلك ، فلمّا كان على رأس الثلاثمائة أثبت ابنُ مجاهد اسمَ الكسائيّ وحذف يعقوب . قال : والسبب في الاقتصار على السبعة ـ مع أنّ في أئمّة القرّاء مَن هو أجلّ منهم قدراً ومثلهم أكثر من عددهم ـ أنّ الرواة عن الأئمّة كانوا كثيراً جدّاً ، فلمّا تقاصرت الهمم ، اقتصروا ممّا يوافق خطّ المصحف على ما يسهل حفظه وتنضبط القراءة به ، فنظروا إلى مَن اشتهر بالثّقة والأمانة وطول العمر في ملازمة القراءة والاتّفاق على الأخذ عنه ، فأفردوا من كلّ مصرٍ إماماً واحداً ، ولم يتركوا مع ذلك نقل ما كان عليه الأئمّة غير هؤلاء من القراءات ولا القراءة به ، كقراءة يعقوب وأبي ⇦

و**الكسائيّ** إنّما أُلحق بالسبعة بالأمس في أيّام المأمون وغيره ـ وكان السابع **يعقوب الحضرميّ** ـ فأثبت ابن مُجاهد في سنة ثلاثمائة ونحوها الكسائيّ موضع يعقوب .[1]

وقال **الشرف المرسيّ** : وقد ظنّ كثير من العوامّ أنّ المراد بها ـ الأحرف السبعة ـ القراءات السبع ، وهو جهلٌ قبيح .[2]

وقال **القرطبيّ** : قال كثيرٌ من علمائنا **كالداوديّ وابن أبي سفرة** وغيرهما : هذه القراءات السبع التي تُنسب لهؤلاء القرّاء السبعة ليست هي الأحرف السبعة التي اتّسعت الصحابة في القراءة بها ، وإنّما هي راجعة إلى حرفٍ واحد من تلك السبعة ، وهو الذي جمع عليه عثمان المصحف . ذكره

⇦ جعفر وشيبة وغيرهم . وقد صنّف ابن جُبير المكّيّ قبل ابن مجاهد كتاباً في القراءات، فاقتصر على خمسة اختار من كلّ مصرٍ إماماً ، وإنّما اقتصر على ذلك لأنّ المصاحف التي أرسلها عثمان كانت خمسة إلى هذه الأمصار . ويُقال إنّه وجّه بسبعة ، هذه الخمسة، ومصحفاً إلى اليمن، ومصحفاً إلى البحرين . لكن لمّا لم يُسمع لهذين المصحفين خبر، وأراد ابن مجاهد وغيره مراعاة عدد المصاحف ، استبدلوا من غير البحرين واليمن قارئَين كمل بهما العدد ، فصادف ذلك موافقة العدد الذي ورد الخبرُ به **نَزَلَ القُرْآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ** ، فوقع ذلك لمن لم يعرف أصل المسألة ، ولم تكن له فطنة ، فظنّ أنّ المراد بالأحرف السبعة القراءات السبع.

والأصل المعتَمد عليه : في صحّة السند في السماع ، واستقامة الوجه في العربيّة، وموافقة الرسم (في المصحف) ـ انتهى كلام مكّي . وانتهى كلام العلّامة الطباطبائيّ قدّس الله سرّه.

ويتّضح من هذا الكلام أنّ سرّ عدد السبعة في القرّاء ، موافقة عدد المصاحف السبعة التي أرسلها عثمان إلى البلاد المختلفة . ولذلك فلا مجال لانتقاد أحمد بن عمّار المهدويّ لابن مجاهد في عدم انقاصه أو زيادته عدد القرّاء رفعاً للتوهّم السيّئ.

١ـ «التبيان» ص ٨٢ ، (التعليقة) .

٢ـ «التبيان» ص ٦١ ، (التعليقة) .

ابن النَّحّاس وغيره. وهذه القراءات المشهورة هي اختيارات أُولئك الأئمّة القرّاء.[١]

وتعرّض **ابن الجزريّ** لإبطال توهّم مَن زعم أنّ الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن مستمرّة إلى اليوم فقال:

وأنت ترى ما في هذا القول، فإنّ القراءات المشهورة اليوم عن السبعة والعشرة، والثلاثة عشر بالنسبة إلى ما كان مشهوراً في الأعصار الأُوَل، قُلٌّ من كُثر، ونزر من بحر؛ فإنّ من له اطّلاع على ذلك يعرف علمه العلم اليقين، وذلك أنّ القرّاء الذين أخذوا عن أُولئك الأئمّة المتقدّمين من السبعة وغيرهم كانوا أُمماً لا تُحصى، وطوائف لا تُستقصى، والذين أخذوا عنهم أيضاً أكثر **وهلمّ جرّاً**.

فلمّا كانت المائة الثالثة، واتّسع الخرق وقلّ الضبط، وكان علم الكتاب والسنّة أوفر ما كان في ذلك العصر، تصدّى بعض الأئمّة لضبط ما رواه من القراءات، فكان أوّل إمام معتبر جمع القراءات في كتاب **أبو عُبَيد القاسم بن سلام**، وجعلهم ـ فيما أحسب ـ خمسة وعشرين قارئاً مع هؤلاء السبعة ... ثمّ ذكر ابن الجزري جماعة ممن كتب في القراءة.[٢]

قال **أبو شامة**: وظنّ قومٌ أنّ القراءات السبع الموجودة الآن هي التي أُريدت في الحديث، وهو خلاف إجماع أهل العلم قاطبةً، وإنّما يظنّ ذلك بعضُ أهل الجهل.[٣]

١ـ «تفسير القرطبيّ» ج ١، ص ٤٦، (التعليقة).

٢ـ «النشر في القراءات العشر» ج ١، ص ٣٣ إلى ٣٦، (التعليقة).

٣ـ «الإتقان» ج ١، ص ٢٢ إلى ٢٧؛ ص ١٣٨ (التعليقة)؛ «البيان في تفسير القرآن» ص ١١٢ إلى ١١٥، الطبعة الأُولى.

وأمّا في أمر عدم صحّة إسناد هذه الروايات ، فقد أورد بحثاً ناقش فيه إحدى عشرة رواية وردت عن طريق العامّة ، ثمّ قال : هذه أهمّ الروايات التي رويت في هذا المعنى ، وكلّها من طرق أهل السنّة ، وهي مخالفة لصحيحة زرارة عن أبي جعفر (الباقر) عليه السلام ، قال :

إنَّ القُرْآنَ وَاحِدٌ نَزَلَ مِنْ عِنْدِ وَاحِدٍ ؛ وَلَكِنَّ الاخْتِلَافَ يَجِيءُ مِنْ قِبَلِ الرُّوَاةِ. وقد حكم الإمام الصادق عليه السلام بكذب الرواية المشهورة بين الناس في قولهم : **نَزَلَ القُرآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ** ، وقال ... **وَلَكِنَّهُ نَزَلَ عَلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ مِنْ عِنْدِ الوَاحِدِ.**[1]

ثمّ قال : وقد تقدّم إجمالاً أنّ المرجع بعد النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم في أُمور الدين ، إنّما هو كتاب الله وأهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً ـ وسيأتي توضيحه مفصّلاً بعد ذلك إن شاء الله تعالى ـ ولا قيمة للروايات إذا كانت مخالفةً لما يصحّ عنهم . ولذلك لا يهمّنا أن نتكلّم عن أسانيد تلك الروايات .[2]

وكانت الرواية الثامنة من الروايات الإحدى عشرة التي ذكرها عن طريق العامّة هي :

... عن أبي هريرة أنّه قال : قال رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم : **إنَّ هَذَا القُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ فَاقْرَأُوا وَلَا حَرَجَ ؛ وَلَكِنْ لَا تَخْتِمُوا ذِكْرَ رَحْمَةٍ بِعَذَابٍ ، وَلَا ذِكْرُ عَذَابٍ بِرَحْمَةٍ.**[3]

وكانت الرواية العاشرة منها هي :

١ـ «الوافي» ج ٥ ، ص ٢٧٢ ، باب اختلاف الروايات ، الطبعة الحجريّة.

٢ـ «البيان» ص ١٢٣ .

٣ـ «تفسير الطبريّ» ج ١ ، ص ٩ و ١٠ ، (التعليقة) .

وأخرج عن سعيد بن يحيى ، بإسناده عن عاصم ، عن زرّ ، عن عبد الله بن مسعود ، قال :

تَمَارَيْنَا فِي سُورَةٍ مِنَ القُرْآنِ ، فَقُلْنَا : خَمْسٌ وَثَلاثُونَ ، أَوْ سِتٌّ وَثَلاثُونَ آيَةً . قَالَ : فَانْطَلَقْنَا إلى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ [وَآلِهِ] وَسَلَّمَ فَوَجَدْنَا عَلِيّاً يُنَاجِيهِ . قَالَ : فَقِلْنَا : إنَّمَا اخْتَلَفْنَا فِي القِرَاءَةِ . قَالَ : فَاحْمَرَّ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ [وَآلِهِ] وَسَلَّمَ وَقَالَ : إنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِاخْتِلافِهِمْ بَيْنَهُمْ . قَالَ : ثُمَّ أَسَرَّ إلَى عَلِيٍّ شَيْئاً . فَقَالَ لَنَا عَلِيٌّ : إنَّ رَسُولَ اللهِ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَقْرَأُوا كَمَا عُلِّمْتُمْ.[1]

ويذكر في تفسير وبيان مضمون هذه الطائفة من الروايات وجوهاً عشرة من كتب أهل السنّة ، ثمّ يفنّد كلّ وجه من تلك الوجوه ويعتبره غير صحيح ، ثمّ يعتبر في الخاتمة ـ كما سبق ذكره ـ أصل الروايات مرفوضاً .

أمّا في نظر الحقير ، فبناءً على أنّ كثرة القراءات في زمن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم هي أمر مسلّم كما ذكرنا ، وأنّ الشكّ لا يعترينا ـ وفقاً للسيرة النبويّة القطعيّة ـ أنّ النبيّ كان قد أقرّ بعض تلك القراءات ، فإنّ الوجه الثامن الذي ذكره القاضي عياض ومَن تبعه ـ على فرض تسليم سند الروايات ـ سيعدّ وجهاً مناسباً .

والوجه الذي ذكره القاضي عياض هو : أنّ لفظ السبعة يُراد منه الكثرة في الآحاد (وليس عدد السبعة) كما يُراد من لفظ السبعين والسبعمائة الكثرة في العشرات والمئات .[2]

وعلى هذا الأساس ، فإنّ رسول الله قد أراد القول بأنّ القرآن قد نزل

١ـ «تفسير الطبريّ» ج ١ ، ص ٩ إلى ١٥ ، (التعليقة) .

٢ـ «البيان» ص ١٣٣ .

عليه بقراءات مختلفة ، وأنّ أيّ طريق يصدر عنه ويقرّه يعدّ طريقاً صائباً وصحيحاً .

كان هذا هو بحثنا في شأن الرواية الأُولى : **إنّ القُرْآنَ نَزَلَ عَلَى سَبْعَةِ أُحْرُفٌ** .

وأمّا الرواية الثانية التي وردت عن المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين : **إِقْرَأْ كَمَا يَقْرَأُ النَّاسُ** ؛ وورد أيضاً : **اقْرَأُوا كَمَا تَعَلَّمْتُمْ** .[1]

فإنّهما يعنيان أنّ إمضاءً قد حصل بشكل قطعيّ مسلّم من الأئمّة عليهم السلام للقراءات المشهورة المعروفة في زمنهم ، وأنّهم قد أمروا شيعتهم باتّباع تلك القراءات . ولم يصلنا ردع أو منع منهم ، إذ لو صدر عنهم شيء من ذلك فرضاً لوصلنا حتماً . ولذلك فإنّ من الجائز قراءة القرآن تبعاً لأيّة قراءة من القراءات المتواترة ، سواء في ذلك القراءات السبع أو العشر .

أجل ، يُعتبر في الجواز ، كما حُكي عن الثقات من علماء السنّة ، إلّا أن تكون تلك القراءة شاذّة أو مختلقة . ونعني بالقراءة الشاذّة أمثال قراءة **مَلَكَ يَوْمَ الدِّينِ** بصيغة الماضي ونصب كلمة «يوم» ؛ أمّا الموضوع والمختلَق فمن أمثال قراءة : **إِنَّما يَخْشَى اللهُ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءَ** ، برفع كلمة **اللهُ** ونصب كلمة **العلماءَ** حسب قراءة الخزاعيّ عن أبي حنيفة .[2]

لكنّ هناك بحثاً في هذا الحديث ، إذ كيف يمكن تعبّداً جعل قراءة القرآن تبعاً لقراءة الناس ، مع أنّ ثبوت القرآن يجب أن يكون عن علم ويقين وتواتر ، وليس بالتعبّد .

ونقول هنا : إنّ ثبوت القرآن يجب أن يحصل بالتواتر ، وكما سبق

١ـ «الوافي» ج ٥ ، ص ٢٧٣ ، باب اختلاف القراءات ، (التعليقة) .

٢ـ «البيان» ص ١١٨ ؛ و«الإتقان» ص ٧٦ ، الطبعة الثانية .

أن ذكرنا مفصّلاً ، فإنّ مادّة القرآن وهيئته ، أي متنه وعرضه من إعراب وحركات ، يجب أن تكون قطعيّة يقينيّة . وفي هذه الحال فإنّ التعبّد لن ينفع ، ولو بألف خبر ورواية . ولن يكون بإمكان خبرٍ ما ، ولو كان صحيح السند وفي الحدّ الأعلى من الصحّة ، أن ينفع شيئاً في هذه الحال .

لكنّ كلامنا هنا هو أنّنا لا نغضّ الطرف عن الأخبار المشكوكة تمسّكاً منّا بالقرآن ، بل إنّ أئمّتنا عليهم السلام لمّا أمروا شيعتهم في كلّ عصر باليقين وبالقراءات المتواترة ، وهي نفس القراءات المشهورة المتداولة بين الناس ، ولما كان العلم واليقين قد حُصل عليهما عن طريق القرّاء ، فإنّ الأمر بقراءة القرآن بهذه القراءات هو إرشاد إلى أمر مسلّم وضروريّ في تحصيل اليقين ، وليس تعبّداً وتكليفاً بأمرٍ مشكوك .

إنّ الأئمّة عليهم السلام لم يختاروا لأنفسهم قراءة غير القراءات المعروفة المشهورة ، ولم يدعوا شيعتهم إلى غير هذا الطريق ، وإلّا لعُرف ذلك الطريق واشتهر ، ولامتازت قراءة الشيعة عن قراءة غيرهم ، ولبلغنا ذلك الطريق .

لكنّنا نرى أنّ قراءة بعض الشيعة من أمثال **أبان بن تغلب** [1] التي

١ـ يقول آية الله السيّد حسن الصدر في كتاب «الشيعة وفنون الإسلام» ص ٥١:

وأوّل من صنّف في القراءة ودوّن علمها هو أبان بن تغلب الربعيّ . وقيل : أبو أُميمة من أهل الكوفة، ويقول النجاشيّ في «فهرست أسماء مصنّفيّ الشيعة» : أبان رحمة الله عليه، كان مقدّماً في كلّ فنٍّ من العلم ، في القرآن والفقه والحديث . ولأبان قراءة مفردة مشهورة عند القرّاء. ثمّ أوصل إسناد رواية هذا الكتاب إلى محمّد بن موسى بن أبي مريم صاحب «اللؤلؤ». ويقول: وأوّل الكتاب : إنّما الهمزةُ رياضَةٌ ... إلى آخره.

وذكر ابن النديم في «الفهرست» تصنيف أبان في القراءة وقال : أبان بن تغلب ، وله من الكتب كتاب «معاني القرآن» لطيف ، كتاب القراءات ، كتاب من الأُصول في الرواية على ⇦

كانت خلافاً للمشهور قد ضاعت واندثرت . وندرك من خلال ذلك أنّ الردّ إلى المشهور وإلى القراءة المعروفة التي طريقها اليقين والتواتر هو أمر مسلّم وضروريّ في كلّ عصر .

وبناءً على ذلك ، فإنّنا ـ قبل الأمر بـ : **اقْرَأْ كَمَا يَقْرَأُ النَّاسُ** ـ قد عملنا بقراءات القرّاء السبعة وبقراءات أُخرى كقراءات خلف ويعقوب وأبي جعفر ، لأنّنا وجدناها متواترة ،كما أنّ العمل بمضمون هذا الحديث هو ممّا ثبت لدينا بالتواتر .

⇦ مذهب الشيعة ـ انتهى.

وبعد أبان ، حمزة بن حبيب أحد القرّاء السبعة ، صنّف كتاب «القراءة» . يقول ابن النديم في «الفهرست» : كتاب «القراءة» لحمزة بن حبيب ، وهو أحد (القرّاء) السبعة؛ من أصحاب الصادق عليه السلام ـ انتهى . وعدّه الشيخ أبو جعفر الطوسيّ في كتاب «الرجال» من أصحاب الصادق . قرأ الكسائيّ القرآن على حمزة ، وقرأ حمزة على أبي عبد الله (الصادق)، وقرأ (الصادق) على أبيه ، وقرأ على أبيه ، وقرأ على أبيه ، وقرأ على أمير المؤمنين ،كذا وُجد بخطّ شيخنا الشهيد محمّد بن مكّيّ نقلاً عن الشيخ جمال الدين أحمد بن محمّد بن الحدّاد الحلّيّ .

ويقول السيّد حسن الصدر : وقرأ (حمزة) على الأعمش وعلى حمران بن أعين أخو زرارة، والكلّ من شيوخ الشيعة . وقد وهم الحافظ الذهبيّ حيث قال : أوّل من صنّف في القراءات **أبو عُبَيد القاسم بن سلام** ، لأنّه مات سنة أربع وعشرين ومائتين بالاتّفاق ، وأبان ابن تغلب مات قبله بثلاث وثمانين سنة ، لأنّه مات سنة إحدى وأربعين ومائة كما في «طبقات النحاة» للسيوطيّ وغيره . اللهمّ إلّا أن يريد الذهبيّ الأوّل من أهل السنّة لامطلقاً، فإنّ الأوّل أبان ثمّ بعده حمزة بن حبيب . ومات حمزة سنة ستّ أو ثمان وخمسين ومائة، فحمزة متقدّم على أبي عُبَيد بن القاسم بستّ وستّين سنة على الأقلّ ... فالشيعة أوّل مَن جمع القراءات، وأوّل من صنّف في القراءة . (وقد خفي هذا الأمر على الحافظ الذهبيّ وعلى السيوطيّ حافظ الشام : إلّا أن يكونا أرادا أوّل من صنّف في القراءات من أهل السنّة لامطلقاً).

ولو قيل: إنّ قراءات أُخرى كانت في زمن الأئمّة عليهم السلام، كقراءة أُبيّ بن كعب وقراءة عبد الله بن مسعود وغيرهما، وينبغي أن تكون قراءة القرآن وفقاً لهذه القراءات أمراً ممكناً حسب مضمون الخبر، فإنّ جوابه سيكون: أنّ تلك القراءات قد سقطت عن حدّ التواتر، وأضحت نادرةً بحيث إنّ نقل القرّاء لها لم يكن بالذي يوجب لدينا علماً بصدورها.

ولو قيل: إنّ هؤلاء القرّاء كانوا من المخالفين أو من الفاسقين! لأُجيب: بأنّ خلافهم لم يثبت لدينا، وكذا الحال بالنسبة إلى فسقهم. والوثوق كافٍ في قبول الخبر، ولو صدر من غير الشيعيّ الإماميّ. والخبر الموثّق في حكم الخبر الصحيح حائز لشرائط الحجّيّة؛ مضافاً إلى أنّ العدالة والإيمان ليسا في التواتر، لأنّ التواتر الحاصل عن أيّ طريق هو حجّة عقليّة.

كان هذا خلاصة كلامنا في باب تواتر القراءات، وقد فصّلنا القول فيه بعض الشيء لئلّا يروج من جَديد كلام بعض الإخباريّين الذين لا يفهمون إلّا التعبّد، حتّى في الأُمور اليقينيّة والقطعيّة، والذين يقدّمون الخبر ـ مهما كان ظنّيّاً ـ على مائة دليل عقليّ؛ ولئلّا يضيع كلام أعاظم فقهائنا في طيّات النسيان.

ويجب أن نذكر في هذا المجال جُملةً من المطالب بعنوان **تنبيهات**:

التنبيه الأوّل: ورد في كتب الشيعة الفقهيّة روايات كثيرة عن الأئمّة عليهم السلام تقوم على أنّ البسملة: **بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ** هي جزء من كلّ سورة من السور عدا سورة براءة. وقد جرى بحث هذا الموضوع مفصّلاً في بحث القراءة من كتاب الصلاة في «جواهر الكلام» و«مصباح الفقيه»، وعدّت قراءة سورة الحمد وسائر سور القرآن بدون ذكر هذه الآية قراءة غير مُجزية. حتّى أنّ هناك رواية عن الإمام الصادق عليه السلام

يقول فيها : **قَاتَلَهُمُ اللهُ ! عَمَدُوا إلَى أَعْظَمِ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ ؛ فَتَرَكُوهَا وَزَعَمُوا أَنَّهَا بِدْعَةٌ.**

ونرغب هنا أن ننوّه بأنّ السيوطيّ قد ذكر في كتابه «الإتقان» أحاديث كثيرة عن طريق أهل السنّة جاء فيها أنّ **بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ** من القرآن ، وأنّها آية من آيات السور . وهذه الروايات كثيرة وجديرة بالتأمّل ، ومضمونها مطابق لما أجمع عليه الشيعة ، مثل ما أخرجه أحمد وأبو داود والحاكم وغيرهم عن أُمّ سلمة أنّ رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم كان يُقَطِّع قراءته آيةً آية : **بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ * ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ** ـ الحديث .

وفيه : **وَعَدَّ** «**بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ**» **آيَةً ؛ وَلَمْ يَعُدَّ عَلَيْهِمْ**،[1] (أي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم كان يعدّ **بسم الله الرحمن الرحيم** آية ، ولا يعدّ **غير المغضوب عليهم** آيةً أُخرى) .

وفي هذه العبارة نكتة دقيقة يؤيّدها مذهب الشيعة والذين يعتبرون البسملة جزءاً من السورة ، وبيان ذلك أنّ من المسلّم أنّ سورة الحمد هي سورة **السَّبْعُ المَثَانِي** ، سواء عن طريق الشيعة أم عن طريق العامّة ، أي أنّ آياتها سبع آيات ، وأنّها أُنزلت على النبيّ مرّتين .

فإن عددنا **بسم الله الرحمن الرحيم** آيةً مستقلّة ، أضحت آيات هذه السورة سبع آيات . أمّا لو لم نعتبرها آية ، لأضحت آياتها الباقية ستّاً ولما انطبق في حقّها اسم **السَّبعُ المثاني**.

ولقد لجأ المخالفون ـ فراراً من هذا الإشكال ـ إلى تجزئة آية : **صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ** ، فقالوا إنّ بداية

١ـ «الإتقان» ج ١ ، ص ٩٨ و ٩٩ ، الطبعة الأُولى.

الآية إلى قوله تعالى **أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ** هي آية ، وإنّ التتمّة هي آية أُخرى ، من أجل إكمال عدد السبعة . ومن البديهيّ أنّ هذا العمل خطأ ، لأنّ جملة **غير المغضوب عليهم** هي صِفة إلى **ٱلَّذِين** ، ولا فاصلة بين الصفة والموصوف .

التنبيه الثاني : جاء عن طريق أهل البيت أنّ مصحف ابن مسعود كان خالياً من **المُعَوِّذَتَيْنِ** (بكسر الواو ، وهما السورتان اللتان ورد فيها التعويذ : **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ** ، و: **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ**) . حيث يقول ابن مسعود : إنّ **الحَسَنَيْنِ** عليهما السلام مرضا ، فهبط جبرائيل بهاتين السورتين ليعوّذهما بهما ، فعوّذهما وعلّق المعوّذتين عليهما فشفيا .

أمّا ما ورد في مصحف أمير المؤمنين عليه السلام وسائر المصاحف والقراءات ، فهو أنّهما سورتان من القرآن نزلتا على النبيّ ضمن ما نزل عليه من القرآن ، وختْم القرآن بدونهما يُعدّ ناقصاً . ولا منافاة لتعويذ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم مع كونهما من القرآن ، إذ يمكن أن يكون النبيّ الأكرم قد عَوّذ بهما بتعليم من جبرائيل .

يقول العلاّمة الحلّيّ في «التذكرة» :

وَالمُعَوِّذَتَانِ مِنَ القُرْآنِ ، يَجُوزُ أَنْ يَقْرَأَ بِهِمَا . وَلَا اعْتِبَارِ بِإِنْكَارِ ابْنِ مَسْعُودٍ لِلشُّبْهَةِ الدَّاخِلَةِ عَلَيْهِ بِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُعَوِّذُ بِهِمَا الحَسَنَ وَالحُسَيْنَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ؛ إذْ لَا مُنَافَاةَ ، بَلِ القُرْآنُ صَالِحٌ لِلتَّعْوُّذِ بِهِ لِشَرَفِهِ وَبَرَكَتِهِ .

وَقَالَ الصَّادِقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : اقْرَأْ المُعَوِّذَتَيْنِ فِي المَكْتُوبَةِ . وَصَلَّى المَغْرِبَ فَقَرَأَهُمَا فِيهَا». [1]

١ـ «تذكرة الفقهاء» كتاب الصلاة ، البحث الرابع في القراءة ، الطبعة الحجريّة.

ويقول السيوطيّ في «الإتقان» : ومن المشكل على هذا الأصل (أصل التواتر) ما ذكره الإمام فخر الدين (الرازيّ) . قال : نُقِل في بعض الكتب القديمة أنّ ابن مسعود كان ينكر كون سورة **الفَاتِحَة والمُعَوِّذَتَيْنِ** من القرآن ؛ وهو في غاية الصعوبة . لأنّا إن قلنا : إنّ النقل المتواتر كان حاصلاً في عصر الصحابة بكون ذلك من القرآن ، فإنكاره يوجب الكفر . وإن قلنا : لم يكن حاصلاً في ذلك الزمان ، فيلزم أنّ القرآن ليس بمتواتر في الأصل .

قال (الفخر الرازيّ) : والأغلب على الظنّ أنّ نقل هذه المذاهب عن ابن مسعود نقل باطل ، وبه يحصل الخلاص عن هذه العقدة .

إلى أن يقول السيوطيّ : قال **ابن حَزْم** في «المحلّى» : هذا كذب على ابن مسعود وموضوع ، وإنّما صحّ عنه قراءة **عاصم** عن زُرعة ، وفيهما المعوّذتان والفاتحة .

وقال **ابن حَجَر** في شرح «صحيح البُخاريّ» : قد صحّ عن ابن مسعود إنكار ذلك ، فأخرج **أحمد** (بن حنبل) **وابن حِبَّان** عنه أنّه كان لا يكتب المعوّذتين في مصحفه .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زيادات المسند ، والطبرانيّ وابن مردويه من طريق الأعمش عن ابن إسحاق ، عن عبد الرحمن بن يزيد النخعيّ ، قال : كان عبد الله بن مسعود يحكّ المعوّذتين من مصاحفه ، ويقول : إنّهما ليستا من كتاب الله .[1]

فكيف يمكن نفي هذه النسبة عن ابن مسعود مع شهادات هؤلاء الأعلام ، وستر الحقيقة بمجرّد الادّعاء بأنّ هذا النقل عنه مكذوب عليه ؟! أليس هذا الادّعاء نفسه كذباً وجعلاً ؟

١ـ «الإتقان» ج ١ ، ص ٩٩ ، الطبعة الأُولى .

وإنّني مهما أمعنت النظر ، وجدت أنّ هذه المشكلة التي سمّاها فخر الدين الرازيّ بالعُقدة والمشكلة العويصة ليست مشكلة قطّ ، بل هي أسهل وأيسر من شرب الماء القُراح . لأنّ اعتقاد ابن مسعود بعدم كون المعوّذتين من القرآن لا يشكّل ضرراً بتواتر القرآن لدى سائر الصحابة . فالقرآن بأجمعه ـ ومن ضمنه هاتان السورتان ـ كان متواتراً لدى الجميع ، بل بعدد أعلى من عدد التواتر . ويبدو أنّ ذلك الأمر كان شبهة لدى ابن مسعود . افرضوا أنّ شأن ابن مسعود هو شأن الكثير الذين لم يبلغهم شيء من القرآن أصلاً إلى أن ارتحل رسول الله ، وأنّ هاتين السورتين لم تطرقا سمعه ، إذ إنّ ذلك لا يُلحق ضرراً ما ، بل يرد الإشكال حين يكون ابن مسعود بمفرده مؤثّراً في تكميل نصاب الأفراد الذين لا ينعقد التواتر إلّا بتمامهم .

التنبيه الثالث : يقول السيوطيّ : وممّا يشبه هذا التقسيم الذي لأهل الحديث ، تقسيم القرّاء أحوال الإسناد إلى **قراءة ورواية وطريق ووجه**. فالخلاف إن كان لأحد الأئمّة السبعة أو العشرة أو نحوهم ، واتّفقت عليه الروايات والطرق عنه فهو **قراءة** . وإن كان للراوي عنه **فرواية** ، أو لمن بعده نازلاً **فطريق** ، أو لا على هذه الصفة ممّا هو راجع إلى تخيير القارئ فيه ، **فوجه**.[١]

التنبيه الرابع : يقول السيوطيّ : قال ابن الجزريّ في آخر كلامه : وربّما كانوا (والضمير للسابقين) يُدخلون التفسير في القراءة إيضاحاً وبياناً ، لأنّهم محقّقون لما تلقّوه عن النبيّ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم قرآناً ، فهم آمنون من الالتباس ، وربّما كان بعضهم يكتبه معه .

١ـ «الإتقان» ج ١ ، ص ٩٣ ، الطبعة الأُولى ؛ وص ٧٤ ، الطبعة الثالثة.

وأمّا من يقول : إنّ بعض الصحابة كان يُجيز القراءة بالمعنى ، فقد كذب . وسأُفرد في هذا النوع ـ أعني بالمدرج ـ تأليفاً مستقلاً .[1]

وقد أورد السيوطيّ هذا الكلام تحت تقسيم القراءات إلى **متواتر ومشهور وآحاد وشاذّ وموضوع ومُدرَج** . ونقله عن ابن الجزريّ ضمن بيان **المدرج** . وضرب للمدرج مثلاً بقراءة **سَعد بن أبي وقّاص** : «**وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ مِنْ أُمّ**» ؛ حيث إنّ **مِنْ أُمّ** مدرج ؛ وبقراءة ابن عبّاس : **لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فِى مَواسِمِ ٱلْحَجِّ** ، حيث إنّ **فِى مَوَاسِمِ ٱلْحَجِّ** مدرج ؛ أي أنّها ليست من القرآن ، وأنّها زيدت في القراءات على وجه التفسير .[2]

التنبيه الخامس : بحثٌ في قراءَتَي **مَلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ** ، و: **مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ** ، حيث إنّ كِلا القراءتين متواترتين ، وقراءة أيّة منهما في الصلاة مُجزية ، ونريد أن نرى هنا أيّة قراءة من هاتين القراءتين أفضل ؟ ونحن مجبرون على تقديم بيان مختصر لهذه المسألة .

مِلْك بمعنى الاستيلاء والقدرة وإذن التصرّف في الأموال ؛ ويقال لصاحبه **مَالِك** بصيغة فاعل . أمّا **مُلْك** فبمعنى الاستيلاء والقدرة وإذن التصرّف في النفوس ، ويقال لصاحبه **مَلِك** بصيغة **فَعِل** وهي صفة مشبّهة .

وبالطبع فإنّ كلاهما مشتقّ من مبدأ واحد ومن أساس مشترك ، وهو مطلق التصرّف والقدرة والاستيلاء على شيء ، ومبدأ الاشتقاق عبارة عن :

مَلَكَ يَمْلِكُ مَلْكاً ، **ومُلْكاً** ، **ومِلْكاً** ، **ومَلَكَةً** ، **ومَمْلَكَةً** ، **ومَمْلِكَةً** ، **مَمْلُكَةً الشَّيء : أَي احْتَوَاهُ قَادِراً عَلَى التَّصَرُّفِ وَالاسْتِبْدَادِ بِهِ.**

غاية الأمر ، أنّ مبدأ الاشتقاق هذا إن تعلّق بالمتاع والبضاعة

---

[1] و[2]ـ «الإتقان» ج ١ ، ص ٩٧ ، الطبعة الأولى ؛ وص ٧٧ ، الطبعة الثالثة.

الخارجيّة ، أضحى بمعنى **المِلكيّة** والاستبداد في التصرّف بها ؛ وإن تعلّق بالإرادات والاختيارات والنفوس ، فهو بمعنى **المُلكيّة** والاستيلاء عليها في الأمر والنهي .

يُقال : **مَلَكَ القَرْيَةَ** : إذا استولى عليها ؛ و**مَلَكَ نَفْسَهُ** ، أي قدر على حبسها . ويُقال للأوّل : **مَالِك** . ويقال للثاني : **مَلِك** . فاختلاف معنى **مَالِك** و**مَلِك** ناشئ عن قرينة خارجيّة ، وهي عبارة عن التزام الاستعمال والوضع التعيينيّ أو التعيّنيّ على تعلّق هذا المعنى بالمتعلَّق خارجاً .

وعلى هذا الأساس نرى أنّ مالك يضاف إلى الأشياء الخارجيّة ، فيقال : **مَالِكُ الدَّارِ** ، و: **مَالِك الدَّابَّةِ** ، و: **مَالِكُ العِقَارِ** ، كما يضيفون **مَلِك** إلى النفوس والأقوام فيقولون : **مَلِكُ القَوْمِ** ، و: **مَلِكُ العَرَبِ** ، و: **مَلِكُ اليَمانِيِّينَ** . ويقال : مَلِك العصر الفلانيّ والزمن الفلانيّ ، ولا يقال : مالِك العصر الفلانيّ .

وعلى هذا ، فإنّ من الأنسب في آية **مَـٰلِكِ يَوْمِ الدِّينِ** أن يُقال **مَلِكِ** ، لأنّه ينسب إلى **يَوْم** ، ولا تستحسن نسبة مالك إلى يوم ، بخلاف نسبة ملك إلى يوم . يُقال : حاكم وسلطان وآمر ذلك اليوم ، ولا يُقال : مالك ذلك اليوم .

قال أُستاذنا آية الله العلّامة الطباطبائيّ قدّس الله سرّه :

وَقَدْ ذُكِرَ لِكُلٍّ مِنَ القِراءَتَيْنِ : مَلِكِ وَمَـٰلِكِ وُجُوهٌ مِنَ التَّأْيِيد ؛ غَيْرَ أَنَّ المَعْنَيْينِ مِنَ السَّلْطَنِةِ ثَابِتَانِ فِي حَقِّهِ تَعَالَى.

وَالَّذِي تَعْرِفُهُ اللُّغَةُ وَالعُرْفُ أَنَّ المُلْكَ بِضَمِّ المِيمِ هُوَ المَنْسُوبُ إلَى الزَّمَانِ يُقَالُ : مَلِكُ العَصْرِ الفُلَانِيِّ ، وَلَا يُقَالُ : مَالِكُ العَصْرِ الفُلَانِيِّ إلَّا بِعِنَايَةٍ بَعِيدَةٍ . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : «مَلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ» . فَنَسَبَهُ إلَى اليَوْمِ . وَقَالَ أَيْضاً : «لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَ ٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ» . (الآية ١٦ ، من السورة ٤٠ :

غافر» .

وقال الزمخشريّ : **وَمَلِكُ هُوَ الاخْتِيَارُ ، لِأَنَّهُ قِرَاءَةُ أَهْلِ الحَرَمَيْنِ ، وَلِقَوْلِهِ: «لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ» ، وَلِقَوْلِهِ «مَلِكِ ٱلنَّاسِ» ، وَلِأَنَّ المُلْكَ يَعُمُّ وَالمِلْكَ يَخُصُّ.**[1]

ويقول الطبرسيّ في «مجمع البيان» : **المَلِكُ : القَادِرُ الوَاسِعُ المَقْدِرَةِ الَّذِي لَهُ السِّيَاسَةُ وَالتَّدْبِيرُ .**

وَالمَالِكُ : القَادِرُ عَلَى التَّصَرُّفِ فِي مَالِهِ، وَلَهُ أَنْ يَتَصَرَّفَ فِيهِ عَلَى وَجْهٍ لَيْسَ لِأَحَدٍ مَنْعُهُ مِنْهُ[2].

وقال : قرأ **عاصم والكسائيّ وخلف ويعقوب** مالك بالألف ، وقرأ باقي القرّاء ملك بغير ألف .[3]

وتبعاً لذلك ، فإنّ قراءة **مَلِكِ** أشهر ، لأنّ أربعة قرّاء من القرّاء العشرة قرأوا مالك ، أمّا الباقون ، وهم : **نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وحمزة وأبو جعفر** ، فقد قرأوا : ملك .

أمّا القرّاء السبعة ، فهناك قارئان فقط هما : **عاصم والكسائيّ** قرءا مالك ، وأمّا الباقون ، وهم : **نافع وابن كثير** ، **وأبو عمرو** ، **وابن عامر وحمزة** فقرأوا : ملك .

وقال الفيض الكاشانيّ في تفسير «الصافي» : «وقُرِئ : **مَلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ** ؛ روى العيّاشيّ أنّه قرأه الصادق عليه السلام ما لا يُحصى [4] .

أجل ، فيستنتج من مجموع ما ذكر أنّ قراءة **مَلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ** أفضل

---

١ و ٢ـ «تفسير الكشّاف» ج ١ ، ص ٨ ، الطبعة الأُولى .

٣ـ «مجمع البيان» ج ١ ، ص ٢٣ ، طبعة صيدا .

٤ـ تفسير «الصافي» ج ١ ، ص ٥٣ ، طبعة الإسلاميّة ، سنة ١٣٨٤ .

وأجمل ، وأنّ من الأولى أن يُقرأ بها ؛ وقد كان سماحة الأُستاذ العلّامة رضوان الله عليه ، وأُستاذه العارف بالله الذي عجزت قرون الزمان أن تلد مثله : المرحوم آية الله **الحاجّ الميرزا علي القاضي** قدّس الله سرّه يقرءآن **مَلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ** في صلاتهما .

وأمّا ما ذكره الطبرسيّ في «مجمع البيان» عن أبي عليّ الفارسيّ شاهداً على **مَـٰلِكِ** ليس كاملاً .

فقد نقل عنه أنّه قال : **يَشْهَدُ لِقِرَاءَةِ مَـٰلِكِ مِنَ التَّنْزِيلِ قَوْلُهُ تَعَالَى : «وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ» . لِأَنَّ قَوْلَكَ : الأَمْرُ لَهُ ، وَهُوَ مَالِكُ الأَمْرِ بِمَعْنىً . أَلَا تَرَى أَنَّ لَامَ الجَرِّ مَعْنَاهَا المِلْكُ وَالاسْتِحْقَاقُ ؟ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : «يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا» ، يُقَوِّي ذَلِكَ.**[1] إذ إنّ هذا الاستشهاد من قبل الفارسيّ مخدوش ، لأنّ لام الجرّ في **لِلَّهِ** تفيد الاختصاص ، ولكن بأيّة كيفيّة ؟ أهو على نحو **مِلك** الذي يعني التسلّط على الأشياء في الخارج ، أم على نحو **مُلك** وهو التسلّط على النفوس والأرواح ؟ ليس في لام الجرّ شيء من ذلك .

مضافاً إلى ذلك أنّ المِلكيّة للنفس هي نفس معنى المُلكيّة . ولا تستنتج خصوصيّة المِلكيّة من استعمال مادّة مَ لَ كَ التي ذُكر أنّها فعل ومبدأ الاشتقاق ، لأنّ هذه المادّة أعمّ ، وحين تتعلّق بالنفس ، فإنّ المراد منها هو المُلكيّة .

وعلى هذا ، فإنّ جملة : **لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا** ،[2] لا تفيد المِلكيّة ولا المالكيّة . ولن ينفع هذا الاستشهاد أبا عليّ الفارسيّ شيئاً .

١ـ «مجمع البيان» ج ١ ، ص ٢٤ .

٢ـ مقطع من الآية ١٩ ، من السورة ٨٢ : الانفطار .

مضافاً إلى ذلك أنّ بإمكاننا الاستدلال على أقربيّة **مَلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ** بثلاث جهات من القرآن الكريم :

الأُولى : قوله تعالى : **لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ**.[1]

حيث نُسب المُلك فيه إلى اليوم وجُعل للّه تعالى ، وهو تماماً بمثابة **مَلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ** ، لأنّ الألف واللام في **ٱلْيَوْمِ** بمعنى العهد ، وهو راجع إلى يوم القيامة . ذلك أنّه يقول قبل ذلك :

يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ.[2]

الثانية : أنّ صيغة مالك قد وردت في القرآن الكريم في موضع واحد من القرآن الكريم في وصف الله تعالى :

قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ .[3]

حيث جاء مالك هنا بمعنى مَلِك ، لأنّه نُسب إلى المُلك . وفي الحقيقة فإنّ **مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ** يمثّل القدرة والسيطرة على الحكومة والأمر ، وهو مساوق للمُلك ومتّحد معه . أمّا في المواضع الأُخرى ، فقد ورد فيها تعبير مَلِك ، مثل قوله تعالى : **فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ** .[4]

ومثل : **هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ** .[5]

---

١ و٢ـ من الآية ١٦ ، من السورة ٤٠ : غافر .

٣ـ الآية ٢٦ ، من السورة ٣ : آل عمران .

٤ـ صدر الآية ١١٤ ، من السورة ٢٠ : طه ؛ وصدر الآية ١١٦ ، من السورة ٢٣ : المؤمنون .

٥ـ صدر الآية ٢٣ ، من السورة ٥٩ : الحشر .

وقوله: **ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ.**[١]

وقوله: **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ * مَلِكِ ٱلنَّاسِ * إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ.**[٢]

والثالثة: أنّ القرآن الكريم قد نسب المُلك ـ وليس المِلك ـ إلى الله تعالى، كقوله تعالى:

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ.[٣]

وقوله: **وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ.**[٤]

وقوله: **تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ.**[٥]

ولم يُشاهد في أيّ موضع من القرآن الكريم أنّ المِلك قد نُسب إلى الله تعالى. والعلّة في ذلك ـ حسب قول الزمخشريّ ـ أنّ: **المُلْك يَعُمُّ والمِلْك يَخُصُّ.**

ويُستنتج من مجموع ما ذُكر أنّ قراءة **مَلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ** متعيّنة، بَيدَ أنّه لمّا كان قارئان من القرّاء السبعة المشهورين قد قرءا بـ: **مَـٰلِك**، مضافاً إلى ذلك ما ورد في رواية الحلبيّ عن الإمام الصادق عليه السلام: **إنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ «مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ»**؛[٦] فإنّ قراءة **مَـٰلِكِ** صحيحة أيضاً، خصوصاً وأنّ فقهاء الإسلام يعتبرون القراءات السبع المشهورة متواترةً، أي أنّ تلك القراءات قد وصلتنا عن رسول الله بالتواتر.

فتكون النتيجة أنّ كلتا القراءتين صحيحة ومُجزية، لكنّ قراءة **مَلِكِ**

١ـ ذيل الآية ١، من السورة: ٦٢: الجمعة.

٢ـ الآية ١ إلى ٣: من السورة ١١٤: الناس.

٣ـ صدر الآية ١٠٧، من السورة ٢: البقرة؛ وصدر الآية ٤٠، من السورة ٥: المائدة.

٤ـ صدر الآية ١٨٩، من السورة ٣: آل عمران؛ وسبع آيات قرآنيّة غيرها.

٥ـ الآية ١، من السورة ٦٧: الملك.

٦ـ تفسير «البرهان» ج ١، ص ٣٣: الطبعة الحجريّة.

أحسن وأعمّ وأشمل وأنسب ؛ والله العالم .

أمّا ما رواه السيّد هاشم البحرانيّ عن **داود بن فرقد** ، قال : سمعتُ أبا عبد الله (الصادق) عليه السلام يقرأ ما لا أحصي **مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ**،[1] فليس صحيحاً ، لأنّ رواية داود بن فرقد هذه ، هي التي أوردها العيّاشيّ في تفسيره (ج ١ ، ص ٢٢) ، ونقلناها هنا عن تفسير «الصافي» وفيها أنّ الإمام الصادق عليه السلام كان يقرأ كثيراً بـ **مَلِكِ** وليس **مَـٰلِكِ** ؛ والظاهر أنّ تصحيفاً قد حصل في نسخة السيّد البحرانيّ ، فتغيّر لفظ **مَلِك** إلى **مَـٰلِك**.

وقد أورد أمير المؤمنين عليه أفضل صلوات المصلّين خطبةً بديعة في «نهج البلاغة» في نزول القرآن الكريم وبيان سبيل الخير وسبيل الشرّ فيه ، وفي العمل بالفرائض ورعاية حقوق العامّة ، يقول فيها :

إنَّ اللهَ تَعَالَى أَنْزَلَ كِتاباً هَادِياً بَيَّنَ فِيهِ الخَيْرَ وَالشَّرَّ . فَخُذُوا نَهْجَ الخَيْرِ تَهْتَدُوا ، وَاصْدِفُوا عَنْ سَمْتِ الشَّرِّ تَقْصِدُوا !

الفَرَائِضِ ! الفَرَائِضِ ! أدُّوها إلَى اللهِ تُؤَدِّكُمْ إلَى الجَنَّةِ إنَّ اللهَ حَرَّمَ حَرَاماً غَيْرَ مَجْهُولٍ ، وَأَحَلَّ حَلَالاً غَيْرَ مَدْخُولٍ . وَفَضَّلَ حُرْمَةَ المُسْلِمِ عَلَى الحُرَمِ كُلِّهَا . وَشَدَّ بِالإخْلاصِ وَالتَّوْحِيدِ حُقُوقَ المُسْلِمِينَ فِي مَعَاقِدِهَا . فَالمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ إلَّا بِالحَقِّ . وَلَا يَحِلُّ أَذَى المُسْلِمِ إلَّا بِمَا يَجِبُ.

بَادِرُوا أَمْرَ العَامَّةِ وَخَاصَّةَ أَحَدِكُمْ ، وَهُوَ المَوْتُ ! فَإنَّ النَّاسَ أَمَامَكُمْ ؛ وَإنَّ السَّاعَةَ تَحْدُوكُمْ مِنْ خَلْفِكُمْ.

تَخَفَّفُوا تَلْحَقُوا ! فَإنَّمَا يُنْتَظَرُ بِأَوَّلِكُمْ آخِرُكُمْ . اتَّقُوا اللَّهَ فِي عِبَادِهِ وَبِلَادِهِ ! فَإنَّكُمْ مَسْؤُولُونَ حَتَّى عَنِ البِقَاعِ وَالبَهَائِمِ . أَطِيعُوا اللهَ

١ـ تفسير «البرهان» ج ١ ، ص ٣٣ ، الطبعة الحجريّة .

وَلَا تَعْصُوهُ . وَإذَا رَأَيْتُمُ الخَيْرَ فَخُذُوا بِهِ . وَإذَا رَأَيْتُمُ الشَّرِّ فَأَعْرِضُوا عَنْهُ.[1]

ويقول ابن أبي الحديد في شرح هذه الخطبة :

قوله : **فَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ** ... هذا لفظ الخبر النبويّ بعينه ... وقد ورد في الأخبار النبويّة : **لَيُنْتَصَفَنَّ لِلْجَمَّاءِ مِنَ القَرْنَاءِ**. وقد جاء في الخبر الصحيح : **إنَّ اللهَ تَعَالَى عَذَّبَ إنْسَاناً بِهِرٍّ حَبَسَهُ فِي بَيْتٍ وَأَجَاعَهُ حَتَّى هَلَكَ.**[2]

أجل ، فمن الأجدر ، ونحن نريد اختتام البحث في «نور ملكوت القرآن» أن نورد بقيّة الدعاء الجامع الكامل لسيّد الساجدين عليه السلام في ختم القرآن ، الذي لم نذكر شرحاً له . لنحظى بفضائل وفواضل هذه التحفة السماويّة والمائدة النازلة من الجنّة . وقد أوردنا قسماً من الدعاء في الجزء الثالث ، وقسماً منه في الجزء الرابع ،[3] وها نحن نذكر تتمّة هذا الدعاء في خاتمة الجزء الرابع :

اللهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ ، وَاجْبُرْ بِالقُرْآنِ خَلَّتَنَا مِنْ عَدَمِ الإملاقِ. وَسُقّ إلَيْنَا بِهِ رَغَدَ العَيشِ وَخِصْبَ سَعَةِ الأَرْزَاقِ . وَجَنِّبْنَا بِهِ الضَّرَائِبَ المَذْمُومَةَ وَمَدَانِيَ الأَخْلَاقِ . وَاعْصِمْنَا بِهِ مِنْ هُوَّةِ الكُفْرِ وَدَوَاعِي النِّفَاقِ ؛ حَتَّى يَكُونَ لَنَا فِي القِيَامَةِ إلَى رِضْوَانِكَ وَجِنَانِكَ قَائِداً . وَلَنَا فِي الدُّنْيَا عَنْ سُخْطِكَ وَتَعَدِّي حُدُودِكَ ذَائِداً . وَلِمَا عِنْدَكَ بِتَحْلِيلِ حَلَالِهِ وَتَحْرِيمِ حَرَامِهِ

١ـ «نهج البلاغة» الخطبة ١٦٥ ؛ وفي طبعة مصر ، تعليق الشيخ محمّد عبده ج ١، ص ٣١٤ و ٣١٥.

٢ـ «شرح النهج» ج ٩ ، ص ٢٨٩ و ٢٩٠ ، طبعة دار إحياء الكتب العربيّة.

٣ـ أوردنا فقرات من دعاء ختم القرآن من «الصحيفة الكاملة السجّاديّة» في الجزء الثالث، البحث السادس ؛ وأوردنا فقرات أُخرى في الجزء الرابع ، البحث الحادي عشر من هذه الدورة.

شَاهِداً.

اللهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَدٍ وَآلِهِ وَهَوِّنْ بِالقُرْآنِ عِنْدَ المَوْتِ عَلَى أَنْفُسِنَا كَرْبَ السِّيَاقِ وَجَهْدَ الأَنِينِ. وَتَرَادُفَ الحَشَارِجِ إذَا بَلَغَتِ النُّفُوسُ التَّرَاقِيَ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ. وَتَجَلَّى مَلَكُ المَوْتِ لَقَبْضِهَا مِنْ حُجُبِ الغُيُوبِ، وَرَمَاهَا عَنْ قَوْسِ المَنَايَا بَأَسْهُم وَحْشَةِ الفِرَاقِ. وَدَافَ لَهَا مِنْ ذُعَافِ المَوْتِ كَأْساً مَسْمُومَةَ المَذَاقِ. وَدَنَا مِنَّا إِلَى الآخِرَةِ رَحِيلٌ وَانْطِلاقٌ. وَصَارَتِ الأَعْمَالُ قَلائِدَ فِي الأَعْنَاقِ. وَكَانَتِ القُبُورُ هِيَ المَأْوَى إِلَى مِيقَاتِ يَوْمِ التَّلَاقِ.

اللهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ. وَبَارِكْ لَنَا فِي حُلُولِ دَارِ البِلَى، وَطُولِ المُقَامَةِ بَيْنَ أَطْبَاقِ الثَّرَى. وَاجْعَلِ القُبُورَ بَعْدَ فِرَاقِ الدُّنْيَا خَيْرَ مَنَازِلِنَا. وَافْسَحْ لَنَا بِرَحْمَتِكَ فِي ضِيقِ مَلَاحِدِنَا. وَلَا تَفْضَحْنَا فِي حَاضِرِي القِيَامَةِ بِمُوبِقَاتِ آثَامِنَا. وَارْحَمْ بِالقُرْآنِ فِي مَوْقِفِ العَرْضِ عَلَيْكَ ذُلَّ مَقَامِنَا. وَثَبِّتْ بِهِ عِنْدَ اضْطِرَابِ جِسْرِ جَهَنَّمَ يَوْمَ المَجَازِ عَلَيْهَا زَلَلَ أَقْدَامِنَا. وَنَوِّرْ بِهِ قَبْلَ البَعْثِ سُدَفَ قُبُورِنَا. وَنَجِّنَا بِهِ مِنْ كُلِّ كَرْبٍ يَوْمَ القِيَامَةِ وَشَدَائِدِ أَهْوَالِ يَوْمِ الطَّامَّةِ. وَبَيِّضْ وُجُوهَنَا يَوْمَ تَسْوَدُّ وُجُوهُ الظَّلَمَةِ فِي يَوْمِ الحَسْرَةِ وَالنَّدَامَةِ. وَاجْعَلْ لَنَا فِي صُدُورِ المُؤْمِنِينَ وُدّاً، وَلَا تَجْعَلِ الحَيَاةَ عَلَيْنَا نَكِداً.

اللهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ كَمَا بَلَّغَ رِسَالَتَكَ، وَصَدَعَ بِأَمْرِكَ، وَنَصَحَ لِعِبَادِكَ. اللهُمَّ اجْعَلْ نَبِيَّنَا صَلَوَاتُكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ أَقْرَبَ النَّبِيِّينَ مِنْكَ مَجْلِساً، وَأَمْكَنَهُمْ مِنْكَ شَفَاعَةً، وَأَجَلَّهُمْ عِنْدَكَ قَدْراً، وَأَوْجَهَهُمْ عِنْدَكَ جَاهاً.

اللهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ. وَشَرِّفْ بُنْيَانَهُ. وَعَظِّمْ بُرْهَانَهُ. وَثَقِّلْ مِيزَانَهُ. وَتَقَبَّلْ شَفَاعَتَهُ. وَقَرِّبْ وَسِيلَتَهُ. وَبَيِّضْ وَجْهَهُ. وَأَتِمَّ نُورَهُ. وَارْفَعْ دَرَجَتَهُ. وَأَحْيِنَا عَلَى سُنَّتِهِ. وَتَوَفَّنَا عَلَى مِلَّتِهِ. وَخُذْ بِنَا مِنْهَاجَهُ.

وَاسْلُكْ بِنَا سَبِيلَهُ . وَاجْعَلْنَا مِنْ أَهْلِ طَاعَتِهِ . وَاحْشُرْنَا فِي زُمْرَتِهِ . وَأَوْرِدْنَا حَوْضَهُ. وَاسْقِنَا بِكَأْسِهِ.

وَصَلِّ اللَّهُمَّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ . صَلَاةً تُبَلِّغُهُ بِهَا أَفْضَلَ مَا يَأْمُلُ مِنْ خَيْرِكَ وَفَضْلِكَ وَكَرَامَتِكَ . إِنَّكَ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ ، وَفَضْلٍ كَرِيمٍ.

اللَّهُمَّ اجْزِهِ بِمَا بَلَّغَ مِنْ رِسَالَاتِكَ ، وَأَدَّى مِنْ آيَاتِكَ ، وَنَصَحَ لِعِبَادِكَ ، وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِكَ ؛ أَفْضَلَ مَا جَزَيْتَ أَحَداً مِنْ مَلَائِكَتِكَ الْمُقَرَّبِينَ ، وَأَنْبِيَائِكَ الْمُرْسَلِينَ الْمُصْطَفَيْنَ . وَالسَّلَامُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ.[1]

ويتّضح ـ من خلال التأمّل والتدبّر في مضامين هذا الدعاء المبارك ـ الأُفُق الرحيب والمنظر العالي المُبهج من علوم القرآن الذي يقف الإمام عليه السلام فيه ؛ والنظرة التي يتلو القرآن بها ؛ والفوائد المعنويّة التي يجتنيها من آيات القرآن ؛ والمراحل والمنازل التي يطويها في الأدب الربوبيّ ؛ وكيف يقف أمام عظمة خالق القرآن خاضعاً خاشعاً ، كأنّه لا يرى غير الحقّ وعظمة الحقّ تعالى .

ولقد كان أتباع مدرسة النبوّة والولاية على هذا الشأن ، وكان المتشرّفون بالتوحيد الربوبيّ والفناء في الذات الأحديّة يتولّهون بآيات القرآن ، ليس ذلك العشق التافه الوضيع الذي يتعلّق بالمادّة وآثار المادّة ، فذاك ماءٌ آسن زائل :

عشق‌هائى كز پى رنگى بود   عشق نبود عاقبت ننگى بود[2]

بل عشقٌ حقيقيّ معنويّ روحانيّ ، بل إنّ حقيقة العشق تتجسّد هنا ،

١ـ الدعاء الثاني والأربعون من «الصحيفة الكاملة السجّاديّة».

٢ـ يقول : «إنّ الحبّ الذي يكون لأجل الزخارف ليس حبّاً ، وسيعقب عاراً وشناراً».

ولا يمكن إطلاق اسم العشق على أنواع العشق المجازيّ .

فذلك العاشق ، متولّهٌ بالدم والصديد المغطّى بلباس البدن ، والمحجوب في حجاب البَشَرة ؛ أمّا هذا ، فمتحيّر تائه في الجمال الأزليّ ، وعاشق للأبديّة والسرمديّة ، وللجمال المطلق لعالم الحقّ والطبيعة الذي لا تشوبه شائبة من كدورات المادّة والتحديد والتقييد . هنا يتجلّى للإنسان معنى العشق حقّاً وحقيقةً ، وهنا تصبح آثار العشق وخصائصه مشهودةً في الإنسان ، فهو هارب من عالم ما سوى الله ، متّجه إلى عالم الوحدة ، والهٌ حائرٌ في بحثه وتفتيشه .

ولقد كان هناك أفراد كثيرون في زمن رسول الله ممّن يقومون بتعليم القرآن ، إلّا أنّ الذين جمعوا كلّ القرآن كانوا أفراداً قلائل ، سواء في ذلك المهاجرون والأنصار ؛ وكان في الأنصار خمسة نفر فقط من جامعي القرآن ، وكانت المرأة المسلمة الوحيدة التي جمعت القرآن هي **أُمّ ورقة** بنت عبد الله بن الحارث ، وكان لها مقام عظيم حقّاً في الإسلام ، وينبغي أن تكون قدوة تحتذي على مثالها النساء المسلمات .

يقول السيوطيّ في «الإتقان» : أخرج ابن سعد في «الطبقات» : أنبأنا الفضل بن دُكين ، قال : حدّثنا الوليد بن عبد الله بن جميع قال : حدّثتني جدّتي عن أُمّ ورقة ابنة عبد الله بن الحارث ـ وكان رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم يزورها ، ويُسمّيها «الشهيدة» ، وكانت قد جمعتْ القرآن ـ أنّ رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم حين غزا **بدراً** قالت له **أُمّ ورقة** : أتأذن لي فأخرج معك أُداوي جرحاكم وأُمرّض مرضاكم ، لعلّ الله يهدي لي شهادة ؟ قال : إنّ الله مُهدٍ لكِ شهادةً .

وكان صلّى الله عليه [وآله] وسلّم قد أمرها أن تؤمّ أهل دارها ، وكان لها مؤذِّن ، فغمّها غلامٌ لها وجارية كانت **دبّرتهما** (أي أعتقتهما بعد موتها)

فقتلاها في إمارة عمر. فقال عمر: صدق رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم، كان يقول: انطلقوا بنا نزور الشهيدة.[١]

ومن بين النساء المسلمات اللواتي اشتهرن بقراءة القرآن وختمه وتفسيره السيّدة **نفيسة** حفيدة الإمام الحسن المجتبى عليه السلام، وكانت قد قضت سنوات عمرها الأخيرة في مصر ودُفنت فيها، ولها مزار عظيم وقبّة وصحن يُزار، وقد اشتهرت في حياتها بالكرامات واستجابة الدعوات.

وقد أورد ترجمتها كثير من الأعلام، منهم ابن خَلِّكان،[٢] والشبلنجيّ،[٣] والشيخ محمّد الصَّبَّان،[٤] والمقريزيّ،[٥] والشيخ ذبيح الله المحلّاتيّ،[٦] والمحدِّث القمّيّ،[٧] وعبّاس قلي خان سبهر.[٨] ونورد فيما يلي

١ـ «الإتقان» ج ١، ص ٩١، الطبعة الأُولى.

٢ـ «وفيّات الأعيان و أبناءِ أبناء الزمان» ج ٥، ص ٤٢٣، رقم ٧٦٧، طبعة دار صادر، بيروت، تحقيق الدكتور إحسان عبّاس، تحت عنوان «السيّدة نفيسة»؛ و: ج ٣، ص ٨٦، طبعة بولاق، مصر.

٣ـ «نور الأبصار في مناقب آل بيت النبيّ المختار» ص ١٨٨ إلى ١٩٤، الطبعة الأُولى، مصر.

٤ـ «إسعاف الراغبين» المطبوع بهامش «نور الأبصار»، ص ٢١٢ إلى ٢١٥.

٥ـ «الخطط المقريزيّة» في أخبار إقليم مصر والنيل وذكر القاهرة، ج ٢، ص ٤٤٠ إلى ٤٤٢، طبعة بيروت.

٦ـ «رياحين الشريعة» في ترجمة عالمات نساء الشيعة، ج ٥، ص ٨٥ إلى ٩٦.

٧ـ «منتهى الآمال»، ج ٢، ص ١٠٨، في أحوال ولد الإمام الصادق عليه السلام، بمناسبة ذكر زوجها: إسحاق بن جعفر؛ الطبعة الحروفيّة، المكتبة الإسلاميّة.

٨ـ «ناسخ التواريخ» تأليف ابن الميرزا محمّد تقي سبهر، ج ٣، ص ١١٦ إلى ١٣٣؛ تأريخ الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام، الطبعة الحروفيّة، المكتبة الإسلاميّة.

مقتطفات اخترناها من عبارة الشبلنجيّ في «نور الأبصار» :

السيّدة نفيسة بنت سيّدي حسن الأنور ، بن السيّد زيد الأبلَج بن الحسن السبط بن عليّ بن أبي طالب [عليه السلام] .

أُمّها أُمّ ولد ؛ تزوّج بنفيسة إسحاق بن جعفر الصادق [عليه السلام] ، وكان يُدعى بإسحاق المؤتمَن ، وكان من أهل الصلاح والخير والفضل والدين ، ورُوي عنه الحديث . وكان **ابن كاسِب** إذا حدّث عنه يقول : **حَدَّثَنِي الثِّقَةُ الرَّضِيُّ إسْحَاقُ بْنُ جَعْفَرٍ.**

وكان مولد السيّدة نفيسة بمكّة المشرّفة سنة خمس وأربعين ومائة ، ونشأت بالمدينة في العبادة والزهادة ، تصوم النهار وتقوم الليل . وكانت لا تفارق حرم النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ، وحجّت ثلاثين حجّة أكثرها ماشية . وكانت تبكي بكاءً كثيراً وتتعلّق بأستار الكعبة وتقول :

إلَهِي وَسَيِّدِي وَمَوْلَايَ ! مَتِّعْنِي وَفَرِّحْنِي بِرِضَاكَ عَنِّي ! فَلَا سَبَبَ لِي أَتَسَبَّبْ بِهِ يَحْجُبُكَ عَنِّي !

قالت زينب بنت **يحيى المُتوَّج** وهو أخو السيّدة نفيسة رضي الله عنهم : خدمتُ عمّتي نفيسة أربعين سنة ، فما رأيتها نامتْ بليلٍ ، ولا فطرتْ بنهار ، فقلتُ : أما ترفقين بنفسك ؟ فقالت : كيف أرفق بنفسي وقُدّامي عقبات لا يقطعهنّ إلّا الفائزون ... .

وكانت لا تأكل لغير زوجها شيئاً . وعن زينب أيضاً قالت : كانت عمّتي نفيسة **تحفظ القرآن** وتفسيره ، كانت تقرأ القرآن وتبكي وتقول : إلهي وسيّدي يسّر لي زيارة خليلك إبراهيم عليه السلام ، فحجّت هي وزوجها إسحاق المؤتمن بن جعفر الصادق ، ثمّ زارت قبر خليل الرحمن عليه السلام ، ثمّ رجعت إلى مصر وسكنت بالمنصوصة في دار أُمّ هانئ ، وكان بجوارهم يهوديّ له ابنة مقعدة لا تستطيع القيام ، فشفيتْ بفضل

وضوئها .

وكان قدوم السيّدة نفيسة إلى مصر سنة ثلاث وتسعين ومائة على خلاف في ذلك . وفي تاريخ ابن خلّكان : دخلتْ مصر مع زوجها ، وقيل : دخلت مع أبيها الحسن ... ولمّا سمع أهل مصر بقدومها ـ وكان لها ذِكر شائع عندهم ـ تلقّتها النساء والرجال بالهوادج من العريش ، ولم يزالوا معها إلى أن دخلتْ مصر ، فأنزلها عنده كبير التجّار بمصر : **جمال الدين عبد الله بن الجَصّاص** ، فنزلت عنده في داره وأقامت بها مدّة شهور والناس يأتون إليها أجمعون من سائر الآفاق يتبرّكون بزيارتها .

ولمّا شاعت هذه الكرامة بين الناس ، لم يبقَ أحد إلّا قصد زيارة السيّدة نفيسة رضي الله عنها ، وعظم الأمر وكثر الخلق على بابها ، فطلبتْ عند ذلك الرحيل إلى بلاد الحجاز عند أهلها ، شقّ ذلك على أهل مصر وسألوها في الإقامة . فقالت : إنّ الناس قد أكثروا من المجيء عندي وشغلوني عن أورادي وجمع زادي لمعادي [فأعطاها حاكم مصر داراً واسعة كانت له ، وشرط على الناس أن لا يزوروها إلّا يومين في كلّ أُسبوع ، فقبلت بذلك في آخر الأمر ، وبقيت في تلك الدار إلى أن توفّيت سنة ٢٠٨ هجريّة] .

ولمّا دخل الشافعيّ مصر ،كان يتردّد إليها ، وكان يصلّي بها التراويح في مسجدها في رمضان ، وكان يأتي إليها ويسألها الدعاء ... وكان الشافعيّ إذا مرض يرسل إليها إنساناً من أصحابه يسألها الدعاء ، فتدعو له فلا يرجع له القاصد إلّا وقد عوفي من مرضه . فلمّا مرض مرضه الذي مات فيه ، أرسل لها على جاري عادته يلتمس منها الدعاء ، فقالت للقاصد :

مَتَّعَهُ اللَهُ بِالنَّظَرِ إلَى وَجْهِهِ الكَرِيم ! فجاء القاصد له ، فرآه الشافعيّ فقال له : ما قالت لك ؟ قال : قالت لي كَيت وكَيت ؛ فعلم أنّه ميّت ،

فأوصى ، وأوصى أن تصلّي عليه ، فلمّا توفّي سنة أربع ومائتين كما هو المشهور مرّوا به على بيتها ، فصلّت عليه مأمومةً ، وكان الذي صلّى بها إماماً **أبو يعقوب البويطيّ** أحد أصحابه ، وكان مرور جنازة الشافعيّ على بيتها بأمر السريّ [1] أمير مصر ، لأنّها سألته في ذلك إنفاذاً لوصيّة الشافعيّ ، لأنّها كانت لا تستطيع الخروج إلى جنازته لضعفها من كثرة العبادة ... .

[ثمّ يروي الشبلنجيّ هنا عدّة حكايات عن كرامات السيّدة نفيسة في حياتها ويقول :] وحفرت قبرها بيدها في بيتها ، وكانت تصلّي فيه كثيراً وقرأت فيه مائة وتسعين ختمة ، وفي رواية عنه ألفي ختمة ، وقيل ألفاً وتسعمائة .[2]

قالت زينب بنت أخيها : تألّمت عمّتي في أوّل يوم من رجب وكتبت إلى زوجها إسحاق المؤتمن كتاباً ، وكان غائباً بالمدينة ، تأمره بالمجيء إليها ، ولا زالت كذلك إلى أوّل جمعة من شهر رمضان ، فزاد بها الألم وهي صائمة ، فدخل عليها الأطبّاء الحذّاق وأشاروا عليها بالإفطار لحفظ القوّة لما رأوا من الضعف الذي أصابها ، فقالت : **وا عجباه** ، لي

١ـ كان حاكم مصر عند ورود السيّدة نفيسة يدعى **السَّريّ** ، و قد توفّي في نفس سنة وفاة الشافعيّ ـ أي في سنة ٢٠٤ ـ فصار الأمر إلى ابنه من بعده عبد الله.

٢ـ ولا تُستبعد هذه الكرامات من هذه المخدّرة مع هذا الوله بالقرآن الكريم ، لأنّ القرآن نور ، وآثار النور موجودة في القرآن وفي قارئه.

روى الحرّ العامليّ في «وسائل الشيعة» ج ٤ ، ص ٨٥١ ، الطبعة الحروفيّة ، عن رجال الكشّيّ مسنداً عن أبي هارون قال : كنتُ ساكناً في دار الحسن بن الحسين ، فلمّا علم بانقطاعي إلى أبي جعفر (الباقر) وأبي عبد الله (الصادق) عليهما السلام أخرجني من داره. قال: فمرّ بي أبو عبد الله عليه السلام فقال : يا با هارون ! بلغني أنّ هذا أخرجك من داره؟ قلتُ : نعم. قال : بلغني أنّك كنت تكثر فيها كتاب الله ، **وَالدَّارُ إذَا تُلِيَ فِيهَا كِتَابُ اللَهِ كَانَ لَهَا نُورٌ سَاطِعٌ فِي السَّمَاءِ وَتُعْرَفُ مِنْ بَيْنِ الدُّورِ** .

ثلاثون سنة أسأل الله عزّ وجلّ أن يتوفّاني وأنا صائمة ، فأفطر ! **مَعَاذَ الله** .

ثمّ أنشدت تقول :

اصْرِفُوا عَنِّي طَبِيبِي وَدَعُونِي وَحَبِيبِي
زَادَ بِي شُوقاً إِلَيْهِ وَغَرَامِي فِي لَهِيبِ
طَابَ هَتْكِي فِي هَوَاهُ بَيْنَ وَاشٍ وَرَقِيبِ
لَا أُبَالِي بِفَوَاتٍ حِينَ قَدْ صَارَ نَصِيبِي
لَيْسَ مَن لَامَ بِعَذْلٍ عَنْهُ فِيهِ بِمُصِيبِ
جَسَدِي رَاضٍ بِسُقْمِي وَجُفُونِي بِنَحِيبِ

قال صاحب «التحفة الإنسيّة من المآثر النفيسة» : ومِن الناس مَن يرى أنّ هذه الأبيات **لمحمّد بن إبراهيم بن ثابت الكيزانيّ** الشيعيّ .

قالت زينب : ثمّ إنّها بقيت كذلك إلى العشر الأواسط من شهر رمضان ، فاحتضرت واستفتحت بقراءة سورة الأنعام ، فلا زالت تقرأ إلى أن وصلت إلى قوله تعالى : **قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ** ،[1] ففاضت روحها الكريمة .

وفي «دُرر الأصداف» عنها : فلمّا وصلت إلى قوله تعالى : **لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَـٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ،[2] غُشي عليها ، فضممتُها لصدري فتشهّدت شهادة الحقّ وقُبضت رحمة الله عليها . ووصل زوجها في ذلك اليوم فقال إنّي أحملها إلى المدينة وأدفنها بالبقيع ، فاجتمع أهل مصر إلى أمير البلد واستجاروا به إلى إسحاق ليردّه عمّا أراد فأبى ، فجمعوا له مالاً كثيراً وسق بعيره الذي أتى عليه وسألوه أن يدفنها عندهم فأبى ،

١ـ مقطع من الآية ١٢ ، من السورة ٦ : الأنعام .
٢ـ الآية ١٢٧ ، من السورة ٦ : الأنعام .

فباتوا في مشقّة عظيمة .

فلمّا أصبحوا اجتمعوا فوجدوا منه غير ما عهدوه بالأمس ، فقالوا له : إنّ لك لشأناً ! قال : نعم ، رأيتُ رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم وهو يقول لي : **رُدَّ عَلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَادْفُنْهَا عِنْدَهُمْ** !... فدُفنت بمزار **بدرب السباع** ، وكان يوم دفنها يوماً مشهوداً ، وأتوها من البلاد والنواحي يصلّون عليها بعد دفنها ، وأُوقدت الشموع تلك الليلة ، وسُمع البكاء من كلّ دارٍ بمصر ، وعظم الأسف عليها .

قال **الدميريّ** : السيّدة نفيسة رضي الله عنها ، كانت أُمّيّة لا تقرأ شيئاً ، إلّا أنّها سمعت الحديث كثيراً وكانت من أهل الخير والصلاح ، وكانت في آخر عمرها إذا عجزت عن الصلاة قائمةً ، صلّت قاعدة . وكانت من كثرة الصيام والقيام ضعف قواها . وزار قبرها جماعة من الأولياء والصلحاء ، كالأُستاذ الكبير **أبي الفيض تومان** ، **ذي النون المصريّ** ، **ابن إبراهيم الإخميميّ** أحد رجال الطريقة المعتبرين ، و**أبي الحسن الدينوريّ** ، و**أبي عليّ الروذباريّ** ، و**أبي بكر أحمد بن نصر الدقّاق** ، **وبنان بن أحمد بن محمّد بن سعيد الحمّال الواسطيّ** ، و **شقران بن عبد الله المغربيّ** ، **وإدريس بن يحيى الخولانيّ** ، **والفضل بن فضالة** ، **والقاضي بكار بن قتيبة** ، **وإسماعيل المزنيّ** صاحب الإمام الشافعيّ ، **وعبد الله بن عبد الحكم بن أعين بن ليث بن رافع المصريّ وولده الإمام محمّد** صاحب «تاريخ مصر» ، **وعبد الرحمن بن الحكم والإمام أبو يعقوب البويطيّ** ، **والربيع بن سليمان المراديّ** ممّن لا يحصي عددهم إلّا الله .

ثمّ يذكر الشبلنجيّ هنا زيارة لها ، من جملتها :

يَا بَنِي الزَّهْرَاءِ وَالنُّورِ الَّذِي ظَنَّ مُوسَى أَنَّهُ نَارُ قَبَسْ

لَا أُوالِي قَطُّ مَنْ عَادَاكُمُ إِنَّهُمْ آخِرُ سَطْرٍ فِي عَبَسْ

ويشير في البيت الثاني أنّ أعداء آل محمّد وبني فاطمة هم تحقيقاً من الكفّار والفجّار، لأنّ الآية الأخيرة في سورة عبس تقول: **أُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ**.

ثمّ ينقل قصيدتين في هذه السيّدة الجليلة لبعض الفضلاء، تبدأ أولاهما بهذه الأبيات:

يَا مَنْ لَهُ فِي الكَوْنِ مِنْ حَاجَةٍ عَلَيْكَ بِالسَّيِّدَةِ الطَّاهِرَة
نَفِيسَة وَالمُصْطَفى جَدُّهَا أَسْرَارُهَا بَيْنَ الوَرَى ظَاهِرَة
فِي الشَّرْقِ وَالغَرْبِ لَهَا شُهْرَةٌ أَنْوَارُهَا سَاطِعَةٌ بَاهِرَة
كَمْ مِن كَرَامَاتٍ لَهَا قَدْ بَدَتْ وَكَمْ مَقَامَاتٍ لَهَا فَاخِرَة

إلى أن يصل إلى هذه الأبيات، حيث يقول:

عَابِدَةٌ زَاهِدَةٌ جَامِعَةٌ لِلْخَيْرِ فِي الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَة
فِي كُلِّ قُطْرٍ قَدْ سَمَا ذِكْرُهَا عَالِمَةٌ فَائِقَةٌ مَاهِرَة
يُسْقَى بِهَا الغَيْثُ إذَا مَا القُرَى قَدْ أَجْدَبَتْ مِنْ سَحْبِهَا المَاطِرَة
سُبْحَانَ مَنْ أَعْلَى لَهَا قَدْرَهَا لِأَنَّهَا بَيْنَ الوَرَى نَادِرَة

قال **المقريزيّ**: قبر السيّدة نفيسة أحد المواضع المعروفة بإجابة الدعاء بمصر ... ولم يزل المصريّون ممّن أصابته مصيبة، أو لحقته فاقة أو جائحة يمضون إلى أحدها فيدعون الله تعالى فيستجيب لهم.[١]

وقد اخترنا هذه المطالب عن السيّدة نفيسة من كتاب «نور الأبصار» من بين جميع الكتب التي تحدّثت عنها، لأنّه كان أكثر منها شمولاً وإحاطة بحيث لم تزد الكتب الأُخرى عليه شيئاً. بَيدَ أنّه يجب العلم بأنّنا اختصرنا

١ـ «نور الأبصار» للشبلنجيّ، ص ١٨٨ إلى ١٩٤، الطبعة الأُولى، القاهرة.

مطالب هذا الكتاب واكتفينا بنقل المطالب الأساسيّة .

ولقد كان قصدنا من ذكر هذه المخدّرة الجليلة ، أُنسها ومعرفتها بالقرآن الكريم ، وهو أمر شيّق أكثر من سواه ، لأنّ من المسلّم أنّها كانت تحفظ القرآن على الرغم من كونها أُمّيّة حسب نقل المقريزيّ . وباعتبار انحدارها من سلالة البيت الطاهر ، ومعرفتها بالحديث والتفسير ، وكون العربيّة لغتها الأُمّ ، فإنّها كانت ـ على وجه التحقيق ـ تقرأ القرآن عن تبصّر ، فيؤثّر في روحها ، وكانت جذبات الشوق والعشق الإلهيّ تكتنفها حال قراءتها للقرآن ، فتغفل عن نفسها وتتّحد بخالقها ، وكانت تلك الحالات البديعة في عالم التوحيد تستدعي ظهور الكرامات ، وتحيّر الأعلام والأعيان الذين كانوا يعرفونها .

ويجب ألّا يُتعجّب من كثرة ختمها للقرآن ، فقد كانت حافظة للقرآن ، ومَن يحفظ القرآن يمكنه أن يختمه في مدّة ثمان أو عشر ساعات .

وقد سمعتُ حين كنت أدرس في النجف الأشرف بأنّ آية الله الحاجّ الميرزا مهدي الشيرازيّ أعلى الله مقامه ـ وكان ساكناً في كربلاء المقدّسة ، وكان يحفظ القرآن ـ كان يغتسل في بعض أيّام شهر رمضان ، ويتشرّف بالذهاب إلى الحرم المطهّر ، فيختم القرآن من الصبح إلى العصر ، ثمّ يعود .

وهذه المقامات العالية ليست بعيدة عن مثل السيّدة نفيسة ، فإنّها لمّا ولهت بالله تعالى ونست ما سواه ، فإنّ الله تعالى قد أنعم عليها بتلك المقامات ، يُضاف إلى ذلك أن زوجها كان ابناً للإمام الصادق عليه السلام بلا فصل ، وكان أصحاب الرواية والرجال يدعونه بالمؤتَمَن . وكان يقول بإمامة أخيه الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام .

أمّا عن والد نفيسة : الحسن ، فلا يُذكر بخير ، وقد عدّه الشيخ الطوسيّ

في رجاله من أضعف الضعفاء. وقال عنه مؤلّف «عمدة الطالب»: كان الحسن بن زيد بن الحسن بن عليّ أمير المدينة من قِبل الدوانيقيّ، وعيناً له على غير المدينة أيضاً. وكان مظاهراً لبني العبّاس على بني عمّه الحسن المثنّى، وهو أوّل من لبس السواد من العلويّين ... وروى في المناقب عن المفضّل بن عمر قال: وجّه المنصور إلى الحسن بن زيد، وهو واليه على الحرمَين، أن أحرق على جعفر (الصادق عليه السلام) داره».[1]

أمّا جدّ السيّدة نفيسة، وهو زيد بن الحسن بن عليّ ـ وقد ظنّه المامقانيّ اشتباهاً زيد بن الحسن بن الحسن بن عليّ ـ فكان أسوأ من ابنه الحسن. وقد نقل صاحب «تنقيح المقال» حديثاً طويلاً عن «بحار الأنوار» عن «الخرائج والجرائح» للراونديّ، عن أبي بصير، عن الصادق عليه السلام أمر مخاصمة زيد بن الحسن مع زيد بن عليّ بن الحسين، ومع الباقر عليه السلام، وهو الذي سبّب قتل الباقر عليه السلام واستشهاده بسرجٍ مسمومٍ كان قد جلبه معه من الشام.[2]

أجل، فقد كان كثير من أولاد الأئمّة يأبون القبول بولاية أخيهم الإمام بالحقّ، مدفوعين بالغرور والكِبَر، أو الإقرار بإمامة عمّهم أو ابن أخيهم، نظير محمّد بن إسماعيل[3] الذي اشترك في قتل موسى بن جعفر

١ـ «تنقيح المقال» ج ١، ص ٢٨٠، الطبعة الحجريّة.

٢ـ «تنقيح المقال» ج ١، ص ٤٦٢، رقم ٤٤١٢، وقد سمّاه المامقانيّ زيد بن الحسن ابن الحسن بن عليّ، وهو خطأ مُحرز. لأن الحسن بن الحسن هو الحسن المثنّى. وهذا الأخير لم يكن له ولد يُدعى زيداً، والكلام إنّما هو عن زيد بن الحسن بن عليّ.

٣ـ ذكره المرحوم المحدِّث القمّيّ في «منتهى الآمال» ج ٢، ص ١٤٣، في أحوال الإمام الكاظم عليه السلام باسم عليّ بن إسماعيل بن جعفر، وذكر أنّ اسمه فيا لنسخة البدل هو محمّد، وهو سهوٌ يقيناً. بل اسمه محمّد بن إسماعيل. ويذكر الحقير أنّ العلّامة ⇦

بسعايته به لدى هارون ، ونظير جعفر بن عليّ الذي لُقّب بالكذّاب .

بَيدَ أنّ فساد الأب والجدّ ليس موجباً لفساد السيّدة نفيسة ؛ وآية: **تُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ** [1] هي آية نتلوها كلّ يوم . والله سبحانه ليس له مع أحدٍ قرابة ، فمن كان عمله صالحاً ،كان من أصحاب الجنّة ، وربّما كانت علّة هجرة السيّدة نفيسة إلى مصر ، وإقامتها سنوات مديدة في بلاد الغُربة بعيدة عن وطنها المدينة ،كامنةً في الابتعاد عن محيط تنافس الآباء والأرحام ، واختياراً منها للخلوة للعبادة وتلاوة كلام الله تعالى .

ويتّضح ممّا أوردناه عن السيّدة نفيسة ، أنّها كانت جامعةً للقرآن كلّه ، لأنّ العلم بالقرآن ليس بحيازة المرء لمصحف في بيته أو اصطحابه معه مصحفاً يمكنه أن يقرأه قراءة صحيحة بصوتٍ حسن جميل ؛ وليس بأن يتمكّن المرء من العثور على الآية التي يشاء اعتماداً على كشف الآيات ؛ بل بأن يتمكّن المرء أن يقرأ متى شاء أيّ مطلبٍ في القرآن الكريم عن حفظ ، وأن يعلم تفسيره . وكان مَن يتعلّم قدراً من القرآن على هذا النحو في زمن النبيّ الأكرم يُعتبر عالِماً بهذا المقدار من القرآن وجامعاً له ، وليس لأكثر منه .

⇐ محمّد القزوينيّ كان قد صرّح بهذا المطلب في بعض تأليفاته . يقول القزوينيّ في الجزء الأوّل، ص ٦٥ من كتاب «يادداشتهاى قزوينى» (= يوميّات القزوينيّ) وفي خصوص محمّدبن إسماعيل وسعايته بالكاظم عليه السلام لدى الرشيد ، فمضافاً إلى ما نُقل في «عمدة الطالب»، فقد ورد في «أُصول الكافي» في ترجمة الكاظم عليه السلام حديث مفصّل في هذا الشأن. والظاهر أنّي رأيتُ في رجال الاسترابادي أنّه ينسب هذه الواقعة ، أي السعاية بالكاظم عليه السلام إلى عليّ بن إسماعيل بدلاً من محمّد بن إسماعيل ، وهو سهوٌ ظاهر. وعلى أيّة حال، يُراجع كتاب الرجال المذكور ـ انتهى.

١ـ مقطع من الآية ٢٧ ، من السورة ٣ : آل عمران .

روى الكلينيّ في «الكافي» عن منصور، عن أبي عبد الله (الصادق) عليه السلام قال: سمعتُ أبي عليه السلام يقول: **قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ [وَ سَلَّمَ]: خَتْمُ الْقُرْآنِ إلَى حَيْثُ تَعْلَمُ.**[1]

وعلى هذا، فإنّ ختم القرآن مِن قِبل أيّ فرد، هو بمقدار ما يعلم قراءته من القرآن. وقد كانت السيّدة نفيسة تختم جميع القرآن، وعلى أحسن وجه ونحوٍ، عن حفظ، مع لحاظ المعنى والتفسير، **فَيَا لَهَا مِنْ مَنْقَبَةٍ عَظِيمَةٍ.**

أجل، فقد كانت قصّة هذه السيّدة المعظّمة خاتمة كتاب «نور ملكوت القرآن» الذي بلغ أربعة أجزاء، والأمل يحدونا بأن تمنّ علينا وعلى قارئي كتابنا ببركات نفسها القدسيّة.

يروي الكلينيّ في «الكافي» بسنده المتّصل مرفوعاً عن أبي عبد الله (الصادق) عليه السلام قال:

لَا وَاللهِ! لَا يَرْجِعُ الأَمْرُ وَالخِلَافَةُ إلَى آلِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ أَبَداً، وَلَا إلَى بَنِي أُمَيَّةَ أَبَداً، وَلَا فِي وُلْدِ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ أَبَداً! وَذَلِكَ أَنَّهُمْ نَبَذُوا القُرْآنَ وَأَبْطَلُوا السُّنَنَ وَعَطَّلُوا الأَحْكَامَ. وَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ [وَسَلَّمَ]: القُرْآنُ هُدىً مِنَ الضَّلَالَةِ، وَتِبْيَانٌ مِنَ العَمَى، وَاسْتِقَالَةٌ مِنَ العَثْرَةِ، وَنُورٌ مِنَ الظُّلْمَةِ، وَضِيَاءٌ مِنَ الأَحْدَاثِ، وَعِصْمَةٌ مِنَ الهَلَكَةِ، وَرُشْدٌ مِنَ الغَوَايَةِ، وَبَيَانٌ مِنَ الفِتَنِ، وَبَلَاغٌ مِنَ الدُّنْيَا إلَى الآخِرَةِ؛ وَفِيهِ كَمَالُ دِينِكُمْ، وَمَا عَدَلَ أَحَدٌ عَنِ القُرْآنِ إلَّا إلَى النَّارِ.[2]

ولله الحمد وله المنّة فقد انتهى الجزء الرابع من كتاب «نور ملكوت

١ـ «أُصول الكافي» ج ٢، ص ٦١٣، كتاب فضل القرآن، طبعة المطبعة الحيدريّة.

٢ـ «أُصول الكافي» ج ٢، ص ٦٠٠.

القرآن» من دورة **أنوار الملكوت** ، من دورة العلوم والمعارف الإسلاميّة صباح يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شهر ربيع الثاني لسنة ألف وأربعمائة وعشرة هجريّة قمريّة على يد الحقير الفقير المسكين المستكين إلى الله : السيّد محمّد الحسين الحسينيّ الطهرانيّ في بلدة المشهد الرضويّ المقدّسة على ثاويها آلاف التحيّة والإكرام . وله الحمد في الأُولى والآخرة ، وآخر دعوانا أن الحمد للّه ربّ العالمين ، وصلّى الله على سيّدنا ونبيّنا محمّدٍ وعلى آله الطيّبين الطاهرين ، ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين .